الأندلس

في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين
عصر الطوائف الثاني

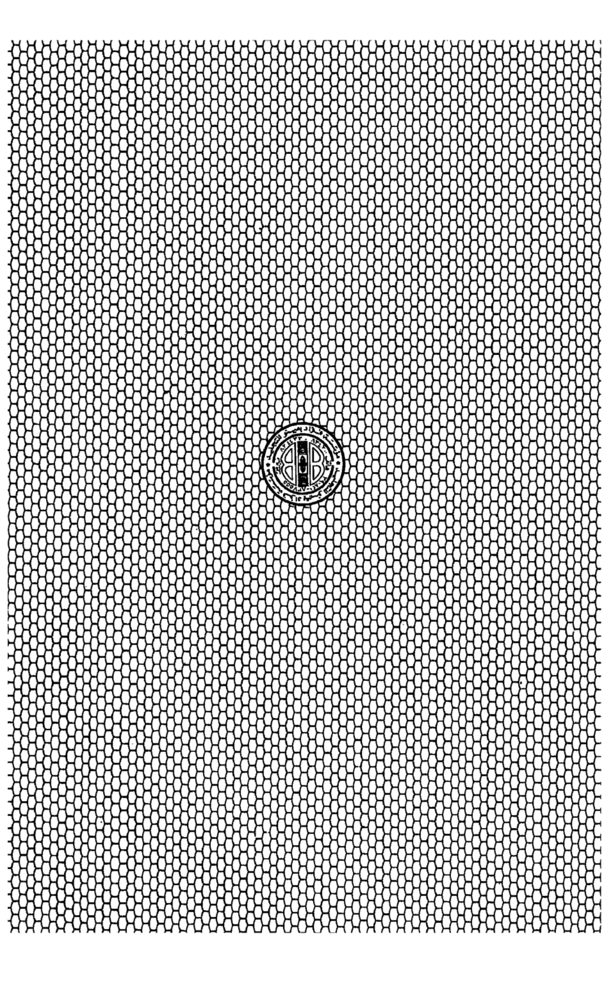
510 هـ: 546 هـ / 1116 م: 1151 م

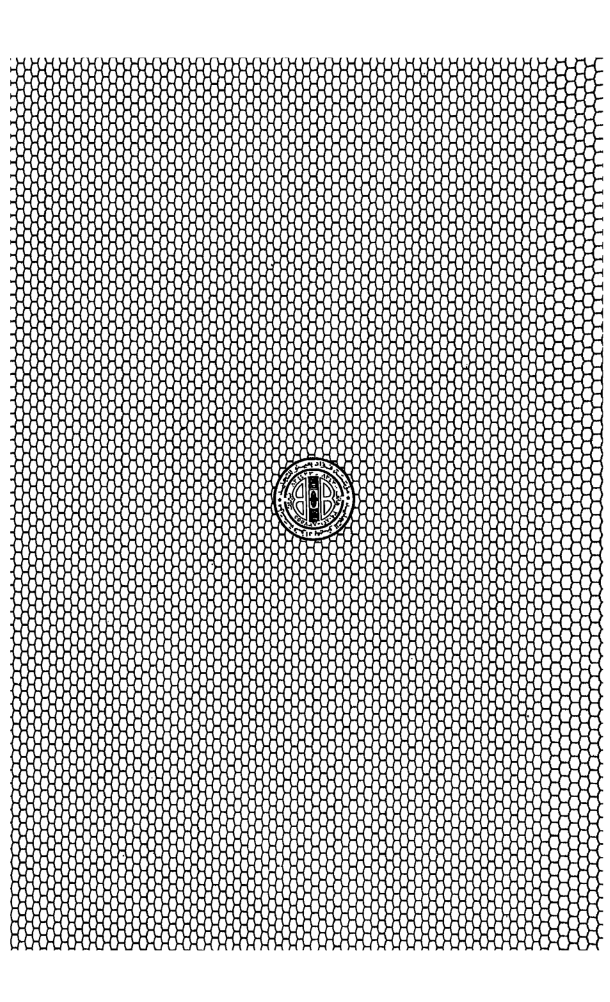
تاريخ سياسي وحضارة

الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش
أستاذة التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة محمد الخامس











الأندلس

في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين

عصر الطوائف الثاني

الأندلس

في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين
عصر الطوائف الثاني

510 هـ : 546 هـ / 1116 م : 1151 م

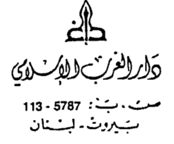
تاريخ سياسي وحضارة

الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش
أستاذة التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة محمد الخامس



الطبعة الأولى

1408 – 1988



بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي

صدق الله العظيم



إهداء

إلى روح الأخ الشهيد عاصم

إلى الأحباء الذين رحلوا دون وداع

إلى كل امرأة اغرقتها الحياة في مسئولية

الأم ... الزوجة ... ربة البيت ... العاملة ... الباحثة

إلى كل الأبناء

جيل المعاناة والتحدي

أم يحيى والشيماء



مقدمة البحث

حظى عصر المرابطين في السنوات الأخيرة باهتمام عدد من الباحثين سواء في التاريخ[1] أو الأدب[2]، ولكن الرائد الأول في اقتحام هذا المجهول كان أستاذنا الدكتور حسن أحمد محمود عندما قدم رسالته لنيل درجة الدكتوراه سنة 1953، عن «قيام دولة المرابطين» وكان له فضل توجيه عدد من الباحثين إلى كشف وإماطة اللثام عن حقيقة دور هذه الدولة المجاهدة. وكان لي الشرف الكبير عندما وجهني في رسالة الماجستير لاقتحام حقبة مظلمة وهي «دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا» أو ما يعرف في ذلك الوقت بأرض السودان. فكانت الخطوة لكي أغوص في أعماق حقيقة هؤلاء المجاهدين الذين كانوا أقرب إلى الزهاد والمتبتلين منهم إلى الملوك، فكانت لهم أيادٍ بيضاء على إفريقيا جنوبي الصحراء لما أنشأوه من مراكز ثقافية عن طريقها انتشرت التعاليم الإسلامية والثقافة العربية.

لذلك اتجه تفكيري إلى فترة أشد غموضاً وتعقيداً في تاريخ المرابطين، وهي الفترة الحرجة من أخريات أيامهم في الأندلس والفترة التي أعقبت سقوطهم، أو ما نحاول أن نسميه بعصر الطوائف الثاني، بعد أن قامت جماعة ممن ادعوا التصوف والزهد على المرابطين قبيل مقتل الأمير تاشفين بن علي بأشهر معدودة، وانتهز الفرصة مجموعة من القضاة، وثبوا على الحكم واستقل كل منهم ببلد، وعادت

---

(1) أحمد مختار العبادي، حسن أحمد محمود حسن علي حسن، حسين مؤنس، محمد عبد الهادي شعيرة محمود علي مكي، محمد عبد الله عنان، منى حسن أحمد محمود. عز الدين موسى - عصمت دندش، خليل إبراهيم السامرائي.

(2) إحسان عباس، حازم عبد الله خضر، محمد مجيد السعيد، مصطفى الزباغ، فاطمة طحطاح.

الأندلس إلى ما كانت عليه بعد سقوط الخلافة بل وأسوأ.

ولقد أشار الأستاذ الدكتور محمود إسماعيل بأن يشمل البحث الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لهذه المرحلة بجانب الأهداف السياسية والثقافية على أساس أنها كل لا يتجزأ فكان لهذا الرأي الثاقب أبعاده في كشف الكثير من الغموض، ودحض العديد من الأكاذيب التي وصمت فترة من أهم مراحل التاريخ الإسلامي في الأندلس بالكثير من الافتراءات.

كان لمحاولة دوزي[3] بتعصبه الأعمى هدم المرابطين كدولة وحكومة، وأن ينتقص من أمراء المرابطين ويرميهم بكل نقيصة. أن انبرى العالم الكبير فرانثيسكو كوديرا[4] فصحح الكثير من تلك الادعاءات في كتابه الصغير القيم اضمحلال المرابطين، ونقد آراء دوزي بقوله: «لقد صيغت أحكام قاطعة ومجحفة بالنسبة لحكم المرابطين، ولما كنا نعتقد أنه لا مبرر لهذه الأحكام بالرغم من مكانة دوزي العظيمة الذي حذا حذوه معظم الكتاب المتأخرين، فإننا نعتقد أنه يجب علينا أن نقول شيئاً من عندنا، لأنه إذا كان العلاّمة دوزي يستند في أقواله على ما يبدو إلى وقائع مأخوذة من بعض الكتاب المسلمين والنصارى فإني أشعر أنه متحامل كثيراً وهذا يعود بالأخص إلى تعصبه ضد رجال الدين وإلى تطبيق هذا التعصب بالنسبة للأمة الإسلامية، وإلى ميله الواضح إلى التعميم، وإلى أن يستخرج النتائج بالاستناد إلى قليل من الوقائع».

وتأثر أشباخ بكثير من آراء دوزي، وتبعهما بعض المحدثين العرب الذين أنجزوا درجاتهم العلمية في الآداب بإسبانيا[5] فانساقوا وراء هذه الآراء الظالمة، ولم يحاولوا أن يكلفوا أنفسهم مشقة بحث الموضوع في تجرد وموضوعية.

ولحسن الحظ تم العثور على بعض المصادر الجديدة التي أعطت بصيصاً من

---

(3) Dozy, R. Histoire des Musulmain d'Espagne.

(4) Codern, F., Decadencia y Desaparicion de les Almoravides en Espane.

(5) ـ د. حازم عبد الله خضر: النثر الأندلسي في عهد الطوائف والمرابطين.
د. محمد مجيب السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين.
د. حكمت علي الأوسي: الأدب الأندلسي في عهد الموحدين.

الضوء، مثل الرسائل المرابطية التي نشرها الأستاذ الدكتور حسين مؤنس[6] بعنوان «نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، وبرغم أن بعض هذه الرسائل قد أشكلت على أستاذنا ـ وقد بينت ذلك في هوامش الكتاب في المواضع التي استعنت بها ـ فإن هذه النصوص تعتبر من المصادر المهمة عن فترة الانتقال بين المرابطين إلى الموحدين.

وقامَ أستاذنا الدكتور محمود علي مكي بجهد كبير في نشر مجموعة وثائق لا بأس بها، عني بدراستها، دراسة علمية متفحصة ونشرها بعنوان «وثائق جديدة من عهد المرابطين»[7] وهذه الرسائل تعتبر من المصادر المهمة التي وضحت الكثير من النواحي الإدارية والاجتماعية في عصر المرابطين.

ومن المصادر المهمة التي اعتمدت عليها كتاب «أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين» للبيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي)، ومع أن المصادر لم تذكر شيئاً عن حياة البيذق، إلا أنه على ما يبدو كان يعيش بتونس، ففي هذه المدينة التقى مع المهدي بن تومرت، وانخرط في سلك الطلاب الذين التفوا حوله، يستمعون إلى دروسه، كما كان من أتباع المهدي المخلصين للدعوة ويقوم بخدمته، ويحمل أمتعته، ويقود بغلته،وكتابه تكثر به الأخطاء النحوية وركاكة الأسلوب، مما يدل على أنه لم يتحصل من العلم إلا على القليل، ولا يخلو كتابه من المبالغة، والتهويل، وإلصاق الكثير من الخوارق والمعجزات إلى ابن تومرت منذ عودته مع المرابطين إلى آخر عهد عبد المؤمن بن علي. ورغم ذلك فهو كتاب قيم من الناحية التاريخية، وترجع أهميته إلى الدقة والتفصيل فيما يتعلق بالأخبار التي تضمنته، فضلاً عن أن مؤلفه شارك بنفسه في صنع الكثير من الوقائع التي وصفها، مما يكشف جوانب كثيرة غامضة في حياة ابن تومرت وسلوكه وسلوك أنصاره وحقيقة دعوته، كما يلقي الضوء على تنظيمات ومراحل الصراع بين ابن تومرت والمرابطين.

وكتاب «تاريخ المنّ بالإمامة على المستضعفين» لابن صاحب الصلاة والذي يقع في ثلاثة أجزاء، فقد الجزء الأول والثالث، بينما بقي السفر الثاني الذي حققه د.

---

(6) مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد. العدد الثالث ـ 1955.

(7) المرجع السابق ـ سنة 1959.

عبد الهادي التازي، وعالج هذا السفر فترة هامة من سنة 554 :569 هـ (1159 :1173 م) وترجع أهمية هذا الكتاب لأن صاحبه كان معاصراً لأحداث هذه المرحلة التاريخية، وشاهد عيان لكثير من الأحداث، ونظراً لقيمته التاريخية، كان مرجعاً لمعظم المؤرخين المتقدمين والمتأخرين مثل ابن القطان في «نظم الجمان»، وابن عذاري في «البيان المغرب»، وابن الأبار في «الحلة السيراء»، و«التكلمة»، وابن عبد الملك المراكشي في كتابه «الذيل والتكملة»، وابن الخطيب في «الإحاطة» وصاحب الحلل الموشية وابن أبي زرع في كتابه «روض القرطاس» وغيرهم.

وهذا الكتاب لا يعد مصدراً تاريخياً لعصر الموحدين وصراعهم مع المرابطين فحسب، بل يعد وثيقة هامة تدل على أن الحياة الفكرية والأدبية كانت مزدهرة في عصر المرابطين، إذ أن ما يحويه الكتاب من منظوم ومنثور في بداية عصر الموحدين لدليل قاطع على خطأ الاتهامات التي دمغت حكم المرابطين ووصفته بالتخلف، فهؤلاء الشعراء والأدباء والعلماء الذين ساروا في ركاب عبد المؤمن، ما هم إلا من إفراز عصر المرابطين.

أما كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، فقد صنفه المراكشي الذي خدم الأمير إبراهيم بن يعقوب المنصور عندما كان والياً على إشبيلية، وخرج عبد الواحد المراكشي من الأندلس في ظروف لم يبينها ولم تكشف المصادر عنها، فاتجه إلى المشرق، واتصل بوزير الناصر العباسي ببغداد الذي كلفه بتأليف كتابه هذا. وكتاب المعجب من المصادر المهمة لأن المراكشي كتبه بعيداً عن المؤثرات التي كثيراً ما تضلل أفهام المؤرخين، فتصرفهم عن الحقيقة لرغبة أو رهبة، وبرغم اختصار الكتاب وإيجازه لكثير من الأحداث، إلا أنه مفيد في كثير من النواحي وخاصة ما يتعلق بالجوانب السياسية.

ويعتبر كتاب «الحلل الموشية» على صغر حجمه من المصادر المهمة المعينة على البحث في تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، بل تتعداهما ليلم بشكل موجز بتاريخ دولة بني مرين، وظروف قيامها والملوك الذين تعاقبوا على حكمها، وما قاموا به من مساعدات لدولة بني الأحمر وجهادهم في الأندلس، وأهمية هذا المصدر تكمن في اعتماده على مصادر أصبحت في حكم المفقودة، مثل كتاب الصيرفي «الأنوار الجلية

في أخبار الدولة المرابطية» ومؤلف الحلل الموشية اعتمد عليه في فقرات كثيرة مهمة عن المرابطين.

والقطعة المنشورة من كتاب «نظم الجمان» التي عثر عليها لمؤلفه أبي محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامي المعروف بابن القطان من الأهمية بمكان، وذلك للمركز الذي كان يتولاه مؤلفه ووالده ابن القطان إذ كان على رأس طلبة العلم بمراكش، ومتصلاً بملوك الدولة الموحدية، ومن المعلوم أن الطلبة كانوا من أهم دعائم الدعوة الموحدية في تنظيم الدولة منذ أن اختط محمد بن تومرت ذلك التنظيم. وابن القطان برئاسته للطلبة يعد من أكبر دعاة الموحدين المتحمسين لمبادئهم الدينية والسياسية، وإن كان الكتاب في جملته مذهبي الطابع، يتعصب مؤلفه لدعوة الموحدين ودولتهم أشد التعصب، ويحاول ستر عيوبهم وتبرير أعمالهم، ويصل في ذلك إلى حد الملق الرخيص ومجافاة الحقائق في كثير من الأمور ويهاجم المرابطين وينكر عليهم ما قدموه للإسلام في المغرب والأندلس من أيادٍ بيضاء، وينسب إلى ابن تومرت وعبد المؤمن أخباراً وتنبؤات مختلفة وموضوعة، وعلى كل فإن القطعة المنشورة والتي حققها الدكتور محمود مكي تعد على جانب كبير من الأهمية إذ أنها تحوي معلومات يكاد ينفرد بها.

فضلاً عن أنه كان يعبر عن وجهة النظر الموحدية إلى حد كبير، وإن لم يحل ذلك دون إثباته للكثير من الوقائع والأحداث.

«والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» لابن عذارى المراكشي يعد من أهم المصادر في تاريخ المغرب والأندلس، وهو يتضمن أخباراً من تاريخ الفتح، والجزء الذي يهمنا هو الجزء الثالث والرابع. والجزء الثالث الخاص بالموحدين نشر أخيراً هذا العام 1986 بمعرفة مجموعة من الأساتذة المغاربة بعد أن ضمت إليه الأوراق التي عثر عليها الأستاذ عبد القادر زمامة والتي نشرها من قبل[8]. وأهمية الأوراق التي أضيفت أنها تتعرض لفترة مهمة في آخر عهد المرابطين، وتشتمل على معلومات دقيقة عن الأيام الأولى لعمل الموحدين في الأندلس وحركة بعض الثوار ومبايعتهم للموحدين، واعتمد فيها ابن عذارى على كتاب ابن صاحب الصلاة المفقود

(8) مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية - بمدريد. سنة 1980.

«ثورة المريدين» ويعتبر ابن عذارى من أكثر مؤرخي الغرب الإسلامي دقة ونزاهة وموضوعية.

وتعتبر مؤلفات ابن الأبار «أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي» 595 :658 هـ (1198 :1259 م) من المصادر عظيمة الفائدة والقيمة فكتاب «الحلة السيراء» يتعرض لثوار الأندلس من مريدين وفقهاء وقضاة وشعراء وغيرهم واعتمد فيه على معلومات من كتاب ابن صاحب الصلاة المفقود «ثورة المريدين» وهو في كتابته يدل على أنه عالم متمكن ذو ملكة واعية في فهم التاريخ وبحثه.

وكتابه الثاني «المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي» تظهر فيه دقته في ذكر الأسماء وتواريخ الميلاد، وتعداد الشيوخ، وتوجد به 315 ترجمة.

ومؤلفه الثالث «التكملة» يتعرض فيه للتراجم التي لم يذكرها ابن بشكوال في صلته بالإضافة إلى التراجم التي كانت معاصرة له.

وكتب التراجم تظهر أهميتها في التعريف بأسماء العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء مما يقدم مادة طيبة أفادت في التأريخ للحركة الثقافية وبعض الأحداث السياسية، فضلاً عن قيمتها في إلقاء أضواء مبهرة على الجوانب الاجتماعية التي تبخل بها الحوليات السياسية، كما أوضحت كثيراً من الأمور التي قوضت الآراء التي قيلت ضد المرابطين.

أما مؤلفات ابن الخطيب فهي من المصادر التي لا يستغني عنها كل من يهتم بتاريخ المغرب والأندلس مثل «أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام»، «الإحاطة في أخبار غرناطة»، و«معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار»، و«رقم الحلل في نظم الدول»، فهذه المصادر تمد الباحث بالكثير من المعلومات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وإن وجبت الإشارة إلى التحفظ في الإفادة مما تضمنته من مادة غزيرة في بعض الأحيان.

وديوان ابن قزمان الزجال المعروف يعرف بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الفترة ما بين المرابطين والموحدين، ومع أنه كتب بعامية أهل الأندلس، فهذا لا يقلل من قيمته، وكان الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني قد قام بدراسة قيمة ومجهود كبير في شرح عدد من أزجال ابن قزمان، ثم نشر المستشرق الدكتور

ف. كورينطي الديوان كاملاً وصدر عن المعهد الإسباني بمدريد سنة 1980 إلا أن هذا الديوان ما زال يحتاج إلى دراسة معمقة وشروح وافية لإماطة اللثام عن فترة هامة في تاريخ الأندلس.

واستعنت بكتاب الأمثال العامية للزجالي للإفادة به في هذه الجوانب، ولم أغفل كتب الفقه والنوازل سواء منها المخطوطة أو المطبوعة، فنهلت منها الكثير لإلقاء الضوء على الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية مثل كتب ابن العربي «أحكام القرآن» و «العواصم من القواصم»، ونوازل وفتاوى ابن رشد وابن سهل والونشريسي التي تعد حجر الزاوية لكتابة تاريخ الأندلس الاقتصادي والاجتماعي إلى جانب إلقاء أضواء ورؤية جديدة عن الوقائع السياسية.

كما اعتمدت على كتب الحسبة للسقطي وابن عبدون وابن عبد الرؤوف والجرسيفي لكشف الغموض حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

ويعتبر كتاب الشريف الإدريسي نزهة المشتاق الجزء الخاص بالأندلس من المصادر المهمة لأنه كان معاصراً للفترة التي تهمنا في البحث، فمن خلاله اعتمدنا على التخطيط للطرق التجارية والمدن الصناعية والمناطق الزراعية والرعوية مما سهل الكثير في رسم الخرائط.

وكان مخطوط رسائل ابن العريف «مفتاح السعادة وتحقيق طريق الإرادة» من الكتب المهمة التي أفادت في تصحيح كثير من الأخطاء عن المريدين وحركتهم خصوصاً وأن كل الكتب التي ألفت عن المريدين مفقودة مثل كتاب ابن صاحب الصلاة المذكور، وكتاب السالمي «الفتنة الكائنة على اللمتونيين بالأندلس سنة أربعين وما يليها قبلها وبعدها» وكتابه الثاني «عبرة العبر وعجائب القدر في ذكر الفتن الأندلسية والعدوية بعد فساد الدولة المرابطية «وكتاب المؤرخ أبو عمرو بن علي الغرناطي[9] في تاريخ الفتنة التي انقرضت بها دولة الملثمين».

وأما كتاب ابن العربي «سراج المريدين» وهو ما زال مخطوطاً أيضاً فيعرف بمرحلة مميزة ومهمة في حياة العالم الفقيه أبي بكر بن العربي، والتي كانت انعكاساً لأحداث المغرب والأندلس.

(9) ابن سعيد: المغرب / جـ 2، رقم 433، ص 118.

كما أن أرجوزة الإمام أبي الحجاج يوسف بن موسى الضرير في علم الكلام تدلل على فساد الرأي القائل بأن المرابطين حاربوا هذا العلم، ويعزز ذلك فتاوى الفقيه أبي الوليد بن رشد التي ما زالت هي الأخرى مخطوطة.

ولم أهمل أبحاث المستشرقين على الأقل فيما يتعلق بالرأي القائل بأن المرابطين وقفوا في وجه التقدم الفكري، وتصحيح كثير من المفاهيم، وفي هذا الصدد نذكر أسماء دوزي[10]، وأشباح[11]، وليفي بروفنسال[12]، وبوش فيلا[13]، وجارسيا دي كورتازار[14] وجاسبار رميروا[15]، وسيمونت[16]، ولافونتي[17]، وكوديرا[18] وغيرهم.

وبنفس المنظور أفدت من أبحاث المؤرخين والمفكرين المشارقة والمغاربة على السواء، وأنوه بكتابات الأساتذة الدكاترة: حسن أحمد محمود، حسين مؤنس، محمود مكي، محمد بنشريفة، عبد الهادي التازي، والأساتذة: محمد عبد الله عنان، عبد الله كنون وغيرهم.

وبفضل هذه المادة المتنوعة عولت على الإفادة منها في خدمة موضوع البحث الذي قسمته إلى أربعة أبواب: -

فالباب الأول وعنوانه الحياة السياسية في الفترة ما بين 520 - 546 هـ، تناولت في الفصل الأول منه أسباب ضعف المرابطين والآراء التي قيلت في هذه الأسباب، وبينت أن معظمها يتسم بالتحامل، وتوصلت إلى أسابب جديدة تفسر ضعف المرابطين وبالتالي تفيد في الكشف عن أسباب ظهور الموحدين. والفصل الثاني

---

(10) Dozy, R. Spanish Islam and Recherches.

(11) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان.

(12) Lévi Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane.

(13) Bosch, Villa, I. Les Almoravides.

(14) Garcia de Cortazar, Nueva Historia de Espana.

(15) Gaspar Remiro, Historia de Murcia Musulmana.

(16) Simonet, F. Historia de los Mozarabes.

(17) Lafuente M., Historia general de Espana.

(18) Codera, F. Dacadencia y Desaparicion de les Almoravides.

تتبعت حركة المريدين في آخر عهد المرابطين واتجاهاتهم الفكرية وكيف تحولت الحركة الصوفية إلى ثورة مسلحة، انتهزها بعض القضاء للقيام على المرابطين والانتزاء بالمدن.

والفصل الثالث تعرض للموحدين الأوائل بالأندلس بعد فشل الثورة الأولى وافتقارهم في إقامة كيان سياسي في البلاد.

وتناول الفصل الرابع نظم الحكم في الأندلس في هذه المرحلة سواء بالنسبة للمرابطين أو الثوار أو الموحدين.

أما الباب الثاني فيحمل عنوان الحياة الاقتصادية وقسمته إلى أربعة فصول أيضاً هي:

1 ـ وضعية الأرض الزراعية والزراعة والرعي.
2 ـ الصناعة وأنواعها.
3 ـ التجارة.
4 ـ النظم المالية.

وقد تتبعت كل قوى الإنتاج في مراحل تطورها أو نكوصها موضحة أسباب ذلك في الحالين معاً، فضلاً عن القيام برصد مظاهر النشاط الاقتصادي بما يوضح ارتباطها بالسياسة العامة لكل من المرابطين الأواخر والموحدين الأوائل.

وفي الفصل الرابع الخاص بالنظم المالية تعرضت لواردات الدولة ومصروفاتها والخدمات العامة والضرائب الشرعية وغيرها من تعتيب وقبالات غير شرعية، وبينت العملة المتداولة ودور السكة ومراقبة سوق الصرف.

أما الباب الثالث فقد خصص للحياة الاجتماعية:

ـ تناول الفصل الأول فيه عناصر السكان من عرب ومولدين وأهل ذمة وبربر وغيرهم، وبينت أن هذه العناصر امتزجت تقريباً عند دخول المرابطين حتى عرفت باسم الأندلسيين.

ـ وفي الفصل الثاني تعرضت لطبقات المجتمع وطوائفه من طبقة حاكمة وفقهاء

وخاصة ومتوسطة وعامة وعبيد أو غير ذلك ومن الطوائف تعرضت للصوفية أو ما يعرف بالفقراء في الغرب الإسلامي.

- والفصل الثالث حاولنا توضيح أحوال البوادي والقرى، ومن خلال النصوص توصلنا إلى أنه لم توجد بوادي أو قرى بالمعنى الموجود في المشرق فمعظم القرى كانت شبيهة بالمدن انتسب إليها عدد كبير من علماء الأندلس كما أشار ابن خلدون إلى صعوبة تطبيق مفهوم البادية والقرية على الأندلس.
- والفصل الرابع: فعن مظاهر الحياة الاجتماعية عن المرأة المرابطية والأندلسية والملابس والمنازل والأعياد والاحتفالات العامة والخاصة والطعام وأماكن اللهو والنزهة وولع الأندلسيين بالطرب والغناء والشراب وغير ذلك.

وكرست الباب الرابع لدراسة الحياة الثقافية..

- تعرضت في الفصل الأول منه للتيارات الفكرية من فقهية وكلامية وصوفية.
- وفي الفصل الثاني بينت مراكز الثقافة التي انتشرت في أنحاء الأندلس، وكذا معاهد العلم وطرق التعليم ومناهجه والأساتذة والمكتبات وتعليم المرأة إلى غير ذلك.
- وعرضت في الفصل الثالث للعلوم الدينية من فقه وقراءات وتفسير وحديث، كما بينت ما أصاب علم الكلام من نشاط.
- وخصصت الفصل الرابع للعلوم العقلية من فلسفة وطب ورياضيات وهندسة وعلوم فلاحية وموسيقى وعمارة.

وتناول الفصل الخامس الآداب فتعرضت فيه لعلم الأدب والشعر والموشحات والزجل والتاريخ والجغرافيا.

وفي الختام أوجزت النتائج التي توصلت إليها من خلال الدراسة.

وهذا الكتاب في الأصل رسالة جامعية قدمت إلى كلية الآداب جامعة عين شمس لنيل درجة الدكتوراه، وحازت مرتبة الشرف الأولى. غير أن ما يجده القارىء في هذا الكتاب إنما هو صورة معدلة من الرسالة أضفت إليها ما اطلعت عليه فيما بعد في بعض المصادر والكتب كما أن بها استدراكات وإضافات نبهني إليها أساتذتي أعضاء لجنة المناقشة والتي أفدت منها كثيراً، وأغنت البحث. فوجب علي أن أشكرهم وهم الأساتذة الدكاترة: حسن أحمد محمود، محمود إسماعيل، عصام

عبد الرؤوف فلهؤلاء جميعاً تقدير العارف بفضلهم المستفيد من علمهم.

كما أشكر الأستاذ الدكتور محمد بنشريفة، والدكتور محمد حجي والأستاذ إبراهيم الكتاني، وكل من ساهم من قريب أو بعيد لإخراج هذا الجهد المتواضع.

وبعد.

فإن تكن إصابة فتوفيق من الله سبحانه، وإن يكن تقصير فقد اجتهدت، والله شاهدي.



البَابُ الأوّل

الحيَاةُ السيَاسِيّة

الفصل الأول : ضعف المرابطين.
الفصل الثاني : الثورة على المرابطين.
الفصل الثالث : الموحدون الأوائل بالأندلس.
الفصل الرابع : نظم الحكم.



الفصل الأوّل

ضعف المرابطين

مناقشة أسباب ضعف المرابطين من خلال كتاب المعجب للمراكشي وتصحيح معظمها.

الأسباب التي عجلت بسقوط المرابطين. سحب عدد كبير من قوات المرابطين بالأندلس إلى المغرب ـ اضطراب الإدارة بعد وفاة الأمير علي بن يوسف. الخلاف بين قبائل المرابطين ـ تصرفات بعض الفقهاء والقضاة ـ التسامح الشديد في الضرب على أيدي مثيري الفتن ـ استغلال ابن تومرت العداء القديم لقبائل مصمودة وصنهاجة ـ الضرائب التي فرضها المرابطون في آخر أيامهم والتعسف في جبايتها ـ استغلال ابن تومرت حرق الإحياء للغزالي ـ نجاح ابن تومرت شجع أمثاله بالأندلس ـ تسامح الأمير علي بن يوسف مع حركة المريدين المتطرفة ـ فساد بعض عمال المرابطين ـ سوء اختيار بعض القضاة لأعوانهم ـ عجز المرابطين في أخريات أيامهم عن القيام بعبء الدفاع عن الأندلس ـ تدهور الأوضاع الاقتصادية وتأخر الأحوال الزراعية بسبب الجفاف والمجاعات وثورة المهدي ـ تغير الأوضاع في الممالك النصرانية وتوحد قيادتها.



انحصرت أسباب تدهور حال المرابطين والثورة عليهم كما ذكرها صاحب المعجب[1]، في غلظة يوسف بن تاشفين وجهله، ولين علي بن يوسف وعجزه عن القيام بشؤون الدولة وفظاظة جند المرابطين وجفاء مظهرهم، وتراميهم على خيرات الأندلس، وغلبة النساء على أمور الدولة، وتسلط الفقهاء على مقاليد الأمور، مما تسبب في ضياع أمرهم وذهاب سلطانهم.

لم يكن تسلط الفقهاء جديداً على الأندلس، فمن المسلم به أن الفقهاء تمتعوا بمركز ممتاز في عصري الإمارة والخلافة الأموية، فكان أمراء وخلفاء بني أمية يستشيرونهم في شؤون الدنيا والدين، وكان رجال مثل يحيى بن يحيى الليثي (ت 234 هـ/ 847 م) وبقي بن مخلد (ت 276 هـ/ 1189 م)، ومنذر بن سعيد البلوطي (ت 355 هـ/970 م) يحتلون أرفع مكان[2]، وكان الأندلسيون ينفرون من الفقهاء بسبب

(1) عبد الواحد المراكشي: المعجب. ص 177.

(2) كان كل منهم يرأس هيئة من الفقهاء يسمون بالفقهاء المشاورين، وكان على القضاة أن يستشيروهم فيما يستشكل عليهم من الأمور الفقهية، كما كان القضاة يبعثون إليهم بالمسائل والنوازل فيفتون بما يرون، وكان من حق أولئك المشاورين حضور مجالس القضاة في العاصمة، وقواعد الكور ليروا كيف يقضون بين الناس. ولم يكن عددهم محدوداً، وإنما كان الأمير أو الخليفة يعين من يصلح منهم بعد استشارة رئيسهم الذي يسمى «الشيخ الرئيس» ونظراً للمكانة التي يتمتع بها هؤلاء فقد أطلق عليهم لقب «رأس البلد».

انظر..

د. حسين مؤنس: شيوخ الأندلس - الحلة السيراء، جـ 2، هامش 1، ص 202.

سبع وثائق جديدة، مجلة المعهد المصري - مجلد 2 - سنة 1954، ص 70، 17.

Lévi Provencal, Histoire de l'Espagne Musulmane, III, pp. 127 - 128.

تعصبهم للمذهب المالكي، وتشددهم في تطبيقه، وأهل الأندلس شعب متقلب لا يطيق السلطان، ولا يخضع للحكام إلا مرغماً، فكثرت شكاواهم من الفقهاء وسخريتهم منهم، و «تاريخ قضاة قرطبة» للخشني، و «المرقبة العليا» للنباهي حافلان بطرائف من معابثات الأندلسيين للقضاة والفقهاء.

فلما انهارت الخلافة الأموية، وانتثر عقدها على رأس المائة الخامسة للهجرة، تنفس الناس الصعداء، وأمنوا سطوة الخلفاء الذين كانوا يحمون الفقهاء، ومن ثم فقد انقلب الناس عليهم، وأثخنوهم بالسخرية في كل مكان، ففقدوا مكانتهم الرفيعة، وانصرف معظمهم إلى التدريس، أو الكتابة والأدب، وما إلى ذلك من موارد الرزق.

وبدخول المرابطين الأندلس، استعاد الفقهاء نفوذهم، وعادوا إلى سابق سطوتهم وسلطانهم، بل لقد ازدادت ثرواتهم ونفوذهم عما كانوا عليه، فقد كان المرابطون قوماً متمسكين بالدين شديدي الإجلال لرجاله، ووجدوا في الأندلس بغيتهم من الفقهاء ذوي العلم الغزير، فرفعوهم إلى أرفع المناصب، وأصبح القضاة في بعض النواحي حكام الإقليم، وأصبح الفقيه المشاور حاكماً مدنياً إلى جانب القائد المرابطي الذي كان حاكماً عسكرياً.

كان المرابطون على المذهب المالكي، فانتصروا لفقهائه، وليس معنى هذا أنهم حاربوا المذاهب الأخرى، أو طاردوا معتنقيها، فالمذهب الظاهري كان يفرض وجوده وله مؤيدوه، ومعتنقوه، ذكر ابن العربي أنه حينما عاد من رحلته سنة 495 هـ (1101 م) إلى الأندلس وجده قد مليء بالمذهب الظاهري فيقول: «وكان أول بدعة لقيت في رحلتي كما قلت لكم القول بالباطن، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب، سخيف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم نشأ وتعلق بمذهب الشافعي، ثم انتسب إلى داود، ثم خلع الكل، واستقل بنفسه، وزعم أنه إمام الأمة، يضع ويرفع، ويحكم لنفسه، ويشرع، وينسب إلى دين الله ما ليس منه»[3].

غير أنه كان من بين أمراء المرابطين وحكامهم على النواحي نفر ممن تأثر بالبيئة الأندلسية لطول المقام بها، فأحاطوا أنفسهم بأهل الأدب والشعر، وأعرضوا عن

(3) ابن العربي: العواصم من القواصم، تحقيق د. عمار طالبي تحت عنوان آراء أبي بكر الكلامية، جـ1، ص 155.

الفقهاء مما أوجد نوعاً من المنافسة الخفية بين بعض قضاة النواحي وحكامها المرابطين، بلغت حد الشكوى في بعض الأحيان من تجاهل هؤلاء الحكام، وهناك وثيقة على جانب كبير من الأهمية تكشف عن شكاية لأحد هؤلاء القضاة. وهو أبو بكر محمد بن أسود قاضي قضاة الشرق الذي لم يحفل به الأمير الزبير بن عمر[4] والي غرناطة. ولم يظهر له من الإجلال والإكرام ما تعود عليه أمثاله من كبار الفقهاء أن يلقوه عند إلمامهم بالنواحي مما أغضب ابن أسود، مع أن منطقة غرناطة لم تكن تابعة لعمله، إذ أنها تابعة للموسطة، ولكن يبدو أنه كان في طريقه إلى قرطبة مقر إقامة أمير الأندلس الأمير تاشفين بن علي، فمر على غرناطة في طريقه، وقد انزعج ابن أسود من هذه اللامبالاة من الزبير فشكاه إلى الأمير تاشفين الذي بادر بالكتابة إليه يلومه على عدم احتفائه بالقاضي، وتقصيره في العناية بأمره فـ «كيف جاز أن يجتاز بكم الفقيه الأجل، القاضي الأعدل أبو بكر بن أسود، قاضي قضاة الشرق، وما بموضعه خفى، ولا باحتفاء الدولة العلية به احتفى، فتهاونتم بمثواه، ونمتم جميعاً عن قراه، كأنه قد مر منكم بفلاة، أو حط على رفات، وجاز على أقوام أموات». وقد اعتبر الأمير تاشفين هذا الأمر إثماً كبيراً يستحق عليه الزبير التأنيب «فلتعلموا مكان هذه الفعلة الفادحة، والفرطة الفاضحة»[5].

ولم تفلح الثورة الموحدية في إضعاف هذه السيطرة على الرغم من أنها جاءت في بداية أمرها ثورة على فقهاء المالكية، وما يمثلون فما أن استقرت دولة الموحدين حتى بدأ فقهاء المالكية بالتعاون مع عبد المؤمن، وتنظيم طلبة الحضر خير شاهد على ذلك.

---

(4) كان الأمير الزبير بن عمر من أبناء عمومة الأمير علي بن يوسف. وقد نشأ وتربى في بيئة أندلسية، فنشأ أديباً وشاعراً، تولى عمل غرناطة عندما كان الأمير تاشفين بن علي أميراً على الأندلس، وكانت قرطبة مقر إقامته، وعندما استدعى علي بن يوسف ابنه تاشفين إلى المغرب يوليه عهده، خلف الزبير على عمل قرطبة سنة 533 هـ (1138 م)، ثم ضمت إليه بجانب عمله على غرناطة وظل عليهما حتى استشهد في المعركة التي كانت بينه وبين مونيو ألفونسو قائد طليطلة المسيحي سنة 538 هـ (1143 م)، وكان له متنزه مشهور خارج قرطبة يعرف بمنية الزبير.

ابن القطان: نظم الجمان، ص 244، المقري، نفح الطيب، جـ 1، ص 471، 584، نفح الطيب، جـ 4، ص 489، 490.

(5) د. حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة، مجلة المعهد المصري بمدريد مجلد 2، سنة 1954، وثيقة 3، ص 70.

ومن الأسباب المهمة التي ذكرها المراكشي[6] في تدهور المرابطين، والتي اتخذها مهدي الموحدين ذريعة لمهاجمتهم سيطرة وتدخل النساء في أمور الحكم، «واستولى النساء على الأحوال، وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير، وقاطع سبيل، وصاحب خمر وماخور».

ولكن هذه الادعاءات والاتهامات لم ترد إلا في كتاب المعجب، وعبد الواحد المراكشي نشأ وخدم في البلاط الموحدي، فلا يخفى ما لهذه الاتهامات من أغراض دعائية لصالح الموحدين، والذي أثار ذلك الاتهام هو مؤسس دعوتهم، فقد استطاع مهدي الموحدين بذكاء ودهاء أن يشيع مثل هذه الاتهامات، فأتى ببعض الناس السذج من ناحية العقيدة، ورمى المرابطين بكل نقيصة، واعتبر انتساب بعض قادة المرابطين لأمهاتهم جرياً على عادة قبائل الملثمين نقيصة، وأن معناه غلبة النساء على الأحوال والأمور، والناس على استعداد لفتح الآذان، وسماع حلو الأكاذيب وفضائح الآمنين، ولكثرة ترديد هذه الترهات اختلطت الحقائق بالأكاذيب.

ولكن إذا كانت النساء المرابطيات غالبات فعلاً على أمور الدولة، أليس غريباً ألا يذكر اسم إحداهن؟ وتغفل كتب التراجم والتاريخ ودواوين الشعر هذا الأمر؟. خاصة إذا كانت «مشتملة على كل مفسد وشرير، وقاطع سبيل، وصاحب خمر وماخور» - إن المصادر التي بين أيدينا لم تذكر إلا نساء فاضلات، تعد أسمائهن على أصابع اليد[7].

الأكثر غرابة أن تمر مثل هذه الأمور على شعراء الهجاء الذين لم يجدوا نقيصة إلا ألصقوها بالمرابطين دون أن تصادر أشعارهم أو تصفى أجسادهم، أو يتعرضوا لما كان يعرف عند الموحدين بالتمييز.

---

(6) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 177.

(7) كانت زينب التفزاويـة زوجة يوسف بن تاشفين التي وصفت بأنها امرأة حازمة لبيبة ذات رأي وعقل وجزالة ومعرفة بالأمور.

ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 134، 135.

وهناك زينب بنت إبراهيم بن تيفلويت زوج أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين وُصفت بأنها كانت من أهل الخير والتصاون والنوافل والصدقات.

ابن الأبار: التكملة، رقم 2876 (كرديرا).

أليس غريباً ألا تنتشر أسماء هؤلاء النساء بين المجتمع الأندلسي الذي يملك اللسان الحاد اللاذع. لقد تناقلت الألسن المجالس الصاخبة لنزهون القلاعية[8]، وحفصة الركونية[9] وتندر الرجال والنساء في الأندلس بهذه المجالس، وحفظوا أشعارهن، فما المانع إذاً من تناقل فضائح المرابطيات إذا كانت هناك مثل هذه الفضائح فعلاً؟.. والمجتمع شره في أن يلوك مثل هذه الأمور، ويتلذذ بمعاودتها، وإضافة الكثير إليها، خاصة إذا كانت تتعلق بنساء السلطة.

وكانت هناك أميرات مرابطيات شاعرات لهن مجالسهن الأدبية[10]، ومع ذلك لم يذكر عنهن إلا الاحترام والإجلال، بل لقد تغير شعر الغزل في المرأة، فبعد أن كان غزلاً مكشوفاً يمتهن كرامة المرأة وجمالها، أصبح غزلاً رقيقاً لا يحمل إلا الشفافية والصدق، وانحصر مدح الشعراء لنساء المرابطين، أو رثائهن، في وصفهن بالكرم، وتمسكهن بالدين والعفة، وكثرة تلاوة القرآن[11].

فلو كان ما ذكره المراكشي صحيحاً، لكان فرصة سانحة لشعراء أو كتاب ناقمين على المرابطين، للتعريض بنسائهم ورجالهم، سواء في مجالسهم الخاصة أو العامة، دون خشية، فإنهم لم يتورعـوا عن اللمز في كل فرصة تسنح لهم، حتى كتاب أمير المسلمين الذين تمرغوا في نعمه. كانوا لا يجدون فرصة للسخرية من المرابطين إلا انتهزوها ووصفوهم بأقذع الألفاظ، ولا يجدون مناسبة للوخز والازدراء بالمرابطين من طرف خفي إلا وأدلوا فيها بدلوهم، ومثل هذه الوخزات من الكتاب الأندلسيين كثيرة،

(8) المقري: المصدر السابق، جـ 1، ص 176، 192، 193، جـ 4، ص 295: 298.

(9) المصدر السابق، جـ 4، ص 171: 185.

(10) كانت هناك الحرة حواء بنت تاشفين أخو يوسف بن تاشفين لأمه وابن عمه، وكانت أديبة شاعرة جليلة ماهرة، ولها مجلس يضم الكتبة والشعراء، منهم ابن القصيرة، وابن المرخي وغيرهم.
ابن عذاري: المصدر السابق، جـ 4، ص 157.
وتميمة بنت يوسف بن تاشفين أخت الأمير علي بن يوسف، وتكنى أم طلحة، كانت كاملة الحسن، راجحة العقل، مشهورة بالآداب والكرم.
ابن الأبار: المصدر السابق، رقم 2875 (كوديرا)،
الحرة مريم زوجة الأمير أبي الطاهر تميم وكانت ممن تقوم على كثير من الخير وتحفظ جملة وافرة من الشعر وتحاضر بها وتثيب عليه.
ابن خفاجة: الديوان، رقم 52، ص 96.

(11) انظر ديوان ابن خفاجة وديوان الأعمى التطيلي.

ولو حدث هذا في دولة غير دولة المرابطين لكان مصيرهم التنكيل والقتل، ولكن سماحة المرابطين كانت تغمرهم، وكان العقاب مجرد الإبعاد عن وظيفة الكتابة[12].

وقد وصف المراكشي[13] علي بن يوسف بتغافله عن أحوال الرعية وضعفه، وبأنه قنع بوصول الخراج إليه، فعكف على العبادة تاركاً أمور المسلمين «قنع باسم إمرة المسلمين، وبما رجع إليه من الخراج، وعكف على التعبد والتبتل، فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال، فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس، وكادت تعود إلى حالها الأول، لا سيما منذ أن قامت دعوة ابن تومرت بالسوس».

وفي نفس الوقت يناقض المراكشي كلامه ويقول عن علي بن يوسف الذي وصفه بالغفلة وإهمال الرعية «فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد، وإخافة العدو، وحماية البلاد، وكان حسن السيرة، جيد الطوية، نزيه النفس، بعيداً عن الظلم، كان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين، واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمراً ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء»[14].

هذه شهادة المراكشي الموحدي المولد والنشأة، والذي عمل في خدمة أمراء الموحدين، فكيف يتفق هذا الرأي مع رأيه السابق؟ لقد اعتمد حكم المرابطين على الشورى، وظل هذا المبدأ إلى آخر عهدهم. فهل يعد هذا عيباً أو خطأً؟ وهل إذا كان الحاكم عابداً لله يخشى الظلم والإرهاب، ويتقي الله في نفسه ورعيته، يكون سبباً في ضعفه، أو يكون تكئة لاتهامه بالغفلة؟.

من خلال المصادر التي بين أدينا نتعرف على معالجة علي بن يوسف لبعض الأمور، فنجد فيها الحكمة والبعد عن الدموية التي اتصف بها حكم الموحدين. فالتعليمات التي كان يرسلها إلى أمراء المرابطين لا يفهم منها تغافله أو أن أحداً من

---

(12) انظر رسالة أبو مروان بن أبي الخصال إلى جند بلنسية (في المعجب ص 175، 176)، رسالة تاشفين إلى الزبير بن عمر (في سبع وثائق جديدة رقم 3 ص 70).

(13) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 177.

(14) المصدر السابق: ص 171.

هؤلاء الأمراء تعدى حدوده المرسومة له[15]، بل لم يستثـن حتى أبناءه[16] من العقاب إذا دعت الضرورة لذلك.

ومن الوثائق المهمة في هذا الشأن تلك الرسالة التي أرسلها علي بن يوسف إلى ابنه أبي بكر يقدمه فيها على جميع الجيوش في الأندلس ويأمر جميع عمالها بالسمع والطاعة له «وخاطبنا عمالك بالسمع منك والطاعة لك، وأن يطابق كل واحد منهم رأيك، ويوافق عملك»[17]. ويعرف ابنه عظم هذه المسؤولية، وأهمية تواجده في هذا المنصب، «واعلم قدر هذا الذي نطناه وعصبناه بنظرك فإنه عظيم جداً، ويتعين عليك أن تقدره حق قدره، وتستفرغ فيه جهداً وجداً، ووسع صدرك وابنِ على الصبر والأناة أمرك، واحتمل ما تكرهه، لتنال من مغبة ذلك ما تحمده ولا غاية بعد ما لدينا من تطلع وكيد إليك، وإن أمكنك أن تعرفنا مع الأيام، بالأنباء، فَصِلْ بـذلك معهـود الإحتفاء»[18].

وفي الرسائل الموجهة من الأمير علي بن يوسف إلى القضاة والولاة يطالبهم فيها بتفقد أحوال الرعية والتحقق من كل ما يقال، ويتسمع لشكاوى الناس، أيكون كما وصف غافلاً عن أحوال الرعية، أم ساهراً عليها؟ يقول الأمير علي بن يوسف لأحد قضاته «فتفقد ما قبلك حق تفقده، وتعهده أخص تعهده، فإنك إذا أمعنت التطلع، وأدمنت إلى جانب الرعية التلفت والتسمع، لم يشذ عن علمك ما يجري ببلدك، لاجتماعه وانحصاره، وتقارب ما بين مسافاته وأقطاره، وإن حقاً على الجار أن يفرج ضغطة جاره، فاستكشف ـ وفقك الله ـ الأحوال، وتعرف صورها، واستعلم مع الرعية شأن الرعية وخبرها، فكل ما رفعته إليك من أحوالها وتظلمت فيه من عمالها، أجريته مع الحق كيف جرى، وعممت بالنظر، ولم تخص قضية دون أخرى، فكل بك معصوب، وأنت عنه محاسب وبه مطلوب»[19].

(15) انظر ما حدث للأمير مزدلي، والأمير واجدي بن عمر بن سير.
ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 4، ص 80.

(16) انظر ما حدث لابن علي بن يوسف عمر يناله من سجن ومصادرة في:
ابن عذاري: المصدر السابق، جـ 4، ص 75.

(17) د. محمود مكي، وثائق جديدة، رقم 3، ص 170.

(18) المصدر السابق، والصفحة. .

(19) د. محمود مكي: المصدر السابق، وثيقة 4، ص 172.

وإذا كانت هذه الرسائل ديوانية فإننا نشتم منها حرص علي بن يوسف على ما يجري بين الرعية، واهتمامه بكل ما يصل إلى مسامعه من أخبار، ويجعل مهمة التحقق في كل ما يدور بين الناس إلى القاضي وأعوانه.

وينبغي أن نشير إلى أن هذه الرسائل لم تكن مجرد خطابات مرسلة إلى القضاة والعمال من قبل السلطان، بل كانت في نفس الوقت أشبه ببيانات رسمية تعلن على الرعية «ليقرأ الكتاب على الكافة بالمسجد، فإن فيه زجراً للمعتدين، وأخذاً فوق أيدي المفسدين وبلاغاً يحمله ويصيره الراكب، ويتلقاه عن الشاهد الغائب»[20].

أما الأمير تاشفين بن علي فيكرر أوامر أبيه إلى عماله وقضاته ويسير في نفس الطريق الذي سار فيه والده وجده فيقول: «وكذلك العامل منكم والقاضي ـ وفقهما الله ـ إنما أقعدا بذلك المكان لخير يتوليانه، وشر يردعانه وعدل يقضيانه، فليقدما أولاً تسديد أمرهما، ولينظرا في إصلاح أنفسهما قبل إصلاح غيرهما، فمن لا يصلح أمر نفسه، لا يصلح سواه، ومن لا يسدد أموره، لا يسدد أمر من تولاه»[21].

فكان هدف أمراء المرابطين توخي العدالة والإنصاف والاهتمام بشؤون الرعية، وذلك عن طريق القضاة والعمال، فهم أكثر المسؤولين احتكاكاً بالناس لطبيعة عملهم، لذلك كان التأكيد عليهم بأن يكونوا قدوة ومثلاً في توخي العدل، والحرص في تصرفاتهم.

وقد حاول الأستاذ كوديرا[22] أن يجعل من استخدام المرابطين لفرقة من النصارى العلة والسبب الرئيسي لثورة الأندلس على المرابطين إلا أن استخدام النصارى لا يبدو شيئاً غريباً على الأقل في الأندلس، فكان الأمر مألوفاً في عصري الإمارة والخلافة، ثم في عصر الطوائف، والفرقة التي تكونت من بعض النصارى الذين غربوا عن الأندلس بعد فتوى القاضي ابن رشد، أو من الذين وقعوا في أسر المسلمين وعهد بقيادتها للربرتير[23] الذي اعتنق الإسلام، لم تكن الفرقة الأساسية في

---

(20) المصدر السابق، وثيقة 4، ص 174.

(21) د. حسين مؤنس: نصوص سياسية، وثيقة 1، ص 111.

(22) Codera, F., Decadencia y Desaparicion de los Almoravides en Espana, p. 30.

(23) الربرتير Reverter كان من قواد أمير برشلونة وأرغون ومن كبار رجالات دولته وقد وقع في أسر قائد الأسطول المرابطي علي بن ميمون، فأتى به إلى مراكش حيث دخل في خدمة المرابطين واعتنق =

جيش المرابطين الذين اعتمدوا أساساً على جند من قبائلهم الملثمة أو من قبائل الصحراء، وكانت هذه الفرق تمثل العمود الفقري للجيش المرابطي.

ويبدو أن الأمير علي بن يوسف سمح للنصارى الذين غربوا من الأندلس بالإقامة في مراكش مع فرقة الربرتير، ويحتمل أنهم سكنوا في حي خاص بهم يعيشون فيه بحرية، من ناحية لباسهم وطعامهم وشرابهم فكانت لهم حوانيتهم، وحاناتهم، وأسواقهم التي يبيعون فيها حوائجهم ومن بينها الخنازير التي يربونها، فمن المحتمل أن ابن تومرت كان يقصدهم بعبارته التي وجهها إلى القاضي ابن أسود في مجلس الأمير علي بن يوسف «فهل بلغك يا قاضي أن الخمرة تباع جهاراً، وتمشي الخنازير بين المسلمين»؟[24].

وهناك وثيقة مهمة للأمير تاشفين بن علي مؤرخة في العشر الأول من جمادى الأولى سنة 538 هـ (ديسمبر 1143 م) يؤكد فيها على عدم استعمال أهل الذمة في شؤون المسلمين «وكذلك نؤكد عليكم أتم تأكيد أمر أهل الذمة، ألا يتصرف أحد منهم في أمور المسلمين لأنه من فساد الدين»[25].

ولم يعرف عن المرابطين أنهم استخدموا أهل الذمة في شؤون المسلمين الأخرى ولم يذكر مؤرخو الموحدين ذلك، والذي ذكرها هو صاحب الحلل الموشية[26] عندما أشار إلى أن علي بن يوسف استخدم النصارى في المغارم، وهذا لا يعني أنه شيء مؤكد، فربما اختلط عليه الأمر فقد ألف كتابه في عصر متأخر عن المرابطين.

= الإسلام ولزم خدمة الأمير علي بن يوسف، فولاه قيادة الفرقة النصرانية والتي تسمى فرقة الروم وقد أخلص الربرتير للمرابطين، وقتل في إحدى المعارك التي خاضها ضد الموحدين بمنطقة السوس، وقد أنجب ولداً أسلم وتسمى علياً، ودخل في خدمة الموحدين عندما صار الأمر إليهم وأخلص في خدمتهم، وإليه يرجع الفضل في انتزاع جزيرة ميورقة من بني غانية، وقد قتل في معركة بين بني غانية وجند الموحدين في إفريقية سنة 583 هـ (1187 م).

ابن خلدون: العبر، جـ 2، ص 575، 576.

د. حسين مؤنس: نصوص سياسية، ص 102.

د. محمود مكي: تحقيق كتاب نظم الجنان، ص 96.

(24) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 5، رقم 688، ص 50.

(25) د. حسين مؤنس: المصدر السابق، وثيقة 1، ص 113.

(26) الحلل الموشية، ص 84.

وفي الحقيقة أن الذي عجل بسقوط المرابطين وأفاد منه الموحدون هو اضطراب الأمور في الأندلس خاصة بعد استدعاء الأمير تاشفين بن علي إلى المغرب، وسحب عدد كبير من قوات المرابطين معه للمعاونة في مجابهة الموحدين فازداد كلب النصارى وهجومهم وتوالت هزائم المرابطين لانقطاع الإمدادات من المغرب بسبب اندلاع حركة المهدي، فهانوا في نظر أهل الأندلس. يقول صاحب الحلل الموشية[27] «وكان أعظم ما تأيد به عبد المؤمن على المرابطين قيام أهل الأندلس عليهم لكونهم أخلوها من حماتها وأسلحتها». ومؤرخ الموحدين ابن القطان[28] ذكرها هو الآخر بشماتة «وكل هذا مهد الله تعالى به أمر الموحدين أعزهم الله تعالى».

سبب آخر عجل بسقوط هذه الدولة هو اضطراب الإدارة بوفاة الأمير علي بن يوسف وتولية ابنه الأمير تاشفين، ففي هذه الفترة ـ فترة الانتقال القصيرة ـ لم تكن هناك قيادة موحدة تعمل على تنسيق العمل وإصدار الأوامر التي توجه إلى الجند خاصة، والرعية عامة، مما تسبب في عدم احترام هذه الأوامر والعمل بها، والفساد الأكبر على المرابطين نسخ الأمر بأمر غيره، فكانوا يكتبون اليوم شيئاً، وغداً ينسخونه بغيره، فيسخر منهم جنودهم ورعاياتهم[29]؟ في الوقت الذي بلغ تنظيم الموحدين وانضباطهم درجة كبيرة «إلى حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء»[30].

سبب مهم آخر هو الخلاف الذي حدث بين قبائل المرابطين، إذ أن دولتهم كانت تقوم على ثلاث قبائل كبرى هي أصل أعياصهم جدالة ومسوفة ولمتونة، ولذلك عندما حدث الخلاف بين جدالة ولمتونة سنة 454 هـ (1026 م) في عهد أبي بكر بن عمر سارع بالعودة إلى الصحراء ليصلح الأمور بين هذه القبائل، ويعيد الوئام بينها، ولكي لا يدع لها المجال لمثل هذه المنازعات مرة أخرى، وجه نشاط هذه القبائل إلى الجهاد في بلاد السودان[31].

---

(27) المصدر السابق ص 132.

(28) ابن القطان، نظم الجنان، ص 111.

(29) الحلل الموشية، ص 132.

(30) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 191.

(31) الحلل الموشية، ص 23. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 134.

والسبب الذي لا يقل أهمية عن سابقيه هو طبقة الفقهاء والقضاة الذين لا ضمير لهم، والذين كانوا سبباً في إيجاد نوع من الشغور والفراغ عند الناس لمعرفة دينهم، ومحاربة البدع والشعوذة ومدعي الإمامة والمهدوية بدل الانشغال بأمر لا يهم العامة بقدر ما يرضي أذواقهم وأهواءهم الشخصية، وهو الخلاف حول كتب الغزالي، فهذا الجدل بين فقهاء الأندلس والذي انعكس بعضه على المغرب لم يكن ليفيد العامة التي كانت في حاجة إلى ما هو أهم، وهو تعبئة الناس للجهاد، ورد النصارى بدل اللامبالاة، والاعتماد على الآخرين، وقد فشل هؤلاء الفقهاء في أن يكونوا قدوة حسنة، ومثلاً يحتذى به، والملاحظ أن الناس قاموا في الأندلس وراء زعماء اتخذوا من مناصبهم الدينية والفقهية ستاراً، حتى إنهم لم يتخذوا موقفاً واضحاً في مهاجمة المرابطين ولا سبباً يستشف منه لماذا كانت قومتهم، بل قل إنهم لم يجدوا ما يقولونه في حقهم، فلم يكن غرضهم إلا الفتنة لمجرد الفتنة، أو لمجرد التغيير، فلم يكونوا إلا نفراً من الطامعين في السلطان والأموال والغنائم، فلم يؤثر عنهم عمل ديني في بلد دخلوه، أو إصلاح قاموا به، إنما هو السلب والنهب ولا شيء غيره، وتلاشوا من الوجود بمجرد نزول الموحدين.

سبب آخر يضاف إلى الأسباب السابقة هو التسامح الشديد، بل قل التهاون في الضرب على أيدي مثيري الشغب والإخلال بأمن الدولة، فلم يعرف عن المرابطين أنهم أمروا بقتل مشاغب إلا في حالات نادرة، وكان أقصى عقاب هو الاعتقال الطويل، بل إننا نلمس هذا التهاون في معاملة أهل غرناطة عندما ثاروا على القائد العظيم مزدلي والذي كان صورة رائعة للمحارب الذي قضى عمره في معركة دائمة ودفع حياته ثمناً لجرأته وبسالته. كل ما فعله أمير المسلمين تجاه هؤلاء المشاغبين إصدار خطاب موجه لأهل غرناطة فيه تهديد خفيف لهم يقول فيه: «فإذا وصل إليكم خطابنا هذا فاتركوا سابقة الهوى، واسلكوا معه الطريقة المثلى، ودعوا التنافس على حطام الدنيا، وليقبل كل واحد منكم على ما يعنيه، ولا يشتغل بما ينصبه ويعنيه»[32].

لو كان هذا التشغيب حدث في عهد الموحدين لكان مآل الجميع إلى أقسى

= د. عصمت دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، ص 97.

(32) د. محمود مكي: المصدر السابق، رقم 16، ص 184.

العقاب، لقد وصف لنا ابن صاحب الصلاة[33]، والبيذق[34] معاملة الموحدين للقبائل التي أجبروها على الخضوع لهم، وترجع أهمية شهادتهما لكونهما صنيعة الموحدين، ولسان حالهم، والأهم من هذا أنهما شاهدا عيان لهذه الحوادث.

ولا شك أن من أقوى الأسباب في نجاح دعوة ابن تومرت أنه استغل عصبية قبائل مصمودة[35] ضد قبائل المرابطين الصنهاجية، وتعود العداوة بين هذه القبائل إلى زمن بعيد، فاختلاف نمط الحياة الاجتماعية، والاقتصادية لكل من هذه القبائل كان مجالاً لصراعات عديدة، فالمصامدة قبائل عرفت نمطاً معيناً من حياة الاستقرار ومزاولة الزراعة، وعرفت باستماتتها في الدفاع عن حوزة أراضيها ضد محاولات تسرب قبائل الصحراء، وكانت قبائل صنهاجة اللثام، أو صنهاجة الرمال التي ينتمي إليها المرابطون تعيش نمطاً مختلفاً عن مصمودة، فهي تعتمد على الرعي وتربية الماشية والإبل، بجانب سيطرتها على الطرق التجارية التي تربط شمال المغرب بمسالك السودان جنوبي الصحراء، فكانت تتعيش من المكوس التي تفرضها على القوافل التجارية، أو تقوم بدور الوسيط[36].

ومن خلال المصادر يتبين أن المرابطين لم يصادروا أملاك مصمودة بسبب تحالف هذه القبائل معهم ضد قبائل زناتة عدوهم المشترك سواء أكان ذلك خوفاً من المرابطين، أو رغبة في الانتقام من زناتة، مما ساعد الملثمين على تيسير مهمتهم في اجتياح إقليم السوس الأقصى، فأقرهم المرابطون على أراضيهم مكافأة لهم على تعاونهم، بل واشتروا أرض مراكش من نفيس عندما أرادوا بناء العاصمة[37].

وكان الأمير أبي بكر بن عمر، والأمير يوسف بن تاشفين يستشيران أمراء وأشياخ المصامدة في الأمور الهامة للدولة، ونهج علي بن يوسف نفس النهج بعد أبيه[38].

---

(33) اقرأ ما ذكره ابن صاحب الصلاة في كتابه تاريخ المن بالإمامة عن أحداث إشبيلية وما فعله الموحدون بأهلها، ص 120، وراجع ابن عذاري، جـ 3، ص 30 في أحداث لبلة.

(34) راجع ما يسمى بتمييز الموحدين في البيذق.
وابن أبي زرع: في روض القرطاس، ص 181، 182.

(35) عن قبائل المصامدة ومضاربها.
راجع: ابن خلدون: العبر، جـ 6، ص 427، 556 :571.

(36) د. عصمت دندش: المرجع السابق، ص 36.

(37) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 138، ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 4، ص 19.

(38) الحلل الموشية، ص 26، ابن عذاري. م. س. ص 18.

وابتعدوا عن إثارة هذه القبائل، وأحسنوا معاملتها، وأوصى يوسف بن تاشفين ابنه وولي عهده قبل وفاته باستمالة هذه القبائل ولا يلجأ لمعاداتها فلا «يهيج أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة»[39].

لذلك لم يكن السبب في ثورة المصامدة غير الضرائب الكثيرة التي فرضها المرابطون في أخريات أيامهم، والطريقة المجحفة في جبايتها، ويتأكد هذا الرأي من وضعية ومهن أصحاب ابن تومرت الأوائل، إذا انخرطت في دعوته قبائل مصمودة دون أشياخها ورؤسائها، لدعوته إلى رفع المظالم والمناكر والمغارم وهو فقير وأصحابه مثله، وكان يشدد على هذا الفقر في خطبه، متخذاً من مفاسد الطبقة العليا من حاكمين وفقهاء متعاونين معهم مادة لوعظه معتبراً جهادهم أعظم من جهاد الروم، وعلى هذا ظهرت أو بدت ثورة المهدي في أولها ثورة طبقة فقيرة أرهقتها الضرائب وطرق جبايتها[40].

وعلى الرغم من أن ابن تومرت لا ينتسب إلى إحدى القبائل المصمودية الكبرى، إلا أنه استطاع بذكائه، وقدرته، وبعد نظره، أن يسيطر على مجموعات قبائل مصمودة الكثيرة العدد التي تمتد من السوس الأدنى، ومعظم النواحي الممتدة من المحيط الأطلسي عند مبادىء جبال درن وتنتشر حتى تصل إلى سهل مراكش، ثم تمتد في ذراع يتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي حتى تصل إلى تلمسان. واستطاع بهذه القبائل أن يحارب المرابطين وكأنهم كفرة مارقون.

وقد اعتبر لاجاردر[40أ] Lagardere سفر ابن تومرت إلى الأندلس وأخذه العلم على شيوخها بعض الوقت وتعرفه على الحالة في الأندلس عن كثب. إن له دوراً في إعداده للقيام على المرابطين، وقد ذكر ابن القطان[40ب] أن ابن تومرت ذهب إلى قرطبة لتلقي العلم، ثم سافر إلى ألمرية ومنها إلى المشرق، فربما يكون في خلال إقامته بقرطبة أو المرية قد احتك بالصراعات الفكرية واستمع إلى وجهات النظر المختلفة

---

(39) الحلل الموشية، ص 82.

(40) د. عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، ص 154.

(40 أ) Lagarder, V., La Tariqa et la Révolte des Muridun, p. 157.

(40 ب) ابن القطان: المصدر السابق، ص 4.

بين مدرسة قرطبة، ومدرسة ألمرية، تجاه مختلف الأفكار، خاصة ما كان يدور في ذلك الوقت حول كتب الغزالي.

لقد استغل ابن تومرت إحراق كتاب الإحياء للغزالي أحسن استغلال وجعلها قميص عثمان، فهاجم المرابطين والفقهاء، ومع أن مسألة إحراق الكتب[41] كان شيئاً مألوفاً في الأندلس على الأقل، فقد استغل ابن تومرت هذا الحادث بذكاء شديد ضد المرابطين وفقهائهم، وكأنهم أقدموا على حرق كتاب مقدس، يقول ابن القطان[42]: «وقد كان إحراق هؤلاء الجهلة لهذا الكتاب العظيم الذي ما ألف مثله سبباً لزوال ملكهم»، وانتثار سلكهم، واستئصال شأفتهم على يد هذا الأمر العزيز القائم بالحق المظهر بالسنة المحيي للعلم».

وإذا كان حرق كتاب الإحياء قد أوجد خلافاً في الرأي بين الفقهاء فهذا أمر طبيعي، فكل عمل علمي له مؤيدوه ومعارضوه، ولكن الأمر غير طبيعي هو وصف هؤلاء ونعتهم بالجهل.

وإذا كان هناك عدد كبير من الفقهاء قد وافق على حرق كتاب الغزالي. فذلك لأن الروح الانهزامية التي ألف فيها هذا الكتاب بالمشرق لا تتفق والظروف التي كانت تحيط بالغرب الإسلامي من ناحية البساطة في العقيدة ووحدة المذهب، والوحدة السياسية بالإضافة إلى الصراع المستمر بين المسلمين ونصارى الأندلس.

لم يكن الأمير علي بن يوسف هو الذي أفتى بحرق كتاب الإحياء، وإنما نفذ فتوى أجمع عليها فقهاء قرطبة وعلى رأسهم قاضي قضاتها أبو عبد الله محمد بن حمدين[43]،وابن حمدين كما وصفه ابن القطان مؤرخ الموحدين بأنه كان محبوباً من

---

(41) أحرقت كتب ابن حزم، ومعظم كتب مكتبة الحكم المستنصر.

(42) ابن القطان: المصدر السابق، ص 16.

(43) يقول ابن القطان عن حرق الكتاب «في أول عام ثلاثة وخمس مائة عزم علي بن يوسف عن إجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وفقهائها. على حرق كتاب أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى المسمى بالإحياء، فأحرق في رحبة مسجدها...»
ابن القطان: المصدر السابق ص 14، 15 وعن حرق الإحياء انظر...
عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 173. الحلل الموشية، ص 104.
ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 4، ص 59، د. حسين مؤنس: نصوص سياسية ص 107، 108.
Codera, F., Op. Cit pp. 358: 362.

الناس قريباً منهم، ومتعاطفاً معهم، نال مكانة كبيرة، وحاز على ثقة المرابطين «وكان حاز في المكانة لديهم (يقصد الملثمين) ما لم يحزه غيره من سلف، وكان جميل الطريقة ساعياً في كل خير، قطع الضرائب والمعاون على أهل قرطبة، وسن كل طريقة جميلة وسيرة حسنة، لأن ابن تاشفين كان لا يخالفه في شيء، وكان ذكي الفهم، سريع الخاطر، رقيق الطبع، فقيهاً أديباً، بليغاً شاعراً، كاتباً فاضلاً، ورعاً ديناً، حذراً من العواقب»[44].

هذا ما وصف به ابن القطان القاضي ابن حمدين الذي رأس جماعة الفقهاء التي أفتت بحرق الكتاب، وابن القطان حاول من خلال كتابه نظم الجمان أن يرمي المرابطين وفقهائهم بكل نقيصة، وتبدو شماتته الواضحة عند كل هزيمة للمرابطين مع النصارى، ومع ذلك فقد كانت تخون قلمه كلمات الحق، وتغلب شهادة الصدق على ولائه للموحدين، فيسجل للتاريخ محاسن أراد أن تكون مثالب.

وقد رجح الدكتور حسن إبراهيم حسن[45] أن فتوى فقهاء المالكية بالأندلس كان لسببين:

الأول : إن كتاب الإحياء[46] كتاب صوفي في روحه يسير على الفلسفة الكلامية التي ينفر منها المالكية، ويخشون منها على مذهبهم.

الثاني : **إن الاتجاه الفقهي في هذا الكتاب يسير على المذهب الشافعي.**

وعلى أية حال فالضجة التي افتعلها محمد بن تومرت ضد المرابطين بسبب حرق كتب الغزالي كانت ستاراً فهو لم يعمل بآراء الغزالي، ولم ينتفع بها، بل على العكس كان مخالفاً لها على طول الخط، فمبدأ الاجتهاد الذي يعلق عليه الغزالي أهمية كبيرة في استنباط الأحكام والذي سلكه واتفق عليه أئمة المذاهب السنّية ينكره ابن تومرت كمصدر من مصادر الشريعة، ومعارضة ابن تومرت جهود المجتهدين في

(44) ابن القطان: المصدر السابق ص 18.

(45) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ 4، ط أولى، ص 456.

(46) عن كتب الغزالي ومعارضوه اقرأ: مقالة الدكتور سامي النشار بعنوان أبو حامد الغزالي ومعارضوه من أهل السنّة، مجلة كلية آداب بغداد، العدد الأول، يونيه 1909، رسائل ابن سبعين، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي، المقدمة ص 14، أبو الفرج بن الجوزي: كتاب إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء.

بجديد الشريعة، والاستنباط في مجال الاجتهاد من الأمور المنطقية له، لأنه يتشح بثوب الإمام المعصوم، الذي لا تبحث آراؤه، ولا تناقش أحكامه، ونظرية الإمام المعصوم من أكثر ما عارضه الغزالي وسخر منه[47].

ويترامى إلى الشك في أن المهدي بن تومرت قد التقى بدعاة الباطنية المنتشرين في الشام والعراق، والذين كانت تعج بهم هذه المدن، فقد ذكر ابن العربي أنه عندما نزل بسواحل الشام وجدها مليئة «بالنحل الملحدية والمذاهب الباطنية والإمامية»[48]. وكانت لهؤلاء الدعاة أساليبهم في اصطياد طالبي العلم خاصة من الغرباء الذين لم يتم تكوينهم العلمي[49].

فمن المرجح أن ابن تومرت قد التقى بعدد من دعاة الباطنية الذين وجدوا فيه بذرة صالحة لنشر دعواهم في الغرب الإسلامي الذي كان لا يخلو من دعاتهم المنتشرين في كل مكان، فجند من طرفهم لتقويض دولة المرابطين السنّية، والتي تدعو للخلافة العباسية، في الغرب والأندلس.

وقد تأثر ابن تومرت بهؤلاء الدعاة الذين لقنوه تعاليمهم، وأشربوه علمهم، يقول المراكشي[50] «وكان يبطن شيئاً من التشيع، غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيء كما أخذ عنهم علم التنجيم وخط الرمل وغيره من العلوم التي تجوز على العامة، فكان أوحد أهل عصره في علم خط الرمل، مع أنه وقع بالمشرق على ملاحم من

---

(47) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص 19.

(48) ابن العربي: المصدر السابق جـ 2، ص 61.

(49) ذكر ابن العربي في كتابه «العواصم من القواسم» كيف استطاع أن ينجو من براثن هؤلاء الدعاة لتمكنه من علمه، واستعداده لمحاجاتهم والرد على آرائهم، وكشف أباطيلهم فآمن الانزلاق في حبائلهم يقول «وقلت الحمد لله الذي أعذر وأنذر، وثبت وبصر، هذه أرض ينبغي أن يشد إلى الاعتصام فيها الحزام، ويغض عن غرر هذه العورات الختام، فلو فجأتني بدعة مشتبهة كالقول بخلق القرآن، أو نفي الصفات، أو الإرجاء، لم آمن بإغواء الشيطان وانتدابه، أن يولجني من بابه، فلما رأيت هذه الحماقات أقمت على حذر»، بل يذكر ابن العربي أن دعاة الباطنية حاولوا أن يؤثروا على الملوك والأمراء أنفسهم وذكر أنهم كانوا يوزعون مناشيرهم بين الناس بل لقد وصلت هذه المناشير إلى مجلس الخليفة المستظهر بالله.
انظر: القواصم، ص 60، 70.

(50) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق ـ ص 188.

عمل المنجمين وجفور من بعض خزائن خلفاء بني العباس، أوصله إلى ذلك كله فرط اعتنائه بهذا الشأن، وما كان يحدث به نفسه»[51].

وانطلق المهدي بن تومرت لتقويض حكم المرابطين من خلال رفع شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[52]، واستغل سماحة المرابطين تجاه رجال الدين بأعمال تلفت نظر العامة والخاصة[53] ليتحسس به طريقه حتى تسنح له فرص العمل المثمر، وكان ارتحاله إلى مدينة مراكش دار مملكة المرابطين، لعلمه أنه لا يظهر أمره إلا منها[54].

استطاع ابن تومرت في العاصمة أن يحلل الأوضاع التي كانت سائدة في دولة

---

(51) نفس المصدر، ص 180.

انظر مقال لنا بعنوان «ابن تومرت والباطنية» في ندوة تكريم الأستاذ أحمد الشرقاوي إقبال.

(52) عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . .

اقرأ. . ابن العربي: شرح الترمذي، جـ 9، ص 12.

ابن العربي: أحكام القرآن، قسم 1، ص 190.

ابن العربي: العواصم من القواصم جـ 1، ص 206.

ابن حزم: الفصل جـ 4، ص 171 - 173.

Gold Zeher, I. «Mohamed Ibn Toumert et la Théologie de L'Islam dans le Magrib au XI Siecles p. 85.

(53) بدأ ابن تومرت من أول وهلة كرجل ثائر على الحكم في عصره، وعلى التقاليد، والأخلاق السائدة في المجتمع الإسلامي، فهو قبل أن يعود إلى المغرب من المشرق وفي أثناء عودته يتوقف في كل بلد، وفي كل مدينة يمر بها، وحتى داخل السفينة التي أقلته يلقي المواعظ المؤثرة والمثيرة، دون أن يحفل بما يتعرض له من اضطهاد ومطاردة. وبعد وصوله إلى مراكش يدخل المسجد الجامع ويجلس على مقربة من المحراب إزاء المكان المخصص لجلوس أمير المسلمين علي بن يوسف ويتحرش بالقائمين على المسجد ويعترض طريق الأمير علي بن يوسف، وأتبع ابن تومرت هذا الحادث بحادث لفت إليه الأنظار أكثر من سابقه، عندما هاجم موكب أخت الأمير علي بن يوسف، فوقعت عن دابتها ووقع الاضطراب، وكان سبب مهاجمته لها أنها خارجة مع جواريها سافرة كعادة الملثمين.

انظر عن هذه الحوادث. .

الحلل الموشية ص 100، ابن القطان: المصدر السابق ص 38، 42.

ابن خلكان: المصدر السابق جـ 5، ص 45، 50.

المراكشي: المعجب ص 178.

ابن أبي زرع: روض القرطاس ص 173.

الناصري: الاستقصا، جـ 1، ص 79.

(54) ابن أبي زرع: المصدر السابق، والصفحة.

المرابطين بذكاء، وأن يضع يده على نقط الضعف والمطاعن التي يمكن أن ينفذ منها إلى نقد المرابطين، والتنديد بهم على مستوى الدين والأخلاق. فكان يعلم أن الحكم المرابطي يستند على بنية قوية تتركز في التمسك بالمذهب المالكي، والاعتماد على علماء المذهب كهيئة لها جذورها في المجتمع، وتملك سلطات معنوية كبيرة، ونفوذ واسع في تسيير الحياة اليومية، من اقتصادية واجتماعية وثقافية ـ ودينية، لذلك كان هدفه الأول زعزعة تلك البنية وتقويضها. فيكشفها أمام الناس الذين اعتادوا أن يؤمنوا بتفوقها العلمي، ويفضح دعواها في الزهد والورع، ويقيم الدليل على تراميها على الدنيا ومتاعها، وأنها بعيدة عن الحاكمين والمحكومين، وأن جل همها منصب رفيع، أو سلطة وجاه تتمرغ فيه[55].

ولكن السؤال الذي يواجه كل من يهتم بتاريخ هذه المرحلة هل كان الوقت مناسباً فعلاً لقيام المهدي بن تومرت؟ أو بمعنى آخر هل كان الغرب الإسلامي في حاجة إلى تقويم وإصلاح فعلاً عندما انطلق المهدي بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ ثم تبعه في نفس الطريق، وعلى نفس النهج المريدون والقضاة. وهل كانت هناك فعلاً أزمة روحية وثقافية في أوساط المفكرين والعلماء والطلبة تفجرت بعد حرق كتاب الإحياء للغزالي؟ وهل هناك علاقة بين حركة المهدي بن تومرت وما حدث في الأندلس؟.

لا شك أن حرية الفكر، وحرية التعبير خلقت نوعاً من النقاش والصراع بين أوساط المثقفين، ولكن حركة المهدي تجسم من الوهلة الأولى هدفها الأساسي، وهو

---

(55) اقرأ. .

مقالة. محمد زينر: الخلفية الاجتماعية والثقافية لحركة المهدي. فقد ذكر أن المهدي ركز أهدافه:

أولاً: تجريد الدولة من السند العلمي والديني الذي كانت تعتمد عليه دولة المرابطين.

ثانياً: خلق تيار جديد في المجتمع ينشد التغيير عن طريق الأمر بالمعروف.

ثالثاً: إثارة الانتباه إلى شخصيته وزعامته لدى الرأي العام عن طريق تصرفاته.

رابعاً: تهيئة الظروف الملائمة لخلق مذهب جديد، وتكوين مريدين يستوعبون فكرته وينفذون أوامره.

خامساً: التوصل إلى هذه الأهداف دون فضح خطته الحقيقية في إطار الظهور بالمظهر العلمي الديني.

زنيبر: المرجع السابق ص 131، 132.

تقويض الحكم والاستيلاء على مقاليد الأمور، كأي حزب سياسي في عصرنا، مع فارق أساسي وهو أن الكثير من هذه الأحزاب المعاصرة تعلن مسبقاً عن استعدادها للتخلي عن الحكم متى فقدت مصداقيتها، بينما تعلن حركة المهدي من بدايتها أنها صاحبة الحق، وأن سلطتها مستمدة من إرادة الله، وأنها متى تولت مقاليد الأمور فإلى الأبد.

والواقع أن ابن تومرت كان سياسياً قبل أن يكون رجل دين، كان يؤمن إيماناً عميقاً في أن الله هيأه لأمر عظيم، علاوة على تمتعه بفهم دقيق للرجال، وقدرة نادرة على السيطرة عليهم وتوجيههم. وعلى هذا الأساس كان يأخذ من كل مذهب[56] ما عساه يفيده في تحقيق أغراضه السياسية، وأطماعه، فهو لم يدرس هذه المذاهب دراسة الفقهية العالم، بل ألم بها إلماماً سطحياً سريعاً، مما يدل على أنه لم يكن يرمي إلى دراسة العلوم الفقيهة دراسة العالم المتمكن، بقدر الرغبة في تقويض حكم المرابطين، وإقامة حكومة جديدة تختلف عنها في المذهب والاتجاه.

وكانت معاملة الأمير علي بن يوسف لزعماء الصوفية فيها كثير من التسامح رغم تورطهم في زعزعة أمن الدولة، ويعود هذا في الأساس إلى طبيعة وسلوك أمراء المرابطين الذي يميل إلى السلوك الصوفي، ولم تؤخذ حركة المهدي أو حركة المريدين فيما بعد بجدية واهتمام كما حدث مثلاً لكتب الغزالي، حتى أن الرسالة الصادرة من الأمير تاشفين بن علي في أوائل جمادى الأول سنة 538 هـ (ديسمبر

---

(56) اقرأ.. كتاب «أعز ما يطلب»، العقيدة والمرشدة لابن تومرت. فهي خليط من مذاهب المسلمين جميعاً. فهو عندما يقول بالإمامة وبعصمة الإمام على مذهب الشيعة، فهو يهدف للتمكين لنفسه بين قبائل البربر، وإيهامهم بأنه ينطق عن وحي إلهي علوي، وبأنه معصوم من الخطأ لا يجوز نقده ولا معارضته ويتشبه بالرسول ﷺ في مسألة البيعة عند الشجرة وفي الغزوات، ومحاولة إضفاء صورة المؤمنين الأوائل بأصحابه وإطلاق اسم المهاجرين عليهم.

وعندما يقول بالظاهرية ويكره التأويل على رأي داود وابن حزم، فهي مجرد الرغبة في تحدي المرابطين وفقهائهم الذين كانوا على مذهب مالك، وكانوا يترخصون في التأويل.

وتشدد في العقيدة تشدد الحنابلة، وذهب في كثير من المسائل مذهب الأشاعرة ويفهم التوحيد فهم المعتزلة، وقوله بالتوحيد كان دعاية سياسية ماهرة ضد المرابطين الذين رماهم بالتجسيم.

انظر..

د. عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت، حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية.

1143 م) تخلو من أي إشارة إلى هذه الحركة، وإنما كان الإلحاح على الالتزام بالمذهب المالكي في القضاء والفتوى وكل ما يتعلق بالأحكام بين الناس، ومحاربة كتب أبي حامد الغزالي[57].

لذلك اتخذ صاحب كتاب «آثار الأول وترتيب الدول»[58] مثل ابن تومرت وظهوره في معرض كلامه عن الزهاد وأدعياء الزهد والمغالطين باسم الزهد، والدعاة الذين يعمدون إلى الطعن في أحوال الملك، وإثارة الجماهير وخطر تركهم وأنه «ينبغي للملك أن ينظر في حالة هذه الطائفة ويميز محقهم من مبطلهم، ويفرق بين الزاهد والمتزهد وفيهم أصناف من أهل الغلط في طريق الزهد والمغالطة لأغراض أخر، منهم صنف يغلب عليهم محبة الرياسة والإمرة، ويتفق إعراض الملك عنهم وانقباضه لمخالفة طبعه لطباعهم»، وإن ذلك مما يحملهم على الطعن على أحوال الملك، وإهماله لضوابط الشريعة، ثم يجمعون حولهم الجموع، ويقصون عليهم من الأمور ما يحركون به عزائمهم، لتغيير المنكر ونصرة الحق، فإن أهمل الملك أمرهم عظم وتفاقم، وكان منهم خطر عظيم.

ولا شك أن لفساد عدد من عمال المرابطين وتعديهم على ما ليس لهم سبباً في ضعف الإدارة المرابطية، إذ فتح مجالاً للرشوة والاغتناء السريع وشجع صغار الموظفين على الاقتداء بهؤلاء العمال، ونشتم ذلك من رسالة لعلي بن يوسف أرسلها لأحد القضاة وهي على ما يبدو رداً على رسالة للقاضي يشكو إليه تصرف بعض العمال. مما جعله يأمر القاضي بإنهاء أمر أي عامل يثبت عليه أي اتهام إلى أمير الناحية «وأي عامل من عمال الرعية قامت الشهادة عندك بتعديه، وعلمت صحة استهدافه وتصديه، فانه أمره إلى صاحب البلد مستعمله ومتوليه»، ويطلب من القاضي قبل القيام بهذا الإجراء التحقق من صحة التهمة ومواجهته بالاتهامات والأدلة حتى لا يظلم أيضاً العمال. ثم بعدها يعزله، فإذا تحرج من عزله فيجب عليه أن يعجل برفع أمره إلى السلطان نفسه «وإلا فأخف ذلك إلينا في سائر ما يتوقف لديك من الأمور التي

(57) انظر: د. حسين مؤنس: نصوص سياسية ـ وثيقة 1، ص 113.
(58) الحسن بن عبد الله العباسي: آثار الأول في ترتيب الدول، ص 50.

تقصر عنها يدك، وتنقطع دون النفوذ فيها غايتك وأمدك لينفذ من عندنا ما يقف منازعك عنده، ويسهل لك كل صعب بعده»[59].

وتسبب بعض القضاة والفقهاء من ذوي النفوس الضعيفة، خربي الذمة في فساد الأمور خصوصاً أنهم كانوا يختارون بعض الحكام ممن على شاكلتهم، اتصفوا بالجشع وانعدام الضمير، فتشكى النـاس من ظلمهم وفهمهم وكثرة مطالبهم وغراماتهم[60].

ثم ما ظهر على المرابطين في آخر أيام علي بن يوسف من عجز عن القيام والنهوض بعبء الدفاع عن الأندلس، وكان هذا العجز نتيجة للتضحيات المتوالية التي تحملها المرابطون في الجهاد ضد الممالك المسيحية، وفقدوا فيها الكثير من كبار قادتهم.

ولا شك أن الأزمة المالية التي اشتدت مع قيام ثورة المهدي بن تومرت قد ضاعفت من التزامات الدولة العسكرية وساعدت على توقف الزراعة، وما رافق ذلك من جدب حتى جفت الأرض، وقلت المجابي، وكثرت الضرائب على الرعايا من العدوتين، ولم تكن الضرائب وحدها السبب في الثورة، فالوسائل التي اتبعت في جمعها كانت سبباً في تذمر الناس وثورتهم.

كما كان لتغير الأوضاع في الممالك النصرانية، وتوحد قيادتها وثبات جبهتها حوالي تسعة وعشرين عاماً متتالية في يد ألفونسو الأول ملك أرغون وقشتالة وليون الملقب بالمحارب[61]، وتفانيه في حرب المرابطين تفانياً أدى إلى كسر شوكتهم

(59) د. محمود مكي: م. ر، وثيقة 4 ص 173.

(60) مما يدل على ذلك رسالة علي يوسف بن تاشفين إلى القضاة بشأن التشدد في اختيار الحكام فيقول: «ومدار هذا الأمر اختيار الحكام الذين استنبتهم في أقطارك القاصية، ونصبتهم في الجهات النائية، فشرطهم الثقة والديانة والصون والأمانة، فإنهم إن كانوا بهذه الصفة، جرت أمورهم على سبيلها القاصد، وسيرها الراشد، وأمنت في جهات الرعية والأحكام، وأمنا بك فيها من اللبس والمداخلة مع الأيام، فلا تقلد عملك إلا معروفاً بلطف النفس والعفاف، ونقياً يقنع بالكفاف، ويتنزه عن الإسفاف، وتحفظ من كل مفهوم لا يشبع، ومسف لا يتورع، وبعد توليتك إياهم، فاشرف عليهم إشرافاً يتعقب أحوالهم، ممن رأيت منه حيفا، أو فقص عليك من أطراف الحق طرفاً صرفته مذموماً وأخرته ملوماً» د. مكي: ن. م، ص 172.

(61) كان ألفونسو المحارب ملك أراجون قد تزوج من دونا أوراكا ابنة ألفونسو السادس الشرعية الكبرى والتي =

والقضاء على جاههم في الأندلس برغم أنه لقي حتفه على أيديهم، ويكفي ما قام به، تلك الغارة الطويلة التي اجتاح فيها الأندلس من شمال لجنوب ومن شرق لغرب في مدى سنة وبضعة أشهر[26]. وقوات المسلمين ما بين مرابطية وأندلسية تسير في آثاره أو تحتمي منه بالحصون، ولا شك أن هذه الغارة قد أسقطت من هيبة وسلطان المرابطين، وأشعرت الأندلسيين أن في إمكانهم الوثوب وانتزاع الأمر خصوصاً بعد أن اشتد الصراع بين المرابطين والموحدين.

= خلفت والدها في حكم قشتالة وليون وغاليسيا سنة 503 (1109 م).

Aguado Bleye, P. Historia de Espana, II, p. p. 618 and 622.

Bollesteros, A., Historia de Espana II pp. 338: 447.

لمزيد من المعلومات راجع..

Altamira, R., Historia de Espana y de la civlizacion Espana Vol. I.

Lafuente, M., Historia genral de Espana vol. III.

(62) عن هذه الغزوة انظر:

الحلل الموشية: ص 91 :97.

ابن عذاري: البيان المغرب، ص 4 ص 69 - 70.

ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 1، ص 114.

الفصل الثاني

الثورة على المرابطين

أولاً ـ ثورة المريدين:

أصول حركة المريدين ـ انتشار البؤر الصوفية ـ المراكز المهمة للمريدين ـ إمام المريدين ـ الأجنحة المختلفة للمريدين ـ الخلاف بين ابن برجان وابن العريف، أسباب الخلاف.

مرحلة الاغتيالات والمراقبة ـ تورط بعض المريدين في اغتيال بعض القضاة ـ سجن بعض المريدين وتشديد المراقبة ـ ترحيل بعض زعمائهم إلى مراكش ـ معاملة الأمير علي بن يوسف لزعماء المريدين.

مرحلة الثورة:

تزعم ابن قسي الجناح المتطرف بعد وفاة زعماء المريدين ـ انتهاز مقتل الأمير تاشفين للقيام بالثورة ـ شعار المريدين ـ الاعتماد على ابن القابلة الكاتب وابن المنخل الشاعر في الدعاية ـ الاستيلاء على حصن ميرتلة ـ مرجيق ـ شلب ـ مهاجمة إشبيلية ـ خروج ابن غانية لحصار المريدين.

ثانياً ـ ثورة القضاء:

انتهاز فرصة خروج ابن غانية من قرطبة وثورة ابن حمدين بها ـ تنازع أمر قرطبة بين زعامة ابن حمدين وابن هود وابن قسي ـ مكاتبة ابن حمدين للقضاة للثورة في مدن شريش وأركش، وغرناطة ـ نجاح الحزب الموالي للمرابطين في غرناطة وقرطبة ـ تدخل النصارى ـ ثورة ابن حسون في مالقة، ثورة ابن ملحان في وادي آش ـ استيلاء ابن ميمون على قادش ـ ثورة بلنسية بزعامة القاضي ابن عبد العزيز ـ ابن الحاج في مرسية ـ تزعم ابن أبي جعفر مرسية ـ مصرعه في غرناطة ـ استيلاء القاضي ابن طاهر على الأمور ثم ابن عياض ـ تولي محمد بن سعد بن مردنيش أمور الشرق.

نظرة عامة على ثورة المريدين والقضاة.

أولاً: ثورة المريدين

أ) أصول حركة المريدين:

كان من الطبيعي أن تنعكس أحداث المغرب على شبه الجزيرة الأندلسية ويكون لها رد فعل عنيف على الحكم المرابطي بها، والذي اتخذ شكل ثورة عارمة، اجتاحت الأندلس من غربها إلى شرقها، وكأن هؤلاء الثوار انتظروا هذا التوقيت حتى تقوم قومتهم بعد مقتل الأمير تاشفين بن علي[1].

ولكن المستغرب في هذه الثورة ليس توقيتها وسرعة اشتعالها فقط بل تسرع أولئك المنتزين في الحركة والوثوب بالأمر دون روية أو تفكير في عاقبة هذا الأمر، أو فيما يحيط ببلادهم من أخطار، وتوثب النصارى لهذه الفرصة للانقضاض على البلاد الممزقة بين هؤلاء الخارجين على الحكم. لقد كانت الثورة لمجرد الثورة، والفتنة من أجل الفتنة أو لمجرد التغيير والتبديل كما قال ابن الخطيب[2]: «سوء جوار وحباً في الإدالة وتبديل الملوك».

ربما ضاق الأندلسيون بهذه الروح الدينية التي تمسك بها المرابطون، خاصة بعد أن تعودوا حالة التحلل الديني والخلقي في عهد الطوائف، فثقل عليهم هذا الحكم، والأندلسيون شعب قلب، شرود كثير الشغب، ومع ذلك فلم يذكر عن المرابطين أنهم تعرضوا للأندلسيين في حياتهم العامة أو الخاصة، إذ كان شغلهم

---

(1) عن مصرع الأمير تاشفين بن علي راجع: ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 4، ص 104، الحلل الموشية ص 133، و ابن الخطيب: الإحاطة جـ 1، ص 454، ابن أبي زرع: روض القرطاس ص 166.

(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 265.

الشاغل هو الجهاد وطلب الدعاء من الأندلسيين وإخلاص النية، والتضرع لله وسؤاله النصر والمعونة، لعله يعفو عما انغمس فيه هؤلاء من مفاسد[3]، وكان هذا المطلب البسيط من أهل الأندلس لا يجد الأذن الخاشعة خوفاً من الله، بل ازداد انغماسهم في لهوهم وشرابهم، تاركين أمر الدفاع عن بلادهم لغيرهم، وديوان ابن قزمان أكبر شاهد على حالة التفسح واللامبالاة التي انغمس فيها مجتمع الأندلس.

وكان من نتيجة هذا الانحلال أن لجأ فريق إلى التزهد والتصوف بعيداً عما يجري في المجتمع من مفاسد، ومع أن القاضي ابن العربي من معارضي التصوف فقد فضل هذا الطريق للبعد عما يجري في المجتمع الذي وصفه أبلغ وصف في كتابه سراج المريدين فهو يبدو ساخطاً على كل شيء في هذا المجتمع الذي لم يكن إلى إصلاحه من سبيل إلا البعد عنه، والزهد في كل شيء، ومال إلى العزلة التي كانت في نظره أفضل من الخلطة، في مجتمع فسد فيه كل شيء، وأصبحت فيه الحياة شاقة كدرة، بعيدة عن منهاج الشرع وقانون الدين، حتى أنه يقول: «وإذا رأيت الباطل والفتنة، فالبس حلل النوى، وانتوي فيمن انتوى»[5].

وقد انتشرت البؤر الصوفية في جل المدن الأندلسية في القرن السادس الهجري وكانت الفرق الصوفية بها تشكل حزاماً يمتد من شرق الأندلس إلى غربها، وظهرت

---

(3) كان المرابطون بتكوينهم الديني وإخلاصهم في العقيدة، وحياتهم الساذجة يرون في الإخلاص في الدعاء والتطهر سنداً ومعيناً على إحراز النصر، يقول الأمير علي بن يوسف في أحد رسائله الموجهة لأهل الأندلس «إن استنفار الدعاء واستفتاح أبواب السماء بخالص الثناء من أنفع الأشياء، وأنجع الدعاء فيما أعضل من الأدواء وإن البقاء إذا وافق إجابة يمضي حيث ينبو الحديد المذرب، ويكبو العديد المتهيب.

د. محمود مكي: وثائق تاريخية جديدة ـ مجلة المعهد المصري بمدريد، وثيقة 2 ص 168، 196.

(4) يقول ابن العربي «وقد عظم الخطب في هذا الزمان حتى لا يدري العبد على أي شيء يبكي، أعلى فوات دنياه، أم على فوات دينه، أم على إخوانه في القربات، أم على أعوانه في الصالحات، أم على دروس العلم وطموسه، أم على اتفاق الخلق على إنكار المعروف، وتعريف المنكر، أم على نفسه التي لا تطاوعه على طاعة، أم على عرسه التي تطالبه بما ليس به طاقة، أم على ولده الذي لا يرى فيه للعين قرة، أم على جاره الذي لا يفضي له على عورة، أم على أميره الذي لا يرعى فيه إلاً ولا ذمة، أم على فقد صبره الذي يغلبه على الانفراد عن الخلق، والاكتفاء بالرب.

ابن العربي: سراج المريدين ورقة 75.

(5) ت. م. ورقة 74.

في الشرق عدة فرق كان من أشهرها وأهمها مدرسة ألمرية، والتي ترأسها الصوفي الكبير أبو العباس بن العريف[6].

وربما ترجع شهرة مدرسة ألمرية إلى موقعها الجغرافي، إذ تعد أهم موانىء شبه الجزيرة، يسافر منها إلى المشرق جميع طوائف السكان من تجار وطلاب علم وحجاج وغيرهم. وينزلها القادمون من المشرق، فكانت ملتقى لكثير من الآراء والتيارات الفكرية، علاوة على أن فقهاء المرية كان لهم موقف تجاه كتب الإمام الغزالي وحرقها، ولم يتغير موقفهم، حتى أن الأمير تاشفين بن علي أرسل خطاباً في جمادى الأول 538 هـ (ديسمبر 1148 م) يؤكد فيه على نبذ كتب الغزالي، والالتزام بمذهب مالك[7].

وكان من أبرز صوفية ألمرية وأصحاب ابن العريف، الزاهد الكبير ابن الإقليش[8]، وأبو بكر بن نمارة[9]، وأبو القاسم عبد الجبار البجاني الأستاذ العددي[10].

امتدت مراكز الصوفية فشملت مرسية[11]، وبلنسية[12]، وجزيرة شقر[13]،

(6) انظر ترجمة ابن العريف في: ابن الأبار: المعجم رقم 14 ص 18. ابن فرحون: الديباج المذهب ص 58، ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ 1 رقم 68 ص 168.

ابن بشكوال: الصلة رقم 176، ص 83. التادلي: التصوف رقم 18، ص 119.

(7) د. حسين مؤنس: نصوص أساسية، وثيقة رقم 1، ص 113.

(8) ابن الإقليش كان من أهل مرسية، وسكن المرية، واشتهر بالزهد والصلاح والعزوف عن الدنيا وأهلها، والإقبال على العلم والعبادة.

ابن الأبار: التكملة، جـ 1، رقم 167، ص 60.

(9) ابن نمارة كان من أهل بلنسية، ونشأ في المرية، وأخذ العلم على شيوخ قرطبة.

ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، سفر 6، رقم 36، ص 17.

(10) ابن الزبير: صلة الصلة، رقم 54 ص 38.

(11) اشتهر في مرسية القاضي أبو محمد بن الحاج اللورقي، وقد استدعاه الأمير علي بن يوسف للكتابة بحضرة مراكش سنة 528 هـ (1133 م) إلا أنه استعفى بعد قليل، وانصرف إلى مرسية هاجراً خدمة الأمراء، ومواصلاً صحبة الفقراء، زاهداً في الدنيا، وراغباً في الآخرة.

ابن الأبار: المعجم، رقم 214، ص 233.

الضبي: بغية الملتمس، رقم 1005 ص 349.

(12) كان بها أبو بكر بن أبي الخليل الذي صحب ابن العريف، ونحا طريقه.

ابن عبد الملك: المصدر السابق سفر 6 رقم 348 ص 139.

(13) كان بها أبو بكر أحمد بن محمد بن سفيان الذي عرف بالعابد لكثرة إيثاره وطول صحبته للفقراء وإكبابه =

ومالقة[14]، وجيان[15]، وغرناطة التي كان بها أحد شيوخ المريدين الكبار وهو أبو بكر محمد بن الحسين الميورقي[16].

أما قرطبة فقد كثر بها الصوفية، كما كثر بها شيوخ العلم في مختلف فروعه، ومن خلال رسائل ابن العريف نتعرف على عدد لا بأس به من الأسماء كأبي الحسن ابن غالب[17]، ومعظم رسائل ابن العريف وجهها إليه فقد أرسل له عشرين رسالة يخاطبه فيها بالأخ الودود، «والصادق النظر الرائق العين والأثر»، و«الصديق الوفي» و«الأخ الصفي» مما يدل على متانة الصداقة بين الإثنين وقوتها[18]. ومن خلال هذه الرسائل يتضح أهمية ومكانة ابن غالب، إذ كان يقوم بتوزيع الرسائل التي تأتي من ابن العريف إلى المريدين سواء في قرطبة أو غيرها[19].

= على الأعمال الصالحة.

ابن الأبار: الحلة السيراء جـ 2 ص 267، 268.

(14) برز في مالقة أبو الحسن سيد المالقي (له ترجمة في ابن الزبير، المصدر السابق رقم 185 ص 92).

محمد بن عبد الله بن عيسى الكتامي المعروف بأبي عبد الله بن المدرة، (ابن فرحون: م. س، ص 134).

وأبو ذر محمد بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن عثمان الخزرجي، وكان من أهل المرية إلا أنه انتقل إلى مالقة وسكنها. (ابن عبد الملك: م. س، سفر 6، رقم 1039، ص 389).

أبو محمد المالقي وكان من طلياطة من شرف إشبيلية. (ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 121).

(15) اشتهر بجيان الفقيه الزاهد محمد بن أحمد بن إبراهيم بن جامع الأنصاري الجياني (ابن عبد الملك: م. س. سفر 5، رقم 2، رقم 1151، ص 583).

(16) ابن الأبار: المعجم، رقم 123 ص 139.

ابن عبد الملك: م. س سفر 6، رقم 452 ص 169.

(17) وصفه ابن الزبير بـ «شيخ الصوفية في وقته».

ابن الزبير: م. س رقم 201 ص 99، 100.

(18) انظر مخطوط طريق السعادة ورقة 30: 58.

(19) انظر ورقة 49، 50 يقول في رسالة إلى ابن غالب عندما أراد السفر إلى شلب «وأعلمني بما خفي عليك من ذلك، وتردد عليهم في الوصية في الغائبين والحاضرين عليهم، والبحث عن أحوالهم، والفتش على أسرارهم، وأن يخاطبوك بما دق من ذلك وجل، فإن المخبوء إن لم يطلب لم يوجد» (49).

ويرسل إلى ابن غالب رسالة لكي يوصلها إلى أبي محمد عبد الغفور شيخ المريدين بلبلة، ويخيره بين إرساله له في الوقت الذي يراه مناسباً «فترى رأيك في إمساكه أو في إرساله وفي وقت ذلك» (و 50).

وقد لازم أبو محمد عبد الجليل بن موسى المعروف بالقصري[20] أبا الحسن ابن غالب وأبو الحسن عبد الملك بن عياش[21] وأخوه أبو بكر عياش. واشتهر بقرطبة أبو خالد يزيد بن عبد الجبار المرواني القرشي الذي تتلمذ عليه عدد كبير من طلبة العلم، منهم ابن العريف[22]. واحتل أبو الحسن بن عامر[23] مركزاً متميزاً بين المريدين في قرطبة وكان لأبي محمد بن يوسف بن الأبار مشيخته بين المريدين وأهل العلم أخذ عنه العديد منهم الصوفي الكبير أبو بكر بن عتيق بن مؤمن الذي لزمه وجمع رسائله وحكمه[24].

أما صوفية الغرب فيبدو أن شيخها كان أبا محمد عبد الغفور بن إسماعيل بن خلف، وكان يقطن لبلة، وقد لازم ابن برجان[25]، وابن العريف وأخذ عنهما، كما رحل إليهما مراراً[26]، ويبدو أن المريدين بمنطقة الغرب لم يكن بعضهم موافقاً أو راضياً عن مشيخة أبي محمد عبد الغفور[27].

وكان الغرب يضم عدداً من زعماء المريدين خاصة في مدينة شلب كأبي

(20) قال عنه ابن الزبير «هو آخر من ختم به بالمغرب باب التصوف على الطريقة الواضحة المقيدة بالكتاب والسنّة».

ابن الزبير: م. س: رقم 44، ص 30، 31.

(21) أصلهم من يابرة واستوطن قرطبة، وقد استكتب أبو جعفر بن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة أبا الحسن وخلى عنده، إلى أن قام ابن حمدين بالثورة فتركه وذهب إلى إشبيلة.

ابن الزبير: م. س: رقم 309 ص 157.

(22) ابن عبد الملك: م. س، سفر 5، قسم 1 رقم 64 ص 26، 27.

(23) ابن الأبار: التكملة رقم 2429 (كوديرا)، ابن الزبير: م. س رقم 302 ص 153.

(24) ابن عبد الملك: م. س سفر 5 قسم 1 رقم 242 ص 127.

وقد قام ابن يوسف بمحاولة إصلاح ذات البين بين ابن العريف والإمام ابن برجان وحمله ابن العريف رسائل بهذا المعنى لإزالة سوء التفاهم الذي حدث بينهما.

ابن العريف: م. س. رسالة رقم 3 إلى ابن يوسف (و 61).

(25) هو أبو الحكم عبد السلام بن أبي الرجال من أهل إشبيلية كان إماماً في علم الكلام ولغات العرب والأدب، عارفاً بالتأويل.

ابن الزبير: م. س رقم 45 ص 32، 33.

(26) ابن الزبير: م. س رقم 52 ص 37.

(27) عرف الشيخ أبو محمد عبد الغفور بالفضل والعلم والكرامات وإجابة الدعاء، وقد تأثر ابن العريف لما يكابده مع المريدين بمنطقة الغرب فأرسل له مواسياً ومشجعاً «وإخوانك ما أجمل بهم أن يعرفوا لك حقاً =

القاسم أحمد ابن قسي[28]، وأبي الوليد بن المنذر[29]، وأبي عبد الله محمد بن سالم[30]، ومن الملاحظ أن معظم زعماء المريدين بالغرب كانوا من أثرياء المولدين الذين تولوا مناصب قضائية أو وظائف مخزنية. وقد ابتنى أحمد بن قسي رابطة بقرية جلة من أحواز شلب يجتمع فيها بمريديه بعد أن تصدق بماله[31]. وكذلك انزوى أبو الوليد بن المنذر في رباط الريحانة على ساحل البحر وتزهد هو الآخر[32].

وقد ربطت الصداقة بين كل من ابن قسي وابن المنذر ومحمد بن سالم واتصلوا بشيخ الصوفية في الشرق ابن العريف. وقد ذكر ابن الأبار[33] أن ابن قسي التقى بابن العريف في ألمرية. ونحن لا نعرف متى كان هذا اللقاء، هل قبل تبادل الرسائل أي قبل عام 529 هـ (1135 م) أم بعدها؟ فالملاحظ أن الرسائل الأولى التي وجهها ابن العريف إلى كل من ابن قسي وابن المنذر، وابن سالم لا تدل على معرفة سابقة[34].

فهل ابن العريف لم يكن يعرف ابن قسي فعلاً هو وأصحابه؟ أم أنه حاول أن

= بالسن والعلم والإسلام السابق، وما أجمل بك أن قصروا أن تودهم بالرفق بهم، والإحسان إليهم تألفاً وتأليفاً».

ابن العريف: م. س من رسالة لابن العريف إلى أبي محمد عبد الغفور (و 90).

(28) ابن الأبار: الحلة السيراء جـ 2، ص 197.

ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 248.

(29) التادلي: التشوف، رقم 30، ص 287.

(30) كان أحمد بن قسي من المولدين من أصل مسيحي إسباني من بني قسي المعروفين في الثغر الأعلى، والذين انتقل فرع منهم إلى غرب الأندلس، وقد شغل منصب مشرف في الأعمال المخزنية في مدينة شلب، إلا أنه ما لبث أن تصدق بماله وابتنى رابطة بقرية جلة يجتمع فيها بمريديه.

ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص 506.

ابن الخطيب: م. س ص 249.

أما أبو الوليد بن المنذر فهو من بيت قديم من المولدين وأخذ العلم في إشبيلية وتولى عدة مناصب قضائية كان منها خطة الشورى بشلب.

ابن الأبار: م. س ص 202.

(31) ابن الخطيب: م. س ص 249.

(32) ابن الأبار: م. س ص 202.

(33) ابن الأبار: م. س ص 197.

(34) انظر. الرسائل الأولى الموجهة إلى كل من ابن قسي وابن المنذر (و 97، 98)، فمن رسالة ابن العريف إلى ابن قسي يقول: «ذكر لي أبو محمد متحمله - أكرمه الله - إنك تعرفني باسمي، فشغلني فراغي عن معناك، وأن أتعرف منه كيف وصل مثلي إلى هناك، ورأيته خاص الثناء بأبي الوليد بن المنذر، وعام =

يكون حذراً في تعامله مع حامل الرسالة؟ أو أن ابن العريف كان له اسم حركي لا يعرفه إلا خاصة المريدين؟ مما فاجأ ابن العريف أن ابن قسي يعرفه باسم الخاص، فابن العريف لم يكن شخصية مجهولة في الأندلس.

من المرجح أن ابن العريف لم يكن يعرف ابن قسي، فالرسالة الثانية[35] تظهر بداية اهتمام ابن العريف بالتعرف على شخصية ابن قسي. وعلى أية حال فإن ابن العريف لم يتجاوب كثيراً أو قليلاً مع ابن قسي، فكانت رسائله عادية، وتخلو من الاسترسال الذي خص به ابن المنذر والتي تظهر فيها نوع من الود[36]، بخلاف رسائله لابن قسي والتي تظهر وكأن ابن العريف كتبها لمجرد الرد على رسالة وصلته من شخص لا تربطه به صداقة أو ود، ربما يرجع هذا إلى تقارب آراء ابن المنذر السلمية من ابن العريف، بخلاف آراء ابن قسي التي تميل إلى التطرف.

ولكن من هو الإمام أو القطب لجماعة المريدين في جميع الأندلس والذي يسير هذا الحشد من الصوفية أو الفقراء أو المريدين؟ لقد اتضح من خلال الرسائل أن الإمام لم يكن هو ابن العريف كما اعتقد ابن الخطيب[37]، وتابعه بعض المحدثين أمثال آسين بلاثيوس[38] وغيره[39].

= الثناء بعد ذلك على الجملة ـ صان الله جميعهم ـ ورغب في ثلاثة كتب أحدها إلى أبو الوليد، والثاني لرجل سماه لي بمحمد بن سالم، فأجبته على ما كرهته أو أحببته».

ومن رسالة ابن العريف الأولى لابن المنذر «وزعم أني عندك معروف، وبلسان المعرفة والستر موصوف».

(35) كتب ابن العريف لابن قسي «ووقفت من قبل قريبي أحمد ـ سلمه الله ـ عند منصرفه من تلك الجهة، على عدة كراريس في فنون من العلم كتب فيها بعض كلامك وأجوبتك فسرني تمام فهمك، ونفوذ عزمك وإشرافك من علم الحقيقة على إنهاء كتابه فتشابه، بصدق بعضه لبعض».

ابن العريف: م. س: من رسالة 2 إلى ابن قسي (و 97).

(36) كان ابن العريف يخاطبه بـ «عمادي الأعصم»، و«عتادي الأعظم» ونظم فيه شعراً منه:

كلام أبي الوليد ألذ مجرى ... على الأسماع من ملك الوليد
يزيد على بلا الأيام حسنا ... ويرفل منه في كرم جديد
قريب اللفظ والمعنى ولكن ... يجز كل مطلوب بعيد

انظر الرسائل إلى ابن المنذر (و 100).

(37) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 249.

(38) انظر الدراسة التي قام بها آسين بلاثيوس عن ابن العريف في تحقيقه لكتاب محاسن المجالس.

(39) محمد عبد الله عنان: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين ص 466.

فهل كان أبو الحكم بن برجان هو الذي يقصده ابن العريف في رسائله بعبارات «الشيخ الإمام»[40] و«العلماء بالله»، أو كما وصفه بقوله: «فيا له من أخ في الله عم بأصناف تلاوين العلوم، فهو طاووس علمائهم، وخص بأنواع غوامض محاسن الفهوم فهو ناموس فهمائهم»[41].

وقال ابن الزبير[42] عن ابن برجان أنه كان «إماماً في كل ما ذكر، لا يماثل بقرين» ووصف كتبه وتفسيره بالغموض والإبهام، فلا يصل إلى مقصوده إلا من فهم كلامه»..

وذكر ابن الأبار تفوق ابن برجان على ابن العريف، وأبي بكر الميورقي فيقول: «ولأبي الحكم الشفوف عليهم، حتى قيل فيه غزالي الأندلس».

وأضاف الشعراني[44] بأنه خُطب لابن برجان في حوالي 130 بلدة أي أنه بويع إماماً في كل هذه البلاد.

لم تفصح رسائل ابن العريف عن شخصية الإمام صراحة، ولكنه خص ابن برجان وحده دون جميع مراسليه بمخاطبته بـ «الشيخ الإمام»، «الشيخ الفاضل الإمام» «الشيخ إمامي وكبيري»، و«الفقيه الإمام»، و«الشيخ واحدي نظراً، ومتقدمي تسليماً ومعتبراً»[45] وابن برجان هو الذي كان من هَمّ ابن العريف أن تصله رسائله «بما يتحرك له حامل براهين السمع مني حركة تحول بين النفس وهواها، وتورثها الحياة من مولاها»[46] ويخاطبه بقوله: «من المقتبس منه، المتطلع إلى ما لديه»[47]. وابن برجان هو الوحيد الذي انتظر ابن العريف دعاءه والإعلام بمحبته ومودته، وهو وحده الذي

---

(40) اقرأ البحث الذي نشره الراهب بولس نويا عن بعض رسائل ابن العريف في مجلة الأبحاث الجامعة الأمريكية ببيروت ـ عدد 27 سنة 1978، 1979 ابتداء من ص 43).

(41) من رسالة لابن العريف إلى ابن الكبش رقم ؟، (و83).

(42) ابن الزبير: م. س رقم 45، ص 32.

(43) ابن الأبار: المعجم رقم 14، ص 18.

(44) الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ 1 ص 15.

(45) راجع رسائل ابن العريف إلى ابن برجان وابن الكبش، (و29)، (و 81 :84).

(46) نفسه (و 29).

(47) نفسه. رسالة 3 (و 29).

ترقب إشارة من إشاراته[48]. ويخاطبه به «المقتبس منه المتطلع إلى ما لديه» أي أن ابن برجان هو القطب والإمام الذي يقتبس منه سائر المتصوفة المريدون علمه وحكمته.

وأخيراً فابن برجان هو الوحيد الذي يدعو له ابن العريف بهذا الدعاء «اللهم صل حقيقة الشيخ إمامي وكبيري بوجود حقيقة المعرفة بك، والتعرف منك، واجعله لمعالم طهارات النفس زماماً، ولأعلام الهدايات إماماً»[49]. واستحلفه ابن العريف في رسائله بقوله: «وأنت يا إمامي بحرمة الشيب اذكرني»، وطلب منه أن يدعو له بالتوبة[50].

فابن برجان هو شيخ صوفية الأندلس وإمامهم، وقد اتخذ من مدينة إشبيلية مقراً ومقاماً له، وكان من المقربين إليه بإشبيلية أبو محمد الإشبيلي المعروف بابن الخراط[51] ويبدو أنه هو الشاب محمد الإشبيلي الذي كان يحمل الرسائل من وإلى ابن برجان، ومن طلاب ابن برجان ومريديه الزاهد أبو عبد الله بن المجاهد[52].

كان المريدون على ما يبدو أجنحة مختلفة في الآراء والأفكار فغالبية هؤلاء الصوفية كانت من أنصار الالتزام بالكتاب والسنّة، وكان على رأس هؤلاء ابن

---

(48) «فوصل من ذلك دعاؤه، وكتابه، وخطه، وإعلامه بالمحبة والمودة لي، وكل ذلك من آثار ما سألته، جل اسمه فيه ولم يكن عينه، فإني كنت آمل إشارة من إشاراته علمية أو عملية».

ابن العريف: م. س. (و 29).

(49) ابن العريف: م. س. من رسالة إلى ابن برجان رقم 3، (و 29).

(50) يقول ابن العريف في رسالة إلى ابن برجان رقم 2 (و 29):

فأرغب أن لا أخلو من بال الشيخ، ودعائه، في توبة صالحة صادقة، وفراغ لإقامة فرض شافع نافع، فتح الله لي في مبرتك ونفعني بمعرفتك ومحبتك برحمته».

(51) كان بجانب اشتهاره بالزهد والورع فقيهاً، حافظاً، عالماً بالحديث وعلله، عارفاً بالرجال.

ابن فرحون: م. س ص 175، 176.

(52) قال عنه ابن عبد الملك: كان واحد وقته، زاهداً في الدنيا، واجتهاداً في العبادة وتمكن الورع الصحيح، وتوقى الشهرة والرغبة في الخمول والإيثار بما عنده، معدوداً في الأولياء ذوي الكرامات الشهيرة والبراهين الصالحة والمكاشفات وإجابة الدعوات».

ابن عبد الملك: م. س، سفر 5 قسم 1 رقم 1261 ص 666.

ابن فرحون: م. س ص 227.

العـريف[53]، وأبي الحسن بن غالب[54] وأبـو محمد عبـد الجليـل المعـروف بالقصري[55]، وأبو محمد عبد الغفور[56].

أما الجناح الثاني فكان يميل إلى المذهب الظاهري ويتزعمه أبو بكر محمد بن الحسين الميورقي[57]، وأبو عبد الله محمد بن خلف المعـروف بأبي عبـد الله الشبوقي[58].

أما الجناح المتطرف فكان يتزعمه على ما يبدو بعض صوفية الغرب وعلى رأسهم ابن قسي، وهذا الجناح هو الذي يميل إلى المذهب الباطني، يقول ابن الخطيب[59]، «وكثر خوضهم في الكتب التصوفية، وموضوعات الغلاة الباطنية، والكلف برسائل إخوان الصفا، وأمثال ذلك»، ويذكر ابن الأبار[60] أن ابن قسي أقبل على قراءة كتب أبي حامد الغزالي في الظاهر، لكي يجذب إليه الناس، ثم ينشر أفكاره الثورية بينهم.

وقد حاول الشيخ الإمام أبو الحكم بن برجان أن يوازن بين هذه الآراء المتعارضة ويوفق بين أجنحة المريدين، ويكبح جماح المتطرفين إلى حين، وذلك بعدم التعمق في الباطنية، أو الانتصار السافر للظاهرية[66]. وكان لكثرة الفريق المؤيد

---

(53) كان ابن العريف يؤكد على أصحابه من المريدين في رسائله بالتزام السنة فيقول: «وتكلف ما يرافق السنة من الظن الجميل» وفي رسالة أخرى يظهر موقفه من الباطنية والظاهرية فيقول: «وكلتاهما أعني الباطنية والظاهرية تنافرهما الحقيقة».

ابن العريف: م. س من رسالة إلى سيد المالقي (و 81)، ومن رسالة إلى محمد بـن يوسف (و 65).

(54) يقول عنه ابن الزبير «كان من سنية المتصوفة المتبعين المقتفين آثار السلف الصالح والمهتدين بهديهم، شديد التمسك بالكتاب والسنّة.

ابن الزبير: م. س رقم 201 ص 99.

(55) م. س رقم 44 ص 30.

(56) م. س رقم 52 ص 37.

(57) قال عنه ابن عبد الملك «ظاهري المذهب داوديه».

ابن عبد الملك: م. س سفر 6 رقم 452 ص 169.

(58) م. س: رقم 498 ص 181.

(59) ابن الخطيب: م. س ص 249.

(60) ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ 2 ص 197.

(61) يقول ابن الزبير إن ابن برجان كان متقيداً في نظره بظواهر الكتاب والسنّة، بريأ من عمق الباطنية، بعيداً =

للالتزام بالكتاب والسنّة أن استطاع هذا الجناح كبت الأصوات التي تنادي بالعنف، على الأقل في حياة ابن برجان وابن العريف.

ويبدو أنه حدث ما عكر العلاقات بين الإمام وبين شيخ المريدين في الشرق ابن العريف، ونجح البعض في تغييره نحو ابن العريف، ويغلب أن الذي تسبب في الأزمة أحد أصدقائه(62). وقد قام بمحاولة إصلاح ذات البين صديقه محمد بن يوسف(63)، والشيخ محمد بن الكبش(64) الذي نجح في إعادة العلاقات بين الإمام وابن العريف إلى ما كانت عليه، فعلى ما يبدو أن ابن الكبش كان الرجل الثاني بعد الإمام بين المريدين.

ولكن ترى ما هو السبب أو الأسباب التي أدت إلى غضب الإمام على ابن العريف وجعلته يتهمه بالجهل وبسقوط منزلته عند سائر المريدين(65). هل قول ابن العريف عن وجوب انصراف المريد للعبادة والزهد في الدنيا، بل الزهد في كل

= عن قحية الظاهرية، شديد التمسك بالكتاب والسنّة، جارياً في تأويل ذلك على طريقة السلف وعلماء المسلمين، وما عليه السواد الأعظم، ثم مبدياً من وجوه التأويل وفهم آيات التنزيل، ما يجري مع المعروف، ولا ينافر المألوف من غير تعارض ولا مخالفة».

ابن الزبير: م. س رقم 45 ص 32.

(62) يقول ابن العريف في رسالة له إلى جماعة المريدين بقرطبة «ما رأيت عدواً أعدا من صديق كان لي، كان يمد جنبي عند المعارضين والمنافقين، ولا بدّ في كل إنسان من شيء، فيغريهم بكشف عيوبي في غيوبي، وأن يفتعلوا من ذلك ما ليس عندي».

ابن العريف: م. س (و 77).

(63) انظر رسائل ابن العريف إلى ابن يوسف ورد ابن يوسف عليه في طريق السعادة (و 60 :62).

(64) لم أعثر له على ترجمة، ويبدو أنه كان يحتل مركزاً كبيراً بين المريدين وله منزلة كبيرة عند الإمام، وهو الوحيد من بين الأسماء المذكورة في مخطوط طريق السعادة الذي يخاطبه ابن العريف بـ «شيخي وكبيري»، و«عالمي وكبيري»، ولم يخاطبه بالإمام أو غيرها من العبارات التي اختص بها ابن برجان.

راجع الرسائل الموجهة من ابن العريف إلى ابن الكبش (و 80 :81).

(65) قال الإمام لابن يوسف محتداً عن ابن العريف «وأنا له السيادة وكيف يتخيل طرق العادة، هو عبد توهم الحرية، وخرج بعد وجود الخوف من رق العبودية».

من رسالة ابن يوسف إلى ابن العريف (و 62).

كما أبلغ ابن يوسف أن يُبلغ ابن العريف «باشتهار جهلك، واحتقار شانك وسقوط منزلتك عند سائر أصحابك وإخوانك».

راجع الرسالة السابقة، رسالة ابن العريف إلى أبي الحسن عامر بهذا الشأن (و 94، 95).

شيء[66]؟ أو مقالته في النفس والعقل واحتقارهما[67]؟ أم أن السبب هو رأي ابن العريف في كيفية معالجة الانحراف، أو محاربة المنكر[68]؟ أو آراء ابن العريف في التأويل[69] أم هو موقفه من علماء السوء وكبراء أهل الدنيا المغترين بها في جمع الأموال والجاه[70] أم رأيه في الفلسفة والفلاسفة، وأنه متى ظهرت انتشر الدين الوهمي الذي يظن به أنه هو الدين الحق[71] أم هو المنافسة والصراع بين أجنحة المريدين، وحسدهم لمكانة ابن العريف الذي كثر أتباعه ومريدوه[72].

---

(66) يقول ابن العريف «وإني والله لو رأيت ولياً لله يمشي على الماء أو في الهواء، أو يعطى القوة في جميع الأشياء حتى يبلغ ذروة السماء، وفهمت منه أن يشتغل بذكر خطة من خطط الدنيا، وتتعلق بوهمه أو تتصور في فهمه، ما وثقت بشيء من حاله ولعلمت أن حقه ممزوج بمحاله.

انظر رسالة ابن العريف لابن غالب رقم 4 (و 33).

وراجع: محاسن المجالس لابن العريف.

(67) يقول ابن العريف: «إن الذي يصد بواعث القلوب عن تحقيق ما تذكره الألسنة من المودة والمحبة، نفس تخاف وعقل يعاف، وليس عند النفس إلا الرياء والجهل، ولا عند العقل إلا الرياسة والدهاء، فإن النفس من شأنها أن تكتم عيبها، وتجفو من ترى أن يرى غيبها، والعقل يتداهى ليظهر أنه تناهى وفي مثلها تخرس الأقلام والألسنة، وعندها تحمد اليقظة والسِّنة، فيسكن القلق، ويتمكن القلق وتموت الأعمال حين أودى ببواعثها في تيار النفيسة، ورؤيتها العرق. فأما الساكت بعلم وحلم فإطراقه شفقة وإمساكه صدقة ولو شاء لنطق جمعاً ولا تفرقة وأما الساكت بإيمانه فسكوته أدب أو غضب وهذا أطلقهم عذبة لسان وأوسعهم جلبة بيان، فإن الإيمان معدن التفضيل، ومقر إطلاق الألسنة بالحسن الجميل، وأما ساكت الحياة والهيبة فموقوف لا متوقف، ومحمول لا متكلف يتلوه شاهد فيه، وقد استغنى أن يعتذر أو يعتذر عنه.

من رسالة إلى ابن يوسف (و 60).

(68) يقول ابن العريف: «من رأى منكراً ظاهراً بيناً فعليه بخاصة نفسه، فإن المشغول بعين الفريضة من حال نفسه وإن كان عالماً أو حاكماً، لا يجب عليه ذلك، فكيف بمن ليس بعالم ولا حاكم، ولا صديق ولا رفيق». وبين كيفية تغيير المنكر «على الحاكم بالشرط وما في معناه، وعلى العلماء بالنصيحة والتبيين، وعلى الأصدقاء بالرفق والنصيحة وإلا صارت فضيحة».

من رسالة لابن العريف إلى مجموعة قرطبة (و 73).

(69) يقول في التأويل: «ومن تأول شيئاً من الدين تأويلاً يؤدي إلى العمل ما دون الوجهين فهو الظاهري، ومن تأول في شيء من الدين تأويلاً خارجاً عن حكم ذلك الشيء وحكمته والمعروف المشهور والمتصور من أمره فهو الباطني، وكلاهما تالف إلا من عصم الله تعالى».

من رسالة لابن العريف إلى جماعة قرطبة (و 72) أما رأيه في الظاهرية (و 16).

(70) ابن العريف: م. س (و 21).

(71) نفسه (و 16).

(72) يقول ابن بشكوال صديق وتلميذ ابن العريف عنه «كان متناهياً في الفضل والدين، منقطعاً إلى الخير، =

ومهما كان السبب فيبدو أن الأمر كان يتعلق بتمسك ابن العريف بالالتزام بالكتاب والسنّة وتفرغ المريد للعبادة والزهد في الدنيا، وأن يكون تغيير المنكر على الحاكم بالشرط وما في معناه، وعلى العلماء بالنصيحة، والتبيين، وعلى الأصدقاء بالرفق والنصيحة، والأهم أن يبدأ الإنسان بإصلاح نفسه.

ب) مرحلة الاغتيالات ومطاردة السلطة:

تعرض المريدون وشيوخهم للمراقبة الشديدة من جانب السلطة خاصة في عام 529 هـ (1134 م) كما يبدو من رسائل ابن العريف، وأصبحت تحركاتهم محسوبة عليهم، تخضع لعيون رجال الأمن واستفساراتهم وتعرض البعض منهم للملاحقة والسجن، فسجن الصوفي المعروف أبو الحسن سيد المالقي[73]، وامتحن صاحب وصديق ابن العريف أبو بكر بن نمارة بالسجن[74]، وغرب الشيخ أبو عبد الله بن الشبوقي عن الأندلس واعتقل بسجن مراكش[75].

وقد استطاع البعض أن يفلت من المراقبة وأن يلجأ إلى أماكن لا تثير الشبهات[76]. بل لقد وصل الأمر أن تعرضت إحدى النساء للتعذيب، ربما لإجبارها على البوح بأسماء معينة تعرفها، أو الإدلاء بمكان بعضهم، وبلغ من صبر وشجاعة هذه المرأة، وثباتها للتعذيب أنهم اقتلعوا عينها، ومع ذلك لم تبح لهم بشيء، ولم يحصلوا منها على أية معلومات[77].

= وكان العباد وأهل الزهد في الدنيا يقصدونه ويألفونه، فيحمدون صحبته».

ابن بشكوال: الصلة جـ 1 رقم 176 ص 83.

ابن فرحون: م. س، ص 58.

(73) انظر رسالة ابن العريف إلى سيد المالقي عندما سجن (و 79، 80).

(74) ابن عبد الملك: م. س سفر 6 رقم 26، ص 17.

(75) نفسه: رقم 498 ص 181.

(76) يرسل ابن العريف إلى الإمام ابن برجان في إحدى رسائله «فلما كدت أيأس فرج الله عني على لسان بعض من ورد علينا، فأخبرني ووثقته وصدقته أنه لقي بالفيافي والقفار، قوماً لا يؤبه لهم في البلاد إذا دخلوها، ولا تعرف لهم أعيان بوجه.

ابن العريف: م. س رسالة ابن العريف لابن برجان رقم 1 (و 27).

(77) يقول ابن العريف في رسالة إلى ابن غالب: «فلما بلغني ما صنعته أم فلان ـ صان الله ذكرها ـ وهم =

وفي رسائل ابن العريف ما يؤكد على أن حالة الأمن لم تعد كما كانت[78]، وأن الرقابة اشتدت حتى أن الخطابات صارت تتعثر في الوصول إليهم[79]، بل لقد وضع ابن العريف هو أيضاً تحت المراقبة، حتى أنه يطلب من أحد زعـمـاء المريدين ألا يذكر اسم المرسل أو المرسل إليه، وأن يرسل الخطاب مع حامله بدون عنوان[80]، وبرغم هذه الرقابة الشديدة على تحركاتهم فقد كان ابن العريف وغيره من زعماء المريدين يحاول الاطمئنان على الإخوان مهما كانت المخاطر[81].

ولكن ما هو الحدث الذي أدى إلى موقف السلطة هذا؟ هل هو مهاجمة النصارى لنواحي الغرب وإشبيلية، وقرطبة؟ ولكن إبان هذه الفترة أي عام 529 هـ كان المسؤول عن الأندلس الأمير تاشفين بن علي وقد نشط في جهاده ووفق في معظم حروبه مع النصارى «فأحبه أهل قرطبة خواصها وعوامها، فبعد صيته، وعلا ذكره، وساس أهل الأندلس سياسة طار بهـا ذكره من الاستقامة واتباع أمور الشريعة[82]، كما إن حالة الجهاد ضد هجوم النصارى كانت أمراً مألوفاً.

= يفقأون عينها، ويريدون شينها من دعائه ورغبتها إلى من لا يوجد في الشدائد سواه في المغفرة لهم ـ طابت جهتي للجملة، وعلمت أن مصاباً لم يكدح في أسرار القلوب هين في لسان التغذية وإن كان شديد في لسان التوفيه».

ابن العريف: م. س (و 52).

(78) أرسل أحد المريدين رسالة لابن العريف يعرفه بنزوله في كنف ابن برجان في إشبيلية غير أنه يفكر في الرحيل إلى شرق الأندلس لأن حالة الأمن لم تعد كما كانت، فأرسل ابن العريف يعرف ابن غالب بالأمر قائلاً: «وأن رأيه (أي المريد أبو عبد الله بن محفوظة) في الأمن بخلاف ما كان، وهو الذي منعني من مخاطبته في الوصول إليكم». من رسالة لابن العريف إلى ابن غالب رقم 20، (و 57).

(79) كتب ابن يوسف في إحدى رسائله إلى ابن العريف «وقد انسدت السبل دون أملي والمسالك منعتني من مراجعة الشيخ ـ رضي الله عنه ـ وقد قال جوابك لا بد منه».

ابن العريف: م. س (و 62).

(80) كتب ابن العريف إلى ابن يوسف «جوابك لا بد منه، ذلك أن تكتبه مهملاً، لا عنوان له، وذلك أن تعنون بما لا ضرر عليك». (و 61).

(81) كتب ابن العريف إلى ابن غالب للإطمئنان على الإخوان «وإياك أن يزهدك في طلبهم والبحث عنهم حيث كنت أو كانوا، خوف عليك أو عليهم، فإن نصر الله ظاهر قريب واعلم أنهم القوم المرحوم سواهم بهم، وإن شاء إليهم». (و 53).

(82) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ 4، ص 79.

يبدو أن أموراً أخرى قد استجدت حتى أن الأمير علي بن يوسف طلب من ابنه تاشفين أن ينتقل إلى قرطبة ويتخذها مقراً له، ويسهر جيداً على أمور البلاد والعباد، ويأخذ حذره ويستعين بحسن المشورة في مواطن الاشتباه[83].

وهل كان لحادث اغتيال القاضي أبي عبد الله محمد بن الحاج[84] قاضي الجماعة بقرطبة، علاقة بما حدث للمريدين؟.

ووصف ابن عذاري الحادث بشيء من التفصيل إذ قال: «أكب عليه وهو في المسجد الجامع، وهو في السجدة الأولى من ركعتي الجمعة، فضرب بخنجر فصرخ، وقطعت الصلاة، وبطش بالضارب، وحز رأسه، فرفع على عصا، وشهر رجل آخر سيفاً فقتل به، وألحق بصاحبه. وهرج الناس في الجامع، لا يعلم أكثرهم ما حدث فيه، ثم انزعجوا إلى المقصورة فسدت أبوابها ومنعوا فيها، وشهر المرابطون أسلحتهم، وأخرجوا أميرهم تاشفين على باب الساباط، وحمل القاضي في نعش، فقضى عند العصر»[85].

---

(83) أرسل أمير المسلمين علي بن يوسف إلى ولده يقول له: «واجعل قرطبة دار سكناك وقراره مثواك، وعلى مقدار ما زدناك من العمل، فازدد من التيقظ، لاتساع ذرعك وامتداد مسعاك، واستعن بالله في إعلانك وأسرارك، وخذ من أوقات ليلك لأوقات نهارك، واجعل لنظرك حظاً من سهرك، ولفكرك مستمنحاً من تدبرك، واستظهر بحسن المشورة في مواطن الاشتباه».

ابن عذارى: م. س ص 87.

(84) قال عنه ابن بشكوال: «كان من جلة الفقهاء، وكبار العلماء، معدوداً في المحدثين والأدباء، بصيراً بالفتيا، راسخاً في الشورى، وكان له مجلساً بالجامع بقرطبة يسمع الناس فيه، وكان في ذاته ليناً صابراً، ظاهراً حليماً متواضعاً، لم يحفظ له جور في قضية، ولا ميل بهوادة، ولا أصغى إلى عناية».

ابن بشكوال: م. س رقم 1278 ص 550.

النباهي: المرقبة، ص 102.

(85) ابن عذارى: م. س ص 93.

بينما ذكر ابن الأبار أن البعض تحدث عن سبب مقتل ابن الحاج بأنه عين في أحد مساجد قرطبة إماماً بدل الإمام الذي توفي، وأسكنه في دار المسجد كما هو متبع في مثل هذه الحالات وكان يطمع في هذه الوظيفة ابن الإمام المتوفى وهو غير صالح لتولي هذا المنصب. (ابن الأبار: المعجم، رقم 102، ص 114).

ولكن هذه الرواية ضعيفة لأن ابن الإمام المتوفى كان معروفاً باسم أبو عامر وهو أشقر به برص، والجاني الذي قتل والشخص الآخر لم تعرف أسماءهم ولم تكن بهم هذه الصفات.

يظهر من وصف ابن عذاري للحادث أن الجاني لم يكن وحده وإنما كان هناك من يحميه أو يحاول أن يسهل له الفرار، إلا أنه قتل عندما شهر سيفه، ولكن أليس من المحتمل أن يكون هناك أكثر من هذين الشخصين؟ فلما فشلت المحاولة هرب الجميع منتهزين الاضطراب والهرج الذي حدث مما جعل ابن العريف[86] يستغرب في خطابه لابن يوسف «ليس العجب ممن هلك كيف هلك، إنما العجب فيمن نجا كيف نجا، ومن أين سلك؟».

فهل كان المقصود بالاغتيال قاضي الجماعة بقرطبة ابن الحاج؟ أم أن المقصود كان الأمير تاشفين بن علي؟ لقد انتهز الجاني فرصة سجود جميع المصلين وقام بطعن القتيل، فربما التبس عليه المقصود بالقتل، وقد ضاعت الحقيقة بمقتل الجاني وصاحبه، وفرار الآخرين إذا كان هناك آخرون، ومن بالنجاة على الجناة في مبارك العطب وأعطانه واستقر السر وبطن، ولما عاين العارف بحر الأقدار عم جميع الأقطار بأنواع المكابرة والأقدار، والكل سابح غريق في حال الهلاك أو هالك، والفار يتوهم إسكان الفرار، كالمستجير من الرمضاء إلى النار»[87].

ومهما يكن من أمر فقد كان لهذا الحادث رد فعل قوي سواء في قرطبة أو في غيرها من مدن الأندلس، والتطخت قرطبة بما لم يشتمل عليه ديوانه، ولا بدر في زمان من اغتيال قاضٍ عدل فقيه خير، جامع لأعمال البر، قتل مظلوماً ساجداً يوم الجمعة[88].

ثم كان الحادث الثاني بعدها بأسابيع قليلة، عندما اقتحم عامة قرطبة الحي الذي يقطنه اليهود فاقتحموا منازلهم وانتهبت أموالهم، وقتل عدد منهم، وقيل إن سبب هجوم العامة هو العثور على جثة شخص مقتول بينهم[89]. وبالرغم من عدم التأكد مما إذا كان هذا الشخص قتل خارج حي اليهود وألقيت جثته فيه، أم أنه قتل فعلاً في حي اليهود، فقد شكل هذا الحادث خطورة على الأمن في قرطبة التي تعود أهلها على الشغب.

وفي نفس الوقت حدث حادث له دلالاته وهو الاعتداء على القاضي أبي بكر

(86) ابن العريف: م. س من رسالة إلى ابن يوسف (ورقة 69).

(87) ابن العريف: م. س من رسالة لابن العريف إلى ابن يوسف (و 69).

(88) ابن عذارى: م. س ص 93.

(89) نفس المصدر: والصفحة.

ابن العربي قاضي الجماعة بإشبيلية، إذ هاجمه البعض واعتدوا عليه، وقيل إن سبب الاعتداء، شدة ابن العربي في معاقبة الجناة ومحاربة الفساد[90]، فهل حادث الاعتداء على القاضي ابن العربي له صلة بالمريدين؟ لقد عرف عن القاضي ابن العربي ميله إلى المرابطين وسيره في ركابهم، حتى أن الزاهد أبا عبد الله بن المجاهد الإشبيلي شيخ الصوفية بها انقطع عن دروسه، فلما سُئل عن سبب انقطاعه قال: «كان يدرس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان»[91].

فإذا كانت هذه الحوادث من فعل بعض المريدين، فهم على ما يبدو من ذلك الجناح المتطرف، خصوصاً أنه في هذه الفترة كثر الحديث عن نجاح دعوة المهدي ابن تومرت وانتصارات الموحدين[92] في المغرب ويبدو أن الخوض في هذه المسألة كان أكثره في منطقة الغرب وإشبيلية وقرطبة، ولذلك كان التشدد في الرقابة على كل من خرج من هذه المناطق، وتتبع اتصالاته[93]، وهل كان ابن يوسف يعلم شيئاً عن هذه الحوادث؟ مما اضطر ابن العريف أن يرسل إليه يطلب منه الصمت مهما حدث، ويأمره بعدم القيام بأي عمل دون مشاورة[94].

يبدو أن حدة الصراع قد اشتدت بين أجنحة المريدين بسبب تورط البعض في أحداث تسببت في مطاردة السلطة لهم، وقد كثر الحديث بين الجناح المتطرف على الخصوص بشأن تغيير الحكم واستعمال القوة من أجل التغيير[95]، ونالت ألسنتهم بعض شيوخ المريدين الذين كانوا يرون الإلتزام برأي الجماعة ونهج طريق المسالمة

---

(90) ابن عذارى: م. س ص 93.

(91) ابن عبد الملك: م. س سفر 5 قسم 1 رقم 1261 ص 666.

(92) أرسل ابن العريف إلى ابن المنذر رداً على تساؤله عن المهدي قائلاً: «والقدح في الدول وانتظار مهدي يصلح به، لا يعتقده حصيف، ولا يظن مثله بمسلم إلا ضعيف».
من رسالة إلى ابن المنذر (و 98).

(93) انظر رسالة ابن العريف إلى ابن غالب رقم 20 (و 57).

(94) أرسل ابن العريف إلى ابن يوسف يقول له: «امسك لسانك ولو مت، وتعلم من وقت حروفي هذه ووصولها إليك، العقل ـ لا تعمل عملاً إلا بمشاورة مسلم تجد في رأيه البركة، وعلامته ألا يشير عليك إلا بما يحبيك إلى أهل السموات والأرض جميعاً، ويحقق حالك في محمود الظاهر والباطن».
من رسالة لابن العريف إلى ابن يوسف (و 70).

(95) استنكر ابن العريف هذا الرأي: الإنكار على السلطان «لأنه حجة الله ولا ينبغى أن ينكر عليه شيء من قوله أو عمله إلا بشرط منها الستر، والسر، والرفق، والعلم الكامل، وارتفاع التهمة وسلامة النية وأن لا =

حتى لا تحدث فتنة[96]، وقد هاجموا ابن العريف ومن نحا طريقه من شيوخ المريدين وكادت تحدث فتنة تقضي على الجماعة كلها، مما جعل ابن العريف يرسل عدة رسائل إلى جماعة قرطبة يطلب منها التعقل والوعظ برفق والابتعاد عن العنف[97]. كما يؤكد على ابن المنذر بألا ينساق وراء الدعاوى المضللة وعدم الإنكار على السلطان[98]، وكان ابن العريف[99] يرى أن التفكير في تغيير الحكم وتبديله، بدعوى أن يأتي حكم آخر أصلح من سابقه هو تفكير خاطىء.

وتتأزم الأوضاع بين فرق المريدين بين مؤيد لآراء ابن العريف ومعارض لها، مما يضطر الإمام ابن برجان إلى التدخل، ويستدعي ابن العريف للقائه بإشبيلية، غير أن ابن العريف يعتذر بمرضه وكثرة مسؤولياته وضيق ذات اليد[100]، خصوصاً بعد أن تأكد من حامل رسالة ابن برجان بخطورة السفر[101].

= يراد بذلك إلا وجه الله وحده، يشهد بذلك الأحوال من الناصح والسلطان والوقت».

وارسل إلى جماعة قرطبة يعرفها بحقوق الحكام والفقهاء، ومن في مستواهم فيقول: «وأوكد ذلك حقوق الحكام ثم حقوق الفقهاء، ثم حقوق المنسوبين إلى الستر والصيانة ومن رأى منكراً ظاهراً بيناً فعليه بخاصة نفسه».

من رسالة إلى جماعة قرطبة (و 73).

(96) أرسل ابن العريف إلى ابن المنذر مسفهاً لآراء المهاجمين وأنصار استعمال القوة قائلاً: «من الناس - أكرمك الله - ضعيف الحلم، قليل العلم لا يعرف أصول الدين ولا يميز حقائق اليقين، ولا يفهم مجاري أحكام الله سبحانه في خليقته لإعجابه بحاله وطريقته، يهجم على أهل الفضل والورع، ويسالم أهل الأهواء والبدع» من رسالة إلى ابن المنذر (و 99).

(97) كتب ابن العريف «لا تكونوا ممن إذا وعظ عنف، وإذا وعظ أنف، وتزينوا بالرفق، ولا تشينوا أعمالكم بالعنف».

من رسالة إلى جماعة قرطبة (و 79).

(98) كتب إلى ابن المنذر «فلا يكنن شيء أحب إليك من تعلم المسالمة» (و 98).

وفي رسالة أخرى لابن المنذر «فكن كما أنت في إكرام الكبراء، وإنعاش الفقراء ولا تبالي بمن عاداك ظالماً لك» (و 100).

(99) يقول ابن العريف: «بكى الناس في ملك بني أمية، وتكلموا فيه حتى تكلموا في المهدي، فانقضى ملك بني أمية، وظهر المهدي فإذا هو ملك بني العباس، وحين ظهر، وقع الناس في الندم، وبكوا على ملك بني أمية بالدمع والدم، ورأوا من سفك الدماء وانتهاك الحرم خلاف ما ظنوا، ولا يقدر قدره إلا الله تعالى».

(100) من رسالة إلى ابن المنذر (و 99).

انظر رسائل ابن العريف (و 28).

وازداد اللغط والكلام حول المريدين، وارتفعت الأصوات تحذر السلطان منهم، يقول ابن الخطيب[102]: «وكثر جمعهم ووقع الحديث بهم، وحذروا صاحب الدولة فتفرقوا». فنشطت سلطات الأمن في تتبع المريدين، وتضاعفت المراقبة خاصة في منطقة الغرب. وتمكن ابن قسي من الفرار واختفى في قرية الجوزة من قطر ميرتلة[103]. وقبض على طائفة من أصحابه منهم أبو الوليد بن المنذر. ولكن ما لبث أن أطلق سراحه، بينما أزعج الباقون إلى إشبيلية[104]. وصار رجال الأمن يشكون في أي شخص من المريدين أو أي تجمع، بل أصبحت العزلة نفسها مريبة ومحل تساؤل[105]. وانقطعت الرسائل تقريباً من جهة إشبيلية مقر الإمام وبقية مراكز المريدين. مما اضطر ابن غالب للسفر إلى إشبيلية حتى يكون قريباً من الأحداث وطلب منه ابن العريف أن يكتب له بكل شيء يسمعه مهما كان تافهاً، والتحري والكشف عن أحوال المريدين[106].

ويعلم ابن العريف بالأخطار التي جرها عليهم تهور هؤلاء المتطرفين من المريدين وأصبحت الفتنة متوقعة لا محالة فيقول: «سال سيل الفتنة، ونحن طريقه، وعشى ليل المحنة وفينا فريقه، وانخسفت الأرض، فيها المسيء والبريء، فعمهم الله بالعدل فيما جاء، ويخص خاصتهم فيما يجيء»[107].

---

(101) أرسل ابن العريف لابن مؤمن يقول: «ورد كتاب الشيخ نور الله بقلوب أحبائه الأرض وزين لهم العرض ومضمونه بطريق التعريض سفري إليه - وعرضت الأمر على حامله فوجدت الذنوب قيدتني».
من رسالة إلى أبي بكر بن مؤمن (و 107).

(102) ابن الخطيب: م. س ص 249.

(103) نفسه، ص 250.

(104) ابن الأبار: الحلة جـ 2 ص 203.

(105) يقول ابن العربي: «وإن انفردت اليوم لم تجد صاحباً، وإن وجدتهم تطرقت إليهم التهمة، وتعرضوا بأنفسهم للهلكة». ابن العربي: سراج المريدين (و 74).

(106) كتب ابن العريف إلى ابن غالب يقول: «واعلمني بما خفى عليك من ذلك، وتردد عليهم في الوصية في الغائبين والحاضرين عليهم والبحث عن أحوالهم، والفتش عن أسرارهم وأن يخاطبوك بما دق من ذلك وجل، فإن المخبوء إن لم يطلب لم يوجد».
ابن العريف: م. س (و 49).

(107) من رسالة لابن العريف إلى سيد المالقي (و 80).

وقد أثارت آراء ابن العريف عليه طبقة الفقهاء والقضاة الذين سماهم «علماء أهل السوء وكبراء أهل الدنيا المغرورين»[108]، خصوصاً في شرق الأندلس، وعلى الأخص في ألمرية، وتزعم الحملة ضده قاضي قضاة الشرق أبو بكر محمد بن أسود[109]، وقد أثارته آراء ابن العريف، وحسده على منزلته بين الناس وحبهم له، واشتهار أمره بينهم، فاتفق مع فقهاء ألمرية على إنكار مذاهبه، وسعوا به إلى أمير المسلمين، وحذروه من جانبه[101] مع أن سلوك ابن العريف وآرائه كما يتبين من رسائله تدل على التزامه بالكتاب والسنّة، والإلحاح على مريديه باتباع هذا السبيل، وقد نجح القاضي ابن أسود في مقابلة أمير المسلمين علي بن يوسف، وأوغر صدره تجاه ابن العريف، وحرضه على سجنه، وخوفه منه غاية التخويف[111].

ويبدو أن ابن أسود لم ينتظر أوامر أمير المسلمين تجاه ابن العريف، واستطاع إقناع عامل ألمرية بغضب الأمير علي بن يوسف، وحرضه على القبض عليه وإشخاصه إلى مراكش، ولم يكفه ذلك بل أشار على العامل بتكبيله زيادة في الحيطة بدعوى الخوف من هربه، وأرسله على السفينة التي تبحر إلى سبتة[112].

غير أن الأمير علي بن يوسف عندما علم بإشخاص ابن العريف إليه غضب على تسرعهم وأمر بإطلاق سراحه وتكريمه فقد كان يقدر فضله وصلاحه[113].

لم يكن ابن العريف وحده الذي أشخص إلى العدوة، فقد صحبه على نفس

---

(108) استطاع ابن العريف من خلال وظيفته كمحتسب أن يكون على مقربة من الحكام والولاة والقضاة والفقهاء الذين يكنزون الذهب والفضة وقد وصف هؤلاء الفقهاء بقوله: «كان الكبر والفخر والسرور بجمع الدنيا في وجوههم بادياً، وناموا واتكوا بجنوبهم على اللين من أنواع الملبوس، إيثاراً لراحة النفوس، عملاً متمادياً، واعتمدوا بظهورهم على صدور المجالس زهواً على الخواطر المجالس ظاهراً بادياً وأي ظهور لم تثقل بأعباء الدين، ولا نشطت للقيام بأمور المساكين بل خفت واستراحت بطرحها لأثقال الأمانة، وقامت بشرائع أمثالها أهل العجز والخيانة..».

انظر الجزء الخاص بتولي ابن العريف الحسبة لماذا قبلها؟ ولماذا تخلى عنها (و 21 :37).

(109) ابن الأبار: المعجم، رقم 116، ص 126.

(110) نفسه رقم 34 ص 18.

(111) التادلي: التشوف، رقم 18، ص 119.

(112) نفس المصدر.

(113) ابن الأبار: م. س رقم 14 ص 19.

السفينة الشيخ الإمام أبو الحكم بن برجان، الذي أزعج من إشبيلية، ورفيقهم الثالث أبي بكر الميورقي الذي أرسل من غرناطة. ولا ندري إذا كان أمر القبض عليهم صدر في وقت واحد؟ أو أنه اتّفق ترحيل ابن برجان والميورقي على نفس السفينة التي أبحر عليها ابن العريف؟.

نكاد نشك في أن أمر الأمير علي بن يوسف كان يشمل ابن العريف بدليل المعاملة التي عومل بها كل من الثلاثة، فإنه غضب لإشخاص ابن العريف، وأمر بتسريحه، وأحسن استقباله، وأكرمه، وأمر أن يعرض عليه حوائجه[114]. وعندما توفي ابن العريف بعدها بشهور في صفر 536 هـ (أكتوبر 1141 م) وحامت الشبهات حول القاضي ابن أسود وتورطه في وفاته. أمر الأمير علي بن يوسف بأن يموت ابن أسود بنفس الطريقة التي تسببت في موته[115].

في الوقت الذي يأمر فيه أمير المسلمين بجلد أبي بكر الميورقي، ووضعه في السجن[116] بينما كان غضب علي بن يوسف علي أبي الحكم بن برجان كبيراً مما يدل على أنه كانت توجد ضده أدلة واضحة على تورطه في أحداث المريدين، خاصة بعد مبايعته بالإمامة في عدد كبير من مدن الأندلس، وقد سئل عن مسائل عيبت عليه، فأخرجها على ما تحتمله من التأويل، واستطاع أن يتخلص بتأويله من الآراء التي نسبت إليه، ومع ذلك فلم يكن علي بن يوسف مطمئناً إليه، ولم يصفح عنه، حتى أنه عندما توفي بعدها بشهور قليلة من نفس العام الذي توفي فيه ابن العريف[117]، أمر أن

---

(114) التادلي: م. س رقم 18 ص 121.

(115) ذكر التادلي أن ابن أسود حقد على ابن العريف ما حصل عليه من حظوة عند السلطان فسأل عن أحب الطعام إليه فقيل له الباذنجان، فصنعه وعمل فيه السم، واحتال عليه إلى أن أكله فمات، فلما علم السلطان بما كان من ابن أسود في جانب ابن العريف قال: لأعذبنه ولأسمه كما فعل بابن العريف، فبعثه إلى السوس الأقصى وأمر أن يسقى سماً هناك، فامتثل ما أمر به فمات هناك.
ن. م. والصفحة.

(116) عفى الأمير علي بن يوسف عن الميورقي، وأمر بتسريحه، فعاد إلى الأندلس، وأقام بها قليلاً ثم غادرها إلى الجزائر وتوفي ببجاية سنة 537 هـ.
انظر: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، سفر 6 رقم 452 ص 169.

(117) ذكر ابن الخطيب أن وفاة ابن العريف وابن برجان في 537 هـ بينما ذكر ابن الأبار والتادلي وابن خلكان في سنة 536 هـ. =

تطرح جثته على المزبلة ولا يصلى عليه، ومع ذلك لم يصدر أوامره بمنع أو معاقبة من تجمع للصلاة عليه[118].

ويبدو أن هذا التصرف المتسامح للأمير علي بن يوسف شجع الأطراف المتطرفة من المتصوفة على استغلال هذا التسامح.

جـ) مرحلة الثورة:

بوفاة أبي الحكم بن برجان، وأبي العباس بن العريف، وأبي بكر الميورقي في نفس العام الذي أشخصوا فيه إلى مراكش، تخلص المرابطون من أكبر زعماء المريدين، غير أن الميدان أصبح خالياً أمام مدعي التصوف، والتزهد، بل أمام الفئة المتطرفة من المريدين وعلى رأسهم أبو القاسم أحمد بن قسي، فصفى له الجو، وأصبح شيخ الصوفية في الأندلس بغير منازع، فجمع حوله الأصحاب والأتباع، وجذبت مواهبه النادرة إليه كثيراً من المريدين الذين كانوا على شاكلته، أو المريدين الذين انخدعوا في آرائه ومظهره، فكانوا في الظاهر طائفة دينية، أو فرقة صوفية، وفي الحقيقة أداة سياسية استخدمها ابن قسي في تحقيق مطامعه للوصول إلى الحكم، خصوصاً وأن حركة المهدي بـن تومرت قد نجحت في إضعاف المرابطين بالمغرب، وأوشك الموحدون على إنهاء حكمهم.

ادعى ابن قسي كما ادعى مهدي الموحدين أنه على مذهب الإمام الغزالي، الذي قضى فقهاء المرابطين بتكفيره، وأمروا بإحراق كتبه، واعتبروها بدعة يجب القضاء عليها[119]. فكان يقرأ على أتباعه كتب أبي حامد الغزالي ويدافع عن آرائه، ولكنه يختص أصحابه من المريدين بجلسات سرية يدبر معهم فيها أساليب الثورة على المرابطين[120] واتخذ من الرابطة التي ابتناها مكاناً يجتمع فيه بمريديه أو كما وصفهم

= انظر: ابن الخطيب: م. س ص 249.
انظر: ابن التادلي: م. س ص 120.
انظر الأبار: م. س ص 19.
انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ 4 رقم 172 ص 236.

(118) التادلي: م. س رقم 51 ص 170.

(119) د. حسين مؤنس: نصوص سياسية، رسالة تاشفين إلى الأندلس سنة 538 هـ رقم 1، ص 113.

(120) يقول ابن الأبار: «وأقبل على قراءة كتب أبي حامد الغزالي في الظاهر، وهو يستجلب أهل هذا الشأن محرضاً على الفتنة وداعياً إلى الثورة في الباطن.

ابن الخطيب[121] «دائرته التي دارت بها على الأندلس دائرة السوء». واتصل به بعض سراة القوم، وقادة الجند، وكان منهم أبو الوليد بن المنذر[123]. وأبو محمد سيدراي ابن وزير[124].

ويبدو أن ابن قسي كان متأثراً إلى حد كبير بمهدي الموحدين، فادعى الهداية مخرقة وتمويهاً على العامة، وتسمى بالمهدي والإمام، فتتابع الناس إليه بالرحيل، وكثر أتباعه والمعجبين به[125].

وكان آخر عام 538 هـ وبداية 539 هـ (1144/1143 م) بمثابة مرحلة الحسم في حياة دولة المرابطين، فلم يبق إلا خطوات قليلة ويتم للموحدين الإجهاز عليها، فحاول ابن قسي أن يجس نبض القوة المرابطية في منطقته، فأوعز إلى واحد[126] من طائفته بانتهاز الفرصة لمهاجمة حصن منتيقوط[127]، واهتبل الغرة فيه وتغلب عليه في شوال 538 هـ (مايو 1144 م) ولكن المرابطين لم يمكنوه وبادروه بالهجوم وقبضوا عليه وقتلوه[128].

عندما علم ابن قسي بفشل المحاولة ومقتل صاحبه، خاف على نفسه، فهرب إلى قرية الجوزة من قرى ميرتلة، واستقر عند قوم يعرفون ببني السنّة[129] ومع ذلك وجد ابن قسي بعد هذا الهجوم الفاشل، أن الظروف أصبحت مؤاتية له للقيام على المرابطين. فجل القوات المرابطية كانت قد تجمعت في المغرب الأوسط انتظاراً

---

(121) ابن الأبار: الحلة، جـ 2، ص 197.

(122) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 249.

(123) ابن الخطيب: م. س ص 249.

(124) ابن الأبار: م. س ص 203.

(125) يقول ابن الأبار: وكثرت مخاريقه، واشتهر عنه أنه حج ليلته، ويناجى بما شاء، وينفق من الكون».
ابن الأبار: م. س ص 197.
ابن الخطيب: م. س ص 249.

(126) لم يذكر اسم هذا الشخص.

(127) هو حصن منت أقوط من نواحي باجة.
انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان سفر 2 تحقيق عبد الإله نبهان ص 385.

(128) ابن الخطيب: م. س ص 250.

(129) ن. م.

للمعركة الحاسمة مع الموحدين، وبذلك انقطعت الإمـدادات من العدوة إلى الأندلس، واستغل النصارى الفرصة فنشطوا في اجتياح العديد من مدن الأندلس، وتوفرت دواعي الشتات بفترة الخوف وكثرة التعدي في الطرق والدوابر في السبل، والفتك بالرفاق»[130]. فكان موقف المرابطين في الأندلس في غاية الحرج، إذ كان عليهم أن يحاربوا في عدة جبهات في محيط يموج بالفتن والكراهية.

اتخذ المريدون «التهليل والتكبير»[131] شعاراً لهم، و (هذا الشعار الذي اتخذه ابن قسي يجعلنا نتوقف قليلاً، ونتساءل هل ابن قسي هو أول من اتخذ هذا الشعار للمريدين؟ أم أنه كان الشعار الذي يعد له الشيخ الإمام ابن برجان إذا ما نجحت دعوته؟ ففي إحدى رسائل ابن العريف[132] إلى الشيخ محمد بن الكبش يقول: «وردت حاجة أخي أن يكون شعاري ودثاري «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» فإنها كلمة شرف العابدين إلى آخر الباقيات الصالحات» وهذه المراسلات تمت بين ابن العريف وأصحابه فيما بين عامي 525 هـ، 529 هـ (1130/1134 م) كما تدل على ذلك بعضها).

يبدو لي أن الشعار الذي اتخذه ابن قسي ما هو إلا نسخة من الشعار السابق شعار ابن برجان.

وتعتبر سنة 539 هـ (1144 م) بداية حركة المريدين الدينية والسياسية، أو الدور العلني للثورة، أو دور ابن قسي، أو كما سماها، ابن الأبار[133] السنة القارضة ملك اللمتونيين.

اعتمد ابن قسي في نشر دعوته على أبي بكر محمد بن يحيى الشلطيشي المعروف بابن القابلة، وكان يسميه المصطفى لاختصاصه الكلي بكتابته وإطلاعه على أموره[134]، وقد قال عنه ابن الخطيب[135] «كان فريد دهره صرامة ودهاء وشجاعة

(130) ابن الخطيب: م. س ص 249.
(131) ابن الأبار: م. س ص 198.
(132) ابن العريف: طريق السعادة ـ رسالة إلى ابن الكبش (و 83).
(133) ابن الأبار: م. س ص 198.
(134) ن. م.
(135) ابن الخطيب: م. س ص 250.

وبلاغة، ورسائله مشهورة، وفصاحته مذكورة، رمى به غرضه، وجعله سيف ثورته وعضد دولته وتغلبه». وكان شاعر المريدين أبو بكر بن المنخل الشلبي وزير ابن المنذر وكاتبه[136]، فكان ابن القابلة بمعسول كلامه، ومقدرته الفائقة في تزييف الواقع والتلون وإلباس سوقة المعاني اللفظ الشريف[137] وابن المنخل بجزالة شعره ورقته أن يكونا خير عون لابن قسي في استغلال الظروف الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية التي تمر بها دولة المرابطين بعد أن أنهكتها حروب النصارى والموحدين.

أخذت جموع ابن قسي تتزايد بانضمام الناس إليه سواء مؤمنين بإمامته، أو طمعاً فيما يبذله من مال ووعود براقة، يقول ابن الخطيب[138]: «فأجزل العطاء من غير عمل ولا خراج، وكان إذا أعطى يحثو بيده من غير عدد وكان أصحابه يقولون للناس إن المال يتكون عنده من فراغ»[139].

وجد ابن قسي أن الثمرة قد نضجت وحان قطافها، فخلع القناع الديني، وظهر بصورة الزعيم الشعبي الذي يدعو إلى تحرير البلاد من نير المغتصبين، وفي نفس الوقت لم يظهر عداءً سافراً ضد المرابطين، وكانت الفرصة مؤاتية لاقتحام حصن ميرتلة، فقد استطاع عن طريق عيونه أن يتخير الوقت المناسب لدخول الحصن[140] الذي اقتحمه حوالي سبعون رجلاً من أتباعه بقيادة ابن القابلة. سحر ليلة الخميس

(136) صفوان بن إدريس: زاد المسافر رقم 41 ص 87.

(137) ابن سعيد: المغرب جـ 1 رقم 252 ص 351.

(138) ابن الخطيب: م. س. ص 250.

(139) من النوادر التي ذكرها ابن الخطيب عن ذلك أن رجلاً من البادية قال لبعض أصحاب ابن قسي وقد أعطاه المال، عجباً لهذا المال الذي يصل الإمام من السماء كيف عليه طابع المرابطين؟ ولم يكن عليه طابع غير ذلك، ونقل لابن قسي هذا الحديث، فكان آخر العهد بهذا الرجل.

ابن الخطيب: م. س. ص 251.

(140) علم ابن قسي أن أحد أهالي ميرتلة قد اتفق مع قائد الحصن على أن يقدم له رشوة، على أن يأتيه بها ليلاً حتى لا يراه أحد من أهل الحصن، وأعطى قائد الحصن أوامره إلى البواب لإدخال من يسأل عنه ليلاً، فتسلل ليلاً بعض رجال ابن قسي وأوهموا بواب الحصن الذي فتح لهم، ولم يشك صاحبه أنها «رفقة ميعاده الخبيث»، وهنا اقتحم ابن القابلة والمريدون الحصن.

ابن الأبار: م. س ص 198.

ابن الخطيب: م. س ص 250.

الثاني عشر من صفر سنة 539 هـ (أغسطس 1144 م) وبادر ابن القابلة بتسكين الناس وضبط الحصن وأعلن بدعوة ابن قسي، وقد زحف المرابطون بتلك الجهات إليه، ولكنهم لم يستطيعوا إنقاذ الحصن، فارتحلوا بعد تخريب قطر ميرتلة، وتداعت عامة ما يجاورها إلى الثورة[141].

وفي غرة ربيع الأول سنة 539 هـ (سبتمبر 1144 م) دخل ابن قسي في جمع وافر من المريدين شعارهم «التهليل والتكبير» إلى قصبة ميرتلة واتخذ من قصرها مقراً له وتسمى بالإمام، وخاطب أعيان البلاد وندب الناس إلى الثورة على المرابطين. فاستجاب له أهل يابرة بزعامة سيد راي بن وزير[142] وأهل شلب بزعامة ابن المنذر الذي لقبه ابن قسي بالعزيز بالله[143]، كما انضمت إليهم قوات أكشونبة[144]، وقوات يوسف بـن أحمد البطروجي «أحد مردة الثوار من هؤلاء المريدين»[145].

استولى المريدون[146] على حصن مرجيق من أعمال شلب، وقتلوا المرابطين الموجودين به، فلما علم المرابطون بباجة مما حل بإخوانهم في حصن مرجيق، طلبوا الأمان من أهل باجة على أن يخرجوا إلى إشبيلية وعلى أثر خروجهم دخلت قوات ابن المنذر وابن وزير، وأعلن أهلها دخولهم في طاعة ابن قسي. وتوجهت جموع المريدين بعد ذلك إلى وادي آنة وعبرته إلى مدينة ولبة على مقربة من شرقها، فدخلتها ثم استولت على لبلة الواقعة في شمالها الشرقي وأنزلوا من امتنع فيها من المرابطين[147].

---

(141) نفس المصادر والصفحات.

(142) ابن الأبار: م. س ص 198.

ابن الخطيب: م. س ص 250.

Lagardére, V., La Tariqa et la Revolte des Muridun, p. 159.

(143) ابن الأبار: م. س ص 204.

(144) اكشونبة كورة كبيرة جنوبي كورة باجة، وغربي كورة إشبيلية.

الحميري: الروض المعطار، ص 342.

(145) ابن الأبار: م. س ص 204.

(146) كان على قيادتهم أحمد أخو أبي الوليد بن المنذر، وخاله عبد الله بن علي بن الصميل.

ابن الأبار: م. س ص 203.

(147) ن. م. ص 204.

Lagardére, V. Op. Cit., p. 160.

تضاعفت جموع ابن المنذر فتملكه الغرور واعتزم السير إلى إشبيلية، وشجعه على ذلك ما نمى إليه من أنها في ذلك الوقت بدون أمير يضبطها، فخرج في قواته من لبلة نحوها فدخل حصن القصر وطلياطة من أعمال شرقها، ثم تقدم إلى الحصن الزاهر، وقد كشف جمعه وكثر حشده، بما انضم إليه من المريدين ونهازي الفرص فدخل الحصن واستولى عليه[148].

بيد أنه حينما وصل إلى طريانة ضاحية إشبيلية الغربية التقى بطائفة من جند المرابطين يقودهم أبي زكريا ابن غانية أمير الأندلس، وكان ابن غانية قد غادر قرطبة في قواته عندما علم بتمرد الغرب، وسقوط قواعده في يد ابن قسي وأصحابه، فوصل إشبيلية وابن المنذر يعيث بقواته في نواحيها، فبعث في أثره بقوة من المرابطين، هزمتهم، وقتل عدد وافر من المريدين وفر ابن المنذر بمن بقي معه إلى شلب بينما ترك البطروجي بلبلة للدفاع عنها، فحاصره ابن غانية مدة ثلاثة شهور، غير أنه اضطر لرفع الحصار والعودة بعد أن بلغته أنباء قيام ابن حمدين بقرطبة[149]، وكان من الممكن لابن غانية القضاء على ثورة الغرب وإعادة الأمور إلى نصابها لولا قيام ابن حمدين وما تبعه من القضاة.

وبعودة ابن غانية إلى قرطبة تبدأ مرحلة جديدة من الصراع بين المرابطين من جهة وبين ابن حمدين والنصارى من جهة أخرى.

---

(148) ابن الأبار: م. س. ص 204.
Lagardére, V. Op. Cit., p. 159.

(149) ابن الأبار: م. س ص 105، 106.
Codéra, F. Op. Cit., p. 56.

ثانياً: ثورة القضاة

كانت ثورة المريدين في غرب الأندلس، وأحداث المغرب المتردية قد بدأت تحدث أثرها، وأخذت بذور الثورة تختمر من جديد في أذهان أهل قرطبة القلب[150]، وسنحت الفرصة عندما ابتعد الأمير أبو زكريا يحيى ابن غانية عن قرطبة بقواته في اتجاه إشبيلية لحمايتها من عبث المريدين، فثارت العامة بنائب ابن غانية الرئيس أبي عمر المسوفي، وخلعوا دعوة المرابطين، واتفقوا على مبايعة القاضي أبي جعفر بن حمدين، الذي كانت تضطرم نفسه بأطماع كثيرة[151].. وآمال عريضة، وقد وصفه ابن الخطيب[152] بقوله: «كان شهماً يحبس في صدره الأمر الذي برز فيه».

(150) كان أهل قرطبة ينتهزون أي فرصة للشغب فيثورون، ففي سنة 514 هـ نفذ أمر أمير المسلمين علي بن يوسف إلى الأندلس بإحياء المنجنيق والآلات الحربية، فلما كمل ما أنشيء بقرطبة، وجاء عيد النحر، خرج عامل المدينة لمشاهدة التجربة، وقد أقبل السواد الأعظم الذي لا يطاق حضور العيد، وحضور كل ذاعر، وناعق من كل حدب وشاهق، فكثر التدافع والتزاحم، ودهم الحشم وقيل بل مد عبد من عبيد المرابطين يده إلى امرأة وأمسكها فاستغاثت فأغاثها الناس، فوقع بين العبيد وأهل قرطبة فتنة عظيمة، وهاجموا قصر الوالي وانتهبوا ما فيه، وأحرقوا دور المرابطين، وفر الوالي بصعوبة، مما استدعى حضور علي بن يوسف على رأس جيش كبير من المغرب، حاصر به قرطبة، وبعد تدخل أولي الأمر من الفقهاء رضي علي بن يوسف بأن يعوّض أهل قرطبة المرابطين الذين تضرروا.

ابن عذارى: البيان المغرب، جـ 3 ص 6.

الحلل الموشية: ص 86.

ابن الأثير: الكامل، جـ 10، ص 197.

(151) تولى أبو جعفر ابن حمدين قضاء قرطبة بعد وفاة أخيه أبي القاسم سنة 522 هـ (1128 م) وعزل سنة 527 هـ (1132 م) ثم استدعي مرة أخرى في صفر 529 هـ (نوفمبر 1134 م) إثر قتل قاضيها ابن الحاج، إلا أنه صرف عن القضاء سنة 532 هـ (1137 م) وحل محله القاضي أبو القاسم أحمد بن رشد، غير أن =

بايع الناس القاضي ابن حمدين في الخامس من رمضان 539 هـ (مارس 1144 م) فسكن قصر الإمارة، وتلقب بأمير المسلمين وناصر الدين[153]، والمنصور بالله[154]، وطارد أهل قرطبة المرابطين الموجودين بالمدينة، واستباحوا ديارهم، فلما بلغ ابن غانية ذلك، عاد أدراجه مسرعاً، وفك حصار المريدين بلبلة.

وفي واقع الأمر كانت قرطبة منشقة على نفسها فبعضها كان يؤيد ابن حمدين ويقر رياسته، والبعض ما زال على ولائه للمرابطين، وهناك من له حرص على دعوة ابن قسي ورغبة فيه، وهم المريدون بالربض الشرقي وعلى رأسهم أبو الحسن بن عتيق بن مؤمن[155]، وفريق آخر كان يرى استدعاء سيف الدولة بن هود[156]. خير

= ابن رشد واجه صعوبات كثيرة في منصبه، فلم يكن حازماً على ما يبدو، أو أنه تعرض لدسائس ابن حمدين وأنصاره، فقد كان منصب قضاء الجماعة بقرطبة بالنسبة لآل بني حمدين أشبه بمنصب وراثي، تتوارثه العائلة، فكثرت حول ابن رشد الشائعات التي وصفته بالضعف والتقصير، مما تسبب في اضطراب الأمر في المدينة، واستطالت الأيدي وشغب العامة، ونظراً لمكانة ابن حمدين وما يتمتع به من احترام بين الناس، فقد خرج للناس ونجح في ردع العامة، فظهر في هذه المناسبة وبدأ يظهر كزعيم يملك تهدئة الأمور بوافر حكمته، إلا أن الأمور تعقدت أثر فرار القاضي ابن رشد مستعفياً عن القضاء، فشغب العامة، مما أحنق الأمير علي بن يوسف، فبقيت قرطبة دون قاضٍ، وتعطلت الأحكام أكثر من سنة، ثم أذن علي بن يوسف لأهلها أن يختاروا قاضياً، فاتفقوا على ابن حمدين سنة 536 هـ (1141 م) واستمر في قضاء قرطبة إلى أن قام على المرابطين في رمضان 539 هـ (1144 م).

ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 253.

النباهي: م. س ص 103.

Codera, F. Op. Cit. p. 54.

(152) ابن الخطيب: م. س ص 254.

(153) ن. م ص 253.

(154) النباهي: م. س ص 103.

(155) هو ابن الصوفي الكبير أبي بكر بن عتيق صديق ابن العريف والذي خصه بعدد كبير من رسائله، وكان أبو الحسن قد تتلمذ على عدد من شيوخ المريدين منهم ابن يوسف، وأبي الحسن بن القابلة وغيرهم. وقد أفرد له ابن عبد الملك ترجمة مطولة وصفه بها بقوله: «كان محدثاً راوية، حاضر الذكر للآداب والتواريخ عموماً وخصوصاً تاريخ المحدثين وماهراً في علم الكلام والطب.

انظر: الذيل والتكملة سفر 5 قسم 1 ترجمة 525، ص 256.

(156) كان سيف الدولة أحمد المستنصر بن عماد الدولة آخر ملوك بني هود، حينما شدد عليه المرابطون، تنازل عن قلاعه الحصينة ومنها حصن روطة الذي كان يقيم فيه لألفونسو ريمندس ملك قشتالة في نظير أن يقطعه إقطاعاً بجوار طليطلة. وبذلك تكون قشتالة قد حصلت على حدود ثابتة مع مملكة أراجون وفي نفس الوقت كان ابن هود تابعا لألفونسو يخرج معه في غزواته كأحد أفصاله. =

ممثل للزعامة الأندلسية العريقة وكان سيف الدولة قد اتفق مع ملك قشتالة على إثارة الأندلس على المرابطين، وقد نجح في مداخلة أهل قرطبة، وإغرائهم بالوعود والعطايا للتخلي عن دعوة ابن حمدين، وأمده ملك قشتالة بقوة من النصارى[157]، فوصل قبل قوات ابن قسي التي انصرفت خائبة[158].

هرع أهل قرطبة القلب إلى تأييد سيف الدولة، وقد سحرته نسبته الملوكية، وثروته الطائلة، وسهلوا له أمر دخول قرطبة، وخلع ابن حمدين الذي اضطر للفرار، إلى حصن فرنجولش المنيع الواقع شمال غربي قرطبة وبقي فيه يترقب الأحداث، بينما نودي بسيف الدولة أميراً على قرطبة باسم المستنصر بالله[159].

لم يدم الأمر لسيف الدولة بن هود، إذ سرعان ما تغير عليه القرطبيون، فلم يطيقوا منظر الجند النصارى، ولا عسف وزيره ابن الشماخ، فهاجموا قصر الإمارة، وفتكوا بوزيره وعدد كبير من أصحابه، فلما رأى سيف الدولة ما قام به أهل قرطبة وما حل بأصحابه، فر ناجياً بنفسه، ولم يكن قد مضى عليه في إمارة قرطبة سوى اثني عشر يوماً[160]، واتجه إلى مدينة جيان التي تغلب عليها القاضي يوسف بن عبد الرحمن بن جزي وتلقب بالرئيس[161] وقد استطاع ابن هود الاستيلاء على جيان من ابن جزي[162].

ولا شك أن الفريق الموالي للقاضي ابن حمدين كان له دور كبير في إثارة الناس على سيف الدولة وجنده النصارى، كما أن أنصار ابن قسي كانوا يحاولون

= انظر: ابن الخطيب: م. س ص 176.
ابن القطان: نظم الجمان ص: 200.
ابن الأبار: م. س ص 249.

(157) أشباخ: تاريخ الأندلس، ترجمة محمد عبد الله عنان ص 210.
Codéra, F. Op. Cit., p. 57.

(158) ابن الأبار: م. س ص 207.
ابن الخطيب: الإحاطة جـ 4 ص 211.

(159) ابن الأبار: م. س ص 212.
أشباخ: م. س ص 211.

(160) ابن الأبار: ن. م.

(161) ابن الخطيب: م. س ص 259.

(162) ابن الأبار: م. س ص 251.

استدعائه للاستيلاء على قرطبة، خصوصاً بعد أن رفع ابن غانية حصاره عن لبلة، إلا أن قوات ابن حمدين كانت أسرع في الوصول إلى قرطبة، فدخلها قبل قوات ابن قسي، واستأنف رياسته الثانية في 10 ذو الحجة 539 هـ (يونية 1145 م)[163].

كاتب ابن حمدين زملاءه من القضاة المنتزين، يطلب منهم الاعتراف برئاسته والدخول في طاعته. فأرسل القاضي أبو جعفر بن أبي جعفر القائم في مرسية إليه مشايعاً ومتابعاً[164] فقدمه ابن حمدين إلى خطة القضاء بمرسية وأقطارها، كما وجه له القائد أبا محمد بن فرج الثغري لقيادة الجيش ومعاونته في ضبط المدينة[165].

وقام أبو الغمر بن السائب بن عزون[166] بدعوة ابن حمدين في شريش وأركش وأرسل له أخيل المترئس في رندة ببيعته[167] وكذلك حذا حذوهم القاضي أبو الحسن ابن أضحى في غرناطة، فأرسل ابن حمدين جيشاً لمعاونته بقيادة ابن أخيه المعروف بابن أم العماد[168].

---

(163) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 253.
أشباح: م. س ص 211.

(164) كان القاضي أبو محمد بن الحاج اللورقي قد دعا لابن حمدين في مرسية الأيام التي ترأسها من شهري رمضان وشوّال 539 هـ (مارس وإبريل 1145 م) قبل القاضي أبي جعفر بن أبي جعفر.
انظر: ابن الأبار: المعجم - رقم 214 ص 233.

(165) ابن الأبار: ن. م ص 234.

(166) كان ابن عزون في مقدمة الثوار الذين خلعوا طاعة المرابطين مع أنه ينتمي إلى لمتونة وقوي أمره بسرعة فاستولى على أركش ثم على رندة من صاحبه أخيل، وأعلن الدعوة لابن حمدين، إلا أنه عند انهيار حكومة ابن حمدين خلع طاعته ودعا لنفسه ثم انضم للموحدين، ودخل في ركابهم عند فتوحاتهم في الأندلس يدلهم على معالمها.
انظر. ابن أبي زرع: م. س ص 188.
Codéra, F., Op. Cit., pp. 158 - 160.

(167) هو أخيل بن إدريس الرندي، كان كاتباً وشاعراً وأديباً، كتب في بداية حياته للمرابطين وكان وثيق الصلة بابن حمدين منذ كان متولياً لقضاء قرطبة، فلما قام ابن حمدين دخل في خدمته وكتب له، فلما استرجع ابن غانية قرطبة وخرج ابن حمدين لحق أخيل برندة بلدة، واستبد هو الآخر بمقاليد الأمور. إلا أن مدته لم تطل فقد استولى ابن عزون على رندة دون قتال، فهرب أخيل إلى المغرب والتحق بخدمة الموحدين.
ابن الأبار: الحلة ص 241، 242.

(168) ن. م ص 212.
Codéra, F., Op. Cit., p. 80.

وعندما علم سيف الدولة بتدخل ابن حمدين في غرناطة، ووصول قواته عجل بدخول المدينة في عسكر من أوباش النصارى وسقاط الجند، وقد مال عامة البلد إلى سيف الدولة، بينما مال ابن أضحى وصنف الفقهاء وجماعة من أهل المدينة إلى القاضي ابن حمدين[169].

كانت غرناطة لا تزال أهم مدينة في يد المرابطين، وقد اشتد الصراع بين كافة الأحزاب المتناحرة من أجلها. لذلك شدد المرابطون من إغارتهم على قوات ابن هود وابن أضحى، وتوفي في هذه الأثناء ابن أضحى فخلفه ابنه أبو بكر في أول عام 540 هـ (يونيه 1145 م)[170]. وقد وصلتهم إمدادات وفيرة من شرق الأندلس بقيادة القاضي أبي جعفر بن أبي جعفر قاضي مرسية. إلا أن المرابطين خرجوا إليهم مستميتين، فهزموا قوات ابن أضحى وقتل حليفه ابن أبي جعفر، ولم ينج من عسكره إلا القليل[171].

انصرف الملثمون بعد انتصارهم إلى القصبة، وعادوا إلى التحصن بها، فدخل سيف الدولة غرناطة[172]، وكان ابن أضحى الابن يتردد في ولائه بين ابن حمدين، وسيف الدولة، ويحاول في كثير من الدهاء أن يبدو صديقاً للجميع. غير أن سيف الدولة لم يستمر طويلاً في غرناطة، فلم يمضي عليه شهر، حتى تكاثرت عليه شكاوى الناس، ومظالمهم من كثرة المغارم، وحاولوا القيام عليه، مما جعله يفكر في ترك غرناطة، خاصة وقد أيقن من عقم هجماته على المرابطين في القصبة، لذلك دبر أمر فراره، وترك غرناطة لمصيرها[173]، ومن المرجح أنه اتجه إلى جيان لأنها كانت تابعة له بعد أن تغلب على ابن جزي، ولم يتجه إلى مرسية إلا بعد أن استدعاه أهلها، ودعا له القاضي ابن عياض المتأمر بها.

ويعد فرار سيف الدولة استقل ابن أضحى (الابن) بأمر غرناطة غير أنه لجأ هو

---

(169) ابن عبد الملك: م. س سفر 5 قسم 1 ترجمة 553، ص 223.

(170) ابن الأبار: م. س ص 215.

(171) ن. م، أشباخ: م. س ص 212.

(172) ابن الأبار: م. س ص 215.

(173) يقول ابن الأبار: «ولم يقم ابن هود بعد ذلك إلا نحو شهر في مظالم، وتنويع مغارم حتى لهَّم به أهل غرناطة، فانخزل عنهم ليلاً وفر إلى مرسية، وقيل إلى جيان». الحلة السيراء جـ 2 ص 215.

الآخر إلى الفرار بعد ثمانية أيام، عندما تأكد من صعوبة الاستمرار في قتال الموحدين الذين تمسكوا بالقصبة وأجهدوا أهل المدينة[174]، وعندما اكتشف أهل غرناطة هرب هؤلاء الزعماء واحداً تلو الآخر تصالحوا مع المرابطين[175].

وقد نجح الحزب الموالي للمرابطين بقرطبة في مساعدة ابن غانية في دخول المدينة بعد أحد عشر شهراً من حكم ابن حمدين في 12 شعبان سنة 540 هـ (يناير 1146 م). فلجأ ابن حمدين إلى حصن أندوجر بالقرب من قرطبة وتحصن به، وأطمع ألفونسو ريمندس ملك قشتالة وبذل له الوعود من أجل عودته. وقد توجه ملك قشتالة صحبة جيش كبير إلى ابن حمدين، فخلصه من حصار ابن غانية، ودخلا قرطبة في 20 ذو الحجة 540 هـ (20 مايو 1141 م) فاعتصم ابن غانية بقصبتها يدافع النصارى، بينما عاث القشتاليون في شرقي قرطبة فساداً[176].

في هذا الوقت بلغت ألفونسو أخبار جواز الموحدين إلى الأندلس فوجد هو ومستشاروه أن من مصلحة النصارى تعضيد وتقوية سيادة المرابطين التي كانت في نزعها الأخير، وذلك لإحباط الجهود التي يبذلها الأندلسيون في سبيل وحدتهم، والوقوف في وجه الموحدين. وكان لاضمحلال سلطان المرابطين بالمغرب، وتفوق القوى الأندلسية عند اتحادها، والعون الذي تلقاه ثوار الغرب من ملك البرتغال، ثم العاصفة التي ينذر باضطرامها مقدم الموحدين إلى الأندلس، كل هذه العوامل حملت

---

(174) فر ابن أضحى إلى حصن المنكب.
ابن الأبار: م. س والصفحة.

(175) كان قائد المرابطين ميمون بن يدر بن ورقاء الذي خلف الأمير علي بن فنو الذي توفي وقد استطاع ميمون بن يدر الاحتفاظ بغرناطة وتصريف شؤونها بكفاءة إلى سنة 551 هـ (1156 م) عندما سلمها للموحدين بعد أن سقطت معظم قواعد الأندلس تقريباً في يدهم.
انظر: ابن الخطيب: الإحاطة جـ 4 ص 345.
ابن الأبار: م. س ص 215.
أشباخ: م. س ص 218.

(176) الضبي: بغية الملتمس، ص 34، 35.
ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 4، ص 346.
ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 253.
أشباخ: م. س. ص 218.

قائد المرابطين ابن غانية على الموافقة على الصلح مع النصارى والحصول على معاونتهم[177].

وهكذا استقر ابن غانية بقرطبة وأخذ في تحصين القصبة، واشتد في معاملة الأهالي وأثقلهم بالمغارم، واستمر في مهادنة النصارى نحو العام، تطورت خلاله الحوادث بسرعة، إذ أن ابن حمدين الذي غادر قرطبة صحبة حلفائه النصارى لجأ إلى حصن فرنجولش ولبث فيه فترة قصيرة، آملاً أن يتطور الوضع في قرطبة لصالحه، فلما يئس من تحول الأمور، عبر البحر إلى المغرب وقابل عبد المؤمن طالباً منه معونة الموحدين، ويبدو أنه حصل على وعود لم تنفذ، فنزل بمالقة في كنف حليفه القاضي أبي الحكم بن حسون، وحاول من هناك أن يسترد سلطانه إلا أنه أخفق[178].

وكان أبو الحكم بن حسون قد دعا لنفسه بمالقة في 13 رمضان سنة 539 هـ (9 مارس 1145 م) عندما تكاتب القضاة، واستبد بالأمر، وحاصر اللمتونيين في القصبة، وشدد عليهم الحصار، حتى اضطرهم للخروج وتسليم القصبة له، فدخلها واتخذ منها مقراً لإقامته. وتلقب بالأمير وجمع في يده منصب الإمارة والقضاء. وعين أخاه أبا الحسن قائداً لقواته، وعهد إليه بولاية قرطبة[179] وما إليها[180].

لم يترك المرابطون ابن حسون يهنأ بإمارته، فبدأوا يهاجمون من حصن أنتيقيرة[181] وغيره من الحصون المجاورة، وواصلوا الغارات على مالقة وأحوازها، حتى اضطر أن يستعين بالمرتزقة النصارى، ويستدعي جيوش قشتالة، فكرهته الرعية

---

(177) ابن الخطيب: الإحاطة جـ 4 ترجمة ابن غانية ص 346.

(178) استقر ابن حمدين في مالقة بعد أن فقد الأمل في استعادة قرطبة وتوفي سنة 546 هـ (1151 م) فلما استولى الموحدون على مالقة نبشوا قبره وأخرجوا جثمانه وصلبوه.
ابن الخطيب: الأعلام ص 254.
Codéra, F. Op., Cit., p. 62 - 63.

(179) قرطبة من أعمال رية، وهي مدينة حصينة، تقع غربي مالقة.
ياقوت: م. س ص 324.

(180) ابن الخطيب: م. س ص 255.
Codéra, F. Op., Cit., p. 68.

(181) أنتيقيرة حصن بين مالقة وغرناطة شمال غربي مالقة.
ياقوت: م. س ص 80.

لكثرة الضرائب والمغارم التي فرضها عليهم لدفع أجور المرتزقة، فتآمروا عليه، وانتهى أمره بانتحاره[182].

وانتقلت عدوى الثورة من قرطبة إلى وادي آش، في نفس الوقت الذي قام فيه ابن حمدين وابن أضحى، وتزعم الثورة أحمد بن ملحان الطائي فاستولى على القصبة من المرابطين وحصنها ودعا لنفسه وتلقب بالمتأيد بالله، وعمل على تدعيم مركزه، وأخذ بالحزم والشدة تصريف الأمور، وكان يقوم بالعمل بنفسه، ولم يكل أمره إلى غيره، وتعرض عدد كبير من الناس لبطشه وقتل عدد كبير من أهل وادي آش وصادر الأموال في سبيل توطيد سلطانه، كما استولى على عدد من القواعد والحصون القريبة له، كمدينة بسطة، غير أنه وجد ألا طاقة له في مواجهة ابن مردنيش زعيم الشرق بعد أن زحف على القواعد الوسطى والجنوبية، كما وجد ألا طاقة له بمطالب حلفائه النصارى ووجد أن المنطقة مآلها للموحدين، فلجأ إلى المغرب ودخل في خدمتهم[183].

أما ثغر قادش فقد استولى عليه علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطي، الذي خلع دعوة المرابطين عندما أعلن القضاة الانتزاء، وفي سنة 540 هـ (1145 م) ذهب إلى عبد المؤمن ودخل في طاعة الموحدين[184].

---

(182) استطاع بعض المتأمرين الاتفاق مع رجل من خاصته كان قائد الحرس ببابه يدعى اللوشي على أن يوقعوا بأبي الحكم بن حسون، وتواعدوا على يوم سهل لهم فيه فتح أبواب القصبة، ونجحت المؤامرة واستطاع المتآمرون بمعاونة اللوشي، الاستيلاء على القصبة وثار أهل مالقة وقبضوا على أخيه أبي الحسن وقتلوه، فامتنع ابن حسون داخل القصبة، ودافع عنه فلما علم بمقتل أخيه وصعوبة الاستمرار في المقاومة أقدم على الانتحار فطعن نفسه وتوفي بعد يومين في 11 ربيع الأول سنة 547 هـ (يونية 1152 م) بينما ذكر (كوديرا) أن وفاته كانت سنة 548 هـ.

ابن الخطيب: م. س، ص 255.

ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، سفر 6، ترجمة 1188، ص 441.

Codéra, F., Op. Cit., p. 70.

(183) ابن الخطيب: م. س ص 264.

Codéra, F. Op. Cit., p. 132.

(184) ابن عذارى: البيان المغرب، نص جديد ص 83.

ثورة الشرق

اندلعت الثورة في شرق الأندلس متأثرة بالثورات التي اشتعلت في الغرب والوسط والجنوب، فإثر سماع قيام الثورة بقرطبة، طافت ريحها بقواعد الشرق، وتكاتب القضاة، وهاجت الخواطر، وماجت في بلنسية ومرسية وغيرها، أسوة بما حدث في سائر الأندلس، وكانت بلنسية تحتل في شرق الأندلس نفس المكانة التي تحتلها قرطبة في الوسط، وإشبيلية في الغرب، ولا تقل مرسية عنها في الأهمية والمكانة، وكان للمرابطين عناية خاصة ببلنسية لموقعها الدقيق على مقربة من الثغر الأعلى والممالك النصرانية، فكانوا لا يولونها إلا الصفوة من القرابة والخاصة[185].

كان على ولاية بلنسية عندما اضطربت الأمور، الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي بن غانية[186]، وكان قاضيها أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز، وكان الأمير تاشفين بن علي قد ولاه قضاء بلنسية سنة 538 هـ (1143 م). ويبدو أن توليه منصب القضاء كان بعد شهر جمادى الأولى سنة 538 هـ (ديسمبر 1143 م). لأن

(185) كان على ولايتها الأمير مزدلي الذي حررها من النصارى منتصف رجب 495 هـ (5 مايو 1102 م) والأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين، ومحمد بن يوسف بن يدر وأبي زكريا يحيى بن غانية وفي رسالة للأمير علي بن يوسف إلى عامله على بلنسية أبي عبد الله محمد بن أبي بكر اللمتوني يقول فيها: «ويعلم الله عزّ وجلّ أنا بأحوال تلكم الجهات مهتبلون، ولمجاري الأمور بها مخيلون، ولارتباكها بما أحاط بها من طوائف الأعداء متأملون، وإلى كل ما عسى أن تنحى به عليها المخالب ناظرون لا يخفى علينا شيء من ذلك، لا يزال فكرنا يطلع من تلك الثنايا، ويتعسف تلك المسالك.
د. محمود مكي: وثائق تاريخية جديدة، وثيقة 12 ص 181.

(186) هو ابن أخ الأمير أبي زكريا يحيى بن غانية.

رسالة الأمير تاشفين[187] التي أرسلها من حصن كرنطة بالقرب من تلمسان والمؤرخة بتاريخ العشر الأول من جمادى الأولى 538 هـ يذكر فيها القاضي أبا محمد بن جحاف كقاضٍ لبلنسية، ويذكر ابن الأبار[188] إن مروان بن عبد العزيز تولى القضاء بعد أن صرف ابن جحاف عن قضاء بلنسية.

ومن المرجح أن الأمير تاشفين قد صرف القاضي أبا محمد بن جحاف لأن الأوضاع في ذلك الوقت كانت تستلزم قاضياً حازماً، وابن جحاف لم يكن يتمتع بهذه الصفة[189]. ومن المحتمل أن يكون لابن عبد العزيز دور في عزل القاضي ابن جحاف. بعد هذه الفترة الطويلة من توليه القضاء، وفي اتهامه باللين والتهاون في أحكامه خاصة في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها دولة المرابطين، مما أقنع تاشفين بصرفه بعد عشر سنوات في القضاء وتعيين ابن عبد العزيز.

لم يكن مروان بن عبد العزيز من البيوتات العريقة والمعروفة ببلنسية، فوالده أبو الحسن بن عبد العزيز أول من تولى القضاء من هذا البيت في سنة 519 هـ (1125 م)[190] وبقي في منصبه عشر سنوات إلى سنة 529 هـ (1134 م) عندما صرف بالقاضي أبي محمد بن جحاف وفي خلال تولي أبي الحسن بن عبد العزيز القضاء استطاع أن يكسب ثقة والي بلنسية الأمير يدر بن ورقاء[191]، بل تعدت العلاقة بينهما

(187) د. حسن مؤنس: نصوص سياسية وثيقة 1 ص 110.

(188) ابن الأبار: المعجم، رقم 196 ص 213.

(189) قال عنه ابن الأبار: «كان وقوراً حليماً، موطأ الأكناف، كثير التودد واللين، وربما نسب إليه الضعف لفرط تأنيه».

ابن الأبار: م. س رقم 23 ص 36.

(190) تولى القضاء بعد وفاة قاضي بلنسية أبي الحسن محمد بن واجب الذي كان «من بيت جلال وتقدم».

* الضبي: بغية الملتمس، رقم 296 ص 129.

(191) ذكر الدكتور حسين مؤنس في «نصوص سياسية» وثيقة 4، ص 122 أن صاحب الرسالة الموجهة إلى القاضي ابن عبد العزيز بخصوص فتح حصن كواليه من أبي عبد الله بن ورقاء بأنه شخصية غير معروفة، وأنه يبدو من صنائع ابن عبد العزيز، ولكن عبد الله بن ورقاء ليس من الشخصيات المجهولة فقد كان والياً على بلنسية، وقائداً للجيوش المرابطية في المنطقة وقد توفي سنة 524 هـ (1129 م) وبعد وفاته ضمت بلنسية إلى الأمير يحيى بن غانية والي مرسية، كما يجب الإشارة أيضاً إلى أن القاضي ابن عبد العزيز الموجهة له الرسالة ليس هو الذي ثار على المرابطين سنة 539 هـ، وإنما هو والده القاضي أبو الحسن عبد الله بن مروان بن عبد العزيز.

=

إلى نوع من الصداقة المتينة[192].

بينما كان هناك نوع من الخلاف والصراع الصامت بين والي المرابطين الأمير عبد الله بـن علي بن غانية وبين القاضي أبي عبد الملك مروان بن عبد العزيز، فهل كان هناك نوع من المنافسة، وهل كان ابن عبد العزيز يحاول التعدي أو التدخل في أعمال الوالي؟ أو العكس؟ أم أن ابن عبد العزيز كانت له طموحات شخصية اصطدمت بوجود هذا الوالي؟.

يبدو أن هذا الأمر الأخير هو الأرجح، فقد حاول ابن عبد العزيز أن يمكن لنفسه بين الناس، مستغلاً وضعيته كقاض، ومستغلاً موقف المرابطين تجاه هذه الطبقة، خصوصاً بعد أن فشل في كسب صداقة الوالي المرابطي، ولم ينجح فيما نجح فيه والده، فوجد في اضطراب الأمور وسيلة للقفـز إلى السلطة، ولو عن طريق أولياء نعمته[193].

وعلى أية حال فقد اجتمع والي بلنسية عبد الله بن غانية بالقاضي أبي مروان بن عبد العزيز، واتفقا على الائتلاف ونبذ الخلاف في هذه الفترة العصيبة، والظروف الحرجة التي تجتازها دولة المرابطين، واجتمعا في المسجد الجامع بالناس، وخطب

= راجع: ابن الأبار: المعجم رقم 196 ص 212، 213.
تدارك الدكتور محمود مكي شخصية أبو عبد الله بن ورقاء في تحقيقه كتاب نظم الجمان لابن القطان ص 109، 110، وكلمة يدر معناها يحيى باللغة البربرية.

(192) انظر د. حسين مؤنس م. س.

(193) انظر ابن الأبار: المعجم رقم 196 ص 213.

وفيها يتحدث عن تصرف ابن عبد العزيز عندما تولى القضاء تجاه أبي محمد بن جحاف من نكران للجميل، مما يجعل أبو حفص بن واجب يقول له: «ليس هذا من الأدب، وقد سلفت لأبي محمد على أبيك أياد.

وانظـر الأشعار التي قالها في مجلس الخليفة عبد المؤمن والتي تسببت في نكبة الوزير ابن أبي جعفر بن عطية وأخيه أبو عقيل بن عطية، وكان الوزير ابن عطية قد توسط عند بنو غانية للإفراج عن ابن عبد العزيز من سجنه وساعده في الوصول إلى مجلس الخليفة.

عن نكبة ابن أبي جعفر. انظر...

ابن عذارى: البيان المغرب، جـ 3 ص 26، 27.

المراكشي: المعجب ص 198، 200.

ابن الخطيب: الإحاطة جـ 1 ترجمة ابن عطية ص 264.

كل منهم مذكرين بجهاد المرابطين للنصارى، ونصرهم للجزيرة، واستنقاذهم بلنسية[194] وزاد القاضي ابن عبد العزيز في حض الناس على الوفاء للمرابطين والتمسك بدعوتهم.

غير أنه لم تمضِ أيام معدودة حتى وصلت ابن غانية شائعات انتشرت عن تآمر القاضي ابن عبد العزيز، وتحريض الناس[195]، فاضطر ابن غانية أن يبعث بأهله وعياله وأثقاله إلى شاطبة ليلة الأربعاء الثامن عشر رمضان 539 هـ (أكتوبر 1140 م) وأقام هو بولجة بلنسية[196]. ونتيجة لتوتر النفوس واضطراب الحال والقلق الذي عم الجميع حدث بين عبد الله بن غانية والجند مشادة، مزق بعضهم على أثرها خباءه مما جعله يسرع بالعودة إلى شاطبة، ومنها كانت تخرج خيله للإغارة على جهات بلنسية واجتياحها، وعندما شكى المتضررون من هجمات المرابطين إلى القاضي ابن عبد العزيز وتظلموا إليه، وطلب منه الجند ووجوه البلاد التأمر عليهم أظهر التمنع، واقترح عليهم اختيار أحد شيوخ البلاد[197].

كانت المفاجأة أن اتفق الناس على أحد رجالات لمتونة الباقين ببلنسية وهذا يدل على أن معظم الناس لم تكن تفقه سبباً للثورة. وأن الأمر في تصورهم أن الثورة لمجرد تغيير وال بآخر، لأنهم لو كانوا ناقمين فعلاً على حكم المرابطين لاختاروا واحداً من الأندلسيين.

لم ترض نفس ابن عبد العزيز عن اختيار هذا اللمتوني الذي اجتمع عليه أهل بلنسية، إذ كان ينتظر تأمير الناس له عليهم حتى لا يظهر بمظهر الطامع في السلطة،

---

(194) عن سقوط واسترجاع بلنسية انظر..

ابن بسام: الذخيرة، القسم الثالث، مجلد 1، ص 92 :102.

محمد عبد الله عنان: م. س ص 222 :238.

(195) ابن الأبار: الحلة جـ 2 ص 218.

(196) شاطبة مدينة مهمة حصينة قريبة من جزيرة شقر، على بعد خمسين ك. م. جنوب غربي بلنسية.

الحميري: م. س ص 337.

ياقوت: م. س ص 231.

(197) ابن الأبار: م. س ص 218.

المعجم رقم 172، 192.

ابن الخطيب: أعمال الأعلام: ص 256.

لذلك بدأت حملته تشتد على الوالي الجديد الذي لم تمضِ أيام على تأمره، فلما توجس هذا الوالي الشر منه ومن أنصاره أراد أن يقبض عليه، إلا أنه فشل لتحوطه، فزاد خوف الوالي ومن معه من المرابطين لقلة عددهم ببلنسية، ففروا إلى شاطبة[198].

بعد فرار المرابطين رأس ابن عبد العزيز بلنسية، وتمت له البيعة يوم الاثنين 3 شوال 539 هـ (مارس 1445 م) أي بعد أيام قليلة من بيعة ابن حمدين بقرطبة، غير أن بعض القضاة امتنعوا عن بيعته، تمسكاً ببيعة المرابطين، ومن باب التحوط وعدم الدخول في الفتنة[199].

وكان على ابن عبد العزيز أن يرد هجمات المرابطين الذين تجمعوا بشاطبة، يهاجمون منها بلنسية وأحوازها، فولى عبد الله بن عياض الثغر وما والاه، وضم إليه ما كان بأيدي أصهاره بني مردنيش قبل ظهورهم، واستدعى أجناد الثغر، وطلب النجدة من صديقه قاضي مرسية أبي جعفر بن أبي جعفر. وقد تعاون ابن عبد العزيز وابن أبي جعفر على حصار شاطبة، وكلاهما يضمر في نفسه الفوز بها، ويرى أنه أحق بها من الآخر[200]. وعندما رأى عبد الله بن غانية توافد القوات لمعاونة ابن عبد العزيز، وتشديد الحصار على أهل شاطبة، أدرك عدم جدوى الاستمساك بها، فخرج منها واستطاع اللحاق بألمرية، ومن هناك نقله أمير البحر محمد بن ميمون قائد الأسطول المرابطي إلى جزيرة ميورقة ليلحق بأبيه الوالي عليها[201].

(198) ابن الأبار: م. س ص 219.

(199) عندما طلب ابن عبد العزيز من القاضي أبي جعفر بن الحسين بن الحسن الأزدي شهادته في بيعته، رفض قائلاً: «والله لا أفعل وبيعة تاشفين في عنقي»، (النباهي: المرقبة، ص 16).

وأصر القاضي جعفر بن الحسين بن أبي البقاء بن فاخر على بيعة تاشفين.

ابن الأبار: التكملة جـ 1 رقم 636 ص 241.

وعندما أرغم ابن عبد العزيز الفقيه القاضي أبو عبد الله بن غلام الفرس على تقلد الخطابة بجامع دانية عن غير رغبة كان إذا سئل عن حالة يقول: «حال شيخ ابن سبعين سنة يطلع على هذه الأعواد فيكذب».

ابن عبد الملك: الذيل والتكملة سفر 6 رقم 440 ص 166.

(200) يقول ابن الأبار: «فأقاما (أي ابن عبد العزيز وابن أبي جعفر)، على حصار شاطبة متفقين في الظاهر، مختلفين في الباطن، وكل واحد منهما يرى أنه أولى بها».

ابن الأبار: المعجم رقم 124 ص 235. الحلة ص 220.

(201) ابن الخطيب: م. س ص 256.

ابن الأبار: م. س ص 220.

سلمت قلعة شاطبة صلحاً، بعد هرب عبد الله بن غانية، وانضمت إلى ابن عبد العزيز مدينة لقنت[202] وما يجاورها بعد مقتل ابن أبي جعفر بجهة غرناطة، غير أن ابن عبد العزيز لم يكن في مستوى المسؤولية التي استولى عليها، كغيره من القضاة المنتزين، فلم يلبث أن اصطدم بتمرد الجند، لقصوره في دفع مرتباتهم، بعد أن عجز عن جباية الأموال، وفشل في تقديم المال لما تتطلبه المصالح العامة، فكرهته رعيته بعد أن ضاقت بكثرة مطالبه فراسل جنده ابن عياض بمرسية، وطلبوا منه تولي بلنسية، وفي نفس الوقت حاصروا قصر الإمارة، إلا أن ابن عبد العزيز نجح في الفرار[203]، وقد اضطربت الأمور أكثر في بلنسية بعد اكتشاف هربه، وتعرض أنصاره للمطاردة، وانتهبت دورهم[204] وسارع الجند بتقديم عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش نائباً عن ابن عياض.

وكانت مرسية قد شبت بها الثورة هي الأخرى في نفس الوقت الذي اضطرمت فيه في قرطبة وقد ترأس المدينة أحد المريدين المعروفين وهو القاضي أبو محمد بن الحاج اللورقي[205] الذي دعا لابن حمدين، غير أنه ما لبث غير أيام من شهري رمضان وشوال 539 هـ (مارس وإبريل 1145 م).

(202) لقنت Alicante من أعمال لاردة، جنوبي بلنسية وشرقي البسيط ومرسية، وهي من أكبر موانىء البحر المتوسط.

ياقوت: م. س. ص 355.

(203) لجأ ابن عبد العزيز إلى المرية واتصل بقائد الأسطول المرابطي محمد بن ميمون لتسهيل خروجه من الأندلس، غير أن ابن ميمون سلمه لعبد الله بن غانية عدو ابن عبد العزيز وطريده من بلنسية وشاطبة، والذي تصادف وصوله المرية في أسطول ميورقة والذي يتجول في هذه المنطقة لمطاردة سفن النصارى، محملة معه إلى ميورقة حيث بقي سجيناً أكثر من عشر سنين إلى أن خلصه من سجنه الوزير أبي جعفر بن عطية.

ابن الأبار: الحلة، ص 225، المعجم ترجمة 172، 192.

(204) كان من ضمن من وقع في يدهم أبو جعفر بن جبير صاحب الرحلة المعروفة، وقد انتهبت داره ودفاتره وكتبه، واحتملوه إلى حصن مطرنيش وسجنوه إلى أن افتدي بثلاث آلاف دينار.

ابن الأبار: م. س.

(205) عمل ابن الحاج فترة في خدمة المرابطين، فقد استدعاه علي بن يوسف إلى مراكش للكتابة فأحسن القيام بعمله، إلا أنه استعفى بعد مدة، فأعفي وعاد إلى مرسية، ونهج نهجاً تصوفياً وزهد في الدنيا، وهجر خدمة الأمراء. وقد صادق ابن العريف وكانت بينهما مراسلات واتبع طريقه.

ابن الأبار: المعجم رقم 214. ص 233.

ابن العريف: طريق السعادة (و 84 :81).

اختار أهل مرسية الفقيه القاضي أبا جعفر محمد بن أبي جعفر الخشني في آخر شوال بعد انخلاع ابن الحاج، وقد دعا في بداية رياسته لابن حمدين، الذي أرسل له القائد عبد الله بن فتوح الثغري والياً وقائداً على مرسية، وأوصاه بالتعاون والسماح لابن أبي جعفر، فتعاونا في ضبط أمور مرسية، مشاركين في القرارات[206].

حرض ابن أبي جعفر أهل مرسية وحشدهم لقتال الملثمين بأوريوله، فلجأ المرابطون إلى قصبتها وتحصنوا بها، وعندما وجدوا استحالة الاحتفاظ بالقصبة فضلوا التسليم والنزول على الأمان الذي تعهد القاضي بمنحه لهم، غير أنه عذرهم وقضى عليهم[207].

بعد انتصار ابن أبي جعفر خلع دعوة ابن حمدين، ودعا لنفسه بالأمير الناصر لدين الله، وحذف الداعي لإمام المسلمين، وأمر بالقبض على عبد الله الثغري[208]. ولم تكن مرسية مجمعة عليه فكان هناك بعض القضاة المعارضين له[209]، واستخدم ابن أبي جعفر طلبة العلم الذين كانوا يأخذون عليه حشماً له وخدماً[210]. واستعمل على القضاء أبا العباس بن الحلال. وقد استطاع الثغري أن يستولي على قونكة.

وقد شارك ابن أبي جعفر في حصار شاطبة طمعاً في الاستيلاء عليها غير أن ابن عبد العزيز استول عليها، ثم عاد لمعاونة ابن أضحى في غرناطة، فكان مصرعه بها على أيدي المرابطين ومقتل معظم جيشه يوم الجمعة 3 ربيع الأول 540 هـ (أغسطس 1145 م) فكان حكمه بضعة شهور[211].

---

(206) ابن الخطيب: م. س. ص 258.

(207) يقول ابن الأبار: «فعوجلوا بالغدر، واستئصلوا قتلاً، وتحريقاً بالنار، ومثل بهم، وانتهبت أموالهم، وعيل الصبر لما لقي عيالهم».

ابن الأبار: م. س رقم 214، ص 235.

(208) قبض على الثغري وسجنه هو وصهريه ابن مسلوقة، غير أن أهل مرسية انتهزوا فرصة خروجه إلى شاطبة لمعاونة ابن عبد العزيز وأطلقوا سراحهم.

ابن الأبار: الحلة، ص 229.

(209) حاول أن يكسب إلى صفة القاضي أبو محمد عاشر بن عاشر، غير أنه امتنع واعتكف وانكب على العلم يفيد ويستفيد.

ابن عبد الملك: الذيل والتكملة سفر 5، قسم 1، ترجمة 182، ص 99.

(210) ن. م.

(211) ابن الأبار: م. س. ص 230. ابن الخطيب: م. س. ص 258.

عندما علم أهل مرسية بمقتل ابن أبي جعفر، أجمعوا على تأييد أبي عبد الرحمن بن طاهر، وكان ابن طاهر من بيت قديم الرئاسة والسياسة فقد كان جده أمير مرسية في فترة طوائف ما قبل المرابطين[212].

انتقل ابن طاهر إلى قصر الإمارة، ودعا لسيف الدولة بن هود، إلا أنه بعد أيام دعا لنفسه، وجعل أخاه أبا بكر على الخيل[213]. غير أن ابن حمدين أرسل جيشاً إلى مرسية بقيادة ابن أخيه المعروف بابن أم العماد بمجرد علمه بمقتل ابن أبي جعفر إلا أن هذا الجيش رد خائباً، ومنعه أهل مرسية من دخولها فأعاد ابن حمدين توجيه جيش

---

(212) أفرد ابن بسام في الذخيرة ترجمة وافية لأبي عبد الرحمن بن طاهر الجد، وذكر له عدداً كبيراً من رسائله في شتى الموضوعات. وللأسف فقد اختلط على أستاذنا الدكتور حسين مؤنس في بحثه «نصوص سياسية» عندما اعتقد أن رسائل ابن طاهر الموجهة إلى ابن عبد العزيز هو ابن طاهر المتأمر في مرسية سنة 540 هـ، وأن ابن عبد العزيز هو المتأمر في بلنسية سنة 539 هـ، والواقع أن الرسائل تخص ابن طاهر الجد المتأمر على مرسية في فترة الطوائف الأولى، وقد استولى ابن رشيق على مرسية منه بعد ذلك، فلجأ ابن طاهر إلى بلنسية وتوفي سنة 507 هـ أو 508 هـ، بعد أن عمر أكثر من ثمانين عاماً، أما ابن عبد العزيز فهو محمد بن مروان بن عبد العزيز المعروف بابن رَوْبَش والذي استبد بأمر بلنسية في عهد أميرها عبد الملك بن عبد العزيز المنصور العامري، وقد توفي ابن عبد العزيز (الوزير ابن رويش) في عام 456 هـ، فخلفه ابنه في الوزارة، ثم استولى المأمون ابن ذي النون على بلنسية من صهره عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر، وعهد بأمور بلنسية إلى ابن الوزير ابن روبش فضبط أمورها، وانتهز فرصة انشغال ابن ذي النون وابن عباد بحروبهما واستقل بأمر بلنسية.

أما القاضي المتأمر في بلنسية 539 هـ، فقد ولد سنة 505 هـ وتوفي 578 هـ، وأبوه القاضي أبو الحسن بن عبد العزيز (المعجم رقم 196، ص 214).

والوثيقة (8) التي نشرها د. مؤنس، موجهة من ابن طاهر الجد إلى أحد أخوانه وهو غير أبو مروان بن عبد العزيز لأن في رسالة ابن طاهر دعابه بشأن أبي مروان هذا، إذ يقول: «وأما صفينا الفقيه أبو مروان فرايح في قميصه المدلوك، وعليه نصف جلجل من الوشي المحوك».

وهذه الرسالة ذكرها ابن بسام كسابقتها ولكن في فصل رسائل ابن طاهر في الدعابة والهزل ومن المعلوم أن ابن بسام انتهى من الذخيرة سنة 503 هـ.

انظر..

ابن بسام: الذخيرة، القسم الثالث مجلد 1، ص 68، 103.

ابن الخطيب: الأعلام، ص 195، 196.

عنان: دول الطوائف مملكة مرسية وبلنسية.

د. حسين مؤنس: نصوص سياسية رقم 8، ص 36.

(213) ابن الأبار: م. س. ص 230.

آخر بقيادة ابن عمه المعروف بالفلفلي، وقد صحبه أبو محمد بن الحاج اللورقي، وغيره من أعاين مرسية اللاجئين إلى قرطبة إلا أن مصيره كان كسابقه[214].

تولى ابن طاهر مرسية في جو مكفهر، والدسائس تضطرم من حوله، والأوضاع العامة غير مستقرة، فلم تمضِ أيام على رياسته حتى خاطب فريق من أهل مرسية أبا محمد عبد الرحمن بن عياض قائد جند الثغر في بلنسية للقدوم عليهم وتقلد الرئاسة، ولم يشعر ابن طاهر إلا وقد انتزع من رياسته في العاشر من جمادى الأولى سنة 540 هـ (أكتوبر 1145 م)[215] بعد أقل من ثلاث شهور من رياسته.

ولم تمضِ أيام قلائل حتى تطورت الحوادث في بلنسية بفرار ابن عبد العزيز وخلعه من الإمارة، فاستدعى الجند ابن عياض وبويع بالإمارة آخر جمادى الأولى سنة 540 هـ وبذلك أصبح ابن عياض أميراً على الشرق كله فدعا لابن هود في كلتا الحاضرتين وكان أهل مرسية قد استدعوه[216]. وكان ابن عياض بتصرفاته هذه تجاه ابن هود سياسياً فطناً، إذ كان يعلم أنه لا بدّ من مسالمة ابن هود الذي تقف وراءه قوى قشتالة، وفي نفس الوقت كانت مملكة برشلونة تهدد شرق الأندلس وقد عهد ابن هود إلى ابن عياض بالأمور كلها في شرق الأندلس، واكتفى هو بلقب الإمارة ومظاهرها، وكان ابن عياض على مستوى المسؤولية المنوطة له فكان يقظاً لحركات النصارى في شرق الأندلس[217].

كانت البلاد الواقعة على الشاطىء من لورقة إلى مصب الإبيرو قد دخلت في طاعة سيف الدولة، مما زاده ثقة بنفسه وقوته بعد فشله المتلاحق في قرطبة وغرناطة، حتى اعتقد أنه يستطيع الاستغناء عن معاونة الجند النصارى الذين أمدهم به ألفونسو

(214) ن. م.

(215) ن. م. ص 231، 233. وقد بقي ابن طاهر مقيماً في مرسية حتى تولى ابن مردنيش إمارتها وقد اشتد حذره منه وانقباضه عنه حتى توفي ابن مردنيش سنة 567 هـ فرحل ابن طاهر إلى مراكش ودخل في دعوة الموحدين وتوفي سنة 574 بمراكش.

(216) ابن الأبار: ن. م. ص 251.

(217) عبد الواحد المراكشي: المعجب ص 209.

ابن الأبار: م. س. ص 251.

ريمندس ملك قشتالة، وقد هاجم هؤلاء الجند مدينة شاطبة، فبادر عبد الله بن سعد ابن مردنيش بعسكر بلنسية لإنقاذ المدينة كما أسرع ابن هود وابن عياض لمعاونته، وطلب ابن هود من النصارى أنه يرفعوا أيديهم عن المسلمين، وتسليم المدن المفتوحة وكذلك الأسرى والغنائم وأن يكفوا عن غزواتهم المخربة التي قاموا بها مع القائد الطموح عبد الله الثغري وإلى كونكة، لأنه لا يسمح بأن يقوم النصارى بغزو المدن والأراضي التابعة له وتخريبها، إلا أنهم رفضوا مطالب سيف الدولة بن هود لأنهم لم يفعلوا إلا ما أمر به عاهلهم[218].

كان من نتيجة عدم امتثال جند قشتالة لأوامر سيف الدولة أن التحم الفريقان في معركة دموية في سهل البسيط على مقربة من جنجيلة في 20 شعبان 540 هـ (يناير 1146 م) هزم فيها المسلمون هزيمة ساحقة وقتل عبد الله بن سعد بن مردنيش وأسر سيف الدولة وقتله بعض الجند النصارى دون معرفة شخصيته، وارتد ابن عياض إلى بلنسية[219].

أعلن ابن عياض الدعوة لنفسه بعد مقتل ابن هود، وعين محمد بن سعد بن مردنيش نائباً عنه في مرسية بدل عمه المقتول، واتفق مع عبد الله الثغري ليكون رسوله إلى ملك قشتالة، ليعقد معه الصلح، والتحالف ضد أمير برشلونة، غير أن الثغري عاد من سفارته وادعى أن ألفونسو أمره على مرسية، واستعان على دخول المدينة بطائفة من أهل الفساد المشايعين له، ونجح في الاستيلاء عليها، فهرب ابن مردنيش نائب ابن عياض في أوائل ذو الحجة سنة 540 هـ (مايو 1146 م)[220].

غير أن الثغري لم يستطع أن يحول دون تقدم حلفائه النصارى إلى مرسية، فترتب على ذلك سخط أهلها عليه، ولم يوفق الثغري في استمالته بالرغم مما بذله لإرضائهم، وانتهز ابن عياض هذه الفرصة، وتوجه بقواته إلى مرسية التي انضم إليه

---

(218) Gaspar, Remiro, Cronica del Emperador D'Alfonsos Murcia Munilmana, PP. 180, 181. and Cronica del Emperados D'Alfonso, Espagna Sagrada, XXI, P. 330.

(219) ابن الأبار: م. س. ص 251.
أشباخ: م. س. ص 216.
محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 361، 362.

(220) ابن الأبار: م. س. ص 231.

أهلها، واستمر القتال بين الطرفين، حتى أنه كان يجري في شوارع المدينة، حتى انتهى بهزيمة الثغري ومقتله في 7 رجب 541 هـ (1146 م)[221].

وهكذا استعاد ابن عياض مرسية، وأصبح يبسط سلطانه على سائر قواعد شرق الأندلس من بلنسية شمالاً حتى أحواز قرطاجنة جنوباً، ولكن أنصار الثغري وحلفائهم النصارى لبثوا يسيطرون على المناطق الجبلية الواقعة بين قونكة وإقليش وبياسة ممتنعين بقلاعها بالرغم من كل الجهود التي بذلت لإخضاعهم، وقد أصيب ابن عياض بسهم في بعض حروبه مع القشتاليين، فقضى نحبه يوم الجمعة 22 ربيع الأول 542 هـ (أغسطس 1147 م)[222] فكانت ولايته عاماً وحوالي تسعة شهور.

وقام بعد ابن عياض صهره ونائبه في بلنسية محمد بن سعد بن مردنيش، أما مرسية فاختار أهلها أبا الحسن بن علي بن عبيد نائب ابن عياض بها، إلا أن لم يمكث طويلاً، فقد تخلى بعد حوالي شهر لابن مردنيش، وهكذا خلف ابن مردنيش ابن عياض في إمارة شرق الأندلس كله في جمادى الأولى 542 هـ (أكتوبر 1147 م)[223].

ويتولي ابن مردنيش الأمر في شرق الأندلس، يتغير الوضع في هذه المنطقة، ويواجه الموحدون أقوى وأخطر ثوار الأندلس، إذ استمر مسيطراً على شرق الأندلس إلى وفاته سنة 567 هـ (1171 م). ولم يكن من طراز الزعماء الثائرين في الغرب أو الوسط الذين سارعوا بالعبور إلى الموحدين يلتمسون العون، ثم يصيرون منضوين تحت لوائهم، داخلين في دعوتهم يسيرون في ركابهم بعد شهور أو سنوات معدودة متخلين عما بأيديهم، ومعاونين لجيوشهم في دخول الأندلس واحتلال مكانة المرابطين..

---

(221) ن. م.

(222) ذكر المراكشي أنه مات إثر إصابته بجراح في فتنة قامت في مرسية سنة 541 هـ.
المراكشي: م. س. ص 209.
ابن الأبار: م. س. ص 232.
الضبي: م. س. ص 33.

(223) ابن الأبار: م. س. ص 232.

نظرة عامة على الثورة

مما يلفت النظر في هذه الأحداث المتشابهة تلك الظاهرة العجيبة وهي أن قادة الثورة ضد المرابطين، لم يكونوا من قادة الجند، أو زعمائهم وإنما كان جلهم أو معظمهم من القضاة أو الفقهاء.

ويبدو أن سبب ذلك يرجع إلى المكانة التي تمتع بها هؤلاء في ظل الحكم المرابطي، حتى تركزت فيهم عناصر الزعامات المحلية، التي كان يتمتع بها في السابق القادة والأمراء الذين انهار سلطانهم، واختفى معظمهم بقضاء المرابطين على حكم الطوائف، فلما أحس هؤلاء القضاة بانهيار حكم المرابطين الذين نعموا في ظله بالسلطة والسلطان والنفوذ، طمعوا في الحكم والحلول محل المرابطين في حكم البلاد، فحاولوا إشعال الثورات المحلية في المدن التي عرفت نشاطهم، وتولوا زعامتها، لكي يحتفظوا بسابق رياستهم وليستردوا سلطانهم المحلي.

من الملاحظ أيضاً أن معظم هؤلاء القضاة من البيوتات الكبيرة[224] التي تولى

(224) كان القاضي ابن حمدين من البيوتات العريقة القديمة بالأندلس، تولى عدد من أفرادها منصب قاضي قضاة قرطبة، انظر النباهي، المرقبة العليا، ص 102، ابن بشكوال، الصلة رقم 1278، ص 550، والقاضي ابن أضحى من البيوتات العربية الكبيرة بكورة ألبيرة ابـن الأبار: الحلة، جـ 2 ص 378، أبو جعفر بـن أبي جعفر، ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، سفر 6، رقم 799، ص 306.

عبد الرحمن بن طاهر من بيت قديم الرئاسة، ابن الأبار: م. س. ص 227.

ابن حسون من أعرق بيوتات مالقة التي اشتهرت بالعلم والقضاء، ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 254.

أبي عبد الرحمن بن طاهر كان من بيت قديم الرئاسة والسياسة، فقد كان جده أبو عبد الرحمن بن =

عدد كبير من أفرادها منصب القضاء، فكان أشبه بمنصب وراثي في الأسرة، مما جعلهم يحسون بالخطر إذا ما نجح المريدون في الانفراد بالحكم.

فالفقهاء تحالفوا مع المرابطين منذ بداية حركتهم، وما إشراكهم في الخمس إلا مظهر من مظاهر هذا التحالف[225]، ولما ضم المرابطون الأندلس توثقت عرى الحلف، فعمل الفقهاء الذين كانوا مع ملوك الطوائف في الدولة الجديدة محتلين المراكز الأساسية في الإدارة باستثناء الخطط العسكرية والسياسية الكبرى، فعظمت ثروتهم، فما أن يتولى أحدهم قضاء موضع حتى تصبح له الأموال العريضة[226] وهذا يفسر ما نلاحظه من خلال تراجم الفقهاء والقضاة المنتهزين أو معظم فقهاء وقضاة ذلك العهد، إذ يبدو وكأن الملكية الخاصة في الأندلس تدور في أيدي فقهائها، فنقم عامة الناس عليهم سيطرتهم على الحياة الاقتصادية خاصة تملكهم للأراضي[227].

فلم يكن غريباً أن يسيطر الفقهاء الملاك على الدويلات المدينية التي ظهرت عقب انحلال دولة المرابطين، وربما تفسر هذه الظاهرة في أن الناس لم يشغلهم في ذلك الوقت إلا ما يقتاتون به، والعدو متربص بالأندلس كلها وكأن هؤلاء الفقهاء الملاك أقدر على تأمين القوت للناس كما أن بعض الفقهاء يتحسس مشاعر الناس، فيخرج لهم عن ماله، وربما كان الباعث على سيطرة كبار الملاك هذه، هي خشيتهم من ضياع أموالهم لما شاهدوا ما فعله الموحدون في بلاد المغرب إبان ثورتهم، فانقضوا على السلطة السياسية حفاظاً على ملكياتهم، فجاءت فترة الانتقال تدعيماً لسيطرة الفقهاء الدينية والاقتصادية والسياسية، ولم تفلح الثورة الموحدية في إضعاف هذه السيطرة على الرغم من أنها جاءت في بداية أمرها ثورة على فقهاء المالكية وما

= طاهر أمير مرسية، بعد سقوط الخلافة الأموية، ابن بسام: الذخيرة، القسم الثالث، المجلد الأول، ص 68 :103، ابن الأبار: م. س: 230.

(225) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 126.

(226) د. عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي، ص 152، 153.

(227) يقول الشاعر ابن البني وتنسب الأبيات أيضاً للشاعر الأبيض:

أهل الرياء لبستم ناموسكم ... كالذئب يدلج في الظالم العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتم شهب الدواب بأشهب ... وبأصبغ صبغت لكم في العالم

المراكشي: المعجب، ص 171، زاد المسافر، ص 71.

يمثلون، فما أن استقرت دولة الموحدين حتى بدأ فقهاء المالكية بالتعاون مع عبد المؤمن، وتنظيم طلبة الحضر خير شاهد على ذلك[228].

وقد اعتمد هؤلاء الثوار على أقاربهم[229]، أو على أنفسهم[230] في تسيير شؤون الحكم أو على أصدق الأصدقاء[231]، مما يدل على أنهم لم يكونوا مستندين على أسس قوية من الشرعية، وربما إلى عدم ثقتهم في التعاون مع أقرانهم من الفقهاء والقضاة.

ويلاحظ أنه لم يكن هناك إجماع من أهل البلاد على هؤلاء الثوار بدليل انتهاز العامة فرصة خروج أي منهم لحرب المرابطين، أو معاونة بعضهم بعضاً، فيقوموا بالشغب والتشغيب[232]، أو استدعاء المرابطين[233]، . . . .

(228) د. عز الدين موسى. م. س. ص 154.

(229) اعتمد القاضي ابن حمدين على ابن أخيه علي بن أبي القاسم المعروف بابن أم العماد، وعلى ابن عمه أبي الحسن محمد بن حمدين المعروف بالفلفلي. (ابن الأبار: م. س. ص 212، 255.

ابن أضحى اعتمد على ابنه أبي بكر (ابن الأبار: ت. م. ص 215).

ابن حسون عين أخاه أبا الحسن قائداً لقواته وعهد إليه بولاية بلدة قرطبة وما والاها (ابن الخطيب: م. س. ص 255).

وقرطبة تقع غربي مالقة. انظر ياقوت: م. س. ص 324.

ابن المنذر عين أخاه أحمد وخاله عبد الله بن علي بن الصميل على قيادة الجيش. (ابن الأبار: م. س. ص 203).

ابن طاهر جعل أخاه قائداً للجيش، (ابن الأبار: ن. م. ص 230).

ابن عياض اعتمد على صهره عبد الله بن سعد بن مردنيش (ن. م. ص 152).

(230) أحمد بن ملحان «لم يكل أمره إلى غيره» (ابن الخطيب: الأعلام ص 255).

أخيل بن إدريس الرندي (ابن الأبار: م. س. ص 241).

ابن حسون جمع في يده منصب الإمارة والقضاء (ابن الخطيب م. س. ص 255).

(231) ابن قسي اعتمد على أبي بكر بن يحيى الشلطيشي المعروف بابن القابلة وكان يسميه بالمصطفى لاختصاصه الكلي بكتابته وإطلاعه على أموره، كما اعتمد على زميله وصديقه أبي الوليد بن المنذر في بث الدعوة في شلب وعلى سيد راي بن وزير في يابرة.

ابن الأبار: م. س. ص 198، 203.

استخدم ابن أبي جعفر طلبة العلم الذين كانوا يأخذون عليه حشماً له وخدماً.

(ابن عبد الملك: م. س. سفر 5، قسم 1، ترجمة 182 ص 99).

(232) مثل ما حدث في مرسية عند خروج ابن أبي جعفر لمعاونة ابن عبد العزيز في حصار شاطبة (المعجم رقم 214، ص 235).

(233) استدعاء أهل قرطبة لأبي زكريا يحيى بن غانية، وتصالح أهل غرناطة مع المرابطين إثر هروب ابن =

أو غيرهم[234].

كانت هناك معارضة من طرف بعض القضاة والفقهاء الذين رفضوا تأييد أو بيعة الثوار، إما لتمسكهم ببيعة المرابطين، أو من باب التحوط، وعدم الدخول في الفتنة، وعدم المسارعة في ما لا تحمد عقباه[235].

ومن الملاحظ أنه عند تظاهر هؤلاء القضاة بالزهد في الرئاسة والتمنع وترك الأمر للجند ووجوه البلاد لاختيار من يريدون، كانوا يختارون أحد المرابطين[236] مما يدل على أن أسباب الثورة لم تكن واضحة لأهل هذه المدن وأن الأمر في نظرهم لم يكن يتعدى تغيير حاكم مرابطي بآخر مرابطي.

كما يلاحظ سرعة تمرد الجند لقصور هؤلاء المنتزين في دفع رواتبهم بعد أن عجزوا عن جباية الأموال وكراهية الرعية بالتالي لضيقها بكثرة المغارم والمطالب[237]، خصوصاً أنهم كانوا يأملون في مستقبل أفضل.

= أضحى وسيف الدولة (ابن الخطيب: الإحاطة: جـ4، ص 346.
ابن الأبار: م. س. ص 215.

(232) استدعاء سيف الدولة بن هود في قرطبة وغرناطة وشرق الأندلس.
ابن الأبار: م. س. ص 212، 215).

(235) مثل القاضي أبو جعفر بن الحسين بن الحسن الأزدي عندما طلب للشهادة في بيعة ابن عبد العزيز رفض قائلاً: «والله لا أفعل وبيعة تاشفين في عنقي»، (النباهي: م. س. ص 16)، وأصر القاضي جعفر بن الحسين بن أبي البقاء على بيعة المرابطين (ابن الأبار: التكملة، رقم 636 ص 241)، وعندما أرغم الفقيه القاضي ابن الفرس على الخطابة كان يقول حال شيخ ابن سبعين سنة يطلع على هذه الأعواد فيكذب (ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، سفر 6، رقم 440، ص 166).
رفض القاضي أبو محمد عاشر بن عاشر التعاون مع ابن أبي جعفر واعتكف، وانكب على العلم يستفيد ويفيد. (ابن عبد الملك: م. س. سفر 5، قسم 1، رقم 182، ص 99.

(236) عندما أظهر ابن عبد العزيز التمنع وطلب من الجند ووجوه البلد اختيار من يريدون اختاروا أحد رجالات لمتونة الباقين ببلنسية (ابن الخطيب: م. س. ص 256).
(ابن الأبار: م. س. ص 218).
وحدث في ألمرية أن هرع الناس إلى أبي عبد الله محمد بن ميمون قائد الأسطول المرابطي وطلبوا منه أن يتأمرهم غير أنه رفض (المراكشي: المعجب، ص 210).

(237) في بلنسية على ابن عبد العزيز، وسيف الدولة في قرطبة وغرناطة.
انظر: ابن الأبار: م. س. ص 221، 212، 215.

لم يستقر معظم هؤلاء القضاة المنتزون في حكمهم لهذه المدن غير أيام أو شهور لا تتعدى العام[238]، مما يدل على فشلهم في الحكم، أو فقدهم للحس السياسي والتمرس بالحكم، وفشلهم في كسب ثقة المحكومين.

وقد اتصفت تلك الأحداث بالتطورات السريعة المتلاحقة التي احتشدت فيها كثير من التراجم التي شاركت في الأحداث وتغير الزعماء في خلال أيام[239]، مما يدل على الشعور السياسي والاضطراب، وفقد الزعامات القوية القادرة على تدعيم الحكم وتوحيد البلاد.

ومن الملاحظ أيضاً هروب معظم هؤلاء المنتزين من المسؤولية وترك البلاد تواجه مصيرها[240] بدون رئيس عندما يفشلوا في الرئاسة.

لم تكن لهذه الثورة على المرابطين برنامج محدد واضح، أو تخطيط منظم أو حتى شعار لها سوى ما ذكر من قيام المريدين «بالتهليل والتكبير» ولم تُذكر أسباب واضحة للقيام على المرابطين، أو اتهامهم بالخروج عن الدين أو التقصير في الجهاد، أو فساد الحكم كما حدث من قيام المهدي بن تومرت، كما لم يذكر عنهم القيام بأي إصلاح أو تنظيم في البلاد التي استولوا عليها، ولعل ذلك ناتج عن سرعة تطور الأحداث.

عدم التوفيق عند اختيار سيف الدولة بن هود، فهو لم يكن إلا آلة في يد ألفونسو ملك قشتالة، يحركها ضد المسلمين حين يشاء، ويحقق بها إذا استطاع بعض مآربه في الضرب والتفريق بين أهل الأندلس، واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أراضيها، ولم يكن اشتراك ابن هود في حوادث الثورة على المرابطين، وتدخله في شؤون الرياسة، بالقواعد الثائرة مثل قرطبة وغرناطة وجيان ومرسية، محاولة اختيارية يشق بها طريقه إلى الرياسة، ولكنه كان يقوم بما يوصي به ملك قشتالة، ومعاونته الفعّالة بالمال

(238) انظر: أحداث قرطبة، غرناطة، وبلنسية، ومرسية.

(239) في قرطبة ابن حمدين أقل من شهرين ثم سيف الدولة 12 يوم ثم ابن حمدين مرة أخرى 11 شهر، غرناطة سيف الدولة أقل من شهر، ثم ابن أضحى أسبوع.
ولمزيد من المعلومات. انظر.. منطقة الشرق.

(240) انظر.. ما حدث في قرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية ورندة، ووادي آسن.

والجند، لانتهاز الفرصة السانحة خلال هذا الاضطراب العام الذي كان يسود الأندلس، ولم تكن دعوات الزعماء الثائرين له ليقدم عليهم، أو ليستظلوا بصفته الملوكية إلا سراباً، وخداعاً لمواطنيهم، بتنصيب شخصية لا تؤمن ولا تخلص لقضيتهم.

أما ثورة الشرق فقد كانت أشد عنفاً، وأصعب مراساً، وأطول زمناً وأعمق جذوراً، فلم يستسلم الشرق للموحدين إلا بعد وفاة أمير الشرق ابن مردنيش سنة 567 هـ (1171 م) وقد ساعدت على ذلك العوامل الجغرافية والعسكرية التي ضاعفت من مقدرتها على المقاومة فكانت قواعدها الرئيسية بعيدة عن متناول المرابطين ثم الموحدين، وكان اتصالها بالبحر المتوسط يسهل إمدادها بكل ما تحتاجه، والعامل المهم في استمراريتها مجاورتها للممالك النصرانية، مما فتح الباب على مصراعيه للاتصال المستمر بملوك النصارى ومحالفتهم والاستنصار بهم، وعامل آخر ساهم في استمرارية هذه الثورة هو انحصار زعامتها وتركيزها لعدة سنوات في يد محمد بن سعد ابن مردنيش والذي اجتمعت حوله المقاومة التي كانت تؤمن إيماناً عميقاً بفكره الأندلس للأندلسيين.

الفصل الثالث

الموحدون الأوائل بالأندلس

الاهتمام بما يجري في الأندلس رغم مشاغل الموحدين ـ حسن استقبال عبد المؤمن لثوار الأندلس ـ أوائل المتصلين بالموحدين ـ طلب الثوار معونة عبد المؤمن ـ إرسال الجيوش رغم حاجة الموحدين لها بالمغرب ـ مهمة الموحدين الأوائل ـ دخول مدن الغرب في طاعة الموحدين ـ حضور ابن العربي على رأس وفد إشبيلية لمبايعة الموحدين ـ سوء تصرف الموحدين بالأندلس ـ الثورة على الموحدين بالأندلس والمغرب ـ صدى نجاح ابن غانية في الأندلس شجع الثورة في المغرب على الموحدين ـ ثورة سبتة ـ زعامة القاضي عياض ـ سحق الثورة والثوار بقسوة ـ السيطرة على الأمور في المغرب ـ تدخل ألفونسو السابع ملك قشتالة وتهديد ابن غانية ـ اتصال ابن غانية بالموحدين والاتفاق على الصلح ـ وفاة ابن غانية واستمرار مقاومة المرابطين في غرناطة ـ استيلاء النصارى على ألمرية ـ لاردة ـ إفراغة ـ مكناسة طرطوشة ـ إشبونة ـ استدعاء عبد المؤمن شيوخ الأندلس الذين دخلوا دعوة الموحدين ـ خروج ابن قسي على الموحدين وتحوله إلى النصارى ـ مقتل ابن قسي وانتهاء زعامة المريدين ـ حرج مركز المرابطين في غرناطة ـ دخولهم في طاعة الموحدين ـ استعادة ألمرية ـ خضوع معظم الأندلس للموحدين.



لم يسارع الخليفة عبد المؤمن بن علي بإرسال جيش إلى الأندلس في مستهل الثورة على المرابطين، فقد فضل أن ينتهي من الإجهاز عليهم في المغرب، إذ أن انتصار الموحدين على المرابطين في وهران، ومقتل العاهل المرابطي تاشفين بن علي، لم يكن يعني أنه قد تم القضاء على المرابطين، فقد كانت كثير من مدن المغرب ما تزال في يدهم، والعاصمة لم تسقط بعد، لذلك كان على عبد المؤمن أن يجهز أولاً على قوات المرابطين الموجودة في فاس[1]، ومكناس[2]، ثم بعد ذلك يتجه إلى مراكش العاصمة، والتي سقطت في يده في 18 شوال 541 هـ (مايو 1147 م)[3].

وبالرغم من كل هذه المشاغل، فإن عبد المؤمن لم يصرف نظره عن الأندلس، فهي في نظره الإرث الهام الذي سيحل فيه محل المرابطين. وقد خدمته الظروف في هذه الفترة، إذ أن انتصار الموحدين في وهران، ومصرع تاشفين كان أكبر حافز للعناصر الثائرة في هذه الآونة بالأندلس لكي تتصل بالموحدين، وخاصة وأن النصارى

(1) سقطت فاس في ذي القعدة 540 هـ (مايو 1146 م) وعن حصارها وسقوطها أنظر، ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 23، 24، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 189.
البيدق: أخبار المهدي، ص 60، 61.

(2) سقطت مكناس بعد أكثر من خمس سنوات من سقوط مراكش. انظر:
البيدق: م. س. ص 62، 68.
ابن غازي: الروض الهتون في أخبار مكناس، ص 16.

(3) عن حصار وفتح مراكش. انظر:
ابن عذاري: م. س. ص 27 :30.
البيدق: م. س. ص 63 :66.
الحلل الموشية: ص 137.

تكالبوا على الأندلس، فعبر عدد من الثوار إلى العدوة، وطلبوا من عبد المؤمن المعونة والعون. يقول ابن الخطيب[4]، «ولما اضطرب أمر لمتونة بالأندلس، وضعفوا وكثرت الفتن والثوار، واغتنم العدو ذلك، فاستولى على البلاد، واشتهر ظهور الدولة المؤمنية والطائفة المهدية بالمغرب، وافتتحوا دار الملك بمراكش، واستأصلوا أرباب الأمر، تعلقت آمال المسلمين بهم، واستصرخهم الناس، وثاروا بمن ببلادهم من المرابطين، سوء جوار، وحباً في الإدالة وتبديل الملوك، وقل أن رأوا أيالة أنفع أو أجدى في قتال العدو من لمتونة، فأجابهم صاحب الدعوة الأمير عبد المؤمن بن علي».

وكان لحسن استقبال عبد المؤمن لثوار الأندلس، ووعوده الخلابة لهم أثر كبير في مبايعة عدد كبير منهم للموحدين، خاصة منطقة الغرب، حتى أنه أرسل بعضاً من جيوشه إلى الأندلس تشارك في أحداثها، وتمهد الطريق لسيطرة الموحدين، بالرغم من أنه كان في أدق مرحلة له في المغرب أثناء حصار مراكش.

ومن أوائل المتصلين بعبد المؤمن أمير البحر علي بن عيسى بن ميمون المنتزي على المرابطين في قادش، وقد قدم على عبد المؤمن أثناء حصاره لفاس في أوائل عام 540 هـ (يونيه 1145 م) وقدم إليه طاعته، وعاد إلى الأندلس، وخطب للموحدين بجامع قادش، فكانت أول خطبة للموحدين بجزيرة الأندلس[5].

ولا شك أن انضمام ابن ميمون قائد أسطول المرابطين إلى الموحدين يعد من أهم الأحداث التي خدمت الموحدين، وعاونتهم في عبورهم للأندلس.

وأثناء حصار مراكش وفد على عبد المؤمن عدد من زعماء الأندلس الثائرين به، منهم أبو الغمر بن عزون زعيم شريش وأركش ورندة، والقاضي ابن حمدين زعيم قرطبة المعزول[6] كما وفد في نفس الوقت أو قبله بقليل زعيم ثورة المريدين أحمد بن قسي[7] عقب خلعه وفقده لإمارته في شلب وميرتله على يد خصمه ومنافسه وصديقه

ابن أبي زرع: م. س. ص 189.

(4) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 265.

(5) ابن عذاري: م. س. ص 34، ابن خلدون: العبر جـ 6 ص 485.

(6) ابن عذاري: م. س. ص 27.

(7) حدد ابن الخطيب هذا اللقاء في ربيع الآخر 540 هـ، بينما ذكر ابن الأبار أنه كان في سلا في ربيع الآخر، 540 هـ ثم انصرف في المحرم 541 هـ صحبة الجيش الموحدي الذي فتح الجزيرة. انظر: ابن الخطيب: م. س. ص 251.

السابق سيد راي بن وزير، وقد احتفى به عبد المؤمن وأكرم وفادته، وكان الذي مهد لهذا اللقاء، وعاون ابن قسي على العبور من الأندلس علي بن عيسى بن ميمون.

إلا أن ابن قسي كانت له اتصالات من قبل بالموحدين، فعقب مقتل تاشفين بن علي، واقتحام وهران، وصل رسول من ابن قسي إلى عبد المؤمن أثناء حصار تلمسان، غير أن عبد المؤمن تجاهل هذه الاتصالات وأهمل الرسول بسبب نعت ابن قسي لنفسه بالمهدي في رسالته، ولما لمسه من تعاليه في الخطاب عليه، فلم يجاوبه[8].

وكان لمقدم هؤلاء الزعماء وطلبهم المعونة من الموحدين للقضاء على المرابطين نتائج عملية، ذلك أنه شجع عبد المؤمن بن علي لكي يبادر بالتدخل في حوادث الأندلس، وتجهيز عدة حملات جازت إلى الأندلس.

وجه عبد المؤمن أول جيش موحدي إلى الأندلس بقيادة أبي إسحق براز بن محمد المسوفي الذي كان من قادة الأمير تاشفين بن علي، ثم انحاز بعد مصرعه إلى الموحدين وقد صحب هذا الجيش أحمد بن قسي[9]، ثم تبعه جيش ثانٍ بقيادة موسى ابن سعيد وثالث بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي وهما من أشياخ الموحدين[10].

وكانت مهمة الموحدين في الأندلس أن يقاتلوا المرابطين والثوار معاً، فعبرت جيوش الموحدين في شهر المحرم سنة 541 هـ (يونيه 1146 م)، واستطاعوا الاستيلاء على طريف والجزيرة الخضراء من المرابطين، واستطاعت الحامية المرابطية الخروج سالمة. وأن تشق طريقها وسط الأعداء حتى وصلت إشبيلية[11].

وفتحت شريش أبوابها طوعاً واختياراً للموحدين، وكان صاحبها ابن عزون قد

ابن الأبار: الحلة جـ 2 ص 199.

(8) يقول ابن الخطيب: «فخاطب الأمير عبد المؤمن بن علي فلم يجد عنده قبولاً لتعاليه في الخطاب عليه، وجعل الحظ لنفسه بوصف الهداية بضاعة القوم.

ابن الخطيب: م. س. ص 254.

(9) ابن عذاري: م. س. ص 35.

ابن الخطيب: م. س. ص 251.

(10) ن. م.

(11) ابن الأبار: م. س. ص 199.

أشباخ: م. س. ص 222.

سبق له مبايعة عبد المؤمن، وبذلك حصلت على حقوق ومنح خاصة، ولقب أصحابها بالسابقين وحررت أملاكهم[12].

اتجه الموحدون بعد ذلك إلى منطقة الغرب فأعلن يوسف بن أحمد البطروجي الطاعة واستولوا على ميرتلة وشلب التي سبق أن استولى عليهما سيد راي بن وزير من ابن قسي فردوا أمرها إلى ابن قسي[13] وتغلب الموحدون بعد ذلك على معظم مدن الغرب التي استولى عليها ابن وزير وغيره من المريدين ولم يستغرق هذا العمل سوى بضعة أشهر، ولم يكن الاستيلاء على قواعد المريدين في الغرب نهاية المطاف بالنسبة لهم، بل كان مقدمة لمرحلة أهم وهي الاستيلاء على إشبيلية.

اتجه الموحدون إلى إشبيلية صحبة زعماء المريدين الذين انضموا إليهم[14]، فاستولوا على طلياطة وحصن القصر، وهما قلعتا إشبيلية من الغرب، وقد أعلنت كلتاهما الطاعة ثم ضربوا الحصار حول إشبيلية براً وبحراً، ولم يطل أمد الحصار، إذ لم يكن بإشبيلية سوى حامية مرابطية قليلة العدد، تدافع في ظروف صعبة، وسط جو مشحون بكراهيتهم فلم يرَ المرابطون مناصاً من ترك المدينة، ولجأوا إلى حصون قرمونة المنيعة، فملك الموحدون المدينة يوم الأربعاء الثاني عشر من شعبان 541 هـ (18 يناير 1147 م)[15] وسافر وفد من أهل إشبيلية برئاسة القاضي أبي بكر بن العربي حاملين بيعتهم في ذي الحجة من نفس العام[16].

ومجيء ابن العربي بنفسه برغم كبر سنه، ومبايعته بنفسه للخليفة بعد أقل من ثلاثة شهور من فتح إشبيلية، ربما محاولة منه لإبعاد الشبهة عن نفسه، أو نفي أي موقف تجاهه، ربما يفسر في غير صالحه[17]، إلا أن هذا لم يشفع له، فقد كان في

---

(12) ابن أبي زرع: م. س. ص 188.

(13) ابن الأبار: م. س. ص 200.

(14) من زعماء المريدين أحمد بن قسي، وسيد راي بن وزير شيخ أهل الغرب، ويوسف البطروجي صاحب لبلة، ولبيد بن عبد الله قائد شنتمرية، وجميع أهل الغرب بعسكرهم ورجالهم.
ابن عذاري: م. س. ص 35.

(15) ن. م. ابن خلدون: م. س. ص 486.

(16) ابن عذاري: م. س. ص 33.

(17) من المؤكد أن عبد المؤمن كان على اطلاع بكتابات ابن العربي، وعلى علم بموقفه السابق من المهدي

موضع شك هو والوفد الإشبيلي، خاصة بعد أن وشى أحد الوشاة للخليفة بأن إشبيلية ارتدت بمن فيها فأمر عبد المؤمن باعتقالهم[18].

غير أن الخليفة عبد المؤمن أمر بالإفراج عن الوفد بعد أن تأكدت الأخبار بالتزام إشبيلية بالبيعة[19]، ولا شك أن المحنة التي تعرض لها ابن العربي وهو في هذا السن المتقدم إذ تجاوز السبعين من عمره، قد عجلت بموته في شهر جمادى الآخرة سنة 542 هـ، (نوفمبر 1147 م) غير أن الظروف التي توفي فيها جعلت أصابع الاتهام تتجه إلى الموحدين، وتتهمهم بدس السم له[20].

وعلى إثر دخول الموحدين إشبيلية تولى شؤونها أبو إسحق براز بن محمد المسوفي غير أن أخوي المهدي بن تومرت عبد العزيز وعيسى أساءا السلوك، وبغى كلاهما وطغى، واستحلا سفك الدماء، ونهب الأموال، وغدت إشبيلية في ظلهما مسرحاً لشر ضروب الفوضى، واستطالت أيدي أتباعهم على الأندلسيين المجاورين لهم. ففروا أمامهم، وتغيرا على البطروجي صاحب لبلة، وعزما على الإيقاع به، فخرج من إشبيلية مع أصحابه متوجهاً إلى لبلة وثار بها، وأخرج الموحدين منها، وخرج على الطاعة، ووجه إلى طلياطة وحصن القصر من ملكهما وتحالف مع المرابطين بقرطبة، وهاجموا المناطق بين لبلة وإشبيلية سنوات 542، 543، 544 هـ (1147، 1148، 1149)[21].

= ومن الموحدين.

انظر: د. عصمت دندش: دراسة حول رسائل ابن العربي، مجلة المناهل، عدد 9، سنة 1977.

انظر: ابن العربي: أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، قسم 3 ص 1434.

العواصم من القواصم، تحقيق د. عمار طالبي، جـ 1، ص 86.

الحلل الموشية ص 141.

(18) ابن عذاري: م. س. ص 33.

(19) أرسل عبد المؤمن إلى المعتقلين أبا إسحق بن جامع وعبد الله بن سليمان من أشياخ الموحدين معتذرين لهم، بأن حجزهم كان من باب التخوف على حياتهم، لأنهم إذا كانوا علموا بارتداد أهل إشبيلية ربما يفرون على وجوههم فتأكلهم الطرق بمن فيها من الثائرين، وقد أنعم عليهم عبد المؤمن بصرف أموالهم وضياعهم إليهم، وخص ابن العربي وأعضاء الوفد بهبات مالية.

انظر: ابن عذاري: م. س. ص 33، 34.

(20) النباهي: م. س. ص 95.

(21) ابن عذاري: م. س. ص 38.

وقد اتسع الخرق على الموحدين في الأندلس، والعدوة، واتصلت الفتن، إذ خرج على طاعة الموحدين بالأندلس ابن قسي في شلب، وابن ميمون بقادش، ومحمد بن الحجام ببطليوس، وأرغم أهل إشبيلية أخوي المهدي، عيسى وعبد العزيز وابن عمهما يصلاتن بالخروج بمن معهم من الموحدين، وانتفض أهل ألمرية على واليهم الموحدي وقتلوه، وولوا عليهم أبا يحيى بن الرميمي[22]، ولم يبق ويثبت على طاعة الموحدين سوى ابن عزون صاحب شريش[23]، وكان خروج هؤلاء الزعماء في الوقت الذي اضطرمت فيه ثورة الماسي[24] بالمغرب والتي كادت أن تقضي على الموحدين إذ لم يبق على دعوتهم سوى مراكش وفاس.

انتهز ابن غانية فرصة الاضطراب الذي حدث نتيجة سوء تصرف الموحدين بالأندلس، وانتزاء زعماء الغرب الذين سبق أن بايعوا الموحدين، وبعث بقوة من المرابطين استولت على الجزيرة الخضراء[25].

وتردد صدى نجاح المرابطين في المغرب، فكان له رد فعل خصوصاً في سبتة والتي وليها الشيخ يوسف بن مخلوف التينملي من قبل عبد المؤمن، وقد انتشرت شائعة بين الناس بأن والي الموحدين يعتزم قتل القاضي أبي الفضل عياض اليحصبي. وكان أهل سبتة ينظرون إليه نظرة إجلال واحترام، وهو لهم: القاضي

---

(22) البيدق: م. س. ص 67، عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 210.
ابن سعيد: المغرب جـ 2 ترجمة 482 ص 198، المقري: نفح الطيب جـ 3 ص 533.

(23) ابن خلدون: م. س. ص 487.

(24) بعد فتح مراكش ثار ببلاد السوس الأقصى شخص يدعى محمد بن عبد الله بن هود الماسي، وتسمى بالهادي اقتداء بالمهدي بن تومرت، وقد أقبل عليه الناس من كل مكان، وقامت بدعوته عدد كبير من القبائل، حتى لم يبق للدعوة الموحدية غير مراكش وفاس، وكاد يضمحل وينقرض ما قاتلوا عليه منذ خمس وعشرين سنة، وقد استطاع الماسي هزيمة الجيش الموحدي مما جعل عبد المؤمن يتبعه بجيش كبير جعل على قيادته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتي ومعه جملة من أشياخ الموحدين، فاستطاعوا هزيمته والقضاء على الماسي وأكثر عسكره.
البيدق: م. س. ص 82.
ابن عذاري: م. س. ص 32.
الحلل الموشية: ص 146.
ابن أبي زرع: م. س. ص 192.

(25) ابن عذاري: م. س. ص 38.

والفقيه والإمام والعالم والزعيم الروحي، لذلك انقضوا على من كان بالقصبة من الموحدين وأوقدوا عليهم النار بالبرج الذي تحصنوا به حتى قتلوهم وصلبوهم[26].

ولا شك أن ما حدث بسبتة بالموحدين من أجل قاضيهم، اضطر القاضي عياض أن يكون بجانب أهلها، فعبر إلى الجزيرة الخضراء، وقابل يحيى بن غانية، وطلب منه أن يولي عليهم والياً من قبله بعد أن خلعوا طاعة الموحدين، ونقضوا بيعتهم. فأرسل معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي[27] والياً على سبتة[28].

وحاول يحيى بن أبي بكر الصحراوي أن يستعيد نفوذ المرابطين في المغرب خصوصاً وقد بايعته قبائل سهول تامسنا الخصبة[29]، كما أن طنجة كانت ما تزال في أيدي المرابطين.

كان استفحال الثورة، واتساع نطاقها على هذا الشكل، دليلاً على أن الدعوة الموحدية لم تكن تأصلت بعد في نفوس معتنقيها، ولم يؤمنوا أو يدينوا بها إلا تحت سلطان الضغط والإرهاب المادي والمعنوي، مما جعل القبائل تتلمس أي ثائر تتجمع حوله وتنقض دعوة الموحدين[30].

---

(26) ابن عذاري: م. س. ص 28، 32.

(27) كان يحيى بن أبي بكر الصحراوي عندما فر من فاس التي كان والياً عليها عند دخول الموحدين قد التجأ مع من كان بها من لمتونة إلى طنجة، وبقي بها خمسة شهور إلى أن وصل إليها قائد الأسطول علي بن عيسى بن ميمون من قادش، فاتفق مع يحيى أن يجوزه إلى الأندلس عند ابن غانية لقاء مبلغ من المال، وإطلاق سراح أبيه من سجن قرطبة، فضمن له يحيى ذلك، فلما أجازه ابن ميمون جردهم من خيلهم ومتاعهم وأموالهم، برغم أن الصحراوي أعطاه مبلغاً كبيراً من المال. ومع ذلك فعندما وصل الصحراوي إلى ابن غانية أطلق له والده ووفى بعهده، غير أنه عندما ولي سبتة تحايل على ابن ميمون وقتله. انظر:

البيذق: م. س. ص 67.

ابن عذاري: م. س. ص 32.

ابن أبي زرع: م. س. ص 161.

(28) ن. م.

(29) بايعته قبائل برغواطة، ودكالة ورجراجة، وحاحة.

البيذق: م. س. ص 67، 168.

(30) ذكر البيذق عدد الثوار الذين ثاروا في عهد عبد المؤمن ثلاث وثلاثين ثائراً.

البيذق: م. س. ص 82 :86.

وشعر عبد المؤمن وأشياخ الموحدين أن الأمر سوف يخرج من أيديهم إذا لم تسحق هذه الثورات بسرعة، وقد نجحوا فعلاً في القضاء على الخارجين عليهم، وأرغمت القبائل على العودة إلى الخضوع بعد أن تعرضوا لمذبحة دموية رهيبة، وصف تفاصيلها البيدق بما أسماه الاعتراف والتي راح ضحيتها الآلاف من شيوخ وشباب القبائل والذين وصفهم الموحدون بأهل التخليط المعاندين[31].

وعندما علم أهل سبتة بما نزل بالناكثين من صنوف الويل، بادروا بإعلان بيعتهم وطاعتهم، وحمل البيعة إلى عبد المؤمن أشياخ المدينة وطلبتها فعفا عنهم وعن القاضي عياض، ولكنه أمره بترك سبتة والإقامة في مراكش[32] وأمر بهدم سور سبتة[33].

وبعث عبد المؤمن بجيش موحدي كبير إلى الأندلس جعل على قيادته أبا يعقوب يوسف بن عثمان لإعادة نفوذ الموحدين بها، فاستعادوا الجزيرة الخضراء[34] ودخلوا إشبيلية، ويصف ابن صاحب الصلاة[35] وهو شاهد عيان دخول الموحدين لإشبيلية ومعاملتهم لأهلها فيقول: «وساء ظن الموحدين ـ أعانهم الله ـ بالناس فسجن من اتهم وأمضى السيف والنكال على من صح عليه إن غش الأمر وأجرم.

أغار الموحدون بعد استعادتهم إشبيلية على أعمال البطروجي بلبلة، وطلياطة،

---

(31) ن. م. ص 70: 72.

(32) وصل القاضي عياض حسب أوامر عبد المؤمن إلى مراكش وتوفي هناك بعد قليل في جمادى الأخيرة سنة 544 هـ (سبتمبر 1149 م) واتهم الموحدون بدس السم له. انظر:

النباهي: م. س. ص 95.

ابن أبي زرع: م. س. ص 191.

البيدق: م. س. ص 98.

ابن عذاري: م. س. ص 27، ابن خلدون: م. س. ص 484.

(33) ن. م.

(34) استعاد الجزيرة الخضراء أخوا المهدي عيسى وعبد العزيز بعد طردهما من إشبيلية بمعاونة أبي الغمر بن عزون.

ابن خلدون: م. س. ص 487.

ابن عذاري: م. س. ص 39.

(35) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص 120.

وعلى عمل ابن قسي بشلب، وعلى طبيرة وأحوازها، وأطاع عيسى بن ميمون صاحب شنتمرية، ومحمد بن الحجام صاحب بطليوس الذي قدم لهم المعاونة المستمرة والمساعدة، وبذلك دانت لهم منطقة الغرب مرة أخرى[36]. وبدأت مرحلة جديدة في سياسة الموحدين تجاه الأندلس، وهي الإعداد لضمها إلى حكمهم.

أدرك ألفونسو السابع ملك قشتالة مدى فداحة الخطر الذي يهدد أطماعه في شبه الجزيرة. ولم يعد يقنع بالاستيلاء على قلعة رباح[37] التي استولى عليها في أواخر 541 هـ (1147 م) فأحدث ثغرة خطيرة في خطوط الدفاع الأندلسية، يخرج منها لمهاجمة المسلمين في قلب الأندلس، ولم يعد يكتفي باستيلائه على بياسة وأبدة، ولم يرضَ بالإتاوة التي اتفق مع ابن غانية عليها، وبدأ يشتط عليه بمطالبه، وإذ كان يعتبره بمثابة فصل له، أو عامل له على قرطبة بعد إخراجه ابن حمدين، لذلك طالبه بجيان نظير تركه في حكم قرطبة[38].

فتظاهر ابن غانية بالموافقة على طلب ألفونسو، واتصل سراً بأبي إسحق براز ابن محمد المسوفي والي إشبيلية الموحدي، واتفقا على الصلح، في نظير أن يسلم ابن غانية قرطبة وقرمونة للموحدين، ويحكم جيان عوضاً عنهما. وقد رحب الخليفة عبد المؤمن بالمصالحة مع ابن غانية، واعداً إياه بتقديم المساندة والمعاونة[39].

---

(36) ابن عذاري: م. س. ص 38.

ابن خلدون: م. س. ص 489.

(37) قلعة رباح مدينة تابعة لطليطلة وكانت من عمل جيان، وهي مدينة محدثة من أيام بني أمية وموقعها اليوم يسمى Castillo de Caltarova la Vieja وكان علي بن يوسف يصف الأندلس بقوله أنها تشبه عقاباً مخالبه طليطلة وصدره قلعة رباح، ورأسه جيان، ومنقاره غرناطة وجناحه الأيمن باسط إلى المغرب، وجناحه الأيسر باسط إلى الشرق.

ياقوت: م. س. ص 189.

الحميري: الروض المعطار، ص 469.

المقري: م. س. جـ 1، ص 191.

(38) ابن الخطيب: الإحاطة جـ 4، ص 346، ابن عذاري: م. س. ص 40.

(39) سارع براز المسوفي بالعبور إلى العدوة لمقابلة عبد المؤمن وشرح الاتفاق له مشافهة فحمله الخليفة رسالة عاجلة يرحب فيها بالمصالحة مع ابن غانية، واعداً إياه بالمساندة وتقديم المعاونة يقول فيها: «وقد تواردت علينا كتب الطلبة الذين بالأندلس، وفقهم الله يعلموننا بما أنتم عليه لهذا الأمر - كرمه الله - من الميل والنزوح، وبما بينكم وبينهم من الاتصال الصريح، والتعاون في ذات الله القائم على الولاء =

وعندما علم ملك قشتالة باتفاق ابن غانية والموحدين تحرك بمجموعة في اتجاه قرطبة وأرسل إلى ابن غانية يطالبه بالتخلي له عن جيان، فطمأنه ابن غانية بالموافقة على طلبه فلما أرسل له رسله لتسلم المدينة قبض عليهم، وبعث بهم إلى قلعة بني سعيد (قلعة يحصب) حيث اعتقلوا بها. فلما وصلت هذه الأخبار إلى ألفونسو سارع بالعودة إلى بلاده منزعجاً، ولم يتصل بعدها بابن غانية[40].

اتجه ابن غانية بعد اتفاقه مع الموحدين إلى غرناطة ليجتمع مع من بها من اللمتونيين ويوضح لهم اتفاقه مع الموحدين، وصرف الأمر إليهم، إلا أن ابن غانية ما لبث أن توفي بعد شهرين من وصوله غرناطة عصر يوم الجمعة 14 شعبان 543 هـ (يناير 1149 م)[41].

ولكن يبدو أن ابن غانية عندما اتفق مع الموحدين على التنازل عن قرطبة وقرمونة، لم يكن ينوي الاستمرار في الالتزام بهذا الاتفاق، وإنما فضل التنازل عنها للموحدين خيراً من الاتفاق مع النصارى، إلى أن يتحسن وضعه العسكري وتؤاتيه الظروف. بدليل ما ذكره ابن الخطيب عن أن ابن غانية كان يقول للمرابطين في مرض موته وقد عول على التمسك بدعوتهم «الأندلس درقة، وغرناطة قبضتها فإذا جشمتم يا معشر المرابطين القبضة، لم تخرج الدرقة من أيديكم»[42]. وهذا ما يفسر امتناع

= الصحيح وذكروا من تحققهم لحميتكم وصفائتهم واختبارهم بصدق عهدكم ووفائكم، ما عقده الرأي الموفق وسدده، وأوصله التحقيق موصله وأشده، ثم وصل الشيخ أبو فلان (براز المسوفي) فشافه من ذلك بأغراض جميلة مستحسنة، وآراء ظاهرة في الصلاح بينه، ووصف جانبكم الأثير في إرادة الخير، بأوصاف مفصحة بكرمه معلنة، فتلقينا ذلك كله تلقي الرضا والاستحسان، واستقر غاية عهدكم بما استقر بنـا من ذلك العنوان، وسررنا أن تكون لهذه الطائفة العزيزة من أخلص الأخوة في ذات الله والإخوان.

ليفي بروفنسال: رسائل موحدية، رسالة رقم 4، ص 7، 8.

(40) ابن عذاري: م. س. ص 40.

ابن أبي زرع: م. س. ص 191.

(41) دفن أبو زكريا يحيى بن غانية بالمسجد الصغير المتصل بقصر باديس، وألصق قبره بقبر باديس ابن حيوس، وكان قبره مزاراً معروفاً يتبرك به وظل حتى أيام ابن الخطيب الذي ذكر أنه رآه.

ابن الخطيب: م. س. ص 346.

ابن عذاري: م. س. ص 41.

(42) ابن الخطيب: م. س. جـ 1 ص 97.

المرابطين في غرناطة بقيادة ميمون بن يدر بن ورقاء اللمتوني بعد وفاة ابن غانية واستمروا في مقاومة الموحدين إلى 551 هـ (1156 م).

تطورت الأحداث بسرعة بعد وفاة ابن غانية، إذ تحرك ألفونسو إثر علمه بالخبر لمنازلة قرطبة وأنظارها، وقد زاد طمعه بعد أن أفرج أبو مروان بن سعيد قائد ابن غانية وأمينه على قلعة بني سعيد عن رسل ألفونسو المعتقلين، واتفق معهم ألا يهاجموا القلعة وأن تبقى بيده(43).

ويظهر أن قرطبة في ذلك الوقت لم يكن بها إلا حامية صغيرة بعد خروج ابن غانية منها، ولم يكن الموحدون قد عززوها بعد بقواتهم إلا أنهم عندما حصلوا على موافقة ابن غانية، بالتخلي لهم عنها، لم يفتهم أن النصارى يتربصون بها، خاصة وأنهم كانوا قريبين في حصن أندوجر. غير أن قوات ألفونسو كانت أسرع في دخول قرطبة واحتلالها وبفضل توالي الإمدادات من العدوة وسرعة وصولها إلى قوات إشبيلية استطاع الموحدون مفاجأة النصارى بقرطبة ودخلوها بعد أيام قليلة من احتلال القشتاليين لها، ولم تمضِ شهور قليلة حتى استعادوا جيان وبياسة وأبدة(44).

وكان ملك قشتالة قد اتفق مع جنوه على خير الوسائل للقضاء على المجاهدين الذين يخرجون من ألمرية للإغارة على شواطىء جليقية واشتوريش وبرشلونة وشواطىء فرنسا وإيطاليا الجنوبية، بل لقد امتدت غاراتهم في بعض الأحيان إلى الشواطىء البيزنطية. وكان الاستيلاء على المرية لا يمكن أن يتم إلا إذا طوقت المدينة براً وبحراً. لذلك أرسل ألفونسو أسقف استرقة إلى أمير برشلونة الكونت رامون برنجير الرابع، والي الكونت جيوم صاحب مونيلييه يطلب منهم الاشتراك في الحملة البحرية، وحصلت جنوة وبيزا من ألفونسو على ثلاثين ألف قطعة ذهبية من أجل تجهيز السفن وحددوا موعداً للهجوم على ألمرية في أول أغسطس 1147 م (ربيع الأول 542 هـ)(45).

(43) ابن عذاري: م. س. ص 42.

(44) ابن عذاري: م. س. ص 42.

(45) Claudio, Sanchez - Albornoz, La Espana Musulmana, P. 277 Codira, F. Op. Cit., p. 135.
أشباخ: م. س. ص 224.

كانت ألمرية منذ ذلك الوقت خاضعة لأبي يحيى بن الرميمي[46] أحد أعيان ألمرية، بعد أن ثار أهلها على واليها الموحدي وقتلوه ونقضوا بيعة الموحدين. ويبدو أن ألمرية في هذه الفترة كانت تنعم بنوع من الاستقلال بعيداً عن الصراع بين زعماء الأندلس، غير مشاركة فيه، فابن مردنيش أمير بلنسية ومرسية كان مشغولاً عنها بمحاربة المرابطين، وألفونسو ريمندس كان يلعب دوره بمهارة بين الأحزاب المتنافرة في الأندلس ولم تذكر الروايات أن ألمرية تلقت عوناً من أي جانب كما لم تذكر تورطها في أحداث الأندلس، ولم يكن الموحدون قد تقدموا في فتوحاتهم، واستطاعوا أن يوطدوا لأنفسهم في هذه الجهات.

وبدأ حصار ألمرية في أوائل أغسطس حيث التقى أمامها أسطول جنوة وبيزا، وصاحب برشلونة ومونبلييه، واضطرت المدينة إلى التسليم بعد أن نفدت مواردها وفقدت الأمل من وصول نجدات إسلامية لإنقاذها. ودخلها النصارى في يوم الجمعة عشرين جمادى الأول 542 هـ (17 أكتوبر 1147 م)[47].

واستولى الظافرون على غنائم كثيرة، فألمرية من المدن الصناعية التجارية الهامة على ساحل المتوسط، وكان سقوط هذا الثغر الهام حادثاً جللاً ومفجعاً، بيد أن أصداءه المحزنة قد تبددت خلال المحن التي تعانيها الأندلس في ذلك الوقت من تطاحن بين زعمائها، وتفرق كلمتها، وتبدد قواها ومواردها من جراء هذه الفتن.

كان هذا التوفيق الذي صاحب النصارى عاملاً على إغراء الكونت رامون برنجير

---

(46) ابن سعيد: م. س. جـ 2، ترجمة رقم 482، ص 198.
المقري: م. س. جـ 3، ص 533.
عبد الواحد المراكشي: المعجب ص 210.
البيدق: م. س. ص 67.

(47) Claudio, Sanchez - Albornoz, Op. Cit., P. 272 Codéra, F. Op. Cit., P. 135.
واستشهد عند فتح ألمرية الإمام العالم الرشاطي وكانت له عناية كبيرة بالحديث والرجال والرواة والتواريخ وهو صاحب كتاب «اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار» أخذه الناس عنه.
ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 3، ترجمة 352 ص 2106.
المقري: م. س. جـ 4، ص 462.
ابن الأبار: المعجم، رقم 200، ص 217.

على الاستيلاء على ما بقي بأيدي المسلمين في الثغر الأعلى، وهي لاردة، وافراغة، ومكنيسة (مكناسة) وثغر طرطوشة، وكانت جميعها تقع على حدود إمارة برشلونة، فتعاون مع أسطول جنوة في حصار طرطوشة، التي تعتبر مفتاح الأيبرو، تغلق البحر في وجه السفن الأرجونية، ويخرج منها المجاهدون والمغامرون من رواد الحملات البحرية التي تثخن شواطىء الدول النصرانية المجاورة[48].

فدعا البابا أوجين الثالث إلى حملة صليبية لفتحها، واجتمعت قوات النصارى من الأرجونيين والقطلان والبيزيين والجنويين، وطوقوا المدينة براً وبحراً، ولم يتدخل أمير الشرق ابن مردنيش لإنقاذ المدينة، التي سقطت بعد حصار ستة أشهر في 31 ديسمبر 1148 م، (16 شعبان 543 هـ) واضطر أهلها للتسليم بعد أن يئسوا من كل عون، أو إمداد من بلنسية أو غيرها ـ واشترط أهلها الاحتفاظ بأملاكهم ومساجدهم، بيد أنهم لم يستطيعوا أن يحتفظوا بها أكثر من ثلاثين أو أربعين عاماً[49].

هاجمت القوات المتحالفة برئاسة الكونت برنجير مدينة لاردة بعد ذلك بشهور قليلة، وكان طبيعياً ألا تصمد المدينة طويلاً بعد سقوط طرطوشة فسقطت في أيدي المهاجمين في 24 أكتوبر 1149 م (ربيع الثاني 544 هـ) ثم تبعتها مدينتا أفراغة ومكناسة في نفس الوقت، بل وفي نفس اليوم[50]. وكان النصارى قد استولوا على حصن أقليج وسردانية سنة 543 هـ (1148 م) وبذلك انتهت سيادة المسلمين في الثغر الأعلى[51].

وكان ارتباط ابن مردنيش برباط الصداقة والمهادنة مع الكونت برنجير أمير برشلونة يحول دون أية محاولة لإنقاذ هذه المدن، إذ إن أية محاولة لإنقاذها كانت

---

(48) Codéra, F. Op. Cit., P. 124.

(49) استولت جنوة وبيزا وصاحب مونبليه «جيوم» على ثلثي الثغر، باعتبارهم حلفاء ونظير عونهم في الاستيلاء على المدينة، وترك الثلث لمملكة أرجوان.

أشباخ: م. س. ص 227.

محمد عبد الله عنان: م. س. ص 370.

(50) أشباخ: م. س. ص 227.

Codéra, F., Op. Cit., P. 126.

(51) ابن الخطيب: م. س. جـ 2، ص 126.

كفيلة بأن تفسد علاقاته مع الممالك النصرانية، ومن جهة أخرى فقد كان الدفاع عن هذه القواعد النائية الواقعة في قلب الأراضي النصرانية عملاً غير ميسور، ومن ثم فإن ابن مردنيش لم يحرك ساكناً إزاء هذه الأحداث المؤلمة، وإن كان قد لبث يعتبر نفسه حامياً للرعايا المسلمين في تلك القواعد المنزوعة، يدل على ذلك أنه حينما عقد معاهدة الصداقة مع جمهورية جنوة اشترط فيها أن تتعهد جنوة بألا توقع أية أضرار برعايا الملك لوبو (ابن مردنيش) في طرطوشة وألمرية، وكانت جنوة ضمن البلاد التي اشتركت في افتتاح طرطوشة[52].

وفي نفس الوقت الذي سقطت فيه ألمرية سقطت أشبونة[53] في يد ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال (ابن الرنك أو صاحب قلمرية) الذي خرج مراراً إلى ضفاف التاجة لمقاتلة ثوار الغرب الذين انشقوا عن ابن قسي حليفه وسلمت المدينة في 21 أكتوبر 1147 (جمادى الأولى 542 هـ)[54] بعد أيام قليلة من سقوط ألمرية. وكان الاستيلاء على أشبونة فتحاً بالغ الأهمية للبرتغال إذ استطاعت أن تنتزع من المسلمين مفتاح نهر التاجة.

---

(52) محمد عبد الله عنان: م. س. ص 370.

Codéra, F, Op. Cit., P. 124 and 125.

(53) خرج ألفونسو هنريكيز لمحاصرة أشبونة وطوقها بجميع قواته، وقد سبق له حصارها من قبل عبثاً بمعاونة الفرسان الصليبيين الذين قدموا من فرنسا ، وكان بالمدينة فضلاً عن سكانها الكثيرين حامية كبيرة، ومن ثم تسرب اليأس إلى البرتغاليين من افتتاحها بسرعة، نظراً لأنه لم يكن لهم أسطول يطوق المدينة بحراً، غير أنه في هذه الفترة اضطرت زهاء مائتي سفينة من سفن الصليبيين ما بين إنجليزية وهولندية وألمانية أن ترسو عند مصب نهر دويرة لتتزود بالماء العذب ثم أرغمت على البقاء في مراسيها بسبب هياج البحر، واضطراب الأمواج والرياح، ففاوضهم ألفونسو هنريكيز وبذل لهم الوعود، وحملتهم هذه الوعود وأمل الحصول على الغنائم الضخمة، وما يقترن به من ثواب قتال المسلمين في سبيل الدين على الموافقة على طلب ألفونسو، وسارت سفنهم بقيادة الكونت أرنولف فون أوشوت الهولندي إلى مياه أشبونة لمعاونة البرتغاليين على فتحها، وانتهت جهود البرتغاليين والصليبيين المشتركة بأخذ المدينة المحاصرة، وبالرغم من دفاعها الباسل، وبعد أن فقد المحاصرون كل أمل في الإغاثة، وحصلوا مقابل تسليم المدينةعلى حق الرحيل مع ترك أسلحتهم، وأموالهم، واقتسم البرتغاليون والصليبيون ما وجدوه في المدينة من غنائم لا تحصى.

أشباخ: م. س. ص 226.

(54) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 251.

ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ 2 ص 200.

وكنتيجة لتدهور الأحداث في الأندلس، استدعى الخليفة عبد المؤمن شيوخ الأندلس الذين دانوا للموحدين بالطاعة لتأكيد بيعتهم في آخر 544 هـ (آخر مارس 1150 م) وعندما وصل هؤلاء الزعماء بايعوا الخليفة على الانخلاع عن بلادهم تأكيداً لبيعتهم وحسن نواياهم[55]، بينما تخلف أحمد بن قسي وشيوخ بلده شلب عن هذا الجمع، ولم يحضر من ينوب عنه، مما أفسد العلاقة بين الطرفين، وجعلت عبد المؤمن يأمر بسجن البطروجي صاحب لبلة وصديقه ابن قسي والذي كان متأرجحاً في إخلاصه للموحدين.

ولم يكن ابن قسي مؤمناً بدعوة الموحدين، ولا مخلصاً لهم عندما اتصل بهم، وإنما كان غرضه أن يستعين بهم في استعادة نفوذه في شلب وميرتلة التي سلبها منه سيد راي بن وزير، فلما وجد أنه عاجز عن مقاومة الموحدين بعد أن خضع معظم زملائه من زعماء الغرب، تحول إلى النصارى، وبعث إلى ألفونسو هنريكيز يناشده التحالف والمعاونة فاستجاب له، ووعده بالعون وأرسل له بهدية تأكيداً لصداقته[56].

وعندما علم أهل شلب بتحول ابن قسي عن دعوة الموحدين إلى النصارى، سخطوا عليه، وخافوا بغية هذه المداخلة، ودبروا مؤامرة وقتلوه في جمادى الأولى 546 هـ (سبتمبر 1151 م) ونصبوا مكانه لرياستهم أبا الوليد ابن المنذر إلى أن صيرها للموحدين[57].

(55) يقول ابن عذاري: «لما دخلوا على أبي محمد عبد المؤمن بادر أبو محمد سيد راي بن وزير أولاً وبايع على الانخلاع من بلاده باجة ويابورة وأنظارهما، فشكر على فعله ذلك، وأراد البطروجي أن يتكلم فلم يقدر على النطق، ولا شرح بيان الحق فنقد عليه توقفه وتبين تحرجه، لكن أمير المؤمنين رفع رأسه للناس، وقال مشيراً إليه، هذا أبو الحجاج صاحبنا بالشرف، فلم يشكره على ذلك، ولا قبل يده ثم قام ابن عزون وبايع على الانخلاع من بلاده، وكذلك محمد بن الحجام، وكذلك عامر بن وهيب صاحب طبيرة، وكذلك بايع جميع من حضر من الثوار، وتخلف ابن قسي وأشياخ بلده شلب عن هذا الجمع، ولم يحضر من ينبو عنه، فظهر للخليفة فساد مذهبه وارتداده».

ابن عذاري: م. س. ص 44.

وقد ذكر ابن عذاري أن صاحب طبيرة اسمه عامر بن مهيب بينما ذكره ابن خلدون باسم عامر بن منيب، عامر بن مهيب (العبر، جـ 6، ص 489)، واعتقد أن الاسم هو وهيب لأن الثائر في طبيرة بعده ينسب إليه باسم علي الوهيبي.

(56) ابن الخطيب: م. س. ص 251، 252.

ابن الأبار: م. س. ص 200.

(57)

وبذلك انتهت رياسة المريدين الذين كانوا أول من أعلن الخروج والثورة على المرابطين في الأندلس، وشمل سلطان الموحدين كل منطقة الغرب ووسط الأندلس. فشعر المرابطون بتحرج موقفهم وتضاؤل قواتهم، ومواردهم في غرناطة، فبعث واليها ميمون بن يدر إلى عبد المؤمن يعرض تسليمها ويلتمس العفو والأمان، فأجابه عبد المؤمن إلى طلبه، ولأهمية هذا الحدث للموحدين، أرسل عبد المؤمن ابنه السيد أبا سعيد والي سبتة والجزيرة الخضراء لتسلم غرناطة سنة 551 هـ (1156 م)[58].

تلا استيلاء الموحدين على غرناطة استعادة ثغر ألمرية، وكان الموحدون منذ استقروا في قرطبة وهم يتوقون إلى استرداد هذا الثغر الهام خصوصاً وأن النصارى به صارت تهدد البحرية الإسلامية والشواطىء فيما بين شواطىء المغرب الأوسط وجنوبي الأندلس، ولذلك عندما تم لهم الاستيلاء على غرناطة شعروا أن الفرصة سنحت لتحقيق هذا المشروع وقد ضرب الموحدون حولها الحصار براً وبحراً[59].

وشعر النصارى بالقصبة منذ البداية بخطورة الموقف، فبعثوا يستغيثون بعاهلهم فهرع ألفونسو ريمندس لإنقاذ المحصورين، وقدم معه حليفه محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرق الأندلس، وكان مقدم الأمير المسلم في هذا الموطن ليحارب إلى جانب النصارى أبناء دينه ووطنه، وليحول دون تحرير الثغر المسلم، من أبشع المواقف، مهما كان وراءه من دوافع قومية وطنية. وقد نجح الموحدون في دخول ألمرية آخر 552 هـ (1157 م)[60] وعاد الثغر الإسلامي إلى المسلمين بعد أن احتله النصارى زهاء عشر سنوات. وتوفي على أثرها ألفونسو ملك قشتالة.

لكن يبدو أن ألمرية قد خرجت من يد الموحدين بعد مدة من فتحها. ولكن هذه المرة استولى عليها ابن مردنيش، ولم تعد إلى الموحدين إلا في عام 566 هـ (1170 م) عندما سلمها محمد بن مردنيش المعروف بابن صاحب البسيط إلى الموحدين[61].

---

(58) ابن عذاري: م. س. ص 55، 56.
ابن أبي زرع: م. س. ص 196.
(59) ابن عذاري: ن. م.
(60) ابن خلدون: م. س. ص 492، 493.
ابن الخطيب: الإحاطة جـ 1، ص 265.
(61) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 407.

وبعد ألمرية توجهت حملة موحدية للاستيلاء على طبيرة وتأديب صاحبها علي الوهيبي الذي نبذ طاعة الموحدين، وأخذ يشجع الساخطين عليهم من أهل الشرف والمناطق المجاورة، ويهاجموا المسلمين في البر والبحر. فقام الموحدون بحصارها براً وبحراً، غير أنهم رفعوا الحصار عنها بعد شهرين بعد أن قنعوا من علي الوهيبي بذكر الخليفة في الخطبة والالتزام بعدم الاعتداء على المناطق المجاورة لطبيرة على أن يبقى محتفظاً بحكم الثغر. إلا أنه لم يلتزم باتفاقه مع الموحدين بعد رحيلهم، وظل شوكة في ظهر الموحدين حتى استطاعوا الاستيلاء عليها في عهد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في ذي العقدة 563 هـ (أغسطس 1169 م)[62].

وبعد أن خضع معظم الأندلس لحكم الموحدين كانت خطة الخليفة عبد المؤمن بن علي لتنظيم شؤون الأندلس وإتمام فتحها، وإذكاء حركة الجهاد بها، فضلاً عن مضاعفة البعوث العسكرية إلى شبه الجزيرة، تحصين قاعدة جبل طارق، وإنشاء مدينة كبرى بها تكون معسكراً تنطلق منه الجيوش الموحدية، ومنزلاً عند جوازه[63].

ويبدو من الترتيبات التي اتخذها الخليفة عبد المؤمن أنه كان ينوي أن يقوم بعمل كبير في الأندلس براً وبحراً[64]، بحيث يقضي على ابن مردنيش وحلفائه

---

(62) ن. م. ص 368.
ابن عذاري: م. س. ص 103.
ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، القسم الأول، ترجمة 244، ص 187.
وقد ذكر ابن عبد الملك أن علي الوهيبي قتل بأيدي أهل طبيرة.

(63) تم بناء مدينة الفتح بجبل طارق في زمن قصير جداً لا يتعدى سبعة شهور في ذي القعدة 555 هـ (ديسمبر 1160 م). عن بناء المدينة بالتفصيل.
انظر:
ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 137 :143.

(64) يقول ابن صاحب الصلاة: «وأضمر (عبد المؤمن) غزوة عظمى براً وبحراً ليلقى الله بها يوم القيامة بالفوز لربه والرجا، فأمر بإنشاء القطائع في سواحل العدوة والأندلس فصنع منها زهاء مائتي قطعة أعد منها في مرسى المعمورة بحلق البحر على وادي سبو بمقربة من سلا مائة وعشرين قطعة ، وقفت عليها وعددتها بالمرسى المذكور، وأعد باقي العدد الذي ذكرته في أرياف العدوة والأندلس، وأمر بكتب الرجال والرؤساء الأبطال لعمارتها، والقيام بحمايتها والنظر في آلاتها، وأعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة المذكورة ما عاينته مكدساً كأمثال الجبال، بما لم يتقدم =

النصارى، إذ كانوا يشكلون خطراً كبيراً على وجود الموحدين بالأندلس خاصة بعد استيلاء ابن مردنيش على مدينتي بسطة ووادي آش سنة 546 هـ (1151 م) بمعاونة حلفائه، فصار يواجه قواعد الموحدين في وسط الأندلس جيان وبياسة وأبدة، وإن كان هذا الصراع سيضطرم لأعوام طويلة، ولا ينتهي إلا بوفاة ابن مردنيش 567 هـ (1172 م)[65].

= لملك قبله، ولا سمعنا به من جيل من الأجيال، بقي في ذلك الموضع معداً من عام سبعة وخمسين إلى عام اثنتين وستين وخمس مائة، حتى فنى أكداسه وعاد تراباً ورماداً باحتراقه بعض في بعض، وإفساد الزمان له، ونظر رضي الله عنه في استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة وإفريقية، وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة، والرماح الطوال على أجمل الهيئات، والدروع والبيضات والترسة إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعمائم والبرانس، ما استغربته الأذهان، ولا تقدم بمثله زمان، وقسم ذلك كله على الموحدين أعانهم الله على أشياخهم وعامتهم، وعلى العرب أجمعين بجميع قبائلهم الحاضرين وعلى الأخيار المرسومين المعينين.

ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 213 :215.

(65) عن الصراع بين ابن مردنيش والموحدين: أنظر:

ابن صاحب الصلاة: البيان المغرب: الجزء الخاص بالموحدين.

ابن الخطيب: الأعلام، الإحاطة، جـ 2.

الفصل الرابع

نظم الحكم

طابع الحكم ـ أقسام الأندلس الإدارية ـ ولاية الأقاليم ـ وظيفة أمير الإقليم ـ أعوان الأمير: الوزير ـ القاضي ـ سلطات القاضي ـ مرتبه ـ طريقة تعينه ـ مراتب القضاة ـ وظيفته ـ واجباته ـ أعوانه: صاحب الأحكام ـ وظيفته ـ معاشه ـ أعوانه صاحب المدينة: أعوانه ـ وظائفهم ـ واجباتهم ـ الدرابون ـ وظيفتهم ـ طريقة عقاب الخارجين على القانون ـ عدم سجن أو جلد أي شخص إلا بإذن القاضي أو السلطان ـ تفتيش السجون للتحقق من سير العدالة.

في بداية عهد الموحدين:

معظم الوظائف السابقة ـ نظام الشورى ـ الطبقات ـ أهل الجماعة ـ الخمسون ـ السبعون ـ الطلبة ـ مهامهم ـ الحفاظ ـ وراثة المراكز المختارة في دولة الموحدين ـ الأشياخ ـ الرقاص.

النظام العسكري: أولاً في عهد المرابطين:

الاعتماد على القبيلة كوحدة محاربة ـ إدخال القبائل المتحالفة ـ تكوين فرق من السودان والأندلسيين والنصارى ـ الاهتمام بجهة الأندلس وجندها ـ أنواع الأسلحة ـ رايات الفرق ـ أنواع الوحدات ـ القائد الأعلى ـ قادة الأقاليم ـ طريقة القتال ـ رواتب الجند ـ الأسطول الحربي ـ التجاري ـ قواعد الأسطول ـ قادته ـ نشاط الأسطول.

ثانياً ـ في بداية الموحدين:

الاهتمام بالجيش ـ إنشاء مدرسة عسكرية ـ عناصر الجيش ـ مرتبات الجند ـ قيادة الجيش ـ مراسيم الخروج للحرب ـ أسلحة الموحدين ـ طريقة حربهم ـ الأسطول ـ أنواع السفن ـ قيادة الأسطول ـ ديوان الجند ـ ديوان التمييز.

كان الحكم المرابطي ذا طابع إسلامي إلى حد كبير، فلم يكن ملوكهم يبتون في أمر إلا ورجعوا فيه إلى كبار أهل الرأي، وكانوا غالباً من كبار الفقهاء، وأصحاب الفتوى. فعرف عن يوسف بن تاشفين أنه «كان يفضل الفقهاء، ويعظم العلماء، ويصرف الأمور إليهم، ويأخذ برأيهم، ويقضي على نفسه بفتياهم»[1].

وسار ابنه على نفس المنهج، ورد أحكام البلاد إلى القضاة، واعتمد على الفقهاء في كل كبيرة وصغيرة، ولم يقتصر الأمر على أمور الرعية، بل نجد علي بن يوسف عند أخذه البيعة لمن يخلفه عند وفاته، لا يكتفي باستشارة من جرت العادة بطلب رأيه من الفقهاء والعلماء، بل يتوجه إلى المسجد الجامع، حيث اجتمع الناس خاصة وعامة، ويعرض عليهم الأمر، فينادون كلهم في صوت واحد بإسناد العهد إلى ابنه تاشفين، فلم يسعه إلا أن ينزل على حكمهم، ويعقد البيعة لابنه الذي سار على نفس طريق جده وأبيه في استشارة ذوي الرأي[2].

كانت الأندلس في عهد المرابطين مقسمة إلى ثلاث مناطق إدارية كبيرة: الشرق، والغرب، والموسطة، واحتلت الأندلس بالنسبة للمرابطين أهم ولايات الدولة، ولذلك فهم يعهدون بولايتها عادة إلى الأمير الذي يعين ولياً للعهد، ويلقب حينئذٍ بلقب خاص، هو النائب، ويقوم بتصريف كل أمور الأندلس، ويظهر ذلك من رسالة

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 4، ص 46، الحلل الموشية، ص 82.
(2) الحلل الموشية، ص 121.

لعلي بن يوسف إلى أهل الأندلس يقول فيها: «وهو النائب عنا في تدبيركم، وإقامة أموركم، وسياسة صغيركم وكبيركم، ليس لأحد معه في شيء من ذلك يد ولا مع مشهده إلا بإذنه وإباحته مشهد»[3].

وكان أمير المسلمين يختار لولاية الأقاليم سواء في الأندلس، أو المغرب، ما عرف عنه الحزم والأمانة، ويتولى النائب قيادة جميع الجيوش المرابطية في الأندلس، والتي تصل من العدوة[4]. ويعين نائب أمير المسلمين على مقاطعات الأندلس رجالاً من أمراء لمتونة غالباً من العسكريين، فكانت حكومتهم ذات صبغة عسكرية بحتة[5].

ويحرص الأمير أشد الحرص على تزويد الجيوش بما تحتاج إليه من عدة وسلاح وعندما تولى الأمير تاشفين بن علي أمر الأندلس قوَّى الحصون، وسد الثغور، وأذكى العيون واتخذ مخازن السلاح، وعمَّر التراس، ونسج الأذراع، وفصل البيضات والسيوف وربط الخيل[6].

ويشدد أمير المسلمين على نائبه ألا يستعمل على الرعية إلا الولاة الذين يعملون على حل مشاكل الناس، والعمل للصالح العام، وأن يحاسبوا حساباً عسيراً، إذا ظهرت عليهم بوادر الانحراف، فيصادروا أو يسجنوا، أو يعذبوا حتى يعود الحق إلى أصحابه[7] يقول في إحدى رسائله: «واستعمل عليها من يرفق بها، ويعدل فيها، واطرح كل من يحيف عليها ويؤذيها، ومن سبب عليها من عمالك زيادة، أو خرق لنفسه درهماً ظلماً، فاعزله عن عمله، وعاقبه في بدنه، وألزمه رد ما أخذ متعدياً إلى أهله، واجعله نكالاً لغيره، حتى لا يقدم منهم أحد على مثل فعله»[8].

---

(3) د. محمود مكي: وثائق جديدة، رسالة 6، 7، ص 175، 176.

(4) ن. م. رسالة 3، ص 170.

(5) Dozy, R., Recherches.

(6) الحلل الموشية، ص 121، ابن الخطيب، الإحاطة جـ 1 ص 448.

(7) وليس أدل على ذلك من أن علي بن يوسف أمر بعزل ابنه عمر يناله عن غرناطة وواجهه بالمتكلمين عنه، وعندما تثبت من حججهم أمر بسجنه ومصادرته، كما أمر بالقبض على كاتبه ومصادرة كل أمواله.
ابن عذاري: م. س. جـ 4 ص 77.
وعندما طلب منه الفقيه أبو الوليد بن رشد عزل الأمير أبي الطاهر تميم لطيبته ولينه نفذ له طلبه.
ابن العذاري: ن. س. ص 73.

(8) ن. م.

والأمير يجلس للنظر في المظالم، ويقرأ الرقاع، ويجيب عليها، ويكتب التوقيعات، ويتفرغ للمناظرة يوم الجمعة[9]، وهذا الأمير النائب يتخذ مركز الحكم في غرناطة أو إشبيلية أو قرطبة. ويتخذ دور السكة لسك النقود باسم أمير المسلمين في المدن الكبرى، وقد وجدت نقود مضروبة في إشبيلية، وغرناطة، وقرطبة وبلنسية ومرسية ومالقة وألمرية، وسرقسطة وغيرها من مدن الأندلس الكبرى، وكان يضاف اسم ولي العهد بجانب اسم أمير المسلمين على السكة[10].

وبالرغم من هذه السلطات الواسعة التي خولها أمير المسلمين لنائبه في الأندلس، بحيث كانت له سلطة غير محدودة في أمور الحكومة دون الرجوع إلى السلطان، فإننا نلمس طابع الديموقراطية إلى أبعد الحدود، إذ كانوا لا يبتون في أمر. إلا ورجعوا فيه إلى أهل الرأي، وهم كبار الفقهاء وأصحاب الفتوى[11]. وكان أمير المسلمين يلح على استشارة القاضي على الخصوص فيقول لأحد نوابه: «فيجب أن تشاوره في كل ما تأتي وتذر، وتورد وتصدر، وتقدم وتؤخر، فلن تعدم منه مشيراً نصيحاً، وظهيراً مشيخاً، وطبيباً للعلل مريحاً، ورأياً خالصاً صريحاً»[12].

وكانت استشارة القضاة والفقهاء دستوراً يسير عليه كل أمراء المرابطين، من أمير المسلمين إلى نوابه وعماله، يقول صاحب المعجب[13] أن أمير المسلمين «كان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء، ويوصي نوابه وعماله بالتزام الرفق بالرعية وإقامة العدل بينهم، ورفع الحجاب عن المظلومين والشاكين»[14].

وكان الأسلوب المتبع في الدولة المرابطية هو تبديل الولاة من حين لآخر، إما بسبب استشهاد هؤلاء الولاة، وإما لحاجة منطقة دون أخرى إلى هذا التغيير، وقد

---

(9) ابن الخطيب: الإحاطة جـ 1، ترجمة تاشفين بن علي، ص 450.

(10) Lavoix, H., Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliothéque Nat. de Paris, DCCCICI and Codéra F, Op. Cit., PP. 381, 384 and 355.

(11) انظر، مجموعة فتاوى ابن رشد، مخطوط رقم 1072 (المكتبة الأهلية - باريس) (و 85، 132، 162).

(12) د. محمود مكي: م. س، رسالة 8، ص 177.

(13) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 176.

(14) د. محمود مكي: م. س، رسالة 15، ص 183.

أعطيت لهؤلاء الولاة الصلاحية المطلقة في تسيير شؤون الولاية[15]، وهو في نفس الوقت غير مطلق التصرف، بل عليه استشارة أولي الرأي في الناحية[16].

وعاش الأمراء المرابطين في ولاياتهم شبه مستقلين، ويمنحون سلطاناً واسعاً، ولكنهم يدينون بالولاء لأمير المسلمين، فالحكم المرابطي كان يميل إلى اللامركزية في الإدارة[17].

واتخذ أمراء المرابطين كتاباً لقبوا بالوزراء، في الغالب من القضاة أو الفقهاء، ومنهم مِن لقب بذي الوزارتين، فكانوا يقومون بتحرير الرسائل ويعرضون ما يعن لهم من الأمور على الأمير، لأخذ رأيه فيها، كما يقومون بالترجمة عنهم لمعرفتهم بلغة النصارى[18].

وكان الوزير مقرباً من الأمير، يحضر مجلسه ويطلع على كل كبيرة وصغيرة وهو الواسطة بين الأمير وبقية الموظفين، وهو الذي يحدد للعمال والمتصرفين من القباض والخراص وغيرهم الحدود التي يجب ألا يتعدوها دون زيادة أو جور[19].

أما الوظائف المدنية الأخرى مثل القضاء، والحسبة، وجباية الأموال، وصاحب المدينة والحاكم، وغيرها فكانت بيد الأندلسيين «فإنهم أعرف بأمور النـاس، وطبقاتهم، وهم أيضاً أعدل في الحكم وأحسن سيرة من غيرهم، وهم أنفع للسلطان، وأوثق. لأن الرئيس يستحي أن يحاسب في عمله مرابطاً، أو ينكر عليه شيئاً مما قد فشا له عيبه في الخطة التي ولاه»[20].

(15، 16) يقول الأمير علي بن يوسف في إحدى رسائله عن الوالي «فهو خليفتنا فيكم، وهو النائب عنا في تدبيركم، وإقامة أموركم وسياسة صغيركم وكبيركم» «وأولو الرأي من جميعكم يكون معه جماعة، وعلى حبل ذراعه طاعة، ويهدون إليه ما يغيب عنه من أمور سائركم، ويطلعونه على ما يخفى عليه من أحوال أكابرهم وأصاغرهم».

د. محمود مكي: ن. م، رسالة 6، ص 176.

(17) من رسالة لعلي بن يوسف يعزز مركز نائبه فيقول: «إنه بلساننا يتكلم، وعما في ضميرنا مترجم، وفي قالب رأينا مفرع، ما أمضاه أمضيناه، وما وقفه وقفناه»، ويضيف في رسالة أخرى «وحكمناه في جميعكم، يثيب من استحق الثواب، ويعاقب من استحق العقاب».

انظر: د. محمود مكي: رسائل رقم 6، 7 ص 175، 176.

(18) د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين، ص 360.

(19) ابن عبدون: رسالة في الحسبة ص 15.

(20) ن. م. ص 16.

وكان أهم الموظفين في الدولة المرابطية القاضي، إذ كان له دور كبير في تصريف شؤون الدولة، ومنحه المرابطون سلطات واسعة، لا حدود لها، كما يبدو ذلك من رسالة الأمير علي بن يوسف، فمن خلال هذه الرسالة نتعرف على اختصاص القضاة في المناطق التي يولون عليها، وكانت سلطة القاضي فوق سلطة الحاكم الإداري والعسكري فهو الرقيب عليه وعلى الولاة والعمال التابعين له، وعليه تبعة ما يحدث من ظلم العمال والولاة والسلطان يقر ما يقوم به القاضي ويسانده في أحكامه، حتى لا يكون له حجة «وأي عذر لك، وقد شددنا أزرك، وعضدنا من أمرك»[21].

والجميع أمام القاضي سواء، وتشدد أمراء المرابطين في تطبيق ذلك، فكان يتكرر هذا الأمر في رسائلهم، والتي تؤكد على الجميع بأن يخضع لحكم القاضي، ويخص المرابطين مما يدل أن بعض المرابطين كان لا يمتثل لأحكام القضاة، وأن القاضي يستحي أن يحاسب في عمله مرابطاً، أو ينكر عليه شيئاً مما قد فشا له عيبه في الخطة التي ولاه، أو أن بعض الأندلسيين من المسؤولين عن تسيير الأمور تهاونوا في تطبيق القانون عليهم مما جعل الأمير علي بن يوسف يؤكد على وجوب خضوع المرابطين للقانون بقوله: «وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تمضيه، ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه، ونحن أولاً، وكلهم آخر، قد صرت قاضياً سامعون منك غير معترضين في حق عليك والعمال والرعية كافة سواء في الحق، فإن شكت إليك بعامل وصح عندك ظلمه لها، ولا يتجه في ذلك عمل غير عزله، فاعزله، وإن شكا العامل من رعيته خلافاً في الواجب فاشكه منها، وقومها له، ومن استحق من كلا الفريقين الضرب والسجن فاضربه واسجنه، وإن استوجب الغرم في ما استهلك فاغرمه، واسترجع الحق شاء أو أبى من لدنه، والأمر في استكفاء من

---

(21) د. محمود مكي: م. س. رسالة رقم 4، ص 173.

فمن هذه الرسالة: «فتفقد ما قبلك حق تفقده وتعهده أخص تعهده، فإنك إذا أمعنت التطلع، وأدمنت إلى جانب الرعية التلفت والتسمع، لم يشذ عن علمك ما يجري ببلد لاجتماعه وانحصاره، وتقارب ما بين مسافاته وأقطاره، وإن حقاً على الجار أن يفرج ضغطة جاره، فاستكشف ـ وفقك الله ـ الأحوال، وتعرف صورها، واستعلم مع الرعية شأن الرعية وخبرها، فكل ما رفعته إليك من أحوالها وتظلمت فيه من عمالها، أجريته مع الحق كيف جرى، وعممت بالنظر ولم تخص قضية دون أخرى، فكل بك معصوب، وأنت عنه محاسب وبه مطلوب؟».

يكفيك، ويغني في بعض الأمور عنك إليك، ولا نشير عليك بشيء، وتصرفك أحياناً في إصلاح صنعك وترفيع معاشك غير مضيق عليك فيه فاعلمه»[22].

فمن خلال هذه الرسالة وغيرها[23] يتضح أن أمراء المرابطين، لم يقصروا في إقرار العدالة والمساواة للجميع أمام القانون[24]، وإذا حدث انحراف فهو نتيجة انحراف وعبث الأندلسيين، فكل الوظائف المدنية كانت بيدهم حتى أن معاش القاضي كان هو الذي يقدره لنفسه حسب احتياجه غير مضيق عليه.

وكان تعيين القضاة إما عن طريق أمير المسلمين، أو يرشح أهل البلد اسم قاضٍ يختارونه هم، ويبعثون بترشيحهم للأمير الذي يقر هذا الترشيح، ويرسل بخطاب التعيين، كما حدث في قرطبة سنة 536 هـ (1141 م)، عندما ترك القاضي أحمد بن رشد منصبه كقاضٍ للجماعة، فاختار أهل قرطبة القاضي أبا جعفر بن حمدين، وأرسلوا باسمه للأمير علي بن يوسف فأقرهم على اختيارهم[25]، أو يختار أهل البلد اسمين لمرشحين، ويرسلوا بهما إلى أمير المسلمين فيختار أحدهما أو يجعل الاختيار لهم، فإذا عجزوا حدد لهم هو اسم القاضي للمرشح، أو عين لهم قاضياً[26].

---

(22) ابن بسام: الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص 261، 262.

(23) من رسالة للأمير تاشفين أمير المسلمين إلى عماله وقضاته يقول: «وكذلك العامل منكم والقاضي - وفقهما الله - إنما أقعدا بذلك المكان لخير يتوليانه، وشر يردعانه، وعدل يقضيانه، فليقدما أولاً تسديد أمرهما، ولينظرا في إصلاح أنفسهما قبل إصلاح غيرهما، فمن لا يصلح أمر نفسه، لا يصلح سواه، ومن لا يسدد أموره، لا يسدد أمر من تولاه».

د. حسين مؤنس: نصوص سياسية، وثيقة رقم 1، ص 111.

(24) عندما رفع أمر الأمير واجداي بن عمر بن سير اللمتوني إلى أمير المسلمين لتسببه في أسر بعض المسلمين، أمر علي بن يوسف بعزله من ولاية إشبيلية وإلزامه بفدية من أسر. ولم يستثنى القائد العظيم مزدلي من المساءلة عندما وشى به البعض كذباً، ولم تشفع له بطولاته عند علي بن يوسف، فأمر بثقافة وترحيله إلى مراكش ولم يفرج عنه إلا بعد أن تحقق من براءته.

انظر، ابن عذاري: م. س. جـ 4 ص 80، 86. وانظر ص 116 هامش 7 من الكتاب.

(25) النباهي: المرقبة العليا، ص 103، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 253.

(26) تبين الرسالة أن حكم المرابطين يعتمد على الشورى والديموقراطية، حتى في اختيار القضاة. والرسالة تقول: «كتابنا أبقاكم الله وعصمكم بتقواه، ووفقكم في أقوالكم وأعمالكم لما يرضاه، من فلانة عندما وصلت إلينا مراجعتكم عما كنا خاطبناكم فيه من اختيار رجل منكم يصلح لولاية القضاء عندكم، ووقفنا =

وهذا يدل على أن السلطة القضائية كانت تتمتع في ذلك العهد باستقلال كبير عن السلطة التنفيذية، ولو كان الأمر غير ذلك لما ترك أمير المسلمين مسألة اختيار أحد هذين الرجلين لأهل الناحية، أو ترك أمر تعيين القاضي للعامل المرابطي بها.

كانت خطة القضاء في الأندلس من أعظم الخطط عند الخاصة والعامة، لتعلقها بأمور الدين، وكون السلطان يوجب عليه حكم حضر بين يدي القاضي ومن سلك مسلكهم[27].

وينبغي أن نشير أن هذه الرسائل التي كان أمير المسلمين يرسلها إلى القضاة والعمال لم تكن مجرد رسائل ديوانية من قبل السلطة العليا، بل كانت في الوقت نفسه أشبه ببيانات رسمية تعلن على الرعية ففي نهايتها أمر بأنه تقرأ على الجميع في المساجد «ليقرأ الكتاب على الكافة بالمسجد، فإن فيه زجراً للمعتدين، وأخذاً فوق أيدي المفسدين، وبلاغاً يحمله ويصيره الراكب ويتلقاه عن الشاهد الغائب»[28].

ويترأس جميع القضاة قاضي الجماعة، ويشرف على كل إقليم من أقاليم الأندلس الكبرى قاضي قضاة لكل من الشرق والغرب والموسطة[29].

وكان القاضي يشرف على عدة خطط، أو عدة وظائف، فهو يشرف على خطة الشورى، والفتيا، والأحكام، والصلاة، والخطبة، وهو الذي يعين الفقهاء لخطة الشورى، فيختارهم من أهل المدينة المشهود لهم بالصلاح والتقوى، والمعروف بالتبحر في الفقه، وعددهم لا يزيد عن أربعة، اثنان يشتركان في مجلس القضاء، واثنان في المسجد الجامع، ويتحتم عليهم الحضور يومياً إلى مقار أعمالهم، ويمنع

= منها على اختلافكم في الرجلين المذكورين في العقدة الواصلين من قبلكم، فرأينا التوقف في الأمر حتى يقع اتفاقكم، وينعقد في الاختيار إجماعكم وإصفاقكم، فإذا وصل إليكم خطابنا هذا فاتفقوا على واحد ترضونه غير متنازعين فيه، وخاطبونا باتفاقكم لتلقي الأمر بعد استخارة الله تعالى وإن استمر بكم الخلاف أخرجنا الأمر عنكم، واجتهدنا في الاختيار لكم إن شاء الله تعالى، والسلام.

د. محمود مكي: م. س. رسالة رقم 18، ص 186.

(27) المقري: نفح الطيب، جـ 1 ص 217. رسالة رقم 18 ص 186.

(28) د. محمود مكي: م. س. وثيقة 4، ص 174.

(29) د. حسن محمود: م. س. ص 366، 367. د. حسين مؤنس: م. س. ص 73.

عليهم المشاورة في دورهم، «فالمشورة في دور الفقهاء والمشي عليهم ظلم عظيم»[30].

وعليه أن يختار لبيت المال رجلاً عرف عنه الغنى والعدل والأمانة، وألا يمكن من بيت المال أحداً، وأن يحافظ عليه جهده[31].

ولم يكن على باب القاضي حجاب، وينصح ابن عبدون[32] القاضي بألا يتبسط مع الفقهاء أو الأعوان، وأن يكون محترماً، ويتحرز من أن يتبسط عليه أحد منهم في قول أو فعل، فيهون وتنقض أوامره، وتغير حاله، ويبدل حكمه بزيادة قول أو فعل، ويحقره الناس[33]، فتنخرم أحوال الدين، كما يجب عليه ألا يمزح مع حاشيته، ولا مع أحد غيرهم حتى لا تسقط هيبته، ولا تنفذ أوامره، ويجب أن يكون متمهلاً ومتمعناً في أقواله فلا يعجل بقول أو فعل إلا بعد تأنٍ وروية وتفكير[34]، وعليه أن يكون رفيقاً بالمسلمين[35] مجتهداً لا يميل إلى الراحة.

أما أعوان القاضي الذين يساعدونه في عمله، فكانوا عشرة؛ أربعة من البربر بحقوق المرابطين وغيرهم من الملثمين، والباقي أندلسيين وهؤلاء الأعوان يختارهم القاضي ممن عرف عنه الأمانة واشتهر بالعفة والثقة ويفضل ألا يكونوا من الشباب، وكان يمنع عليهم الدخول والخروج على القاضي إلا إذا استدعاهم هو. غير أن بعض صغار النفوس من هؤلاء الأعوان كان لا يلتزم بهذه الأوامر، فيحاول الظهور أمام أصحاب الشكاوي بأهميته، أو صلته الوثيقة بالقاضي، مما يجعل البعض يقع في حبائله من أجل تسهيل أعماله فيلجأون للرشوة[36].

---

(30) ابن عبدون: م. س. ص 9.

(31) ن. م. ص 10.

(32) ن. م. ص 8.

(33) انظر ما حدث للقاضي أبي القاسم بن رشد من عامة قرطبة بسبب لينه وتساهله.
ابن الخطيب: أعمال الإعلام، ص 253.

(34) ابن الأبار: المعجم، رقم 13، ص 36.

(35) ثارت عامة إشبيلية على القاضي ابن العربي لشدته في معاقبة الجناة.
ابن عذاري: م. س. جـ 4، ص 93.

(36) ابن عبدون: م. س. ص 10.

وكان الحاكم أو ما يسمى بصاحب الأحكام من أعوان القاضي ومساعديه الأقربين لذلك فهو يعين من أهل الثقة المعروفين بالعلم والنزاهة، والتبحر في علوم الوثائق ووجوه الخصومات، ورعاً لا يرتشي، ويجرى في حكمه إلى الحق والاعتدال، ويكلفه القاضي بالفصل في القضايا البسيطة، لا في رقاب الأموال، ولا حكم على الأيتام، ولا فيما فيه أمر من أمور السلطان، والعمال[37]، وأعطى أمير المسلمين للقاضي حق تعيين هؤلاء الحكام ومحاسبتهم وعزلهم[38].

ويتقاضى الحاكم مرتبه من بيت المال، ويبدو أن القاضي هو الذي يحدد قيمة هذا الراتب، لأن أمير المسلمين ترك الحرية للقاضي في تحديد مرتبه غير مضيق عليه[39]. ولكن يبدو أن بعض القضاة استغلوا هذه الحرية التي أعطاها لهم أمير المسلمين ثقة منه أنهم يتورعون خوفاً من الله من امتداد أيديهم إلى مال المسلمين. فاستطاعوا من خلال وظائفهم أن يكنزوا الذهب والفضة سماهم ابن العريف «علماء أهل السوء وكبراء الدنيا المغرورين»[40] في الوقت الذي لا يزيد فيه مرتب الفارس المرابطي عن خمسة دنانير للشهر، مع نفقته وعلف فرسه، إلا إذا ظهرت نجدته، وأعانته شجاعته، وتميز في جهاده فإنه يكرم بولاية موضع ينتفع بفوائده[41].

وللحاكم أعوان يعاونونه في كل مدينة، ويتراوح عددهم ما بين سبعة وعشرة على حسب اتساع المدينة، وما يكثر بها من خصومات ومنازعات، ويحصل الأعوان على أجر يومي نظير عملهم، أما الذي يعهد إليه بعمل خارج المدينة، أي في البوادي، فكانت له أجرة إضافية على كل ميل بعيداً عن مقر عمله، تسمى «أجرة جهة»[42].

وكانت خطة الشرطة في الأندلس من الخطط المهمة، ويعرف صاحبها بصاحب

---

(37) نفس المصدر ص 9.
(38) د. محمود مكي: م. س. وثيقة 4 ص 172.
(39) انظر البحث ص 106.
(40) ابن العريف: مخطوط طريق السعادة (و 103).
(41) الحلل الموشية: ص 82.
(42) ابن عبدون: م. س. ص 12.

المدينة وصاحب الليل[43] ويحظى بمكانة رفيعة عند الأمير، ويعاونه في عمله عدد من الأعوان، لا يزيدون على عشرة، لأن كثرتهم تفسد الأعمال وتعرقل المصالح، وتثقل الميزانية برواتبهم[44].

ومن أهم أعوان صاحب المدينة المخلفون، ويقال لأحدهم مخلف، وهو ما يعرف في العصر الحديث بالشرطة السرية، والمخلف مسؤول على رفع الأخبار إلى من يهمه الأمر[45].

ويختار صاحب المدينة أعوانه من الأندلسيين، لأنهم أعرف بأمور الناس وطبقاتهم وأكثر فائدة للسلطان وأوثق[46]. ومن عمل صاحب المدينة الحد على الزنا، وشرب الخمر، وكثيراً من الأمور الشرعية راجع إليه[47]. وكان القاضي يستخلفه في بعض الأيام للبت في بعض القضايا الصغيرة، أما الأمور الكبيرة فلا يبت فيها، وإنما يعرف بها القاضي أو الأمير، فالأحكام التي يصدرها أكثرها تأديبي كالجلد، أو قطع اليد، أو التشهير، بالجاني في المدينة على دابة يركبها من خلاف، وله الحكم كذلك بالحبس فالسجن والسجانون يجب أن يكونوا تحت رقابته الدائمة، لأن السجانين في الغالب من شرار الناس، ولا يتحرجون عن السطو على الطعام المرسل إلى المحبوسين من أقاربهم[48].

ويبدو أن هؤلاء الأعوان كثيراً ما يستغلون هذه الوظيفة في إرهاب الناس، وفرض الإتاوات، لذلك يصفهم ابن عبدون بأن الشر أحب إليهم من الخير، فمنه يأكلون ويلبسون السحت، ومنه يعيشون وليس للخير إليهم طريق[49]. لذلك فقد شدد عليهم بعدم الدخول على الناس في ديورهم ليلاً أو نهاراً إلا بإذن القاضي أو الأمير.

---

(43) المقري: م. س. جـ 1، ص 218.

(44) ابن عبدون: م. س. ص 17.

(45) ابن حوقل: صورة الأرض. ص 116.

(46) ابن عبدون: م. س. ص 16.

(47) المقري: م. س. ص 218.

(48) ليفي بروفنسال: المدن والنظم المدنية في المغرب الإسلامي ص 81.

(49) ابن عبدون: م. س. ص 17.

وإذا طلب شخص في تهمة ولم يعثر عليه سمر محله، ولا ينهب ماله، ولا تدخل داره إلى أن يحضر ويمثل أمام القاضي[50].

والشرطة أو الحرس والعرفاء كما هم في كل زمان ومكان، يروعون الأنفس، ويلقون الرعب في قلوب الناس[51]، وإذا قبض على شخص بالليل كان من الممكن أن يغيروا هيئته ويسرقوا ثيابه، وقد صور لنا ابن قزمان كيف ألقي عليه القبض وتعرض للإهانة والضرب ومنعت عنه الزيارة، ولم يراع مركزه أو شخصيته، فحجز مع اللصوص والمجرمين، ولولا تدخل الأمير محمد بن سير لنفذ فيه حكم الإعدام[52]، لذلك كان يشدد على الأعوان بأنه في حالة القبض على شخص بالليل، لا يغير

---

(50) «فليس المطلوب ماله لأنه غير الجاني، والجناية على صاحبه». ابن عبدون: ن. م.

(51) راجع ما حدث لإحدى النساء عند ملاحقة المريدين بعد مقتل القاضي ابن الحاج مخطوط طريق السعادة (و 52).

وإذا كان يفتح الباب... نرى شرطي ونفزع

ابن قزمان: زجل رقم 41.

(52) يقول ابن قزمان زجل رقم 41:

لقد اشتد حبلي ... وانقطع بعد ما اشتد
وإنما نشكر الله ... وابن سير محمد
للقتل كان رفعني ... ولد ابن المناصف(*)
وعلمني منافق ... وحسبني مخالف
ليس عندك مصيبة ... لو خرج روح واقف
لقطوع راسي بعيني ... لقطوع راسي يجبد؟
لم يرَ قط لعمري ... قاضٍ يعمل ذا الأعمال
أن يسكن جواري ... كل حواس وقتال
يا الله، ما أطول الليل ... إذ نبيت مشغول البال
ليل أن أخر يزاد فيه ... أو حبل صدره يمتد؟
أش يرى من مناحس ... في ذاك الحبس. لا كان
أش لقي فيه غلامك ... من عذاب كل سجان
هاذك الدار ٥ عندي ... بالضمان دار الأحزان
في مقاماً عظيم كنت ... بالقتل كنهدد
ملطى لس بقلب ... من الإسلام رطوبة
ألقى خلخال في ساقي ... ثم أوفاني طوبة

....

(*) (هو أبو عبد الله محمد بن اصبغ له ترجمة في الضبي رقم 66، ص 51).

شكله، ولا تنزع عنه ثيابه، وإنما يسجن في فندق ويكون تحت ضمان الساكنين فيه إلى الصباح، وحتى يمثل أمام صاحب المدينة بالهيئة التي وجد عليها[53].

ويشدد القضاة على ألا يسمع من الأعوان والحرس والعرفاء إلا ببينة من الجيران، لأنه من الممكن أن تكون التهمة ملفقة منهم، أو من آخرين ضد شخص بريء[54].

وكانت لمدن الأندلس دروب تغلق أبوابها بعد الغروب عند حلول العتمة، وكانت خطة الطواف بالليل موكلة إلى الدرابين، أي المكلفون بالطواف في الدروب. أما أزقة المدينة فلكل زقاق عساس مسؤول عنه، ويبيت في الزقاق، ويكون مسلحاً بسلاح وكلب حراسة، ومعه سراج معلق[55].

وكانوا يشددون على الحراس بالمشي أدواراً كثيرة، ويغيروا الطرق التي يسيرون فيها، لأن اللصوص والذعرة وغيرهم، يراقبون مشي الحراس، وينطلقون بعد ذلك لطلب الشر والفجور[56].

بالرغم من التشديد في الحراسة، والمراقبة المستمرة للأزقة والدروب، فإن اللصوص في الأندلس كانوا بارعين في المراوغة، وأمور التلصص، وتسلق المباني المشيدة، فيفتحوا الأغلاق الصعبة، ويقتلوا صاحب الدار حتى لا يتعرف عليهم. ويقول ابن سعيد: «ولا تكاد في الأندلس تخلو من سماع دار فلان دخلت البارحة، وفلان ذبحه اللصوص على فراشه، وذلك لشطارة عامتها، وكثرة شرهم»[57].

وتكثر الحوادث وتقل حسب شدة الوالي ولينه، ومع إفراط بعض الولاة في

---

(53) ابن عبدون: م. س. ص 17، 18.
(54) ن. م. ص 16، 17.
انظر، ابن سهل: الأحكام الكبرى.
نظر، ابن رشد: البيان والتحصيل.
انظر، الونشريس: البيان المعرب.
(55) المقري: م. س. جـ 1، ص 219.
(56) ابن عبدون: م. س. ص 18.
(57) المقري: م. س. ص 218.

توقيع العقوبة، حتى لقد آل الحال عندهم إلى أن قتلوا على عنقود سرقه شخص من كرم، وما أشبه ذلك، فلم ينته اللصوص[58].

وقد ذكر ابن القطان[59] أن أبا محمد عبد الله بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن قنونة، كان لا يفتر ولا يني عن قتل أهل الشر ويبين ابن قزمان رغبته في أن يسرق رغيفاً خارجاً لتوه من أحد الأفران، ولكنه يخاف عقاب الأمير المرابطي، فقد ظل واقفاً ينظر إلى الرغيف، وهو يدخل إلى الفرن حتى خرج ناضجاً شهياً، وتراوده نفسه بالهجوم عليه، ولكنه يتذكر قسوة عقاب الأمير المرابطي[60].

ورغم ذلك فقد كان ممنوعاً على العمال سجن أي شخص إلا بإذن من القاضي أو السلطان ومن سجن لا يطول سجنه، بل ينفذ عليه الحكم أو يطلق. إلا في قضايا الجرائم، فإن لها آجالاً طويلة وقصيرة على ما يوجبه الحكم[61].

---

(58) ن. م. ابن سهل، م. س. ص 91، 92.

«قرأنا وفق الله القاضي - الشهادات الواقعة عندك على أحمد وعمر ابني عطاف بالأذى للناس، باللسان واليد والشر والرد، والفساد والبسط فيجب - أكرمك الله - على أحمد وعمر الأدب الموجع والحبس الطويل. فإن الإغلاظ على أهل الشر، والقمع لهم والأخذ على أيديهم مما يصلح الله - عز وجل - به العباد والبلاد.

(59) ابن القطان: نظم الجمان ص 197. وعن ابن قنونة أو جنونة.

انظر، مفاخر البربر، ص 82.

ابن عذاري: م. س. جـ 4، ص 84.

(60) يقول ابن قزمان في زجل 98:

ونراه في الفرن داخل وإذا خرج نغني
قد خرج مَخْبُوب بَرًا ونريد ولَسْ نَجْرا
ويُقُلِّي قلبِ أهجم ونخاف من الملئم

(61) * أرسل الأمير إلى القضاة يسألهم في شخص يدعى ابن مخلون من أهل الطهارة والمشهور عنه الاستقامة اتهم كذباً بالقتل فحبس مدة عامين فأجاب القضاة: إن كان المرمى غير متهم لم يحبس إلا اليوم واليومين، فإن لم يحق عليه شيء أطلق وأما المتهم فيحبس الشهر ونحوه، فهذا ما قالوا من غير بينة تشهد للمرمى بالطهارة والاستقامة، فكيف وقد شهد لهذا المحبوس بنفي الريبة عنه، وبُعده مما نسب إليه إلى طول ما حبس فيه أكثر من سنتين، فيرى إطلاق هذا المحبوس واجب، وحق لازم لا يحل له حبسه ساعة من نهار.

* قضية إتُّهم فيها شخص ستة أشخاص بقتل أخيه، فحبس الستة عشرين شهراً وتعرف الشاهد على أربعة من الستة، ورفع الأمر إلى الأمير للتظلم من الحبس فأحال الأمر إلى القضاء فكان جوابهم «إذا =

وكان ممنوعاً على العمال أن يأمروا بضرب أحد بالسوط، وهذا العقاب لا يكون إلا بأمر من السلطان، وصاحب المدينة، والقاضي، والمحتسب، والحاكم فقط. ومن فعل غير هذا ينكر عليه، ويوبخ ويؤدب، كما لا يصلب أحد حتى يشاور فيه السلطان في أمره ثلاث مرات[62].

والسجن يتفقد ويفتش مرتين أو ثلاث في الشهر، للنظر في أحوال المسجونين، ويفرج عمن كان ذنبه خفيفاً، كما يفرج عن المسجونين بمدد متفاوتة في أيام الأعياد والمواسم[63].

في فترة الفتنة وبداية الموحدين:

لم تتغير هذه المناصب كثيراً في عهد الفتنة، نظراً لقصر حكم هؤلاء المنتزين، التي لم تكن تتعدى أيام قليلة أو أسابيع، أو بضعة أشهر لا تتعدى العام، ولم تزد بحال عن ست سنوات[64]، باستثناء ابن مردنيش في الشرق، لذلك لا يمكن أن تتضح معالم هذه التنظيمات الإدارية، أو حتى يكون في مقدور هؤلاء وضع إطار جديد لنظام الحكم وتسيير الإمارة فجل اعتمادهم على الإرث السابق لنظام المرابطين.

وجمع أمراء الطوائف (الثاني) بين منصب الإمارة والقضاء، وأحياناً القيادة

= لم يحق قبلهم حقاً إلى هذه الغاية، فلا يحل حبسهم لأن الطالب قد قال لا أعرفهم بأعيانهم، وإنما بلغني أنهم أربعة من هؤلاء الستة وأبرأ الاثنين منهم وهو لا يعرفهما حتى سميا له فابرأهما. فأي شيء أكرم الله القاضي أضعف من هذا الطلب وفي إطلاق هؤلاء من لم يقم عليهم بشبهة ولا سبب يوجب حبساً من ثواب الله - عزّ وجلّ - فأسأل الله تعالى أن يوفق الأمير للأخذ به فإن السجن مقرون بالعذاب الأليم. فواجب على القاضي إنهاء ذلك إلى الأمير لاستعجال إدخال الثواب عليه.
انظر:
وثائق في أحكام القضاء الجنائي في الأندلس من الأحكام الكبرى لابن سهل، تحقيق د. محمد عبد الوهاب خلاف ص 52، 62.
ابن رشد: البيان والتحصيل جـ 15 باب الديات.

(62) ابن عبدون: م. س. ص 19، 20.

(63) انظر ابن رشد: م. س. ابن سهل: م. س. ابن عبدون: م. س. ص 18.

(64) انظر الكتاب - الفصل الثاني - من الباب الأول.

العسكرية واعتمدوا على أقاربهم وأصهارهم في كثير من المناصب خاصة المناصب العسكرية، والولاية على الأقاليم[65].

واتخذ أمراء هذا العصر الكتاب والوزراء، وإن كان أكثرهم من أهل الأدب والعلم بارعاً في قول الشعر، واستعانوا ببعض الكتاب من عصر المرابطين[66]، كما اعتمد المرابطون من قبلهم على كتاب الطوائف الأولى.

واختلف الحال في بداية الموحدين بالنسبة لنظام الحكم والإدارة، والأطر التي اعتمد عليها الموحدون، لأن المهدي بن تومرت خطط لتنظيم أجهزة الدولة بعد بيعته، وقبل قيام الدولة، ووضع الأسس الحزبية التي يجب أن تسير عليها وفي حياته كان كل شيء راجع إليه بصفته الإمام المعصوم منبع العلم.

---

(65) ن. م.

(66) * اتخذ ابن قسي محمد بن يحيى الشلطيشي (ابن القابلة) كاتباً ومشيراً له واصطفاه بكتابته وأسراره، وكان عمر بن عبد الله بن حربون من جملة كتابه.

ابن الأبار: الحلة جـ 2 ص 198. ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 245 :255.

* أبو الحسن عبد الملك بن عياش لابن حمدين، ثم استدعاه أبو إسحق براز بن محمد المسوفي عامل إشبيلية الموحدي للكتابة، ثم كتب للأمير أبي حفص بن عبد المؤمن وللخليفة عبد المؤمن نفسه بعد مقتل ابن عطية.

ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، سفر 1/5 رقم 64 ص 26، 27.

* واستخدم ابن ملحان في بلاطه عدداً من مشاهير الكتاب مثل أبي بكر بن طفيل وأبي الحكم هرودس.

ابن الخطيب: الإعلام، ص 264، الإحاطة جـ 2، ص 479.

ابن سعيد: المغرب رقم 496 ص 210.

* واستعمل ابن همشك عدداً كبيراً من الكتاب على رأسهم أبي جعفر الوقشي فكان كاتباً ووزيراً وضابطاً لأعماله، وأبي العباس أحمد بن السعود.

ابن سعيد: ن. م، رقم 365، ص 25.

ابن الأبار: م. س. ص 257، 267.

* وكتب أبو الحسن راشد بن سليمان للأمير أبي عبد الرحمن بن طاهر.

ابن سعيد: م. س. رقم 538 ص 272.

* واتخذ ابن مردنيش من أبي يعقوب يوسف بن الجذع وأبي علي بن حسان، وأبو جعفر أحمد السلمي كتاباً ووزراء.

صفوان: زاد المسافر، ص 26.

ابن سعيد: م. س. رقم 521، ص 254، رقم 524، ص 255، رقم 523، ص 255.

ودولة الموحدين تقوم على النظام الإسلامي كدولة المرابطين[67]، واعتمدت مثلهم على الشورى وإن اختلف نظام الشورى في كلا الدولتين من حيث طبيعة المشاورين فجل اعتماد المرابطين كان على الفقهاء وأمراء المرابطين بينما اعتمد نظام الموحدين على فئات أو طبقات يستشيرونها في جميع الأمور[68]، وتختلف الهيئة المستشارة على حسب أهمية الموضوعات أو الأمور المطروحة للاستشارة.

ففي الأمور العظام يستشيروا أهل الجماعة (العشرة)، وهم أول من بايع المهدي وآمن به، تميزوا بالعلم والقدرة القيادية والبذل والتضحية، وكان دور هؤلاء الأشياخ استشارياً في المقام الأول، فلا يعلن خلفاء الموحدين حرباً أو يستعدون لها، ولا يخوضون معارك إلا بعد استشارتهم[69]. ولما ولى عبد المؤمن أولاده الولايات، بعث معهم بعض أشياخ الموحدين مستشارين[70].

أما إذا كانت الأمور أقل خطورة، استشاروا الخمسين، وإذا كان الأمر دون ذلك أحضروا السبعين، وفي ما دون ذلك لا يتأخر أحد ممن دخل في

---

(67) قامت دولة المرابطين بفضل الفقيه عبد الله بن يس، والموحدين على يد المهدي بن تومرت.

(68) صنف المهدي الموحدين أصنافاً:

١ ـ العشرة.	٨ ـ أهل تينمال.
٢ ـ أهل خمسين.	٩ ـ جد ميوة.
٣ ـ أهل سبعين.	١٠ ـ أهل جنفيسة.
٤ ـ الطلبة.	١١ ـ أهل هنتاتة.
٥ ـ الحفاظ (صغار الطلبة).	١٢ ـ الجند.
٦ ـ أهل الدار.	١٣ ـ الغزاة وهم الرماة.
٧ ـ أهل هرغة.	

انظر:

الحلل الموشية، ص 109 ـ ابن القطان: م. س. ص 79.

وانظر، مقالة:

عز الدين محمد موسى: التنظيمات الحزبية عند الموحدين في المغرب، مجلة الأبحاث سنة 1970، ص 64.

د. عبد الله علام: الدعوة الموحدية ص 173، 174.

(69) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 218، 220، 494، 498.

ابن عذاري: البيان المغرب، ص 113، 130.

(70) ابن القطان: م. س. ص 132.

التوحيد[71]. واستشارة القبائل بهذه الطريقة جعلتها أكثر ارتباطاً بالدعوة.

وكانت علاقة الموحدين بغيرهم في أيام ابن تومرت علاقة عداء وحرب، وتغيرت تلك العلاقة بعد قيام الدولة، إذ استوعب الموحدون نظم دولتهم دون تنظيماتهم أولئك الذين خضعوا للحكم الموحدي، ولم يعارضوا أفكار ابن تومرت على الأقل في الظاهر، فتولى بعضهم القيادة العسكرية، وقام بعضهم بتصريف شؤون الدولة[72].

وقيام دولة الموحدين وسيطرتها على منطقة واسعة أوجب عزل كثير من موظفي المرابطين واستبدالهم بالموحدين، لذلك هدف الخليفة عبد المؤمن إلى توليه الطلبة العديد من الوظائف نظراً لعلمهم وتربيتهم الخاصة، وفي نفس الوقت تقليل العبء على من بقي من أهل الجماعة (العشرة) وأهل خمسين وظل وفياً ومخلصاً للخليفة[73].

ومع أن القيادة في الولايات للوالي، إلا أنه في بعض الأحيان كان الطلبة ينوبون عنه في قيادة الحملات العسكرية[74]، وإذا أراد أن يسير حملة إلى جهة معينة كانوا يستشيرون طلبة تلك الناحية[75]، وربما أخذ رأي الطلبة في المنشآت ذات الطابع العسكري[76].

---

(71) ابن القطان: م. س. ص 81.

(72) مثل ابن خيار الجياني، وإبراهيم بن براز المسوفي، وزيري بن ماخوخ الزناتي، ابن عزون، وأبي الوليد ابن المنذر، وسيد راي بن وزير.

انظر، ليفي بروفنسال: رسائل موحدية ص 97، 98.

ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 138، 139.

ابن عذاري: م. س. جـ 4 ص 100.

ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 265.

(73) عز الدين عمر موسى: م. س. ص 76.

(74) رسائل موحدية: ص 74، 80، 102، 174، 221، 222.

(75) ن. م. ص 147.

(76) أشرك عبد المؤمن طلبة غرناطة وإشبيلية في اللجنة التي كلفها للإشراف على بناء مدينة جبل الفتح (جبل طارق) لتكون قاعدة للأعمال العسكرية في الأندلس.

ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 138. =

ومهام الطلبة الأولى كانت الدعاية لأعمال الدولة، والتركيز على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وباشروا دور المحتسب في المجتمع الذي وجدوا فيه[77].

واعتنى عبد المؤمن بتكوين هيئة جديدة سماها الحفاظ، يكون ولاءها الأول له، وليحتلوا الوظائف الكبرى في الإدارة والجيش والأسطول، واهتم بنفسه ببرامج تعليمهم وإعدادهم. وكان من بينهم أبناءه، وأبناء أهل الجماعة، وأهل خمسين، وأهل الدار، فلما أتموا دراستهم، ولاهم الولايات، وعزل أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرئاسة، وأبقاهم للمشورة[78].

ومن الملاحظ أن فكرة الوراثة في الخلافة رافقتها وراثة في احتلال المراكز الممتازة في الدولة، وخير مثل لذلك الحظوة التي نالها أبناء أهل الجماعة وأهل خمسين، فلم يحاول عبد المؤمن في بداية حكمه الاستغناء عن هيئتي أهل الجماعة والخمسين، ولا سيما أنه غريب عن قبائل المصامدة، وهم عماد الثورة التي لم تبلغ غايتها بعد، ولكنه لم يحافظ عليهما بالشكل الذي وضعه المهدي، فربما استخلص من أعضاء الهيئتين جماعة للمشورة، وكان يجمع الباقين كأشياخ للموحدين، واستبعد من مشورته من وقف ضده أو أراد الأمر لنفسه، وكانت غربته بين المصامدة تتطلب منه سياسة لبقة في تنفيذ ما يريد، فكان عليه التدرج في خطواته ليخلو الجو لأسرته من بعده، ولهذا ربما سعى عبد المؤمن لإلغاء الهيئتين لكيلا تنازعاه الزعامة والسلطة، واتبع طريقاً تدريجياً، فلم يدعم وجود الهيئتين، وحفظ المركز لأعضائهما، فطريقته إهمال التنظيم والمحافظة على أفراده حتى لا يتكتلوا[79]. فاحتل بعض أشياخ

= ابن عذاري: م. س. جـ 3، ص 69.
د. عز الدين موسى: م. س. ص 76.

(77) ليفي بروفنسال: المدن والنظم المدنية، ص 85.

(78) البيدق: م. س. ص 48.
ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 400.
الحلل الموشية، ص 150، 151.
ابن عذاري: م. س. جـ 3، ص 128.

(79) عز الدين موسى: م. س. ص 72.

الموحدين وظائف تنفيذية عليا، فقد كان منهم بعض الوزراء[80]، وبعض الولاة[81]، وكانت منزلة أشياخ الموحدين في عهد عبد المؤمن عالية ورفيعة، فهم أول من يدخل من أصناف الموحدين ويبعث إليهم الولاة من أبناء عبد المؤمن الأخبار المتجددة[82].

وأثرت الأحداث السياسية على مراكز القبائل فمن والى عبد المؤمن ارتفع وحظي عنده، ومن عاداه استبعد وأهمل، ولكن الهيئة الجديدة (الأشياخ) التي ضمت ممثلي القبائل للمشورة كانت أكثر استيعاباً للقبائل التي دخلت في الأمر فيما بعد وأخلصت لبني عبد المؤمن، ويبدو أن الهيئة الجديدة كانت بغرض استيعاب غير المصامدة، أيضاً في المشورة، وساعد وجود هيئة أشياخ الموحدين في هيئات استشارية على مثالها فظهرت أشياخ العرب[83]، وهيئة أشياخ الجند الأندلسيين[84]، وكانت مشورة هاتين الهيئتين محدودة بالمسائل العسكرية[85].

واهتم عبد المؤمن بوظيفة «الراقصين» وهم الرسل الذين يردون بالكتب ويصدرون ويبدو أن الدولة لم تكن تعين لهم راتباً معيناً مما جعلهم يأخذون الناس بتكاليفهم ويلزمونهم بزادهم وعلف خيولهم[86].

واعتمد النظام العسكري في عهد المرابطين والموحدين على القبيلة كوحدة

---

(80) أبناء عمر الهنتاتي وأبناء ابن جامع.
ابن صاحب الصلاة ص 420.
المراكشي: المعجب ص 262.

(81) عمر الهنتاني ويوسف بن سليمان، وابن مخلوف.
ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 182، 191، 194، 195.
المراكشي: م. س. ص 213.

(82) ابن صاحب الصلاة: ن. م. ص 390، 392.

(83) تكونت هيئة أشياخ العرب من زعماء العشائر الهلالية التي وحدت ولم يتدخل خلفاء الموحدين في اختيار شيوخ القبائل فقد كانت مشيخة القبيلة وراثية في أسرة بذاتها ابن خلدون: العبر جـ 6، ص 534، 542، 545، 546.

(84) هيئة أشياخ الأندلس تكونت من الثوار المنتزين بالأندلس أو من أبنائهم مثل أبي محمد سيد راي بن وزير، وأبو القمر بن مردنيش.

(85) ابن القطان: م. س. ص 226.
عز الدين موسى: م. س. ص 75.

(86) ابن القطان: م. س. ص 162.

محاربة، بمعنى أن تؤلف الفرق من أفراد القبيلة الواحدة حتى تتآلف قلوبهم، ويقاتلون وفق نظام معين.

فكان هدف المرابطين الأول منذ قامت دعوتهم نشر الإسلام والجهاد في سبيل الله والذود عن ديار المسلمين، لذلك اهتموا بالتكوين العسكري بجانب التكوين الديني، فتدربوا على القتال واستعمال السلاح، وكان لنشأتهم الصحراوية فضل كبير في إتقانهم القتال على الجمال والخيل، والسرعة في الهجوم، والخفة في الحركة، مع الالتزام بتعاليم الإسلام في الفتح، يقول البكري[87]: «وكان للمتونة في قتالهم شدة وبأس ليست لغيرهم، وكان قتالهم على النجب أكثر من الخيل، وكان معظم قتالهم مرتجلين، يقفون على أقدامهم صفاً بعد صف، يكون بأيدي الصف الأول منهم القنا الطوال، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق يحمل الرجل الواحد منهما عدة، يزرقها فلا يكاد يخطىء ولا يشوى، ولهم رجل قدموه أمام الصف بيده الراية فهم يقفون ما وقفت منتصبة، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا جميعاً، فكانوا أثبت من الهضاب، ومن فر أمامهم لم يتبعوه، وكانوا يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف».

ونظراً للمعارك الكثيرة التي خاضها المرابطون تطورت أساليبهم في القتال، ولم يعد الجيش يضم القبائل الملثمة فقط، فبعد توحيد المغرب والسودان والأندلس في دولة واحدة دخلت عناصر جديدة إلى الجيش المرابطي، فكونت فرق السودان عنصراً مهماً في الجيش المرابطي، وحصلت الدولة على حاجتها من السودان إما بالشراء أو بإغرائهم المشاركة في الجهاد، وانضمت زناتة وقبائل المصامدة وحلفائها إلى ركب الجهاد، خصوصاً وأن هذه القبائل امتازت بشجاعتها وإقدامها، وكانت قبائل مصمودة وحلفائها تسمى بالحشم أو الأتباع[88]، كما كانت هناك قبائل عربية، بالإضافة إلى المتطوعين من أهل الأندلس[89]، كما اهتم المرابطون بتكوين فرقة من النصارى المعاهدين الذين اعتنقوا الإسلام، ومن المرتزقة، وجعلت على قيادتها القائد القشتالي

---

(87) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص 166.

(88) الحلل الموشية ص 33، ابن عذاري جـ 4، ص 94.

(89) ن. م. ص 80.

الذي يسميه الرواة المسلمين باسم الربرتير وعرفت هذه الفرقة بفرقة الروم. واشتركت في عدة معارك مع المرابطين، ظهر فيها إخلاصها، وشجاعتهم في القتال، وقتل قائدها الربرتير في إحدى معاركه ضد الموحدين[90].

وكان الجيش المرابطي الذي يقيم إقامة دائمة بالأندلس يتكون من سبعة عشر ألف فارس، موزعة على عدة قواعد سبعة آلاف فارس في إشبيلية، وبقرطبة ألف فارس وبغرناطة مثلها، وفي الشرق أربعة آلاف فارس، والباقي موزعة على ثغور المسلمين المصاقبة للعدو[91].

وكان يعهد إلى الأندلسيين مهمة الدفاع عن الحدود والحصون المتاخمة للنصارى لما لهم من خبرة خاصة في مقاتلة الممالك النصرانية[92].

وازدادت أهمية الدفاع عن الأندلس عندما عهد الأمير علي بن يوسف إلى ابنه تاشفين بولايتها، فقوى الحصون، وسد الثغور، واهتم بتدريب الجند، وزاد في أعطياتهم، وأكثر من شراء السلاح والعتاد، فأحبه الجند وهابه العدو. يقول صاحب الحلل: «ولاه أبوه عهد الأندلس، فقوى الحصون وسد الثغور، وأذكى العيون على العدو، وآثر الجند، ولم تنل عنده الحظوة إلا بالغناء والنجدة، فحمل على الخيل، وقلد على الأسلحة، وأوسع الأرزاق، واستكثر الرماة، وأركبهم، وأقام هممهم، وعنى مدة إقامته بها بالغزو، ومباشرة الحرب، فهزم الجيوش، وافتتح الحصون، وتهيبه العدو»[93].

وكانت أسلحتهم تتناسب وطبيعتهم البدوية البسيطة فتسلحوا بدرق اللمط، والقنا الطوال والمزاريق المسنونة وسيوف الهند والسهام، والمطارد والرعادات واستخدموا الطبول الضخمة ذات الصوت المدوي، فكانت تضرب قبل بدء المعركة فتهتز لدويها الأرض، وتتجاوب أصداءها فيرتاع العدو[94].

---

(90) البيدق، أخبار المهدي.

(91) الحلل الموشية، ص 80.

(92) ن. م. ص 82.

(93) ن. م. ص 121.

(94) ن. م. ص 60، د. حسن محمود: م. س. ص 383، د. إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ 226.

وكان لكل فرقة علمها الخاص، ففرق لمتونة راياتها بيضاء مكتوب بها بعض الآيات، بينما رايات الفرق الأندلسية حمراء، واتخذت فرق زناتة والحشم الرايات المتعددة الألوان، فلكل قبيلة لونها[95].

ويتقدم الجيش عند المعركة، الجند المشاة ووحدات الفرسان الخفيفة وحملة القسي والرماة، ويرتبون في الجناحين، بينما يتكون القلب من الفرسان، وصفوة الجندِ، ويترأس كل قسم من هذه الأقسام قائدها الخاص ويخضع الجميع للقائد العام الذي يقود القلب، وقد أمدنا صاحب الحلل الموشية بوصف لجيش المرابطين الذي قاده الأمير تاشفين بن علي في ناحية بطليوس فيقول: «فكان من القلب مع الأمير تاشفين المرابطون وأصحاب الطاعات، تقدمهم البنود البيض الباسقات المكتوبة بالآيات، ومن الجانبين كفاة الدولة، وحماة الدعوة من أبطال الأندلس، تقدمهم حمر الرايات، بالصور الهائلات، ومن الجناحين أهل الثغور، وذوو الجلادة والصبر، وفي المقدمة مشاهير زناتة ولفيف الحشم من أهل العزائم الماضية، والبصائر الثابتة بالرايات المطيفة، والأعلام المنيفة[96].

وأمير المسلمين هو القائد الأعلى للجيوش المرابطية، أو ولي عهده ونائبه، بينما يتولى القيادة في الأقاليم العمال المحليون وهم في الغالب من قبائل الملثمين المشهور عنهم الإخلاص والكفاءة ويجتمع القادة جميعاً في مجلس الحرب قبل أي معركة يدرسون فيها خطة الهجوم والدفاع وسير المعركة[97].

واعتمد المرابطون في حروبهم على عنصر المفاجأة وسرعة الحركة والثبات أمام العدو، لأنهم يعتبرون الفرار من الزحف عاراً، وكانوا يأنفون من طعن العدو وهو يولي الأدبار[98].

وعرف المرابطون نظام الكمين وفن الحصار الطويل من احتكاكهم بحرب

---

(95) الحلل الموشية، ص 122.

(96) ن. م.

(97) د. حسن محمود: م. س. ص 384، د. إبراهيم حركات: م. س. ص 227.

(98) البكري: م. س. ص 166.

النصارى في الأندلس، ورتبوا لهذا النوع من الحرب العسكر القوي من نخبة رجالهم، وأقواهم على التحمل[99].

ولم يكن للمرابطين ديوان خاص بالجيش، وكانت الجيوش تحشد عن طريق العمال عندما يدعى للجهاد، ولا يتعدى راتب الفارس خمسة دنانير شهرية مع نفقته وعلف فرسه، ومن ظهرت نجدته وشجاعته أكرموه بموضع ينتفع بفوائده[100].

وشملت عناية المرابطين بناء الأسطول لحاجتهم إلى قوة بحرية تحمي شواطئهم، واتسعوا في بناء السفن واهتموا بدور صناعتها، وصار للأسطول المرابطي دور فعّال في المعارك البحرية، وفرض هيبته البحرية الإسلامية في البحر المتوسط، وكانت لهم في سبتة وقادس وألمرية أساطيل دائمة، كما اهتموا بأسطول نقل البضائع والمسافرين، وحراستها، فكانت قطائع النقل تجتمع بنوع خاص في مياه سبتة وطنجة والجزيرة الخضراء وطريف لتنقل الجيوش المرابطية من وإلى شبه الجزيرة[101].

واختصت أسرة بني ميمون بقيادة الأسطول المرابطي منذ عهد الأمير يوسف بن تاشفين، فتولى عيسى بن ميمون قيادة الأسطول في قادس، ثم صارت القيادة وإمرة البحر لأبنائه في عهد الأمير علي بن يوسف، فأسطول المرابطين في شرق الأندلس كان يقوده أمير البحر أبو عبد الله بن عيسى بن ميمون وقاعدة هذا الأسطول في ألمرية[102]، بينما كان أخوه علي بن عيسى قائداً للأسطول المرابط في قادس[103]، واشتهرت عملياته الحربية في البحر المتوسط، وحمايته للسواحل المغربية.

واتسعت دائرة نشاط الأسطول المرابطي وامتدت غاراته إلى سواحل إيطاليا وفرنسا، واستنجد بنو زيري أمراء إفريقية بالأسطول المرابطي لرد هجمات النورمنديين أصحاب صقلية، فهاجم المرابطون صقلية بأسطول ضخم بقيادة أبو عبد الله محمد بن

---

(99) د. حسن محمود: م. س. ص 391، د. إبراهيم حركات: م. س. ص 226.

(100) الحلل الموشية، ص 82.

(101) د. حسن محمود: م. س. ص 394، 395.

(102) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 210.

(103) ابن عذاري: البيان، جـ 3، ص 34.

ميمون استطاع الاستيلاء على مدينة نقوطرة[104] وذكر الإدريسي[105] أن الأمير علي بن يوسف استعمل أحمد بن عمر المعروف برقم الأوز على جملة من أسطوله، وقد وصف ابن خلدون أسطول المرابطين وما بلغ من قوة بقوله: «وكان الجانب الغربي من هذا البحر، لهذا العهد (أي عهد المرابطين) موفور الأساطيل، ثابت القوة، لم يتحيفه عدو، ولا كانت لهم به كرة»[106].

وباستيلاء الموحدين على الحكم، وجهوا جل عنايتهم إلى الجيش، فحظي باهتمام خلفاء الموحدين، من حيث التدريب وتزويده بالعدة والعتاد، واستلزم ذلك الكثير من المال والجهد حتى يتناسب مع النشاط العسكري الكبير الذي قام به عبد المؤمن، ومن جاء بعده من أبنائه في ميدان الأندلس، والمغرب، وكان عبد المؤمن يشرف بنفسه على إعداد وتدريب الجند[107] «فيأخذهم يوماً بتعليم الركوب، ويوماً بالرمي بالقسي ويوماً بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة، طول مربعها نحو ثلاثمائة ذراع، ويأخذهم يوماً يجدفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة، وكانت نفقتهم وخيلهم وعدتهم وسائر متطلباتهم من عنده»[108].

وجيش الموحدين ضم عدة عناصر، فكان هناك الموحدون الأوائل وهم القبائل السبعة التي وحدت وهم صنفين: الصنف الأول ويدعى الجموع، وهم المرتزقة ويقيمون بمراكش لا يبرحونها، والصنف الآخر يدعى بالعموم، وهم الكائنون ببلادهم لا يحضرون إلا في النفير الأعظم، ويضيف المراكشي أن عدد المرتزقة الذين بمراكش من قبائل الموحدين وسائر الأجناد حوالى عشرة آلاف، فإذا كان عدد جند العاصمة من المرتزقة الذين لا يبرحونها فضلاً عن المدن الأخرى لتبين مدى ضخامة جيش الموحدين، واختلف عدد الجند من معركة إلى أخرى.

وكانت تصرف للجند المرتبات والمنح والأموال أثناء القيام بحملة، يضاف إلى

---

(104) ن. م. جـ 4، ص 67.

(105) الإدريسي: المغرب وأرض السودان، ص 54، 55.

(106) ابن خلدون: المقدمة، ص 255.

(107) الحلل الموشية، ص 150.

(108) ن. م، ص 151.

ذلك ما كان يوزع عليهم في الاحتفالات العامة والمناسبات، أما مرتباتهم فكانت تصرف ثلاث مرات في السنة لجند الموحدين، بينما الجند الغز يحصلون على مرتباتهم شهرياً وتسمى بالجامكية[109].

وضم الجيش الموحدي بقايا الجيش المرابطي من صنهاجة وفرق السودان، والروم والعرب والحشم وغيرهم، كما استعانوا بالقبائل العربية التي خضعت لهم من بني هلال وسليم وغيرها، وشجعوا الأتراك الغز على الالتحاق بجيشهم[110].

ويقع التشاور قبل القيام بالغزو في مجلس حربي، يضم عادة الخليفة وشيوخ الموحدين، وأشياخ العرب، وأشياخ القبائل من الأجناد، وقواد الجيش البارزين، وأهل الحروب ممن تعودوا الغزوات من أهل الرأي[111].

وكان الخليفة يستعرض عسكره من حين لآخر فيجلس في مكان يشرف منه على الجيوش وهي تمر أمامه كتيبة كتيبة، وهي في أكمل عدة، وأتم سلاح[112].

وقيادة الجيش في غالب الأحيان تعقد لأبناء الخليفة (السادة) أو لشيوخ الموحدين أو أبنائهم، وكان لكل قبيلة قائدها، ولكلِ حامية قائدها، ويقود الخليفة الجيش في المعارك المهمة.

وكانت عادة عبد المؤمن إذا خرج للحرب، يرحل بعد صلاة الصبح، فيضرب طبل كبير مستدير الشكل محيطه خمسة عشر ذراعاً من الخشب، أخضر اللون مذهب، فإذا ضربت ثلاث ضربات علم بالاستعداد للرحيل، فيرحل الناس، وكان يسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع في يوم لا ريح فيه، ويقسم الجيش أربعة أقسام، لكل منها يوم يختص به، وماء ينزل عليه، ويسير كل يوم مرحلة إلى وقت الغداة، فينزل الجيش للراحة لليوم التالي ويتقدم الركب الخليفة، وأعيان الناس تدعو له، ويمشي أمامه على بعد منه مائة فارس[113] بمصحف عثمان[114] محمول على ناقة

(109) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 341.
(110) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 172.
(111) ن. م. ص 219.
(112) المراكشي: م. س. ص 201.
(113) الحلل الموشية، ص 152.
(114) مصحف عثمان رضي الله عنه يقال إنه كان في حوزة الخليفة الناصر الأموي، وكان محفوظاً في جامع =

حمراء عليها من الحلى النفيس، وثياب الديباج الفاخرة، ووضعوا تحته بردعة من الديباج الأخضر، وعن يمينه ويساره عصيان عليهما لـواءان أخضران، وموضع الأسنة منهما من الذهب على شكل تفاحتين وخلف الناقة بغل محلى أيضاً عليه مصحف آخر يقال إنه لابن تومرت أقل من مصحف عثمان في الحجم، محلى بالفضة المموهة بالذهب. وخلف الخليفة يسير ابنه السيد أبو حفص لا يوازيهما أحد وخلف السيد أبي حفص أبناء عبد المؤمن الآخرون ويتبع هؤلاء البنود والطبول ومن ورائها الأمراء المدبرون لأمر دولته، ويتتابع الناس دون تزاحم بينهم، فإذا كان وقت النزول، نزلت كل قبيلة في منزلها وعلى ترتيبها، لا يتعدى أحد طوره، لهم رتب معلومة «قيدها الحد، وحماها الخوف» ويصحب الجيش جميع الصناع وكل ما يحتاج إليه المسافر معهم[115].

وكانت تضرب خيمة الخليفة على مقربة من ميدان القتال يخفق عليها علم أبيض، ولم يسمح الموحدون باتخاذ الراية إلا للعمال والقواد والولاة[116]. بينما كانت تخفق بين يدي عبد المؤمن أكثر من ثلاثمائة راية ما بين بنود وألوية[117].

واستعمل الموحدون الأسلحة الخفيفة التقليدية كالسيوف والحراب والسهام والدرق والرماح الطوال، والدروع، والبيضات والترسة[118].

ووصف ابن اليسع طريقهم في حرب المرابطين عن قول أحد الموحدين بأنهم يختارون مكاناً يجعلون فيه الجيش على شكل مربع الصف الأمامي بأيديهم القنا الطوال، والطوارق المانعة، ووراءهم أصحاب المخالي فيها الحجارة، ووراءهم الرماة بقوس الرجل، وفي وسط المربعة الخيل، فكانت خيل المرابطين إذا دفعت إليهم لا تجد إلا الرماح الطوال الشارعة، والحراب والحجارة والسهام الناشرة،

= قرطبة إلى عهد عبد المؤمن، فأهدى إليه، فصنع له تابوتاً فخماً وغلفه بغلاف صحائفه من الذهب ورصعه بالياقوت والأحجار الكريمة.

انظر: الحلل الموشية ص 152.

(115) الحلل الموشية: 153.

(116) د. إبراهيم حركات: م. س. ص 342.

(117) المراكشي: م. س. ص 232.

(118) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 215.

فحينما تولي من الدفع وتهرب تخرج خيل الموحدين من طرق تركوها، وفرج أعدوها، فتصيب من أصابت، فإذا كرت عليهم دخلوا في غاب القنا[119] وبذلك يسهل عليهم القضاء على خصمهم وتكبيده الخسائر الجسيمة.

وعمل الموحدون على إضافة العديد من السفن والقطائع بعد انضمام الأسطول المرابطي إليهم واهتم عبد المؤمن بإنشاء دور صناعة السفن في المغرب والأندلس، وزادت عنايتهم بالأسطول خصوصاً بعد سقوط ألمرية 542 هـ/ 1147 م يقول ابن صاحب الصلاة[120] إن عبد المؤمن «أمر بإنشاء القطائع في سواحل العدوة والأندلس، فصنع منها زهاء مائتي قطعة أعد منها في مرسى المعمورة بحلق البحر على وادي سبو بمقربة من سلا مائة وعشرين قطعة، وقفت عليها وعددتها بالمرسى المذكور، وأعد باقي العدد الذي ذكرته في أرياف العدوة والأندلس، وأمر بكتب الرجال والرؤساء الأبطال لعمارتها والقيام بحمايتها، والنظر في آلاتها».

وكان الأسطول الموحدي يضم أنواعاً كثيرة من السفن منها المراكب، والشواني، وهي مراكب كبيرة تنصب فيها أبراج للدفاع، والحراقات وهي التي تحمل المنجنيقات التي ترمي بالنفط المشتعل على الأعداء، وهناك الطرائد وهي سفن صغيرة سريعة الحركة، والشلنديات وهي السفن الضخمة التي تحمل السفن والمحاربين، أما المسطحات فكانت سفن كبيرة الحجم تجري وراء السفن الصغيرة لإنقادها في حالة الخطر[121].

وكان الخليفة عبد المؤمن يشرف على تكوين رجال البحرية وعلى تدريبهم تدريباً خاصاً[122]، حتى يستطيعون القيام بالمهام التي توكل إليهم على خير وجه، وبواسطة أسطول الموحدين استطاعوا نقل الكثير من عسكرهم إلى الأندلس وحماية سواحله وسواحل المغرب.

---

(119) الحلل الموشية، ص 132.

(120) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 213.

(121) محمد المنوني: العلوم والآداب على عهد الموحدين.

د. إبراهيم حركات: م. س. ص 343.

(122) الحلل الموشية، ص 150.

وزاد الموحدون ديواناً للجند يختص بالجند النظامي والحرب والعبيد، ووظيفته إحصاء الجند ومعرفة حاجاته المتعددة، وكان يرأسه رجل من العسكريين ويعاونه عدد من الكتبة. والديوان الثاني كان يسمى بديوان التمييز ووظيفته التأكد من إخلاص القبائل والجند للدعوة الموحدية وهي عادة جرى عليها الموحدون منذ عهد ابن تومرت، وكان يترأس هذا الديوان كاتباً يسمى كاتب ديوان التمييز ويحوي هذا الديوان سجلات يقيد فيها أسماء الجند التي يقرر لها العطاء، كما يقوم بالتنسيق بين الكتائب والفرق المحاربة[123].

(123) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 436.
محمد عبد الله عنان: م. س. جـ 2، ص 638.

الباب الثاني

الأحوال الاقتصادية

الفصل الأول : الزراعة.
الفصل الثاني : الصناعة.
الفصل الثالث : التجارة.
الفصل الرابع : النظم المالية.



الفصل الأوّل

الزراعة

وضعية الأرض ـ اختلاف الفقهاء في حكم أرض المغرب والأندلس منذ الفتح ـ أنواع وضعية الأراضي: ملك الدولة (المستخلص) أو أرض المخزن أو الخاص ـ أراضي الإقطاع ـ الملكية الخاصة ـ اتساع ملكية الدولة في عهد المرابطين بضم أراضي أمراء الطوائف ومن توفي دون وريث ـ مصادرة بعض أمراء المرابطين ـ محاولة مراجعة الملكيات الخاصة ـ ضياع أراضي الدولة أثناء الفتنة ـ استيلاء الموحدين على أراضي الدولة وزيادتها ـ ديوان المستخلص ـ والمشرف عليه.

الإقطاع ووضعيته ـ المنتفعون بالإقطاع ـ الإقطاع عند الموحدين، المنتفعون به ـ الملكية الخاصة ـ طرق الحصول على الملكية الخاصة ـ أنواعها.

زمن الفتنة: كثرة الغصب والرهن وبيع المضغوط والغبن.

تغلب زعماء الفتنة على أملاك الناس ـ حوالة الأسواق ـ الإنزال ـ أراضي الأحباس: أوجه الإنفاق ـ احترام المرابطين للأحباس ـ فرض الموحدون الضرائب على الأحباس.

الزراعة: الاهتمام بالزراعة والتأليف في علم الفلاحة ـ خصب أرض الأندلس ووفرة مائها ـ أهم المحاصيل الزراعية ومناطق زراعتها ـ الحبوب ـ الفواكه ـ الأفاويه ـ الرعي ـ الماشية ـ الأغنام ـ مناطق الرعي ـ البغال والحمير.

آخر عهد المرابطين ومرحلة الفتنة وبداية الموحدين: ـ

تدهور الزراعة ـ زيادة الضرائب ـ الجفاف ـ غارات الجراد ـ الفتن ـ غارات النصارى وحرق المحاصيل ـ اهتمام ابن ملحان بوادي آش ـ استمرار تدهور الزراعة في أول عهد الموحدين بتوالي الفتن وانعدام الأمن.

لإعطاء صورة واضحة عن الأحوال الزراعية في هذه المرحلة يلزم التعرض لنظام ووضعية الأرض الزراعية، وسياسة الدولة تجاهها، وطرق الزراعة، وأنواع المحاصيل، وكيف أثرت هذه الأوضاع على الإنتاج الزراعي وما يتعلق بالزراعة من رعي وصيد وتربية حيوانات ودواجن.

وتبدو صعوبة دراسة وضعية الأرض في الغرب الإسلامي، إذ اختلف الفقهاء في حكم أرض المغرب، والأندلس منذ الفتح، وهل تعتبر أرض عشرية أو خراجية صلحية أو عنوة أو مختلطة، واتفق عـرف الفقهاء على أن حكم الأراضي التي خفى أمرها أنها «لمن وجدت بيده وإن كان لا يُدرى بأي وجه صارت إليه»[1] وشجع ذلك ذوي النفوذ والسلطان على التعدي على ملكية الدولة أو الأفراد، خصوصاً في وقت الفتن والثورات، ويأخذ هذا التعدي صفة الشرعية والحق المكتسب.

وكانت الأراضي في الغرب الإسـلامي إما أراضي ملكـاً للدولة وتسمى بالمستخلص[2]، أو أرض المخزن والخاص[3]، وهناك أراضي الإقطاع والملكية الخاصة[4].

(1) الونشريسي: المعيار، جـ 6، ص 133، 134، جـ 10، ص 86، 88.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 4، ص 65، ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 121، 131.

(3) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص 447، 465، 467.

وانظر: الدراسة الموسعة للدكتور عز الدين موسى في كتابه «النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي» ص 129 وما بعدها.

(4) الونشريس: م. س. جـ 9، ص 539 عن سؤال لابن رشد بشأن أملاك الثائر ابن زيفل بحصن شقورة سنة

وقد تقلصت أراضي الدولة بالأندلس، إذ أخذ أمراء الطوائف والمنتزون أكثر الأراضي، حتى لم يبق إلا القليل التافه، واعتبر هؤلاء ما بأيديهم ملكاً خاصاً فتصرفوا فيه إقطاعاً وتوريثاً وبيعاً فاختلطت أراضي الدولة بحقوقهم الخاصة.

وضم المرابطون أراضي المناوئين لهم في بداية دولتهم في المغرب[5] وعندما حكموا الأندلس، ضموا أراضي أمراء الطوائف سواء من أجلوا عن ديارهم كبني صمادح[6]، أو من أعطوا أماناً في النفس والأهل دون المال مثل بني عباد[7]، وعبد الله ابن بلقين[8]، وكذلك ضموا أراضي من ارتبط بأمراء الطوائف من شخصيات ذات نفوذ[9]، كما ألحق المرابطون أراضي من توفي دون وريث إلى أراضي الدولة، فاتسعت ملكية الدولة نتيجة لهذه الإجراءات.

غير أن السياسة التي سار عليها المرابطون وهي التخميس[10] فالإقطاع، ثم بيع أراضي بيت المال في بعض الأحيان[11] أفقدت الدولة كثيراً من الأراضي، ولم تظهر آثار ذلك إلا في أواخر عهد الأمير علي بن يوسف، فحاول زيادة أراضي الدولة بوسائل متعددة مع التزامهم باحترام الملكية الخاصة[12]، ففي عام 515 هـ/ 1121 م كثرت مصادرة أملاك الأمراء المرابطين المغضوب عليهم هم وحاشيتهم[13]، أو العمال

= 495 هـ ولم يكن يملك شيئاً عندما ثار وانظر جـ 10 ص 55، 56 عن غصب المعتمد بن عباد مجشراً لابن زهر.

(5) ضموا أراضي زناتة وبرغواطة وغمارة، بينما أقروا المصامدة على أراضيهم لتحالفهم مع المرابطين عند قيام دولتهم.

ابن عذاري: م. س. جـ 4، ص 15، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 128، 129.

(6) ابن الأبار: الحلة، جـ 2، ص 174.

(7) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 77.

(8) عبد الله بلقيف: التبيان، ص 147.

(9) ابن الأبار: المعجم، ص 9، 56، د. عز الدين موسى، م. س. ص 132.

(10) الحلل الموشية، ص 21.

(11) الونشريسي: م. س. جـ 9، ص 413.

(12) انظر سؤال الأمير علي بن يوسف لقاضي الجماعة بغرناطة ابن ورد عن حق بيع النصارى المغربيين لأملاكهم بالأندلس.

الونشريسي: م. س. جـ 8، 57.

(13) ابن الأبار: م. س. ص 56.

الخائنين[14]، وفي نفس العام أراد الأمير علي بن يوسف مراجعة الملكيات العامة التي آلت إلى ملكيات خاصة منذ أيام بني عامر، وبني عباد وغيرهم ومعرفة مصدرها، وحرص على دعم الفقهاء له، وأفتى ابن رشد وابن الحاج وغيرهم بالتصرف في الملكيات الخاصة ولكن ابن حمدين خالفهم في ذلك، مما تسبب في إثارة الفوضى في قرطبة[15]، وفي عام 521 هـ/ 1127 م ضم إلى ملكية الدولة أحباس الكنائس وبيع المعاهدين الذين فروا إلى بلاد العدو، أو غربوا إلى العدوة، وكانت أراضي واسعة لها أهميتها[16].

ولا شك أنه لو تم للأمير علي بن يوسف مراجعة ما آل إلى ملكيات خاصة لساعد الدولة على أن تسترد كثيراً من الأراضي التي استولى عليها بدون وجه حق.

وفي عهد الفتنة التي أعقبت سقوط المرابطين[17] ضاعت كثير من أراضي الدولة، إذ استولى الثوار على الكثير من الأراضي والعقارات واعتبروها ملكاً خاصاً، بينما أصدر البعض القوانين التي تبيح للدولة الاستيلاء على الأراضي التي يهجرها أصحابها لعجزهم عن دفع الضرائب أو زراعتها[18].

وآلت ملكية أراضي الدولة بعد ذلك إلى الموحدين بالإضافة إلى الأراضي التي استولوا عليها من أمراء المرابطين وجندهم وحلفائهم، واعتبروا ما فتحوه أرضاً خراجية عنوية[19]، أو ملكاً للدولة[20] وزادت ملكية الدولة بمصادرة أملاك الثائرين عليهم تأديباً

---

(14) ابن عذاري: البيان المغرب جـ 4، ص 77.

(15) البرزلي: جامع مسائل الأحكام، [و 93]، الونشريسي، م. س. جـ 9، ص 913.

(16) ن. م. جـ 8، ص 57.

(17) ابن الخطيب: الأعلام، ص 214، الإحاطة، جـ 2، ص 119.

(18) ن. م. جـ 2، ص 142.

(19) أبقى الموحدون الأرض التي اعتبروها فتحت عنوة في يد أصحابها، وفرضت عليهم نسبة من غلتها بلغت النصف في إفريقية وبعض مناطق المغرب، بينما بلغت الربع في الأندلس، ويبدو أن هذا التمييز بين المغرب والأندلس كان محاولة لكسب الأندلسيين إلى صفوفهم.

ابن أبي زرع: م. س. ص 188، د. عز الدين موسى: م. س. ص 136، 137.

(20) تملكت الدولة أراضي الثوار بالأندلس بعد دخول الموحدين واستعادت الأراضي. ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، قسم 5، سفر 1، ص 176. ابن صاحب الصلاة. م. س. ص 117، 201، 203، 204.

وعقاباً لهم[21]، واستصفاء أموال العمال المغضوب عليهم[22]، ووراثة من لا وريث له.

وزادت أراضي الدولة في عهد الموحدين عما كانت عليه في أيام المرابطين، إذ إن العوامل التي كانت سبباً في تقلص أراضي الدولة في عهد المرابطين من هبة وإقطاع، لم تحدث للموحدين، إذ كانوا كثيراً ما ينزعون الإقطاع، كما كانت سياسة دولتهم محاولة إنزال قبائلهم في المدن دون السهول الزراعية[23].

وفي عهد المرابطين كان يشرف على أراضي الدولة في المدن الكبرى ديوان يعرف بديوان المستخلص[24]، وتخضع هذه الدواوين لصاحب المستخلص في غرناطة[25].

وعرف هذا الديوان عند الموحدين باسم المستخلص، والمختص، وديوان الضياع[26]، ويشرف صاحب المستخلص أو المختص أو أمين الضياع على أراضي المخزن (الدولة) مزارعة ومساقاة، ويتولى تحصيل مالها[27]، ويبدو أن بعضهم كان مطلق اليد في عهد المرابطين كأبي عبد الرحمن بن مالك، وأبي علي هدبة، فقد أضيفت لهم الأحباس والتعتيب وإصلاح أحوال بعض المدن وبنائها[28].

---

(21) ن. م. ص 446، 447.

(22) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 198، 244.

(23) د. عز الدين موسى: م. س. ص 139.

(24) ابن سعيد: م. س. جـ 2، رقم 431، ص 117.

(25) عين يوسف بن تاشفين أبو محمد عبد الرحمن بن مالك ليشرف على ديوان غرناطة وغيره من بلاد الأندلس واستمر في منصبه في عهد ولده الأمير علي بن يوسف حتى وفاته عام 518 هـ 1124 م، فعين بدله أبا علي هدبة في غرناطة. ابن سعيد: م. س. جـ 2، رقم 431، ص 117، المقري: م. س. جـ 3، ص 232، ابن عذاري: م. س. جـ 4، ص 73، 74.

(26) ابن أبي زرع: م. س. ص 225، البيدق: أخبار المهدي، ص 40.
د. عز الدين موسى، م. س. ص 139.

(27) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 447، 465.

(28) ابن سعيد: م. س. جـ 2، ص 117، المقري: م. س. جـ 3، ص 232.
ابن عذاري: م. س. جـ 4، ص 74، ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 1، ص 437.

أما نظام الإقطاع[29] فاتبعه المرابطون منذ بداية حركتهم إذ كانوا يقطعون قبائلهم ما يفتحون من أراضي المغرب، وعندما ضموا الأندلس لجأوا إلى نفس النظام، ويبدو أنه كان إقطاع تمليك، إذ شجع كثيراً من الناس على إحياء الأرض الموات حتى يمتلكوها إقطاعاً مما جعل أبو محمد عبد الله بن مالك الطَغْنَري الغرناطي صاحب مستخلص الأمير يوسف بن تاشفين بالأندلس يحدد ما يقطع تمليكاً أو إمتاعاً أي اغتلالاً حتى لا يختلط الأمر على المنتفعين بالإقطاع قائلاً: «وإنما نبهناك على هذه الأرضين لأن بعض الناس لا يعملون ذلك غالباً، فيتعبون ثم يقوم عليهم الإمام فيأخذ ما بأيديهم ولا يظفرون بطائل»[30]. وكان المنتفع أساساً من الإقطاع الجند المرابطي والفقهاء، وحرم الحكام السابقون ما عدا الأمير عبد الله بن بلقين وأخوه تميم[31]. ويبدو أن هذه السياسة الإقطاعية تسببت في تقلص أراضي الدولة في عهد الأمير علي بن يوسف[32].

---

(29) لا بد من الوقوف قليلاً عند معنى هذه الكلمة الإقطاع أو القطاعي، فكثيراً ما حدث الخطأ والخلط بينها وبين ما يسمى بالإقطاع في أوروبا، وهي كلمة من نفس الاشتقاق، فالقطيعة أرض تقتطعها الدولة من أملاكها وتمنحها دونما تحديد للمدة في غالب الأحيان إلى رجل مسلم يمارس فيها عملياً جميع امتيازات المالك ولكنه يتحمل أيضاً جميع أعباء المالك المسلم، أي أن له فيها حقوق المالك وليس له فيها أي حق من حقوق السيادة، وهو ملتزم باستثمار الأرض أو «إحياء الأرض الموات» وهذا لا يعني أن يعمل فيها شخصياً، بل عليه أن يعهد بها إلى أناس قادرين وفي شروط مناسبة وإلا نزعت منه الأرض ومنحت لينتفع آخر يحسن استثمارها. كذلك يخضع المالك لإشراف الإدارة والدولة وهو إشراف نظامي على شؤون القطيعة كما هو الحال في أي ملكية، كما أنه ملتزم بأداء العشر الواجب على كل مسلم، وقد تكون القطيعة أحياناً أرضاً واسعة جداً، وأحياناً أخرى محددة بجزء من القرية أو بأحد عقارات المدينة مما يكفي صاحب الامتياز حتى يعيش عيشة شريفة.

وبذلك نرى أن الإقطاع الإسلامي لا يشبه أبداً الإقطاع المعروف في أوروبا قديماً، والذي كان صاحبه حراً من كل ضريبة، وقادراً على ممارسة السلطة الإدارية فيه، وإذا نحن التمسنا شبهاً للقطيعة من القانون الموروث عن التقاليد والأعراف الرومانية القديمة. لوجدناه في الإجارة الحكرية ونظراً لتماثل الأعباء المالية، كانت القطيعة والملكية الإسلامية تابعتين لديوان الضياع في إدارتهما المالية المشتركة، وهو يختلف عن ديوان الخراج المكلف فقط بأراضي الخراج.

انظر كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب العربية، المجلد الأول، ص 178 والمراجع المذكورة في نفس الكتاب.

(30) الطغنري: زهر البستان [و 15].

(31) ابن خلدون: العبر، جـ 6، ص 181.

(32) د. عز الدين موسى: م. س. ص 142، 143.

وأقطع الأمير ابن مردنيش أمير الشرق حلفاءه النصارى الإقطاعات الكبيرة، فأقطع بيدرو أثاجرا Pedro Ruiz de Azgra مدينة شنتمرية ابن رزين مع سائر مرافقتها وأراضيها[33].

وسمي الإقطاع في عهد الموحدين بالسهام[34] أو السهوم[35] وكان الإقطاع في بداية الدعوة تمليك إذ كانت الثورة في بدايتها، فأقطعوا البلاد المفتوحة لقبائلهم على أسس قبلية، غير أن النظرة إلى الإقطاع تغيرت بعد قيام الدولة إذ أصبحت الغاية من الإقطاع دفع جزء من الرواتب[36] أو تسكيناً[37] أو تأليفاً[38] أو لقاء خدمة[39] أو هبة[40]. والإقطاع الموحدي غالباً ما كان مزارعة أو مشاركة لأن هذا يتفق ونظرة الموحدين للملكية بعد قيام الدولة بمعنى أن الدولة دخلت شريكاً إقطاعياً مع الملاك الأصليين لها حصة من دخل الأرض، وكان الإسهام أو الإقطاع يسجل في ظهير أو صلة، ولم يرد شيء عن الوراثة فيه وقد ينزع ويقيد ضمن المستخلص[41].

وأما الملكية الخاصة فهي إما عن طريق الإقطاع أو الهبة من الدولة، أو عن طريق الشراء أو الإرث، واختلف وضع الملكية الخاصة زمن الاستقرار والأمن عنه في زمن الفتنة والاضطراب، وقد رافق الاستقرار السياسي في عهد المرابطين والموحدين

---

(33) Codera, Op. Cit., P. 114.

(34) يقول ابن الخطيب أن: «ابن همشك أقطع سهاماً لها خطر» الإحاطة، جـ 1، ص 311، المراكشي: م. س. ص 211.

(35) البيدق: م. س. ص 39.

(36) كان الجند الموحدي يعطى إلى جانب راتبه الذي يسمى «البركة، الإحسان، المواساة، الجامكية» إقطاعات تمثل جزءاً من راتبهم.
المراكشي: م. س. ص 290.

(37) قد يقطع الموحدون من يخشون فتنته تسكيناً لنفسه واستجلاباً لطاعته كما فعل عبد المؤمن مع رؤساء بني هلال وما فعله المنصور مع أعمامه عندما تلكأوا في البيعة له ثم استجابوا.
المراكشي: م. س. ص 225، 265.

(38) ن. م. ص 199، 200، 217، 211، 250، 253.

(39) ابن القطان: م. س. ص 137، ابن عذاري: م. س. ص 81.

(40) المقري: م. س. جـ 3، ص 419.

(41) ابن عذاري: م. س. ص 225.

إقبال الناس على شراء الأراضي والضياع والعقار واستثمارها بل شجع هذا الاستقرار بعض الأسر الأندلسية على اقتناء الدور والضياع بالمغرب[42].

ومن الملاحظ أن الملكيات الخاصة في الأندلس كانت ملكيات كبيرة خلاف ما كانت عليه في المغرب[43] فقد يملك شخص قرية أو بعض قرية أو ضيعة أو أكثر، وفي أحيان تكون الملكية موزعة في عدة أماكن بسبب الإرث[44]، وإن كانت الشفعة والمعاوضة تجمعان ما يفرق[45].

ولم تقتصر الملكيات الكبيرة على الرجال فكانت هناك نساء امتلكت أراضي كثيرة إما عن طريق الميراث أو الشراء[46] أو الصداق[47].

وملك بعض المتصوفة الكثير من العقار والضياع[48] كابن المنذر، وابن الحاج اللورقي، وأبو بكر أحمد بن محمد بن سفيان.

وفي زمن الفتنة التي أعقبت سقوط المرابطين، وما تبع ذلك من اضطراب

---

(42) مثل أسرة بني عشرة في سلا (د. محمد بنشريفة: أسرة بني عشرة، مجلة البحث العلمي عدد 10 سنة 1967) وأسرة ابن وجاد في الرباط (ابن صاحب الصلاة م. س. ص 446، 447)، ابن حسان القضاعي في فاس (الذيل والتكملة قسم 5 سفر 1، ص 90) وأسرة الفهمي بمراكش (الذيل والتكملة قسم 5، سفر 1، ص 400).

(43) كانت الملكيات الخاصة في المغرب صغيرة إذ تكثر الإشارة إلى ملكية فدان، وتسمى المزرعة فداناً، وتقدر الملكية في المغرب بالفدادين ومن النادر أن ترد مثل هذه الإشارات عن الأندلس.

انظر د. عز الدين موسى: م. س. ص 150 والمصادر التي اعتمد عليها.

(44) بلغ ما يحرث من ضياع ابن المناصف (ت 536 هـ/ 1141 م) ثمانِ مائة زوج (ألف وستمائة فدان) ابن سعيد: م. س. جـ 1 ص 163.

واشترى ابن رواحة جزء 1 من أرض ابن منظور في إشبيلية تبلغ مساحتها ثمانمائة مرجع، ودفع ثمنها ثلاثة آلاف مثقال ـ ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 466. وبلغ ثمن ما بيع من أراضي ابن سفيان أربعة وعشرون ألفاً سوى ما أغفل ولم يكتب، وبعد ذلك جعل من أملاكه الباقية وكيلاً للفقراء.

الضبي: بغية الملتمس، ص 156، 157.

(45) الونشريسي: م. س. جـ 8.

(46) ن. م. جـ 5، 7، 8، 9.

(47) ن. م. جـ 3، جـ 4، جـ 6.

(48) التادلي: م. س. ص 111، 133، 433، ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 248، 249.

ابن الأبار: الحلة، جـ 2، ص 197، 202، المعجم، ص 214، الضبي: م. س. رقم 1005.

للأمن، كثر الاستغلال والتعدي على الأراضي ويتبين ذلك من كثرة النوازل في موضوع الغصب[49] وبيع المضغوط[50] ومسائل الرهن[51] وبيع الغبن[53].

وتغلب زعماء الفتنة على أملاك الناس، وصاروا من أكبر الملاك بعد أن كانوا لا يملكون شيئاً مثل ابن ملحان[53]، وابن عزون[54] وابن مردنيش[55] وابن همشك[56].

ولجأ ضعفاء الناس إلى بيع أراضيهم بسعر زهيد وانتهز هذه الفرصة بعض الأشخاص واشتروا أملاك الكثيرين وهو ما سماه ابن خلدون «حوالة الأسواق»[57].

بينما احتفظ البعض بأرضه عن طريق الإنزال، فينزل شخصاً مكانه في ملكه، فيعتمر الأرض على كراء، ويكون الإنزال على فائدة المال دون رقبته، ويبدو أن المنزلين كانوا من أصحاب النفوذ إذ كثيراً ما يمتنعون عن دفع الكراء[58].

وباستيلاء الموحدين على الأمور وعودة الاستقرار أقبل الناس على شراء الأرض واستثمارها سواء في الأندلس أو المغرب[59].

وشكلت أراضي الأحباس مساحات كبيرة[60]، وانتشرت في الأندلس والمغرب. وأصول هذه الأراضي غالباً من الملكيات الخاصة وحدها، وتحبس لأعمال الخير، خصوصاً تأسيس المساجد وإصلاحها وعلاج المرضى وتزويج

---

(49) الونشريسي: م. س. جـ 9.

(50) ن. م. جـ 6.

(51) ن. م.

(52) ن. م. جـ 5.

(53) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 246.

(54) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 225، 226، ابن الأبار: الحلة جـ 2، ص 242.

(55) عبد الواحد المراكشي: المعجم، ص 249.

(56) ابن عبد الملك: م. س. سفر 5 قسم 2، ص 660.

(57) ابن خلدون: المقدمة ص 870، 871.

(58) الونشريسي: م. س. جـ 6.

(59) انظر الصفحة السابقة الهوامش.

(60) كان دخل أحباس مسجد القرويين عام 528 هـ/ 1134 م أكثر من ثمانين ألف دينار مرابطي (روض القرطاس، ص 59) وجدد عام 538 هـ/ 1140 م بمبلغ ثلاثة آلاف دينار وثمانمائة دينار وسبعة أعشار دينار فضة من الأحباس (الجزنائي: زهرة الآس، ص 56).

اليتامى، وافتكاك أسرى المسلمين، وخدمة الحرمين وما إلى ذلك، كما حبس البعض أراضيه على عقبه وذريتهم[61]، أو لشعراء[62]، ومع انتشار التصوف كثر التحبيس للصوفية وزواياهم[63]، ولم تقتصر الأحباس على المسلمين، بل حبس المعاهدون الأراضي الواسعة على الكنائس والبيع[64].

والتزم المرابطون وفقهاءهم بعدم المساس بالأحباس، فلا يجوز تحويل الأحباس عن الغرض الذي خصصت من أجله، ولا يسمح لأحد بالاستيلاء عليها أو إدخال شيء من منافعها في حوزته[65]، أو أخذ مال حبس على مسجد لإصلاح آخر وإن كان على وجه السلف[66]، وشددوا على ذلك حتى أنهم ذهبوا إلى عدم جواز المعاوضة فيها، أو المغارسة إلا بحكم القاضي، وإن أجازوا المزارعة فيها لأن أجل المزارعة قصير ومدة المغارسة طويل[67].

غير أنه في آخر عهد المرابطين كان بعض الوكلاء على الأحباس يأخذون من دخلها دون وجه حق[68]، وتحايل البعض لامتلاك أراضي الأحباس بكرائها مدداً طويلة تصل إلى الخمسين عاماً[69].

ويبدو أن الموحدين ضموا أموال وأراضي الأحباس للمخزن[70] (للدولة) ولم

---

(61) انظر الونشريسي: جـ 7، 8، ابن رشد: البيان والتحصيل، جـ 12.

(62) انظر المعجب ص 215 عن رجل حبس أرضاً في شلب على الشعراء تغل مائة دينار مرابطي في العام.

(63) الونشريسي: م. س. جـ 7، ص 114.

(64) ن. م. جـ 8 بشأن القضايا المترتبة عن تغريب المعاهدين.

(65) ن. م. جـ 7.

(66) ابن رشد: نوازل (مخ) [و 23]، الونشريسي، م. س. جـ 7.

(67) الونشريسي: ن. م. ص 59.

(68) ابن أبي زرع: م. س. ص 590.

(69) ابن رشد: م. س. [و 19].

(70) عندما ولى ابن هود القاضي محمد بن الحسن النباهي (ت 631 هـ/ 1234 م) قضاء غرناطة كلفه النظر في الأحباس واسترجاع ما ضمه الموحدون إلى المخزن.
النباهي: المرقبة العليا، ص 113.
ويذكر ابن أبي زرع (ص 61) أن إصلاح مسجد القرويين تم من بيت المال عام 571 هـ/ 1175م مع أن أحباس مسجد القرويين كانت كثيرة كما ظهر في عهد المرابطين عند إصلاحه في عامي 528 هـ، 538 هـ (الجزنائي، م. س. ص 66).

تعد مستقلة كما كانت في عهد المرابطين، وفرضوا عليها الضرائب[71].

وبعد هذا الاستعراض الموجز لحالة وضعية الأرض في عصر المرابطين ومستهل الموحدين، نتطرق إلى الزراعة.

اشتهرت الأندلس بخصب تربتها وكثرة أنهارها وتنوع تضاريسها، ونشاط أهلها وكان لضم الأندلس إلى المغرب أثره الكبير في استقرار الحالة الأمنية التي تساعد على الإنتاج.

فاهتم المرابطون بالزراعة اهتماماً كبيراً، وساعد على ذلك مهارة أهل الأندلس في الفلاحة، وخبرتهم بالأرض، واستنباطهم الأنواع الجديدة، والمختلفة المتعددة من الفواكه والحبوب والقطاني والبقول[72]. وبفضل علم الفلاحة والتأليف فيه[73]. تطورت الزراعة وعرفت طرقاً عديدة لمعالجة أمراض النباتات والقضاء على آفاته.

وقبل دخول المرابطين الأندلس، مرت بالمزارعين وملاك الأراضي الزراعية كثير من المصاعب والعراقيل بسبب سيطرة الدولة على الإقطاعيات الكبيرة، وكثرة الضرائب التي يحصلها أمراء الطوائف بسبب الحروب المستمرة، والفتن التي لا تكاد تنقطع، وكان المنصور ابن أبي عامر قد انتزع الأراضي والإقطاعات الممنوحة من أصحابها، وفرض عليها الجباة، وتولت الدولة إدارياً الإشراف عليها، فلم يحسن العمال معاملة الناس، بل ساموهم (الخسف، وأثقلوا عليهم فضعف إنتاجهم، فتهاربوا وكفوا عن العمارة، فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان، وضعفت الأجناد[74].

وعندما ضم المرابطون الأندلس، إلى العدوة لجأوا إلى النظام القديم الذي كان معمولاً به في الأندلس قبل الحاجب المنصور بن أبي عامر وخلفائه، وهو نظام

---

(71) انظر التشوف ترجمة 118، ص 270 قضية إصرار عامل الموحدين في أغمات على كتابة الأحباس في زمامه ونزعها من القاضي أبوحفص عمر لفرض الضرائب عليها رغم محاولة القاضي منعه من ذلك.

(72) المقري: نفح الطيب جـ 1 ص 147.

(73) ظهرت كتب ابن بصال وابن أبي خير الإشبيلي، وابن العوام، وابن لبون، وحمدون الإشبيلي والطغنري.

(74) الطرطوشي: سراج الملوك ص 123.

الإقطاعات الزراعية التي تمنح للجند أو غيرهم، مقابل خدمات يؤدونها للدولة، يقول الطرطوشي[75]: «وكان هؤلاء يشغلونها ويرفقون بالفلاحين، ويربونهم كما يربي التاجر تجارته، فكانت الأرض عامرة، والأموال وافرة، والكراع متصلة، والسلاح فوق ما يحتاج إليه».

وشجع المسؤولون في الدولة الفلاحين على الحرث والفلاحة إذ هي العمران ومنها العيش كله والصلاح جله، وفي الحنطة تذهب النفوس والأموال، وبها تملك المدائن والرجال، وببطالتها تفسد الأحوال، وينحل كل نظام[76]، وكثرت الأمثال العامية التي تشجع على الزراعة وامتهان حرفة الفلاحة، ومعرفة الأوقات المناسبة لزراعة محصول معين[77].

وساعد على ازدهار الزراعة، خصوبة أرض الأندلس، وكثرة مائها، لوجود عدد كبير من الأنهار والوديان والعيون، قليلة الهوام ذات السموم، معتدلة المناخ معظم شهور السنة[78]. مما مكن من زراعة أنواع متعددة طوال العام[79].

كانت الحبوب من قمح وشعير وبقول من أهم المحاصيل الزراعية التي اعتنى الأندلسيون بزراعتها، واشتهرت غرناطة بزراعتها لخصب أرضها، وكثرة أنهارها وعيونها حتى أنها وصفت بكونها «بحر من بحور الحنطة، ومعدن للحبوب المفضلة»[80] وزرعت هذه الحبوب بكثرة في منطقة جيان[81]. وكانت مزارع القمح والشعير وغيره من الحبوب تمتد لمسافات طويلة في شرق الأندلس في نواحي أبدة ومرسية وألمرية، وشبهت قسطيلية حاضرة ألبيرة، وفحصها بغوطة دمشق لخصبها

---

(75) ن. م.

(76) ابن عبدون: رسالة في الحسبة ص 5.

(77) يقولون: «يا رايدين العصير، أي كنتم وقت الزبير»، «هذه هي الصيف، من حب لقط، ومن حب رقد»، إذا رأيت الضباب أبشر بالطياب»، «الفول إذا نور، شهرين يدور».

الزجالي: أمثال العوام: تحقيق د. محمد بنشريفة، أرقام 83، 1943، 56، 349.

(78) المقري: م. س. ص 140.

(79) يقول ابن الخطيب: ومن كرم أرضنا أنها لا تعدم زريعة بعد زريعة، ورعياً بعد رعي طول العام، ابن الخطيب: الإحاطة جـ 1 ص 96.

(80) ن. م.

(81) الحميري: الروض المعطار، ص 183.

ووفرة زراعتها[82]. وفاقت شنترين من مدائن الأشبونة على نهر التاجة الجميع في جودة القمح والشعير اللذان يزرعان بها، فينموان في مدة قصيرة ويمتاز بوفرة إنتاجه[83]. أما منطقة الغرب فتميزت منطقة يابرة والقصر من أعمال شلب بكثرة محاصيلها من الحبوب والبقول[84].

ولم يقتصر الاهتمام على زراعة الحبوب والبقول، بل تعداه إلى زراعات أخرى مثل زراعة الزيتون، واشتهرت منطقة الشرف بإشبيلية بزراعة الزيتون، وكثرة إنتاجه، والشرف تل عالٍ من تراب أحمر يمتد لمسافة أربعين ميلاً، يمشي فيه السائر في ظل الزيتون والتين، وكثرت زراعته أيضاً في منطقة غرناطة[85].

أما قصب السكر فكان يزرع بكثرة في الجهة الشرقية من إشبيلية فيما يعرف بجنات المصلى[86]. وجادت زراعته في سواحل الأندلس بصفة عامة، هو والموز «المعدومان في الأقاليم الباردة»[87]. وزرع بكثرة في شرق الأندلس في منطقة ألبيرة[88].

وزرع الكتان والقطن في فحص غرناطة، وزرع في شرف إشبيلية فجادت زراعته، ووفر محصوله[89].

وكان هناك اهتمام خاص بزراعة أشجار التوت لتربية دود الحرير، فكثرت زراعته في مناطق كثيرة خصوصاً في جيان وغرناطة وشرق

---

(82) ابن الخطيب: م. س. ص 98.

(83) الإدريسي: نزهة المشتاق ص 550.

السلفي: تراجم وأخبار أندلسية، ص 40.

(84) الإدريسي: م. س. ص 544.

(85) ابن بطوطة: الرحلة، ص 669.

الحميري: م. س. ص 19.

المقري: م. س. ص 152.

(86) الحميري: م. س. ص 59.

(87) المقري: م. س. ص 200.

(88) ابن الخطيب: م. س. ص 98.

(89) ن. م. ص 96.

الحميري: م. س. ص 59.

الأندلس[90]، وذكر الإدريسي[91] أنه حول بجانة جنات التوت وبساتين ومتنزهات وكروم وأموال كثيرة لأهل ألمرية.

وتعددت بالأندلس أنواع أشجار الفواكه، وكان الاهتمام كبيراً بمعالجة أصنافها والعناية بها ضد أمراض النباتات، فكثرت بها الجنان والبساتين والحدائق، حتى لقد اشتهرت بها أنواع من الفواكه لا يوجد لها نظير من ناحية حلاوة الطعم وذكاء الرائحة حتى الحدائق الصغيرة بالمنازل لم تكن تخلو من بعض أشجار الفاكهة فكانت بساتين التين القوطي والتين الشعري بإشبيلية ممتدة على طول الشرف، ويصفهما ابن سعيد[92] بقوله: «وهذان صنفان لم تر عيني ولم أذق لهما منذ خرجت من الأندلس ما يفضلهما» وكان يضرب المثل بتين مالقة وبحسنه[93].

وكثر إنتاج الفواكه من الرمان والخوخ والجوز واللوز والكمثري والتفاح والعنب وكثرت أنواعها وأشكالها، فكان الرمان الذي لا نظير له يزرع في مرسية والمنكب. وفي كورة بلنسية تزرع كمثري تسمى الأزرة في قدر حبة العنب قد جمع مع حلاوة الطعم، وذكاء الرائحة، حتى إنه إذا دخل داراً عرف بريحه[94]، وامتاز تفاح شنترين بكبر حجمه وجودة مذاقه[95].

(90) ابن الخطيب: م. س. ص 96.
الحميري: م. س. ص 183.
الإدريسي: م. س. ص 556.
(91) ن. م.
(92) المقري: م. س. ص 200.
(93) يقول أبو الحجاج يوسف بن الشيخ البلوي المالقي في تينها:

مـالـقـة حـيـيـت يـا تـيـنـهـا ... الـفـلـك مـن أجـلـك يـأتـيـنـهـا
نـهـى طـبـيـبـي عـنـه فـي عـلـتـي ... مـا لـطـبـيـبـي عـن حـيـاتـي نـهـى

وذيل عليه الإمام الخطيب أبي محمد عبد الوهاب المنشي بقوله:

وحـمـص لا تـنـسـى لـهـا تـيـنـهـا ... واذكـر مـع الـتـيـن زيـاتـيـنـهـا

انظر: ابن بطوطة: م. س.٠ص 669.
انظر: الحميري: م. س. ص 179.
انظر: المقري: م. س. ص 151.
(94) الإدريسي: م. س. ص 556.
المقري: م. س. ص 179، 200، 164.
ابن الخطيب: م. س. ص 98.
(95) السلفي: م. س. ص 40.

كما بلغ الاهتمام بزراعة أنواع كثيرة من الأفاوية حتى أنها بلغت خمسة وعشرون صنفاً منها السنبل، والقرنفل، والصندل والقرفة والعود والزعفران وغيرها[96]، وكانت مستغلات الزعفران كثيرة في منطقة بياسة[97].

وارتبطت بالزراعة وخصوبة الأرض الرعي والاهتمام بالماشية وتربية الأغنام، والعناية بالإبل والبغال والحمير والخيل، واشتهرت عدة مناطق بالرعي، منها منطقة بيرة الخصبة، التي بلغ من اتساع مراعيها أنه كان يقصدها العير من مرسية وأحوازها[98] وكانت السائمة لا تعدم في فحص بسطة الخصيب رعياً ولا رياً[99]. وفي قرى الأندلس تربى الفحول من الحيوان الحارث لآثار الأرض، وعلاج الفلاحة[100]. وبغال الأندلس فارهة، وخيلها ضخمة الأجسام، فهي حصون للقتال لحملها الدروع، وثقال السلاح، أما خيل الجنوب فتمتاز بسرعتها في العدو[101]، وكثرت المراعي في منطقة جبل الشارات، يقول الإدريسي[102]: «وفي هذا الجبل من الغنم والبقر الشيء الكثير، الذي يتجهز به الجلابون إلى سائر البلاد، ولا يوجد شيء من أغنامه وأبقاره مهزولاً، بل هي في نهاية السمن، ويضرب بها في ذلك المثال في جميع أقطار الأندلس، كما تميزت منطقة شلب خصوصاً في منطقة القصر بوفرة مراعيها التي ترعى بها الماشية التي تدر كمية كبيرة من الألبان»[103].

تدهور الزراعة في سنوات الفتنة وبداية حكم الموحدين:

غير أن هذا الازدهار في الزراعة عرف نوعاً من التدهور في آخر عهد المرابطين لحاجة الدولة إلى المال لمدافعة ثورة المهدي بن تومرت، والموحدين في المغرب والنصارى في الأندلس، فزادت الضرائب على الفلاحين، وتعسف الجباة والخراص

---

(96) المقري: م. س. ص 199.
(97) الإدريسي: م. س. ص 569.
(98) المقري: م. س. ص 199.
(99) ابن الخطيب: معيار الاختيار ص 204.
(100) ن. م. ص 109، 124.
(101) المقري: م. س. ص 199.
(102) الإدريسي: م. س. ص 552.
(103) ن. م. ص 544.

في جباية أعشار ثمار الزيتون والزروع، مما جعل كثير من الفلاحين يهملون زراعاتهم، ويهجرون ضياعهم في منطقة الشرف التي تعتمد على زراعة الحبوب والزيتون، وكثرت شكايات أهل مالقة وأحوازها التي تعتمد على زراعة الكروم والتين، حتى أنهم ألفوا من بينهم وفوداً توجهت بظلاماتها إلى مراكش لعرض الأمر على الأمير علي بن يوسف نفسه، فأصدر أوامره إلى القضاة لبحث هذه الشكاوى والتحري عنها والعمل على إزالة أسبابها فيقول: «وقد تجمعت الآن بهذه الحضرة عصائب الشاكين وكثرت رقائع المتظلمين»، فوكلنا ذلك إلى قضاة البلدان وألزمناهم القيام به، والفحص عنه في الحين[104].

وصورت كتب الحسبة الحالة التي أصيبت فيها الزراعة بالركود وإهمال المزارعين ونصح ابن عبدون الحكام بأن يأمروا الناس بالحرث، والرفق بالفلاحين وحمايتهم في أعمالهم، لما في ذلك من النفع للدولة وللناس[105].

وزاد الطين بلة أن الأندلس تعرضت عدة سنوات متتالية لغارات الجراد التي أتت على معظم المحصولات الزراعية، وأتلفت الخضروات وغيرها وقد أعلمنا ابن القطان[106] بالسنوات التي فتك الجراد فيها بحقول الأندلس الخصبة، وهي ما بين سنة 537/541 هـ (1132، 1136 م) فأكثر من أربع سنوات محا فيها الجراد ما على الأرض من زرع وكلأ، أضر بالبلاد ضرراً جسيماً، أثر على معاش الناس، ودخل الدولة. بحيث أصبحت هذه الأضرار التي سببها الجراد من المشاغل المهمة لدى المرابطين فأولتها اهتماماً خاصاً، كما يبدو من الرسالة التي بعث بها الأمير علي بن يوسف إلى ابنه الأمير تاشفين ولي عهده والأمير على الأندلس، يحض فيها على قتل الجراد، ويطلب من الجميع مكافحته فيقول: «فأخرجوا له الجم الغفير، ولا يتخلف الكبير منهم ولا الصغير، ولا يأوى أحد منكم فراشه حتى تحرقوا فراشه، وتبيدوا آثاره»[107].

(104) د. محمود مكي: وثائق تاريخية رقم 4، 171.

(105) ابن عبدون: م. س. ص 5.

(106) ابن القطان: م. س. ص 197، 200، 226.

(107) د. محمود مكي: م. س. وثيقة 19 ص 188.

وأمر الأمير تاشفين بن علي الناس بالخروج إليها، فساقوا منها خمسة آلاف عدل وثلاث مائة وثلاثين عدلاً، وما غاب عن العيون أكثر، تركت في الموضع الذي قتلت فيه ولم تحمل[108]، وتحدثت أمثال العوام عن هذه الكارثة، وأصبح الناس في حالة قلق نتيجة غارات الجراد المتعاقبة[109].

وأعقبت هذه السنوات، سنوات أخرى من الجفاف، وعدم سقوط الأمطار، حتى تشققت الأرض، وجفت الآبار، وعدمت الزراعة تقريباً. ووصف هذه الحالة ابن عذاري بقوله: «وأجدبت الأرض حتى جفت مذابتها، واغبرت جوانبها، وقلت المجابي، وكثرت اللوازم على الرعايا بالعدوتين»[110]، كما صور ابن قزمان[111] حالة الجفاف وعدم سقوط الأمطار في الشتاء، وجفاف الآبار، حتى ليرى الإنسان قاع البئر إذا وقع فيه شيء.

وإذا كانت حالة الزراعة قد وصلت إلى هذه الدرجة السيئة في آخر عهد المرابطين، ولا زالت الحكومة المركزية قائمة. فما بالها وقد انفرط عقدها وتفككت وحدتها، وانتزى كل ثائر بمدينة، فبرغم ندرة المصادر التي تشير إلى هذه السنوات العجاف، فهناك رسالة مهمة معاصرة لأحداث الثورة تصف ما آلت إليه البلاد، وترجع أهمية هذه الرسالة في أنها كتبت بقلم أحد المشاركين في الثورة والمحرضين عليها، بل كان يمثل الجانب الدعائي للمريدين وهو «ابن القابلة»[112]. والرسالة موجهة منه إلى الأمير أبي زكريا يحيى بن غانية يقول فيها: «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت

---

(108) ابن القطان: م. س. ص 217.

(109) يقولون: «الجراد برى اللحم» «وكل شيء حشيش حتى يحصل فالبليش» والبليش القفة الكبيرة يحفظ فيها الخبز والدقيق وما أشبه ذلك.

الزجالي: م. س. رقم 225، 1083.

(110) ابن عذاري: م. س ص 12.

(111) يقول ابن قزمان رقم 68 ص 438.

الصحو والشمس يقلي — والسما أزرق مزجج
وربع بثلث مشقال — أش أردت أنا تزوج
الهوى أنسُ — لا ريحا غربي ولا نو
لو وقع خاتمك في البير — كتراه من كثرة الضو

(112) ابن سعيد: المغرب جـ 1 ترجمة 252، ص 351.

أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون، وأنه قد عم الرزايا والمصائب، وشملت الفتن المشارق والمغارب، وهلك فيها. إلا ما شاء الله الشاب والشايب، وعادت زاهرات الأمصار موحشة خرائب، وعامرات الأقطار سباسب.

وزاد في خراب الأرض والديار توالي هجمات ألفونسو ملك قشتالة وغيره من ملوك النصارى، كل على الأرض المجاورة له، فخربوا القرى، وانتسفوا الزروع، وقد أغرت الغنائم النصارى على تكرار الهجمات، فقام ملك قشتالة بالإغارة على الأودية الكبيرة الخضراء، وأثخنوا في الحقول والحدائق والقرى، والناس والدواب، وأضرموا النار في المحاصيل، وامتد هذا العبث الذي كانت تقوم به في مختلف الأنحاء السرايا الخفيفة من الفرسان فيما بين قرطبة، وإشبيلية[113].

واشتد هنريكيز ملك البرتغال على ما جاوره من أراضي الغرب، فدأبّ على العبث بالأراضي وتخريب بسائطها، وإتلاف مزروعاتها، وتشتيت أهلها[114].

لم ينجُ في هذه الفترة من هذا الخراب والتدمير غير منطقة وادي آش، وبعضاً من مناطق الشرق، فكان ابن ملحان الطائي المترأس لوادي آش خبيراً بالزراعة، وأساليبها، فاستغل خبرته في إنعاش الحالة الزراعية بإماراته وتولى فلاحتها بنفسه، يقول ابن الخطيب[115] فاقتنى الضياع الواسعة وتولى فلاحتها، وحرثها بنفسه حتى غدا من أغنى أهل زمانه.

أما منطقة الشرق وهي إمارة محمد بن مردنيش والتي امتدت من أحواز طرطوشة شمالاً حتى أحواز قرطاجنة ولورقة جنوباً، فقد كانت منطقة غنية بزروعها، غير أن ابن مردنيش فرض ضرائب كبيرة على الأراضي الزراعية حتى أصبحت منتوجاتها تفي بدفع ما عليها من قبالات مما أجبر العديد من الفلاحين وصغار الملاك على ترك مزارعهم وضياعهم والهرب عنها، فما كان من ابن مردنيش إلا أن أصدر قانوناً يبيح

(113) ابن القطان: م. س. ص 197.
أشباخ: م. س. ص 173.
(114) ابن عذاري: م. س. ص 53.
(115) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 264، الإحاطة جـ 2، ص 89.

للمخزن أي الدولة الاستيلاء على المزارع التي يتركها أصحابها وتصبح ملكاً للدولة، مما أضر كثيراً بالفلاحة والأراضي الزراعية وفلاحيها[116].

ومع دخول الموحدين الأندلس زاد التدهور في الزراعة، وخربت الأرض، وهجرها أهلها بسبب الحروب المتصلة سواء الثوار بعضهم البعض، أو بسبب هجوم النصارى المدمر للمحاصيل خصوصاً وقت الحصاد أو نتيجة هجوم الموحدين. فالنصارى عندما علموا بوصول الموحدين أثناء استيلائهم على قرطبة، لم يتركوا المدينة إلا بعد أن دمروا كل ما وصلت إليه أيديهم في طريقهم من قرى ومزارع حتى أقفرت الأرض وعم البلاء العظيم[117].

ومما زاد في خراب السهول الخصبة الممتدة بين إشبيلية وقرطبة إلى غرناطة توالى هجمات ابن همشك قائد ابن مردنيش في وقت قرب نضج المحصول حتى قضى على الأخضر واليابس مدة سنوات متتالية فعمها الخراب وهجرها أهلها[118] وذاقت قرطبة وأهلها من سوء الفتنة ما لم يـذقه أحـد من أوائلهم في الفتنة الحمودية[119].

وقد بلغ الزجال ابن قزمان[120] درجة كبيرة في إتقان تصوير الحالة الزراعية

---

(116) ابن الخطيب: م. س. جـ 2، ص 124.

(117) ابن عذاري: م. س. ص 42، 43.

(118) ن. م. ص 74.

(119) الفتنة الحمودية نسبة إلى بني حمود بن ميمون من الأدارسة الذين انتقلوا إلى الأندلس واشتركوا في الأحداث بعد سقوط الخلافة الأموية.

ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 128، 137.

(120) يقول ابن قزمان (زجل 99 ص 672):

كف نرى خبز بنيج (البنيج = الذرة)
أسود أسود مثل بج (البج = الزفت)
في أدين بقطيج (بقطيج = لازج)
ودقيق حمص وفول

* * *

وسما مثل النحاس
ونفاق في كل راس

والمناخية والعامة ودخول الموحدين إلى الأندلس الذي زاد من تعقيد الأمور، فلم يعد يستطيع رؤية حتى خبز الذرة الأسود الذي لا يصلح في الإنضاج للزوجة، وانعدم حتى دقيق الحمص والفول، وأما السماء فهي صافية مثل النحاس لا تنذر بسقوط الأمطار فالصحو دائم والليل صافي مثل النهار حتى شهر مارس، وزاد السوء قيام الموحدين «صحب الجبل» ودخولهم الأندلس.

وقد وصف ابن صاحب الصلاة[121] الطريق من إشبيلية إلى شريش ومنها إلى الجزيرة الخضراء. وكانت هذه الطرق عامرة مزدهرة بالحقول الخصبة والبساتين فيقول: «وتلك النواحي كلها مقفرة لا سكنى بها ولا عمارة لقرب الفتنة المهلكة لأهل الأندلس»، ولم يعد به إلا القليل من الناس في خيمات وحانوت واحد كان سوقهم به، والأسود تزأر حواليه، والأرض موحشة قفرة أخلاها تهاريج الفتنة.

وشمل التدهور الزراعي منطقة الشرق الغنية بسبب مهاجمة الموحدين لأراضي ابن مردنيش، قصد ضمها لهم، فاجتاحوا الكثير من الأراضي الزراعية والمحصولات، واستباحوا المربضات والبساتين، وما اتصل من البسائط، والقرى، حتى وصلوا إلى ساحة مرسية حاضرة ابن مردنيش، فتتبعوا تلك الأصقاع بالتدمير

=

لس يج ماع نعاس
وبلا عرض وطول

* * *

وترى عاد ذا العمل
وقيام صحب الجبل
كل شي كان يحتمل
لو سلم هذا السبول

* * *

وصحوا والليل نهار
وشتا ضعيف صار
حق في مرس غبار؟
إنما فيه السيول

(121) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 202.

ابن عذاري: م. س. ص 43، 44.

والغارة على جنباتها، واستاقوا نعم أهلها، وتحكموا بالتطاول في وعرها وسهلها مدة أيام كثيرة[122]، حتى تم لهم الاستيلاء على إمارة ابن مردنيش.

وكان هذا الخراب الذي حل بالزراعة وفلاحيها، وغيرها من نواحي الحياة الاقتصادية سواء في الأندلس، أو العدوة، أن قلت أموال الجباية حتى لم تعد تكفي الموحدين مما أزعج الخليفة عبد المؤمن[123]، وجعله يقرر أتباع أسلوب جديد لتحسين الأوضاع وذلك بعد مسح الأرض وتقسيمها وعمل إحصاء للسكان[124].

---

(122) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 403.

(123) قال الخليفة عبد المؤمن عندما بلغته الشكاوى من قلة أموال الجباية «عجباً من هذا الأمر وسعته وقلة ما عندنا من المال على كثرة جمعته - كانت لمتونة إنما يملكون إلى تلمسان هذه، وكانوا ينصفون أخيارهم، ونحن الآن قد ملكنا ذلك وزائداً، وليس عندنا ما نعطي للموحدين هذا من أعجب العجب».

ابن عذاري: م. س. ص 68.

(124) انظر، الرسالة - الفصل الخاص بالنظم المالية.

الفصل الثاني

الصناعة

صناعة المنتوجات الزراعية: تجفيف الفواكه ـ صناعة الجبن والسمن العسل ـ عصر الزيت ـ صناعة الخمور والنبيذ ـ طحن الحبوب ـ صناعة الخبز ـ شروط عمل الخبز ـ أجر الخباز ـ مسؤولية الفران ـ شروط بيع الخبز ـ صناعة الأطعمة.

صيد الأسماك والحيتان ـ تصنيعها ـ استخراج العنبر ـ صناعة المحلى ـ والمعادن ـ استخراج المعادن ـ سبك المعادن ـ صناعة الأواني والقدور ـ والسكاكين والأمقاص ـ والقنوات والأنابيب ـ صناعة الزجاج ـ تصنيع الرخام ـ الأحواض ـ البيلات ـ التوابيت ـ صناعة المفصص (الفسيفساء) ـ صناعة المنسوجات الحريرية والصوفية والقطنية ـ صناعة البسط ـ أنواع المنسوجات الحريرية ـ صناعة الملابس الجاهزة ـ صناعة الفراء ـ صناعة الجلد ودباغته ـ صناعة الأثاث والأدوات المنزلية وأدوات البناء ـ صناعة الورق ـ المداد ـ تسفير الكتب ـ صناعة السفن ـ صناعة الأدوية والعقاقير وأدوات التجميل ـ تدهور الصناعة في وقت الفتنة وبداية الموحدين.

بلغت الصناعة أوجها في عهد المرابطين، إذ قامت عدة صناعات على الإنتاج الزراعي والحيواني، واستغلت المعادن الموجودة بكثرة في الأندلس في حركة التصنيع.

فبرع أهل الأندلس في استغلال المنتوجات الزراعية والحيوانية في صناعات عديدة، مثل صناعة الجبن والسمن، وتجفيف الفواكه، وتربية النحل لأخذ العسل. واختصت عدة مدن بصناعة الألبان، فكانت مدن قنتورية وأورية وجيان وشريش مشهورة بعمل الجبن، وتجهيز العسل[1]، وتفوقت شريش في صناعة المجبنات لطيب جبنها، وهي نوع من القطايف يضاف إليه الجبن في عجينها، وتقلى بالزيت الطيب، ويقول أهل الأندلس «من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم»[2].

ولكثرة إنتاج منطقة القصر وأحواز شلب من الألبان واللحوم، كان يصنع السمن الجيد، وتعالج اللحوم بطرق عدة لتستعمل مدة طويلة، كما انتشرت بها المناحل التي يجمع منها العسل بكميات وفيرة[3]، ومهر أهل منطقة أشبونة في تصنيع العسل ووضعه في أكياس من الكتان فلا يكون له رطوبة كأنه سكر[4]، وعسل الشرف يبقى مدة طويلة لا يتأثر فلا يترمل ولا يتبدل.

---

(1) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص 104، 105.

(2) المقري: م. س. جـ 1، ص 184.

(3) الإدريسي: م. س. ص 544.

(4) المقري: م. س. ص 152.

أما استخراج الزيت من الزيتون فتفوقت فيه مدينة إشبيلية حتى أن معظم تجارتها كانت تعتمد عليه[6]، وكان الزبد من مواد الترف دائماً بينما كان الزيت من مواد الغذاء العادية التي لا غنى عنها[7]. وكثرت معاصر زيت السمسم (الجنجلان) والخس، والكتان واللوز والقرطم[8]. وكان المحتسب ينهى عن عصر زريعة الكتان في معاصر الزيتون لئلا تعلق رائحته بالزيت[9].

ومهر أهل الأندلس في تجفيف الفواكه، وبرع أهل المنكب في تجفيف العنب وعمل الزبيب، وبلغت شهرة الزبيب المنكبي والزبيب العسلي مبلغاً كبيراً[10]، والزبيب كان يدخل في كثير من الأطعمة الأندلسية.

ومع أن المرابطين كانوا يشددون على منع الخمور وصناعتها، ويأمرون بكسر دنانها ومعاقبة شاربيها[11]، إلا أن صناعة الخمور والنبيذ على الخصوص كانت منتشرة في كثير من مدن الأندلس، فالأندلسيون تعودوا على شربها[12] ولم ينجح أحد من حكامها في منعها أو القضاء عليها[13]، فكانت تصنع سراً، برغم فتاوى الفقهاء[14] بوجوب إقامة الحد على من يعصر الخمر، ويبيعها للمسلمين.

---

(5) ن. م. ص 208.
(6) المقري: م. س. ص 159.
(7) ليفي بروفنسال: المدن والنظم المدنية في الغرب الإسلامي، ص 90.
(8) ابن عبد الرؤوف: في آداب الحسبة والمحتسب، ص 105.
السقطي: في آداب الحسبة ص 79.
(9) السقطي: ن. م. ص 68.
(10) المقري: م. س. ص 68.
(11) انظر رسالة الأمير تاشفين أمير المسلمين سنة 538 هـ إلى الفقهاء بشأن منع الخمر وكسر دنانها ومعاقبة صانعيها.
د. حسين مؤنس: م. س. وثيقة 1، ص 113.
(12) انظر، ديوان ابن قزمان وولعه الشديد بالخمر.
(13) انظر، رسالة الخليفة عبد المؤمن إلى الطلبة وأشياخ الموحدين سنة 543 هـ بسبب انتشار شرب الخمر.
ابن القطان: م. س. ص 161.
(14) انظر: فتاوي الونشريسي، جـ 2، ص 161، 416.
ابن عذاري: جـ 4، ص 93، 94.
ابن عبد الرؤوف: ص 95.

ولا شك أن عدداً كبيراً من العمال كان يخدم في الطواحين أي الأرحاء لطحن الحبوب وهي كثيرة توجد في المدن أو في ضواحيها، وتدار بالماء أو بالحيوان. ولم يكن من النادر أن يرتكب أصحاب هذه الطواحين بعض الغش بخلط دقيق عملائهم بأشياء غريبة، ويروي السقطي كيف يلجأ بعضهم في زمنه إلى غش الطحين بالجير أو بعظم السمك المطحون أو يخلط الدقيق الطيب بالرديء والمحجر بغيره[15].

وكان الأغلب في الأندلس شراء الخبز كل يوم من الفران، وهذا الخبز الذي يباع للناس له شكل ووزن محدد، لذلك كانت صناعة الخبز تحتاج إلى دقة من الخبازين لأنها تخضع لرقابة المحتسب في كل مرحلة من مراحلها، وكان من أنواع الغش الجارية أن يطلى الخبز من النوع الرديء قبل إدخاله الفرن بطبقة رقيقة من العجين من النوع الجيد، ويسمى هذا النوع بالخبز المكسي[16]، وأمر الخبازين بإنعام طبخ الخبز وألا يكثروا الماء عند العجن وينهون عن خلط البارد بالحار، ويفرقون بين الطيب وغيره، ويفصلون بين الخمير والفطائر، ويمنعون من رش الخبز قبل خبزه بالماء والعسل وبعد خروجه بالزيت، وينهون عن تقليل الملح فيه، ويمنعون عن تقريضه بالدقيق الطيب اللباب منه فذلك غش، ويطالبون بأن يفرقوا في أوزان الخبز، وينهون عن العجن بماء الحمام إذ لا تؤمن نجاسته وعن التدخين عليه بعد إدخاله الفرن بالنخالة وحطب الإستب ليحسن وجهه ويبدو شهياً للناظرين[17].

ويتقاضى الخباز لإنضاج الخبز المجهز في المنازل أجره عيناً وهو قطعة من العجين، وفي آخر النهار يجمع القطع المتجمعة عنده، ويصنعها خبزاً ويبيعه في السوق[18].

وكانت مسؤولية الفران لا تقل عن الخباز إذ وجب عليه عدم استخدام حطب الأزقة والمواضع القذرة لنجاستها وإضرارها بالخبز، كما يجب عليه عدم كشف الخبز قبل إدخاله الفرن حتى لا يسقط فيه ما يفسده، وإذا أدخل الخبز الفرن وجب عليه

---

(15) السقطي: م. س. ص 22.
ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 88.
(16) ليفي بروفنسال: م. س. ص 90.
(17) ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 90.
(18) ليفي بروفنسال: م. س. 90.

ملاحظته حتى لا يحترق، وعليه أن يميز بين خبز القمح وغيره، ويؤمر بخبز العجين البُيَّات، في وقته ولا يتركه حتى تجتمع ليخبزها فيغلب عليها الخمير، فتحمض وتتخلل، فإن خبزها عرفوا الناس عند بيعها أنه مما يقع في الفرن من البُيَّات[19].

والخبز في الأندلس يباع بالميزان ويباع في أماكن خاصة به وحده ويمنع من بيعه باعة الأسماك والجزارين، ولا يسمح ببيع الخبز في أماكن مجاورة للحرف القذرة كباعة السردين وأصناف الحوت والبياطرة والحجامين. وما أشبه ذلك[20].

وكان أهل الأندلس ولوعين بأكل اللقيمات المجهزة عند القلائين وهي عبارة عن لقيمات مقلوة بالزيت ومدهونة بالزبد والعسل، وكذلك يستطيع المرء أن يشتري من الشارع كل يوم أصنافاً مجهزة مثل الهريسة، وكانت طعاماً مستطاباً تصنع من دقيق ولحم ودهن وتوابل، ويصنع أيضاً السجق (المرقاس)، وهو المصران المحشو والمجهز بالتوابل، كما يمكنه أن يشتري المجبنات[21].

ولكثرة أنهار الأندلس ووقوعها على البحر المتوسط من جهة، والمحيط الأطلنطي من جهة أخرى، فكانت تعد من نفائس جزائر البحر[22]، وتعددت بها أنواع الأسماك والحيتان، ومهر الأندلسيون في معالجتها وتمليحها، وتجفيفها، وبرزت عدة مدن في هذه الصناعة منها مدينة ماربلة التي اشتهرت بسردينها الممتاز وحوتها السمين[23]، واختصت شلوبانية أيضاً بحوتها الذي بلغت شهرته درجة كبيرة[24]، وفاقت مالقة الجميع في تصنيع الأسماك المملحة[25]، وتوفرت أنواع كثيرة لا تحصى في جزيرة شلطيش فكانت تصنع وتوزع على مدن إشبيلية وجهات عديدة من الأندلس[26].

---

(19) ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 91.

(20) ن. م. ص 90.

السقطي: م. س. ص 30.

(21) السقطي: م. س. ص 31، 32.

ليفي بروفنسال: م. س. ص 90.

(22) ابن حوقل: م. س. ص 108.

(23) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص 85.

(24) ن. م. ص 97.

(25) ن. م. ص 87.

(26) المقري: م. س. جـ 1، ص 167، 208.

كما اهتم أهل الأندلس بصيد الحيتان الضخمة من البحر المحيط (أعالي البحار) لاستخراج العنبر الجيد المقدم على أجناسه في الطيب والصبر على النار[27].

وتطورت صناعة الحلى والمعادن في عهد المرابطين تطوراً كبيراً لوجود المادة الخام مثل الذهب والفضة والزئبق والنحاس والرصاص والقصدير والحديد. فمعدن الذهب كان يجمع من نهر لاردة وساحل الأشبونة وكورة تدمير[28]، وانتشر معدن الفضة في كورة تدمير، وجبال حمة بجانة، وإقليم كرتش من عمل قرطبة[29]، وكان أهل الأندلس على علم وخبرة بطرق استخراج هذه المعادن واستخلاص الشوائب منها واستعمالاتها، فصنعوا من الذهب والفضة الحلى الجميلة، وأنواع السكة المختلفة وأدخلوها في صناعات أخرى كيماوية وطبية[30].

وقد رأى الإدريسي[31] بنفسه عملية استخراج الزئبق من مناجم بشمال قرطبة، وذكر أنه كان يعمل بهذه المناجم أكثر من ألف عامل، فقوم للنزول فيه وقطع الحجر، وآخرين لنقل الحطب، والبعض لعمل أواني سبك الزئبق وتصعيده، ومجموعة أخرى لمراقبة الأفران والحرق. وتوفر هذا المعدن أيضاً في منطقة أكشونبة وجبال البرانس.

ونتيجة لتوفر معادن الشبوب والنحاس والحديد والكبريت الأصفر والأحمر والرصاص والقصدير في أماكن عديدة قامت عدة صناعات مهمة، مثل صناعة الأواني والقدور والسكاكين والأمقاص وغير ذلك من آلات العروس، والجندي ما يبهر العقل»[32]. وصنعت من القصدير والرصاص القنوات الخاصة بنقل المياه[33].

وتقدمت صناعة الزجاج في هذه الفترة، واشتهرت مالقة بالزجاج العجيب

---

(27) ن. م. ص 140.

(28) ن. م. ص 143.

(29) ن. م.

(30) أرشيبالد لويس: القوى البحرية ص 260.

د. محمد عبد الوهاب خلاف: م. س. ص 154.

(31) الإدريسي: م. س. ص 581.

(32) المقري: م. س. ص 200.

(33) بروفنسال: م. س. ص 291.

د. محمد عبد الوهاب خلاف: م. س. ص 157.

والفخار المزجج المذهب، لوفرة معدن البللور على مقربة من حصن لورقة من عمل قرطبة والحجر البجاوي الذي يتلألأ ليلاً كالسراج في جبال الأشبونة[34].

واستغلت مناجم الرخام المنتشرة في الأندلس أحسن استغلال في عدة صناعات فوجدت منه أنواع كثيرة في جبال قرطبة مثل مقاطع الرخام الأبيض الناصع، والخمري، وكثر في باغة من أعمال قرطبة مقاطع الرخام الغريبة الموشاة بالحمرة والصفرة، أما الرخام الحالك والمجزع فينتشر في أنحاء كثيرة من الأندلس[35].

وعرفت ألمرية بثرائها في الرخام الصيقل الملوكي الذي يصلح لصناعة الأحواض والبيلات، والألواح المنشورية الشكل والشواهد اللازمة للمقابر[36]. لذلك يسميها ابن الخطيب ببلد الخام والرخام[37]، وصناعة التوابيت وشواهد القبور بلغت في عصر المرابطين درجة كبيرة من الإتقان والفن وتزدان بنقوش تمثل أشكال محاريب عقودها متجاورة منكسرة تحملها عمد على مناكب، ويدور بالعقود طرز، مستطيلة الشكل تعلوها أفاريز وتحف، بهذه الأفاريز والطرز نقوش كتابية، ويغطي المحاريب المنقوشة كتابات جنائزية في ذكر المتوفى، وتاريخ وفاته، وبعض الآيات القرآنية. وهذا النوع من الشواهد وصل ألمرية في عصر المرابطين من الشرق الإسلامي، ومن ألمرية انتشر في سائر أنحاء الأندلس، لذلك سمي هذا النوع بالشواهد ألمرية، وينسب إليها معظم التوابيت التي اكتشفت في مقابر الأندلس، وهي مصنوعة من الرخام الأبيض، وتميزت هذه الشواهد والآثار الجنائزية بأناقة وجمال الخط الكوفي المنقوش عليها»[38].

كما اشتهرت ألمرية بحصاها الملون الذي يشبه الدر في رونقه وكان من عادة الناس أن يضعوه في كيزان الماء والبراريد لتبريد مياههم، ويحمل منها إلى جميع البلاد[39].

---

(34) المقري: م. س. ص 142، 152.

(35) ن. م. ص 200، 201.

(36) د. عبد العزيز سالم: تاريخ ألمرية الإسلامية، ص 160.

(37) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص 103.

(38) د. عبد العزيز سالم: م. س. ص 163، 164.

(39) المقري: م. س. ص 201.

وصنع بالأندلس نوع من المفصص المعروف في المشرق بالفسيفساء ونوع يبسط في قاعات ديارهم يعرف بالزليجي يشبه المفصص، وهو ذو ألوان عجيبة، يقيمونه مقام الرخام الملون الذي يستعمله أهل المشرق في زخرفة بيوتهم كالشاذروان، وما يجري مجراه[40].

أما صناعة المنسوجات والبسط فقد تفوقت فيها الأندلس على كثير من بلاد العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وظهرت عدة مراكز صناعية ذاع صيتها، وارتفع نجمها، فكانت تصنع بمدينة جنجالة وقونكة(*) وطاء الصوف الذي لا يمكن صنعه في غيرها[41]، واشتهرت بسطة وغرناطة بنوع من الثياب يعرف بالملبد المختم له ألوان عجيبة، وتخصصت بسطة أيضاً بطراز الوطاء البسطي من الديباج الذي لا يعرف له نظير[42]، ويصنعون نوعاً من اللبود مشمع فيمنع المطر أن يصل إلى لابسه[43].

وأما تنتالة من عمل مرسية فعرفت بالبسط الغالية الثمن والتي تصدر للشرق، وبلغت صناعة الأسرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة أوجها في مرسية[44].

والثياب البيض الرقيقة من الكتان والقطن، والتي لا يفرق بينها وبين الكاغد لرقتها وبياضها، كانت تصنع في حصن بكيران[45]، ويعمر الثوب منه سنين كثيرة ويباع بالأثمان الغالية[46]، واشتهرت أندرش أيضاً بكتانها الفاخر[47].

أما صناعة الحرير فقد تعددت مراكز صناعته، وبلغت أوجها في عهد

---

(40) ن. م. ص 200.

(*) جنجالة وقونكة تبعدان عن مرسية خمسين ميلاً.

الحميري: م. س. ص 174، 602.

(41) الإدريسي: م. س. ص 560.

(42) الحميري: م. س. ص 113.

المقري: م. س. ص 200.

(43) ابن حوقل: صورة الأرض، ص 114.

(44) المقري: م. س. ص 88.

(45) حصن بكيران تقع إلى الغرب من مدينة شاطبة على بعد 40 ميلاً.

الإدريسي: م. س. ص 557.

(46) م. ن.

(47) ياقوت: م. س. ص 81.

المرابطين، وذكر الحميري[48] أنه كان بجيان أزيد من ثلاثة آلاف قرية تربي دود الحرير. وقيل عن مدينة أندرش[49] حريرها ذهب وتربها تبر منتهب[50]، واعتبر ابن الخطيب مدينة شبالش[51] معدن الحرير الذي خلصت سبائله وأثرى بزازه وحائكه[52]. كما اختصت مالقة ومرسية بالحرير الموشى بالذهب الذي يتعجب من حسنه أهل المشرق إذا رأوا منه شيئاً كما ذكر ابن سعيد المغربي[53].

وتأتي مدينة ألمرية على رأس هذه المدن كلها في صناعة الحرير، والتي تمتعت بالمركز الأول في صناعة المنسوجات الحريرية المتعددة الأشكال والأصناف. ويحدثنا الإدريسي[54] عن شهرة ألمرية في هذه الصناعة، وأنواع منسوجاتها وعدد ألوانها وطرزها فيقول: «مدينة ألمرية كانت في أيام الملثم مدينة الإسلام، وكان بها من طرز الحرير ثمانِ مائة طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون، والأصبهاني، والجرجاني، والستور المكللة، والثياب المعينة، والخمر، والعتابى، والمعاجر، وصنوف الحرير».

فكان بها ثمانِ مائة نول لنسج طرز الحرير، وألف نول للحلل النفيسة والديباج الفاخر، وألف نول للإسقلاطون، وللثياب الجرجانية مثلها، وللأصفهانية كذلك وللعتابى والمعاجر المدهشة والستور المكللة مثل ذلك[55].

ويبين هذا النص مدى شهرة ألمرية في صناعة المنسوجات الحريرية في هذا العصر، كما يبين رواجها وتقدمها ويبين أن أنوال هذه المصانع الكثيرة، لم تقتصر على نسج الأصناف المحلية من المنسوجات، وإنما تنتج أنواعاً مشرقية ذاعت شهرتها في أنحاء العالم الإسلامي، وأخرى اشتهرت في بلاد اليونان قديماً.

(48) الحميري: م. س. ص 183.

(49) أندرش مدينة من أعمال ألمرية.

الحميري: م. س. ص 42.

(50) ابن الخطيب: معيار الاختيار ص 111.

(51) شبالش أو شبيلش من أعمال ألبيرة.

ياقوت: م. س. ص 236.

(52) ابن الخطيب: م. س. ص 111.

(53) المقري: م. س. ص 200.

(54) الإدريسي: م. س. ص 562.

(55) المقري: م. س. جـ 1، ص 162.

والحلل نسيج حريري يحلى بخيوط الذهب، وتعرف بالحلل الموشية، وقد تخصصت ألمرية في صناعتها، أما الديباج الذي كان معروفاً في المشرق قبل الإسلام، وظلت دور الطراز تنتجه في الأقطار العربية والإسلامية فهو من المنسوجات الحريرية السميكة وكان يصنع من خيوط الحرير، وقد تدخل في نسجه خيوط الذهب[56].

أما السقلاطون فنسيج من الحرير مطرز بالذهب وكان معروفاً عند اليونان، ثم انتقلت صناعته إلى البلاد الإسلامية، وحذقه الصناع المسلمون، والسقلاطون كلمة مشتقة من Cycle وهو اسم يطلق في كل أوروبا على نسيج من الحرير مطرز بالذهب اختصت بغداد بصناعته، ويرجح أن هذا الاسم أطلق على هذا النوع من النسيج بسبب رسومات الدوائر التي تحملها المنسوجات البيزنطية والساسانية والعربية، ولعله المختم المرقوم بالذهب[57].

أما الأصبهاني والجرجاني فنوعان من النسيج ذاعت شهرته في أصبهان وجرجان، والستور المكللة أقمشة من الحرير الخفيف الرقيق تزدان بزخارف نباتية، وأزهار تشبه الأكاليل، والثياب المعينية نسيج من الكتان أو القطن مزين بترابيع صغيرة على شكل معينات، وقيل إنها سميت معينة لأنها تشبه العيون[58]. أما الخمر فهي أقمشة حريرية تغطي بها النساء رؤوسهن، وتنسدل على الوجه فتغطيه[59]، وكذلك العتابي كان نوع من نسيج الحرير اختصت بصناعته بغداد ونسب إلى محلتها المعروفة باسم العتابية، فقد ذكر الرحالة ابن جبير[60] أن بمدينة العتابية تصنع الثياب العتابية وهي حرير وقطن مختلفات الألوان، والمعاجر قماش من الحرير شفاف كانت تتخذه النساء لتغطية وجوههن أو شد رؤوسهن[61].

وقد تأثرت ألمرية إلى حد كبير بصناعة النسيج في المشرق، إذ كانت تصنع بها كما لاحظنا الأقمشة الحريرية المصنوعة في أصفهان، وجرجان وبغداد، وذلك من

---

(56) د. عبد العزيز سالم: م. س. ص 157.

(57) ن. م. ص 157.

(58) ن. م. ص 158.

(59) ن. م.

(60) ابن جبير: الرحلة، ص 226.

(61) المقري: نفح الطيب: جـ 2، ص 44.

المنسوجات التي كانت تصل إلى الأندلس في العصر الأموي[62] وعصر الطوائف وتفوقت عليه في صناعته في عهد المرابطين.

وارتبطت بصناعة المنسوجات صناعة الملابس الجاهزة، وكان يتعيش منها قسم كبير من أهل المدن لأنها لم تكن صناعة خاصة بعملاء المدن وحدهم بل بعملاء الريف الذين يأتون إليها لقضاء حوائجهم، ويتجمع الخياطون في قيسارية خاصة بهم لصناعة المنسوجات انفاخرة والملابس الثمينة[63].

وازدهرت صناعة الفراء والدباغة، فكان يصاد السمور من البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية، ويجلب إلى سرقسطة حيث يصنع من وبره الفراء الرفيع، ويصنع الفراء أيضاً من القنليات وهي حيوان أدق من الأرنب وأطيب في الطعم، وأحسن وبراً. واستعمل أهل الأندلس هذا النوع من الفراء، وتفننوا في صناعة الملابس والصديرات المحلاة بالفراء[64].

وانشرت صناعة الجلد ودباغته، وكثرت المدابغ على ضفاف الأنهار وصنعت من الجلود السروج والأحذية والصنادل الخفيفة ذات النعال الفلينية للنساء والرجال، وتصنع الأقراق من الجلد اللين الفاخر، ولا يدخل في صناعته شيء آخر غير الجلد ويخاط بالخرز وليس بالتشبيك أو التلصيق[65].

وكانت توجد في كل مدينة صناعات تتصل من قريب أو من بعيد بالأثاث والأدوات المنزلية، وصناعة أدوات البناء من حصى، وبلاط الخزف الممهرة بالمينا،

---

(62) يقول المقري نقلاً عن ابن الفرضي أنه كان من بين الهدايا المقدمة من الوزير أحمد بن شهيد إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر عدداً من الشقق والملاحف، والسرادقات المشرقية.

المقري: م. س. جـ 4، ص 206.

(63) السقطي: م. س. ص 42.

ليفي بروفنسال: م. س. ص 92.

(64) المقري: م. س. جـ 1، ص 198.

(65) السقطي: م. س. ص 49.

ليفي بروفنسال: م. س. ص 92.

والاقراق نوع من الأخفاف أو الصنادل.

انظر دوزي: ملحق القواميس العربية جـ 2، ص 334.

Ja ime Oliver Asim, «Quercus en L'Espana Muslumana».

مجلة الأندلس ـ عدد 54 سنة 1959 ص 155، 181.

ويرع العمال في الحفر على الجص والحجر والذي يزين به المنازل والقصور[66].

أما صناعة الورق فتميزت بها مدينة شاطبة، وكان يعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير في العالم، ويعم المشارق والمغارب[67].

وشجع على ازدهار هذه الصناعة واتقانها لكثرة نسخ الكتب والقراءة، وترتب على ذلك ابتكار أنواع مختلفة من المداد الأسود والأحمر والأبيض والمذهب، واشتهرت بلنسية بالكتابة بالذهب[68].

وبلغت صناعة تسفير الكتب أي تجليدها درجة عالية من الرقي والإتقان في عهد المرابطين والموحدين[69] وألفت فيها مؤلفات[70] تشرح كيفية العناية بالكتب وتسفيرها من البداية إلى النهاية، واستعملت مواد للقضاء على أرضة الكتب، بطبخ نشا الأغربة في أصول العلقم أو تبخير الكتب بأعضاء الهدهد وريشة[71].

واستغلت الغابات المنتشرة في الأندلس في تجهيـز أخشابهـا، وتصنيعه واشتهرت طرطوشة بجبالها العامرة بغابات الصنوبر الذي يتميز بلونه الأحمر الصافي القشرة والذي لا يتغير سريعاً، ولا يؤثر فيه السوس، ومهر أهلها في صناعة المراكب الكبار من خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ[72]. وأنشأت في دانية دار لصناعة السفن خاصة أنها كانت ميناء ومرسى مهماً[73].

ومن غابات الصنوبر بمدينة قلصة من أعمال مرسية، يقطع الخشب ويلقى في

---

66) ليفي بروفنسال: م. س. ص 92.

67) الإدريسي: م. س. ص 556.

68) ابن سعيد: م.س. جـ 2، ص 321.

69) راجع ما كتب على مصحف عثمان ومصحف ابن تومرت اللذان كانا يحملان في مقدمة الركب الموحدي بين يدي الخليفة في ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 439.
المراكشي: م. س. ص 253.
ابن عبد الملك: م. س. جـ 1، ص 156، 159.

70) ألف بكر بن إبراهيم الإشبيلي كتاب «التيسير في صناعة التسفير» نشره الأستاذ عبدالله كنون في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد مجلد 827، سنة 1959، 1960.

71) انظر كتاب التيسير في صناعة التسفير.

72) ن. م. ص 555.

73) ن. م. ص 557.

الماء ويحمل إلى دانية وإلى بلنسية في البحر، إذ إنها تسير في النهر من قلصة إلى جزيرة شقر ومنها إلى حصن قليرة وتفرغ هناك على البحر، فتحمل إلى دانية ويصنع منها السفن الكبيرة والصغيرة، بينما تحمل إلى بلنسية الأخشاب العريضة التي تستخدم في البناء والدور[74] ونشأت بمدينة لقنت مع صغرها صناعة المراكب السفرية والحراريق[75].

وانتشرت صناعة الأدوية والعقاقير، لوفرة الأعشاب والمواد الطبية في الأندلس وبلغت درجة عظيمة من الجودة في عهد المرابطين، فاستخدموا القسط الطيب وهو عود هندي وعربي يتداوى به، والعود الهندي يختلف عن العربي بأنه غليظ أسود مر المذاق، بينما العربي أبيض خفيف قوي الرائحة، والسنبل الطيب الذي يسمى بالعصافير، والجنطيانة وهي عبارة عن نبات لا يوجد إلا بجبال غرناطة وهو عقار رفيع وبمنطقة شذونة كانت كهرباء الأرض وهي عبارة عن مادة صمغية توجد عند سواحل بحر الأندلس وتدخل في صناعة الأدوية، واستعملوا حجر الشاذنة[76] من جبال قرطبة في مداواة العين وخشونة الأجفان، أما حجر اليهودي الذي يوجد في ناحية حصن ألبونت شمالي غربي بلنسية، فهو علاج نافع لحصاة الكلى[77]، ويجمع من منطقة الشرق القرمز وهو نوع من المن يجمع من الشجر ويدخل في تركيب الأدوية[78].

وكان العطارون والصيادلة يقومون بتجهيز الأدوية بناءً على تعليمات الأطباء الذين اتخذوا دكاكين لهم في الشوارع والأسواق، وبرع الصيادلة في تجهيز الأدوية أيضاً من المستخرجات المعدنية، فالمرتك[79] يضاف إليه بعض المعادن والمرداسنج، وهو من خبث الذهب والفضة بعد التخلص من النحاس وغيره يستخدم في ملء القروح الغضة كما يذهب اللحم الزائد في القروح ودمها، ومن فوائده أيضاً أنه مانع من احتكاك الأفخاذ وعرق الإبطين ورائحتهما. ويشفي القروح والبثور إذا

---

(74) ن. م. ص 560.

(75) الإدريسي: م. س. ص 556.

(76) الشاذنة: أكسيد الرصاص الأحمر ـ معجم الأحجار والمعادن والفلزات ص 125.

(77) المقري: م. س. جـ 1، ص 141 ـ 42.

ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 1، ص 98.

(78) المقري: م. س. جـ 1، ص 208.

(79) المرتك: أول أكسيد الرصاص ـ معجم المعادن ص 131.

خلط بالخل والزيت. واستخدموا سحالة الذهب في الأدوية السوداوية (المهدئة)، وفي علاج داء الثعلبة وداء الحية فيطلى به المكان المصاب في الرأس، ويدخل في صناعة كحل للعين لتقويتها وينفع في أوجاع القلب ومن الخفقان[80].

ولتبييض لون السمراوات صنعوا سائلاً من الباقلا الذي ينقع في ماء البطيخ ستة أيام ثم في لبن حليب سبعة أيام، ويحرك اللبن كل يوم ثم يغمرون به الوجه فيعود أبيض[81]، ولاكتساب اللون الذهبي يستعمل الكرويا المغلية في الماء حتى يتلون وتقيم المرأة فيه لمدة أربع ساعات من نهار فتخرج ذهبية، ولتجميل الوجه وإكساب الخدود اللون الوردي يستعمل غاسول من دقيق الباقلا والكرسنة خمسة أجزاء، ومن عروق الزعفران وبورق وحناء من كل واحد ربع جزء ويغمر بذلك[82]. واستعملوا لصباغة الشعر باللون الأسود دهن الآس ودهن قشر الجوز الرطب، ودهن الشقائق، ثم يغسل بطبيخ الأمليج. ولتجعيد الشعر إستخدموا السدر والآس والزاد ـ رخت. ولإكساب الأعضاء الهزيلة السمنة أشاروا بالدلك بالمناديل الخشنة والأدهان الحارة والطلي بالعاقر قرحاً[83] وعالجوا النمش والوشم بغاسول مصنوع من عروق القصب واللوز والمر والكرسنة والباقلا وحب البطيخ معجوناً بالعسل، وأزالوا الكلف بمعجون من الشونيز[84] وأصل قثاء الحمار وورق الخبازي وبزر الجرجير وأصل الكرم والعسل. وعالجوا البرص بغرز إبر في الموضع المصاب ثم يخضبونه بالقلقديس[85] والعفص والزنجار[86] من كل واحد جزءاً معجوناً بماء ولبن التين أربعة أيام في الشمس، ويغسلون ذلك الخضاب بخل وأُشنان مغلي أو بماء الغلي، ويبقى الموضع

(80) ابن يوسف: ضوابط السكة، ص 36، 38.

(81) السقطي: م. س. ص 50.

(82) ن. م.

(83) ن. م. ص 51.

والعاقر قرحاً نوع من أنواع الكرفس أو الكركوهان.

أبي عمران الإسرائيلي: شرح أسماء العقار، تحقيق د. ماكس مايرهوف، رقم 177، ص 21، رقم 199 ص 32.

(84) الشونيز: الكمون الأسود ويقال له الحبة السوداء.

أبي عمران الإسرائيلي: م. س. رقم 365 ص 39.

(85) القلقديس: مادة كيمائية هي الزاج. ن. م. رقم 140 ص 17.

(86) الزنجار: صدأ النحاس ـ معجم المعادن ـ ص 124.

مصبوغاً مدة أربعين يوماً. وصنعوا نوعاً من الدهن لتنعيم الأطراف الخشنة بالدهن والشمع واللوز المر، ولخلخة بماء الورد ودهن البنفسج[87].

وصنعوا حجر الطلق الموجود بكثرة في الأندلس لعمل طلاء يستخدم في صباغة المواضع التي قد تصيبها النار فلا تحترق، وحجر الطلق عبارة عن حجر براق يتحلل إذا دق إلى طاقات صغار دقاق ويشبه الشب اليماني وإذا ألقي في النار لا يحترق[88].

ففي هذه الفترة شمل التقدم الصناعي جميع ميادينها، وبلغ الإتقان حداً كبيراً في شتى الميادين. . .

الصناعة إبان الفتنة وبداية الموحدين:

ولا شك أن هذا الازدهار الصناعي، وتنوعه، قد عرف تقلصاً كبيراً في سنوات الفتنة وبداية الموحدين. إذ إن ما أصاب الأندلس من قحط وخراب لعدة سنوات متتالية. قد أثر كثيراً على جميع أوجه النشاط الاقتصادي والعمراني، ومن الصعب تحديد معالم هذه المرحلة المتداخلة بعضها في بعض، بحيث لا يمكن فصل شهور الثورة عن بداية دخول الموحدين. والمصادر الموجودة تقف صامتة تجاهها، ونظراً لفقد المصادر الأساسية لهذه المرحلة وهي كتاب «الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية لأبي بكر بن الصيرفي، وكتاب «ثورة المريدين» لابن صاحب الصلاة الذي أشار إليه في كتابه «تاريخ المن بالإمامة» عندما كان يحيل القارىء إليه عند التعرض للثوار في هذه الفترة، كما أن الجزء الأول من «تاريخ المن بالإمامة» مفقود والجزء الموجود يبدأ بأحداث سنة 554 هـ (1159 م). وذكر ابن عبد الملك[89] صاحب الذيل والتكملة عند ترجمته لمحمد بن أحمد بن عامر السالمي أنه ألف كتاباً باسم «الفتنة الكائنة على اللمتونيين بالأندلس سنة أربعين وما يليها، قبلها وبعدها» وألف كتاباً آخر مختصراً لكتابه السابق سماه «عبرة العبر وعجائب القدر في ذكر الفتن الأندلسية والعدوية بعد فساد الدولة المرابطية» فالصعوبة تكون أكثر.

---

(87) السقطي: م. س. ص 51.

الخلخة: هو الفجل البري.

أبي عمران: م. س. رقم 217 ص 25.

(88) المقري: م. س. جـ 1، ص 208.

(89) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، سفر 6، رقم 7، ص 9.

وليس أدل على كساد الحال وتوقف الكثير من المصانع عن الإنتاج ما وصف به ابن صاحب الصلاة[90] أهل قرطبة من الأعيان والوجهاء عند خروجهم لاستقبال الموحدين، وترجع أهمية شهادة ابن صاحب الصلاة أنه شاهد عيان فيقول: «فخرج جميع أهلها إلى لقائهم صحوة يوم الأحد 12 شوال سنة 557 هـ (أكتوبر 1162 م) وأعيان قرطبة الباقون منهم في الفتنة اثنين وثمانين رجلاً لجلائهم من الفتنة عن البلاد، وبما حل ببلدتهم من القفر بغورها والنجاد، وقد ظهر على هيأتهم وصورهم البؤس، واستمر على بلدتهم وعليهم من الفتنة الدروس، قد لبسوا من الثياب أطماراً». هذه هي هيئة أعيان ووجهاء قرطبة الذين كانوا لا يلبسون إلا الغالي من الثياب الحريرية والمطرزة، ويقتنون القصور المزينة بالجبص والرخام، والمفروشة بأحسن الأثاث والمفروشات، فزالت تلك الأبهة بتهاريج الفتنة.

لم تكن قرطبة هي وحدها التي أصابها الخراب، بل كان التدمير عاماً[91] ولقيت البلاد وإشبيلية على الخصوص عظيم الخطب وجماع الرعب وحل بها وبأهلها كرب وحرب[92]. وهجر أهل البلاد هذه المدن والقواعد، وتوقفت العديد من المصانع حتى أصبح من العسير العثور على سلعة جيدة في الأسواق[93] والحوانيت[94].

وعندما دخل الموحدون إلى هذه المدن، كان العبء ثقيلاً لمحاولة إعادة الحياة مرة أخرى إلى هذه القواعد الصناعية، مما اضطر الخليفة عبد المؤمن إلى إرسال الطعام وآلات الحرب من الرماح والدرق والسيوف والقسي والسهام والترس إليها[95] وشجعوا الناس للعودة إلى ديورهم، بإثبات أسماءهم في زمام العسكر فبدأ يظهر العمران[96].

---

(90) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة. ص 205.

(91) م. س. جـ 1، 215.

(92) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 118.

(93) وقالوا في أمثالهم «لس بذا السوق ما تسوق».

الزجالي: أمثال العوام رقم 1196.

(94) وقالوا: «لا سَلْعَ فالحانوت، ولا قطاع في تابوت».

ن. م. رقم 1989.

(95) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 202.

(96) ن. م. ص 206.

وكان تأثير هذه الأحداث كبيراً على مدينة الحرير والصناعات التقليدية مدينة ألمرية إذ سارعت هذه المدينة المزدهرة إلى الأفول والذبول في عهد المتغلب عليها ابن الرميمي، ثم استيلاء النصارى عليها سنة 542 هـ (1147 م) فتوقفت المدينة عن النمو، ووضع حد لازدهارها. إذ إن النصارى أحاطوا بها من البر والبحر حتى سقطت في أيديهم، مدة عشر سنوات. فأصيب عمرانها بنكسة شديدة، حتى بعد أن استردها الموحدون سنة 552 هـ (1158 م)، لم تنهض المدينة من عثرتها واقتصرت المراكز العمرانية فيها على المدينة وربض المصلى بينما هجر ربض الحوض تماماً وأصبح لا عمارة فيه ولا يتجول في ممشى أسواره سوى الحراس، والموكلون بمراقبة الأسوار وحراسها بعد أن كان ينبض حياة بكثرة المناسج وأنواع الحرير التي لا تكف عن العمل[97].

وإن ازدهار فن النحت على الرخام في عصر المرابطين، وانعدام هذه الآثار بعد عام 542 هـ (1147 م) يدل على بداية اضمحلال المدينة الاقتصادي والفني الذي استمر منذ هذا التاريخ حتى سقوط ألمرية سنة 895 هـ (1489 م)[98].

(97) المقري: م. س. جـ 1، ص 520، جـ 5، ص 463.
د. عبد العزيز سالم: م. س. ص 115.
(98) ن. م. ص 164.

الفصل الثالث

التّجارة

تأثر الأحوال الاقتصادية بعد توحيد المغرب والأندلس ـ حماية الطرق وتأمينها ـ إلغاء الضرائب غير الشرعية ـ نمو التجارة الخارجية وتأمين التجارة البحرية ـ نمو كثير من الموانىء ـ أهمية ألمرية ـ ازدهار المدن الداخلية ـ غرناطة، وقرطبة، وإشبيلية وغيرها ـ الاهتمام بالمواصلات البرية والبحرية والنهرية ـ إقامة الفنادق والمطاعم والحمامات في المحطات ـ الاهتمام بالأسواق في المدن ـ إنشاء القيساريات الخاصة بكل نوع من التجارة ـ السوق، وأنواعها ـ المحتسب للرقابة على الأسواق ـ مراقبة المواد الغذائية والتأكد من النظافة ـ عقوبة غش المواد الغذائية ـ آداب السوق ـ الصيارفة ـ وعقوبة مزوري العملة ـ طرق غش الرقيق وعقوبته ـ غش الدواب وعقوبة الغش ـ وضع تسعيرة لأثمان المواد الاستهلاكية، صاحب السوق ـ طريقة التسعير ـ الموازين والمكاييل.

التصدير: المواد الغذائية ـ المنسوجات ـ الأواني والكؤوس الزجاجية ـ الأواني النحاسية ـ تصدير العنبر، والمواد المعدنية والرخام والأدوية ـ الرقيق الصقالبة البغال الميورقية.

الواردات: الجواري والعبيد ـ المسك والكافور والعود ـ الحلي ـ الجواهر الثمينة أساليب التعامل التجاري وأنواعه ـ السلف ـ المعاملات الخارجية وأساليبها ـ كساد التجارة في وقت الفتنة وبداية الموحدين ـ الغلاء ـ أثر هجوم النصارى على التجارة ـ اختفاء السلع ـ ظهور طبقة من المنتفعين ـ مصادرة الموحدين للمخالفين لهم ـ تأثر حركة الطرق التجارية ـ احتكار بيع السلع الغذائية ـ انتشار خطف النساء والأطفال وبيعهم دون استبراء.

التجارة الخارجية: التجارة مع السودان ـ مع المشرق ـ مع الدول النصرانية.

التجـارة:

تأثرت الأحوال الاقتصادية في بلاد الأندلس بعد ضمها للمغرب إذ كانت لذلك نتائج بعيدة الأثر في تاريخ الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة، فتدفق الملثمون إلى الأندلس تمخض عن فتح أسواقها أمام تجارة المغرب والسودان، كما أن فتح أسواق الجزيرة لهذين الإقليمين، مهد الطريق إلى أسواق أوروبا عن طريق موانىء شرق الأندلس، إذ أصبح بمقدور السفن التجارية أن ترد موانىء الأندلس محملة بمنتجات الغرب، وتعود بتجارة الأندلس ومصنوعاتها[1].

واكتسب المرابطون حب الناس وثقتهم، لما عرف عن أمرائهم من أمانة واستقامة وعدل، خصوصاً وقد نجحوا في حماية الطرق وتأمين المسالك والضرب على أيدي العابثين بالأمن، فأمن التجار على أنفسهم وبضاعتهم فأقبلوا على أسواق البلاد في ثقة، فكثرت الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد[2].

وعامل آخر كانت له نتائج بعيدة المدى في تشجيع حركة التجارة هو أن الدولة ألغت المكوس «فلم يكن في عمل من بلادهم خراج ولا معونة، ولا تقسيط، ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر»[3]، بعد أن كان الأندلس يئن تحت وطأة ضرائب أمراء الطوائف التي أثقلوا بها الناس[4].

---

(1) د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين. ص 403.

(2) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 167.

(3) ن. م. الحميدي: جذوة الاقتباس، ص 342.

ابن المؤقت المراكشي: السعادة الأبدية، جـ 3، ص 89.

(4) الأمير عبدالله بن بلكين: البيان، ص 127.

وكان لتضاؤل الخطر القشتالي بعد معركة الزلاقة أثر كبير في النهضة الاقتصادية، فلم يعد النصارى يستطيعون مواصلة سياسة العدوان القديمة والتي أشاعت جواً من القلق والاضطراب في البلاد، فاطمأن الناس وبدأوا يتجهون للإنتاج، بل أخذ الإنتاج يتضاعف بسبب قلة الضرائب، مما ساعد على مضاعفة الإنتاج من جهة، وعلى زيادة دخل الفرد من جهة أخرى، مما أشاع بين الناس لوناً من الرخاء والرفاهية[5]، «فلم يكن أيسر من أهل الأندلس مالاً ولا أتجر منهم في الصناعات وأصناف التجارات تصريفاً وادخاراً»[6].

وقد أفاض الإدريسي[7] المعاصر للمرابطين وبداية عصر الموحدين في الحديث عن ازدهار الحياة الاقتصادية في عدة مدن أندلسية من الناحية الزراعية والصناعية والتجارية.

ومما ساعد على نمو وازدهار التجارة الخارجية في عصر المرابطين نمو البحرية وقيامهم بإنشاء أسطول إسلامي ضخم[7] حتى أصبحت تنافس جمهوريات إيطاليا والنورمان واستطاع المرابطون بعد استيلائهم على موانىء شرق الأندلس، وجزر ميورقة ومينورقة أن يبسطوا حمايتهم على الحوض الغربي من البحر المتوسط، وقام أسطولهم بدور عظيم في تأمين تجارة المغرب الذاهبة إلى الأندلس، أو إلى الأسواق العالمية الأخرى، فازدهرت الحركة الملاحية[8].

وترتب على نشاط حركة الملاحة ازدهار ونمو كثير من الموانىء مثل مرسية، ودانية، وألمرية، بل لقد عرفت كثير من المدن الداخلية نشاطاً ملحوظاً، واعتبرت ألمرية الميناء الأول في الأندلس الذي تقصده السفن من سائر أقطار البحر المتوسط، فأبحرت إليه المراكب من الإسكندرية والشام كله فانعكس هذا الرخاء على المدينة

---

(5) Dozy, R., Histoire des Musulmanes d'Espagne, Vol. IV, P. 258

(6) الإدريسي: م. س. ص 556، 562.

(7) خواكيسي فالفي بيرميخو: سكوت البرغواطي ملك سبته، ترجمة عبد اللطيف الخطيب، مجلة تطوان 1971، ص 100.

(8) د. حسن أحمد محمود: م. س. ص 401.

محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين ص 419.

حتى أنه لم يكن بالأندلس أيسر من أهلها مالاً، ولا أتجر منهم في الصناعات وأصناف التجارات تصريفاً وادخاراً»[9].

ولأهمية ألمرية وضع المرابطون قسماً كبيراً من أسطولهم بقيادة أمير البحر أبي عبد الله محمد بن ميمون على مقربة من شواطئها، وكان هذا الأسطول على أهبة الاستعداد لحماية السفن الإسلامية وحماية السفن التجارية غير الإسلامية التي ترد ميناء ألمرية، وهي مراكب جنوة وبيزا والبندقية وقطلونية وأراجون، إذ كانت سفنهم تقصد ألمرية حاملة متاجرهم لتوزع منها إلى سائر أنحاء الأندلس، ثم تشحن بالبضائع والمتاجر الأندلسية إلى سائر بلاد حوض البحر المتوسط[10].

وكان لاتخاذ المرابطين مدينة غرناطة قاعدة لهم في الأندلس دخل كبير فيما أصابته ألمرية في عهدهم من تقدم في المجالين الصناعي والتجاري، إذ كانت أقرب الموانىء إلى مدينة غرناطة، يضاف إلى ذلك أنه كانت تربطها ببلاد المغرب صلات بحرية وثيقة، فكانت السفن تنتقل ما بين ثغر ألمرية وثغور المغرب[11].

وقرطبة من المدن الداخلية التي ازدهرت في عصر المرابطين، واستعادت مجدها السابق ورونقها، وصارت قاعدة بلاد الأندلس وأم مدنها، فكان تجارها مياسير لهم أموال كثيرة، وتجارات واسعة، وازدهرت مدن أخرى واسترجعت مركزها الحضاري والاقتصادي مثل إشبيلية التي نشطت بها الحركة التجارية من بيع وشراء وتكدست الثروات في أيدي أهلها، كما شملت الحركة التجارية مدن لبلة، وبلنسية ومرسية وغيرها من مدن الأندلس[12].

وترتب على هذا النشاط التجاري، ازدياد اهتمام المرابطين بالطرق التي تصل بين جميع هذه المدن، وتأمين المواصلات بينها سواء البحرية أو البرية وكانت هناك

---

(9) الإدريسي: م. س. ص 563، ويقول الإدريسي في مكان آخر عن أهل ألمرية: «وكان أهلها مياسير ولم يكن في بلاد الأندلس أحضر من أهلها نقداً، ولا أوسع منهم أحوالاً».
الإدريسي: ن. م.

(10) د. عبد العزيز سالم: م. س. ص 89.

(11) ن. م. ص 19.

(12) الحميري: م. س. ص 458.
الإدريسي: م. س. ص 579.

مدن أعتبرت محطات كبيرة للمسافرين تخرج منها عدة طرق للمواصلات سواء النهرية أو البرية أو تجمع بين الطريقين البري والنهري[13]، وقامت على جنبات هذه الطرق الفنادق والمطاعم والحمامات، فيستريح المسافرون في هذه المحطات ويتزودون منها بما يحتاجوه أثناء رحلاتهم، فيتباعون الخبز والسمك واللحم وجميع أنواع الفاكهة كل منها في موسمه[14].

وأولى المرابطون عناية كبيرة بالمرافق التجارية في المدن من أسواق وفنادق وغير ذلك، حتى لقد بلغ عدد الفنادق في ألمرية مثلاً حوالى ألف فندق[15]، وكان لكل مدينة صغرت أو كبرت سوق كبير أو عدة أسواق يذهب إليها أهلها لقضاء حاجياتهم، أو لمجرد التسكع أمام الحوانيت لمشاهدة المعروضات.

وصورت لنا كتب الحسبة[16] الأسواق المنتشرة بالمدن الأندلسية والتي لا تختلف كثيراً عن الأسواق المنتشرة في معظم المدن الإسلامية خاصة المغربية منها وكانت هذه الأسواق قريبة في الغالب من المسجد الجامع ويتضمن المتاجر التي تكون حارات ضيقة لا نهاية لها هنا وهناك، وفي الغالب يكون بهذه الأسواق طابقاً أو أكثر معداً كفندق أو خان لإقامة المسافرين والتجار والأجانب، وفي الأدوار العليا مخازن للبضائع، وغرف تؤجر لأولئك التجار العابرين القادمين من البادية (الريف)[17].

وكان لكل نوع من أنواع التجارة أو الحرف زقاقاً أو قيسارية خاصة به، فقيسارية خاصة بالمنسوجات الحريرية والكتانية والقطنية وغيرها من أنواع المنسوجات، وبجوارها حوانيت خاصة بالملابس المخيطة وحوانيث للخياطين، وقيسارية تعرض بها الحلى الذهبية والفضية وأنواع الأحجار الكريمة، والحلى الثمينة، ومكان لبيع الكتان، والصوف، الخام، والغراء ولباعة العطارة وأنواع التوابل مكانهم الخاص

(13) الإدريسي: م. س. ص 541، 566.

(14) ن. م. ص 567، 571، 574، 530.

(15) ن. م. ص 566.

(16) الكتب: رسالة في الحسبة لابن عبدون، في آداب الحسبة والمحتسب لابن عبد الرؤوف، في آداب الحسبة للسقطي.

(17) Levi Provencal, L'Espagne Musul. au X. S., p. I83.

بهم، وقيسارية الأحذية وتباع بها جميع أنواع الأحذية من نعال وأقراق واسبدريل[18].

وتوجد بالسوق مكان خاص لبيع الفواكه والخضروات المختلفة الأصناف التي ترد من القرى القريبة لهذه المدن، وبجواره توجد حوانيت بيع اللحوم المذبوحة من بقر وغنم وماعز، وكان يشترط أن يباع كل نوع في حانوت على حدة حتى لا يحدث غش ويخلط الجزار لحم الضأن بالماعز، وقريباً من هذه الحوانيت توجد حوانيت بيع مصارين وكروش هذه الحيوانات (السقط)[19].

ولا يخلو سوق من مكان لبيع الطيور والأرانب والقنيلات المذبوحة وكان يشترط أن تكون هذه الطيور منزوعة الريش والأرانب وغيرها مسلوخة[20]، وبجوارهم ينتشر باعة الطيور الحية وغيرها، ويجلس بجوارهم أيضاً باعة البيض وبجانب كل بائع منهم إناء مملوء بالماء ليختبر المشتري البيض[21]، وليس بعيداً منهم باعة الزيت والزبد والسمن والعسل[22]، ولا يخلو سوق من هذه الأسواق من حوانيت بيع الأطعمة المطهوة[23].

بينما ينتشر هنا وهناك باعة المجبنات والإسفنج الساخنة، والمركاس (السجق) والهريسة التي ولع بأكلها الأندلسيون، ولا يخلو السوق من مكان لمدعي التطبيب والحجامة الذين يقومون بفصد الدم أو خلع الأسنان أو كتابة وصفة لمريض يثق بعلاجهم[24]، وهناك المشعوذون الذين يدعون معرفة الغيب والكشف عن المستقبل، وعمل الأحرزة للحفظ من عين الحسود، أو لتقريب حبيب هاجر، أو شفاء مريض، إلى غير ذلك[25].

---

(18) نوع يشبه البلغة مصنوع من الخوص واسمه Alpargates.

(19) السقطي: م. س. ص 32، 33.

ابن عبدون: م. س. ص 44.

ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 95.

(20) ابن عبدون: م. س. ص 43.

(21) ابن عبدون: ن. م.

(22) ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 105.

(23) السقطي: م. س. ص 35، 36.

(24) ابن عبدون: م. س. ص 47.

(25) الجرسيفي: رسالة في الحسبة، ص 123.

وكان السوق يعج بضجيج الناس، ونداء الدلالين، فهذه حلقه يلتف حولها الجمهور ليشاهدوا قصاصاً أو شاعراً شعبياً يعرض مهارته في إلقاء الشعر والقصص، أو يقوم أحد الحواة بعرض ألعابه التي تأخذ بعقول المشاهدين[26]، وفي أثناء انشغال الناس يعمل اللصوص عملهم، وفي وسط الزحام والضوضاء يصطدم البعض مع أحد المتسولين الذين لهم طرقهم العجيبة في استدرار الرحمة من السذج بادعاء الأمراض من صرع أو عاهة يشوهون بها أجسامهم وأطرافهم[27]، وبين الفينة والأخرى يرتفع صوت دلال ينادي على بضاعة أو عن قيام مزاد[28]، أو تسمع صراخ شخص وقع ضحية محتال، ويندس في الزحام السقاءون الذين يبيعون المياه، وبائعو البخور ممسكين بمباخرهم التي ينبعث منها الدخان[29].

وكانت هناك أسواق خاصة بالحبوب تسمى الرحاب[30] تباع فيها جميع الحبوب من قمح وشعير وذرة، وأنواع البقول المختلفة، أما الدقيق (الطحين) فكان له هو الآخر سوق خاص به يسمى المدى[31].

وخصصت للدواب سوق خاص بها تباع بها الحمير والبغال الأندلسية المعروفة والخيل، وقد يصل ثمن البغل خمس مائة دينار لحسنها وعلوها الزائد[32]، ولسوق الدواب أمين مختص ومسؤول عن السوق، يرجع إلى قوله عند الاختلاف بين الأشياء[33].

وللماشية أسواقها الخاصة بها، فيذهب إليها القصابون لشراء ما يلزمهم وإن كانوا في غالب الأحيان يتجولون في الريف لشراء بغيتهم[34]، لأنها تكون أرخص،

(26) ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 113.
(27) ن. م.
(28) الزجالي: م. س. جـ 1، ص 247.
(29) ابن عبدون: م. س. ص 55.
(30) د. عبد العزيز الأهواني: ألفاظ مغربية، ص 316.
(31) ن. م.
(32) المقري: م. س، جـ 1، ص 520.
ابن حوقل: م. س. ص 114.
(33) ابن عبدون: م. س. ص 53.
(34) ليفي بروفنسال: المدن والنظم المدنية، ص 91.

وتعرف هذه الأسواق ازدحاماً شديداً في الأيام القليلة قبل عيد الأضحى، فتمتلىء بالكباش السمينة التي تساق من كل مكان، ويقلب المشترون الخراف، ويساومون الباعة، يدفعون ثمن ما اعتزموا شراءه، وينادون على الحمالين فيرفع الواحد منهم الخروف على عنقه ويمضي به إلى بيت المشتري الذي لا يكف عن رفع صوته على الحمال ليأخذ حذره[35].

وسمي سوق الجواري والعبيد بالمعرض[36]، وكان يجلب إليه الرقيق من جميع أنحاء المعمور فيه جميع الأشكال والأجناس، فهناك الهندية والرومية والبربرية، والحجازية والعراقية والزنجية، والصقلب، وتباع فيه جواري المتعة أو الإنجاب أو الخدمة، وتختلف الأثمان على حسب ما تتمتع به الواحدة من جمال ومواهب، وما تجيده من فنون الغناء والموسيقى، والرقص، والشعر ولا بأس أن تكون على علم بالتاريخ والسير والطب[37].

وكانت للصيارفة سوق خاص بهم، وكانوا غالباً من أهل الذمة خاصة اليهود، ويعج هذا السوق بالأجانب لتبديل العملة والتجارة وعقد الصفقات[38].

ويمنع الناس من الدخول إلى جميع هذه الأسواق أو القيساريات على ظهور دوابهم، إذ كان لها مكان خاص خارج السوق لتقف به، وهناك من يتكفل بهذه الدواب، حتى ينتهي أصحابها من قضاء حوائجهم[39].

(35) ابن قزمان: م. س. زجل رقم 82.

من غدا يرشم السور — والزراريب تسمر
كلما يبق للعيد — أربع أيام لا أكثر

* * *

يوم منا يخرج الناس — وترا الزحم فالصف
أمشي من كبش لآخر — هذا كبشاً مكتف
كم شِرا ذا؟ أزن خذ — وتقلب وتعرف
ساق جمال لعنقُ — بهدير «إياك احذر»

(36) د. عبد العزيز الأهواني: م. س. ص 316.

(37) السقطي: م. س. ص 47، 48.

(38) ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 84، 85.

(39) ابن عبدون: م. س. ص 55.

(*) (الصف: الشارع الرئيسي في السوق).

واهتمت الحكومة بفرض الرقابة على الأسواق لتحصيل المكوس من جهة، ومن جهة أخرى المحافظة على صحة الناس، وأوكلت هذا الأمر إلى المحتسب وكان يعين من قبل القاضي فيختاره من أهل العلم، ذا مهابة ونزاهة وحلم وتيقظ، وأن يكون فهما، عالماً بجزئيات الأمور، ولا يميل ولا يرتشي فتسقط هيبته، ويستخف به، ويتوبخ معه المقدم له وأن يكون غنياً نبيلاً[40]، فالمحتسب يعتبر المنظم الحقيقي للحياة الاقتصادية في المدينة.

وكان في استطاعة المحتسب أن يحكم بالسجن والعقوبات البدنية في المشاجرات، وعليه أن يتفقد الحرفيين والتجار للإطمئنان على قضاء حاجات الناس وعدم تعطيلها، وكان العريف أو أمين كل حرفة مسؤولاً أمام المحتسب عما يشجر بينهم من خلافات[41].

وللمحافظة على صحة المستهلكين خصوصاً في المواد الغذائية، اهتموا كثيراً بمراقبة الطحن وصناعة الخبز، فكان لا بد من غربلة الحبوب قبل بيعها[42]، ولا بدّ من التأكد من نوع الدقيق حتى لا يخلط النوع الجيد بالرديء، والتأكد من نظافة الطحانين وأوانيهم وسلامة ما يطحنون، وتجب مراقبة الخبز من البداية، إذ يجب التأكد من نظافة قصاري العجن وجرد الألواح ومسحها، وينهى عن عجن عجين البيات خبزاً كبيراً، ويؤمر صاحب المخبز أن يطبع اسمه على خبزه، وأن يكون وزن الخبز صحيحاً على وزن معلوم وسعر معلوم[43].

أما عقوبة من يتلاعب بأوزان وأسعار وأصناف الخبز، هي التصدق بالخبز الناقص، وإذا كان كثيراً يكسر ويترك للبائع[44].

(40) ابن عبدون: م. س. ص 20.
السقطي: م. س. ص 5، 9.
(41) المجليدي: م. س. ص 56.
ابن عبدون: م. س. ص 53.
(42) السقطي: 21.
الونشريسي: م. س. جـ 6، ص 410.
(43) ن. م. ص 31.
ابن عبدون: م. س. ص 48.
(44) ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 90.
الونشريسي: م. س. جـ 6، ص 411.

أما صاحب الفرن الذي يخلط القمح الدنيء بالطيب فإنه ينهى عن ذلك أولاً، فإذا عاود أدب وأخرج من السوق، وكان ممنوعاً على باعة الحوت أو الجزارين، ولا من تستقذر حرفته بيع الخبز حتى لا يتعرض للتلوث، ويؤمر باعة الخبز بتغطيته، والبعد عن المواضع القذرة، ومراعاة نظافة ساحاتهم[45].

وباعة اللحوم كان لا يسمح لهم ببيع نوعين من اللحم في دكان واحد، لئلا يلتبس على الجاهل، فيباع كل نوع من اللحم في حانوت متخصص، ويحرم على الجزار خلط الأنواع بعضها ببعض[46]، وخلط اللحم السمين باللحم المهزول، أو خلط لحم بطون الذبائح بلحم البطون والرؤوس[47]، ويمنع خلط المصران والكرش وبيعها على اللحم، بل يباع مصران البقري مع كرشه في جملة سقطه، كما يتأكد من أن الذبيحة طاهرة من العيوب[48]، وحتى الطيور المذبوحة يجب التأكد من صحتها وسلامتها.

«ويمر المحتسب على باعة الأطعمة المطهوة ويتأكد من نظافة أواني الطبخ وعدم خلط الأطعمة القديمة بالطازجة»[49].

وكانت للأسواق آدابها، ومع ذلك فلم يخلُ السوق من المنكرات بسبب الزحام واختلاط الرجال والنساء في مواقف البيع[50]، وأصحاب الدواب الذين يحملون دوابهم بأحمال تنوء بها ولا يتورعون عن ضرب هذه الحيوانات وإذايتها[51].

وكان يمنع على الجزارين المشي باللحم في السوق إلا أن تقطع رؤوس الضأن

---

(45) ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 90.

(46) ن. م. ص 93.

(47) السقطي: م. س. ص 33.

(48) ن. م. ص 32.

ابن عبدون: م. س. ص 44.

(49) السقطي: م. س. ص 35.

وانظر رأي فقهاء الأندلس في هذه المسألة «لأن اللحم يباع الرطلين بدرهم والبطون الستة أرطال بدرهم.

الونشريسي: م. س. جـ 6، ص 431.

(50) الطرطوشي: الحوادث والبدع، تحقيق محمد الطالبي، ص 41.

(51) المجيلدي: م. س. ص 110.

ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 96، 97.

حتى لا تضر بثياب الناس وتلوثها بالدم عند الازدحام[52]، ويمنع طرح الأزبال والقاذورات فيها، أو إيقاف الدواب بالخشب والحطب، واجتيازها السوق بالشوك واتخاذ مرابطها على الطريق فتضيقه بحيث يتعذر مرور المارة، ولربما أدركهم شيء من تلوث ثيابهم من أرواثها وأبوالها أو ركضت أحداً[53]، وكان يكره عمل الدوامات والصور وبيعها للأطفال[54].

ولا تخلو هذه الأسواق من الغش والتدليس على الناس، ووقوع الكثير منهم ضحايا لهذه العمليات وقد بين السقطي كثيراً من هذه الأساليب التي لا تخرج عن حيل وطرق للغش نسمع عنها من وقت لآخر في حياتنا المعاصرة، فهناك ذوو النفوس الضعاف الذين يغشون اللحم، وآخرون يخلطون الأطعمة الرديئة بالأطعمة الجيدة، أو الأسماك البايتة مع الطازج، أو غش الحليب بالماء، والزبد والزيت والسمن وغيرها مما جعل الدولة تتشدد في معاقبة هؤلاء[55].

أما أشد عقوبة فكانت للصيارفة أو مزوري العملة، فإذا ظهر في أحد الأسواق دراهم مبهرجة ومخلوطة بالنحاس يبحث عمن أحدثها، فإذا ظفر به أناله المحتسب من شدة العقوبة، وأمر له أن يطاف به الأسواق لينكله ويشرد به من خلفه لعلهم يتقون عظيم ما نزل به من العقوبة، ويحبسه بعدها على قدر ما يرى، ويأمر أوثق من يجد بتعاهد هذا السوق[56].

ولقد كثرت حيل تجار الرقيق من أجل رواج تجارتهم، بالرغم من خضوع تلك التجارة للرقابة الشديدة لما تدره على الدولة من ربح، فكانوا يبيعون صنفاً بدل آخر، أو التخلص من العيوب الخلقية في الرقيق من النساء، بتغيير اللون أو تغطية النمش، وإخفائه ببعض الدهون، أو تغيير لون الشعر، أو إخفاء الروائح الكريهة بدهن البنفسج

---

(52) ابن عبدون: م. س. ص 57.
(53) ن. م. ص 55.
ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 111.
(54) الونشريسي: م. س. جـ 6، ص 415.
الجرسيفي: م. س. ص 121.
(55) انظر السقطي: م. س. ص 34، 40.
(56) الونشريسي: م. س. جـ 6، ص 407، 461.

والطيب[57]، ويبيعون العبد وفيه عيب خفي أو مرض لا يفطن إليه المشتري، أو يكون العبد مسروقاً، أو يكون له أهل يمكن هروبه إليهم، أو يكون حراً قد استعبد، لذلك كانت تشدد المراقبة على مثل هذه الأسواق، وكان على النخاسين أن يقسموا أن لا يكتموا عيباً دقيقاً أو كبيراً ولا يخفوا ما يطلعهم البحث عليه[58].

أما سوق الدواب فيحدث فيه من الغش والتدليس على المشترين الذين لا خبرة لهم الشيء الكثير، لذلك كان يلزم النخاسون بالقسم على ألا يبيعوا دابة لغير معلوم العين إلا أن يضمنه ثقة معلوم العين ويقيد في العقد، وإن كان غير معلوم العنوان وقبله النخاس صار ضامناً يضمنه، ومن حيلهم إذا أرادوا الحط من قيمة فرس أراد شخص أن يبيعه، أخذ النخاس هراً وجعله في مخلاة وعلقها على الفرس، فيخدش الهر الفرس ويزعجه، فإذا رأى الفرس المخلاة ظن أن الهر فيها وامتنع عن الأكل فيها، فيضطر صاحبه لبيعه بعد أن أنقص كثيراً من ثمنه[59].

ومن السمات التجارية لأسواق الأندلس وضع تسعيرة لأثمان المنتجات الاستهلاكية رعاية للمصلحة العامة، وكثيراً ما تدخلت الدولة لتحديد أسعار المنتجات الغذائية بحيث لا يكون فيها غبن على التاجر أو إرهاق للمستهلك وإن كان ابن عبد الرؤوف[60] يرى عدم تسعير «الحنطة» القمح والشعير لأن هذا الغذاء الرئيسي لعامة الناس وحتى لا يخضع لاحتكار التجار وتنافسهم، الأمر الذي يؤدي إلى الزيادة في سعره، فلا يستطيع المستهلك شراءه، لأن ذلك «إنما يبيعه جالبوه من الفلاحين»، ولا يترك التجار يشترونه منهم ليبيعوه على أيديهم.

وكان صاحب السوق يأمر أهل الريف إذا أتوا بالطعام ببيعه في السوق ولا ينزلوه في الدور والفنادق حتى لا يشتري الكمية تاجر واحد أو عدد من التجار فيتحكموا بعد

---

(57) السقطي: م. س. ص 48، 55.

وانظر نوازل ابن سهل بشأن قضايا استخدم فيها أطباء لمعاونة القضاء في الكشف على رقيق بيع على أنه صحيح. تحقيق: د. محمد عبد الوهاب خلاف.

وانظر د. محمد عبد الوهاب خلاف: قرطبة الإسلامية، ص 113، 116.

(58) السقطي: م. س. ص 58.

(59) ن. م. ص 66.

(60) ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 88، 89.

ذلك في السعر ويرتفع الثمن[61]، غير أن جالبي الطعام كانوا يفضلون بيع محاصيلهم ومنتجاتهم جملة واحدة للتجار، ليتخلصوا مما معهم ويحصلوا على ما يريدون من ثمن، ويعودون سريعاً إلى قراهم[62].

ويتم التسعير بالطرق الودية بين المحتسب الذي يمثل الحكومة وبين وجوه التجار من كل سوق. يقول ابن عبد الرؤوف[63]: «إذا أراد الإمام العدل أن يسعر شيئاً من ذلك، فيجمع وجوه أهل سوق ذلك ويحضر غيرهم إستظهاراً على صدقهم، فيسألهم كيف يشترون، وكيف يبيعون فإن رأى شططاً في البيع نازلهم على ما فيه لهم وللعامة صلاح وسداد، حتى يرتضوا به ويتعاهدوا ذلك منهم بعد ذلك في كل حين، فمن وجد منهم قد زاد في الثمن أمره أن يبيع كبيع أصحابه، وإلا أخرجه من السوق وأدبه، وإ أراد واحد منهم أو اثنان أن يبيعوا بأرخص من ذلك لم يمنع بيعه، فإن كثر هـؤلاء، قيل لمن بقي من أهل السوق: إما أن تبيعوا كبيع هؤلاء وإلا فارفعوا، ولا يحل التسعير إلا عن تراضي»[64].

أما المواد الغذائية التي يجلبها الفلاحون بكميات صغيرة ولا يكون لهم حوانيت يبيعون فيها فلا تسعر مثل الجبن واللبن والعسل والزيت والخضر والفواكه، كما لم تكن التسعيرة تجري على أصحاب الحرف[65].

وكان اللحم يسعر بعد أن يعرف ثمن الذبيحة كبشاً أو عنزاً ويعلم وزنها ويسقط من وزنها قدر العظم، بالتقريب حسب اجتهاده ويبيع سقطها وجلدها ويسقط ثمنه من ثمن الجزارة والذبح ويربح فيها درهمين ثم يقسم الباقي على أرطال اللحم فيعلم كم يجب للرطل ويكتب بذلك، وكان يعمل بهذه الطريقة في لحم البقر أو تأخذ اللوزة الداخلية من فخذ البقرة مقشرة، على أن يأخذه السناج وتوزن فتكون ربع عشر البهيمة كلها، ويستغنى بهذا التقريب عن وزن البهيمة كلها[66].

---

(61) المجيلدي: التيسير في أحكام التسعير، تحقيق موسى لقبال، ص 51، 52.

(62) د. محمد عبد الوهاب خلاف: م. س. ص 123.

(63) ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 89.

(64) انظر مجموعة فتاوى خاصة بالتسعير في المعيار المعرب للونشريسي جـ 5، ص 83، 84، جـ 6، ص 408، 409.

(65) ن. م. المجليدي: م. س. ص 55.

(66) السقطي: م. س. ص 35.

وقد اختلفت الموازين والمكاييل في الأندلس من منطقة إلى أخرى فكانت هناك الأمداد، والقفيز والأرطال والأواقي[67].

وكان لوفرة المنتجات الزراعية، أن صار هناك فائض في الإنتاج ورخصت أسعاره، حتى أن عنب مالقة كان يباع منه ستة أرطال بدرهم صغير[68]، وأربعة أوسق من القمح بنصف مثقال، والثمار بأنواعها تباع الثمانية أوسق بنصف مثقال، والقطاني لكثرتها لم تكن تباع وتشترى[69]، وأصبح هناك فائض في المصنوعات الحريرية والكتانية والصوفية، والجلدية والخشبية وغيرها من المصنوعات، مما جعل الدولة تهتم بتصدير هذه السلع إلى وخارج الأندلس، خصوصاً وقد اشتهر أمرها.

فصدرت المصبرات من الفواكه وكان على رأسها التين المالقي الشهير والعنب والزبيب المنكبي إلى جميع جهات المعمور[70]، حتى لقد وصل التين المالقي إلى الهند والصين[71].

وتأتي المنسوجات الحريرية، والكتانية، والصوفية والأقطان في قائمة الصادرات، فيصدر إلى إفريقية وسجلماسة وبلاد السودان الأقمشة القطنية والكتانية الرفيعة والحريرية[72]، ويصدر إلى مصر الكتان، وأردية بجانه إلى مكة واليمن، وطرز الحرير إلى بلاد أخرى وربما حمل منه شيء إلى أقاصي خراسان وغيرها[73]، واشتهرت لبودهم التي لم يساوهم في عملها أهل بلد على وجه الأرض وبلغ ثمن اللبد خمسين وستين ديناراً[74].

(67) ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 107.
ابن عبدون: م. س. ص 39، 41.
(68) ابن بطوطة: م. س. ص 669.
الحميري: م. س. ص 151.
(79) ابن أبي زرع: م. س. ص 167.
(70) ابن سعيد المغربي: كتاب بسط الأرض، تحقيق خوان قرنيط خينيس، ص 74.
(71) المقري: م. س. ص 59.
(72) الحميري: م. س. ص 59.
(73) ابن حوقل: م. س. 114.
(74) ن. م.

وصدرت الأواني والكؤوس الزجاجية المطعمة، والأواني النحاسية والأمقاص وآلات الحديد، والقصاع والمخابىء والأطباق الخشبية التي اشتهرت بصنعها عدة مدن إلى بلاد المغرب والسودان[75].

وكان يجهز العنبر الجيد إلى مصر وغيرها فتباع الأوقية منه هناك بعشرة دنانير، بينما تباع في الأندلس الأوقية منه بثلاثة مثاقيل ذهب[76].

ويحمل من الأندلس إلى جهات كثيرة من العالم القرمز الذي لا يماثل، وحجر المرقشيثا الذهبية وهو نوع من المعادن الكبريتية، ومعدن الزئبق وغيره من المعادن، والرخام بأنواعه المختلفة مصنع وغير مصنع، كما يصدر الزعفران وعروق الزنجبيل[77].

ويحتل الرقيق من الجواري والغلمان قائمة الصادرات إلى جهات كثيرة من أنحاء العالم وكانوا يحصلون عليه من سبي الفرنجة وجليقية «والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس لأنهم عند قربهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود»[78].

وكانت تصدر البغال الفره التي ليس لنتاجها مثيل، لأنها تبدن وتنجب خصوصاً البغال التي تأتي من جزيرة ميورقة، وكانت غالية الثمن موصوفة بحسن السير وسرعة المشي[79].

ولم تقتصر هذه الصادرات على العالم الإسلامي، بل شملت دول أوروبا وغيرها من الدول المسيحية، فكانت سفن جنوة وبيزا والبندقية وأراجون وقطلونية تحمل صادرات الأندلس المختلفة وتأتي بالواردات التي تحتاجها الدولة[80].

---

(75) الإدريسي: م. س. ص 569.
(76) المقري: م. س. جـ 1، ص 144.
(77) ن. م. ص 141، 142، 143، 144.
(78) ابن حوقل: م. س. ص 110.
المقري: م. س. جـ 1، ص 145.
(79) ن. م. ص 114.
(80) المقري: م. س. ص 141، 144.
د. عبد العزيز سالم: م. س. ص 85.

كانت أكثر واردات الأندلس في عصر المرابطين من الدول الإسلامية، ويرى أرشيبالد لويس[81] أن المرابطين تعاملوا على نطاق ضيق جداً مع الغرب اللاتيني، وفضلوا ترك مثل هذا التعامل التجاري لمن رسخت أقدامهم في هذا الميدان من سكان المدن الإيطالية واليهود الذين ترددوا على طرق التجارة الواصلة بين براغ وشمال فرنسا ومن أسواق الرقيق في الأندلس، ولعل تجارة الشرق وتجارة الصحراء استوعبتا كل نشاط التجار المسلمين.

وقد ذكر ابن بشكوال[82] عدداً كبيراً من التجار الأندلسيين الذين زاروا الشرق لتسويق المنتجات الأندلسية من جهة، وجلب منتجات الشرق وإفريقية.

وكانت أهم الواردات إلى الأندلس الجواري والعبيد، وكان شمال إفريقية والسودان، وجنوب شبه الجزيرة العربية ومصر من أكبر أسواق الرقيق الأسود وكانت قوافل هذه البلاد تجلب الذهب والعبيد، ويجلب الرقيق والجواري من الهند وأرمينيا، وتركيا، والعراق، والجزيرة العربية، وكان ثمن العبيد البيض يزيد على السود، وكان هذا الرقيق يرد إلى قرطبة، ثم يعاد تصديره مرة أخرى إلى أماكن كثيرة داخل وخارج الأندلس بعد قيام النخاسين بتدريبهم على حرفة من الحرف أو فن من الفنون[83].

وكان لكل نوع من أصناف الرقيق مزاياه وخصائصه، فالجارية البربرية للذة، والرومية للمحافظة على المال والخزانة، والتركية لإنجاب الولد، والزنجية للرضاع، والمكية للغناء، والمدنية للشكل، والعراقية للطرب والانكسار[84].

أما الرقيق من الرجال فإنه يأتي من الهند والنوبة لحفظ النفوس والمال، والزنج، والأرمن للكد والخدمة، والترك والصقالبة للحرب والشجاعة[85].

وكانت أسواق الأندلس تعج بالأنواع المختلفة من الرقيق، وكان على راغبي الشراء البحث عن الصنف والنوع والشكل والمهنة المطلوبة.

---

(81) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية، ص 474.

(82) ابن بشكوال: الصلة، ترجمة 1135، ص 492، رقم 1347، ص 581، رقم 269، ص 114.

(83) د. محمد عبد الوهاب خلاف: م. س. ص 111.

(84) السقطي: م. س. ص 49، 50.

(85) ن. م.

ويرد إلى الأندلس من الهند وما اتصل بها المسك والكافور والعود[86] والحلى والجواهر الثمينة التي ولع باقتنائها النساء والجواري، وكان معظمها يرد الأندلس من بغداد[87].

وانحصرت أساليب التعامل التجاري في بيع سلعة معينة ومعروضة أمام المشتري[88]، أو بيع سلعة معينة إلى أجل[89]، أو بيع سلعة على أن يتجر المشتري بثمنها مدة سنة[90]، وبيع سلعة معينة ولكنها غير موجودة ساعة إتمام البيع ولكنها معلومة الأوصاف بالنسبة للمشتري[91]، وبيع السلعة وهو في بعض وجوهه كالمؤجلة أي إلى أجل معلوم، ويقوم على الاستجرار بثمن معجل أو مؤجل[92]، أو لبيع غائب موصوفاً في الذمة إلى أجل معلوم في صفة من طعام أو غيره، محصور المقدار بعدد أو كيل أو وزن ويعجل فيه رأس المال[93]، بيع سلعة بالمناداة في صدر النهار ووسطه في أسواق بها باعة منتصبون في الحوانيت برسم البيع من الناس[94]، وبيع منجم أي بالتقسيط[95].

وكان السلف أكثر أنواع البيوع انتشاراً، وربما كان السلف نقداً بنقد، أو نقداً بسلعة، أو سلعة بأخرى، وجرت العادة على توثيق بيع السلف فازدهرت صناعة

(86) المقري: م. س. ص 114.

(87) د. محمد عبد الوهاب خلاف: م. س. ص 101.

(88) ابن سهل: الأحكام الكبرى مخطوط الأوقاف، الخزانة العامة بالرباط رقم 838، ورقة 136.

(89) الونشريسي: م. س. جـ 6، ص 76، 77، 222، جـ 5، ص 258.

(90) ن. م. جـ 6، ص 186.

(91) ابن سهل: م. س. ورقة 136.

(92) منها أن يدفع شخص إلى الرطّاب ديناراً نظير ربعين أو ثلاثة من رطب متناهي النضج والطيب ويعطيه في كل يوم منه نصف ربع أو ثلث ربع أو أربعة أرطال عطاء متصلاً حتى ينفذ، أو إذا دفع شخص إلى الخباز نصف درهم أو ربع دينار في ثلاثين قرصاً من قمح حسن الصنع والطهي، على أن يورد البائع للمشتري الكمية على الأيام المتفق عليها حتى يتم ويكمل العدد، أو الحليب وغير ذلك أصناف المأكولات.

انظر ابن سهل: م. س. ورقة 137.

د. محمد عبد الوهاب خلاف: م. س. ص 192.

(93) ابن سهل: م. س. ورقة 137.

(94) الونشريسي: م. س. جـ 5، ص 197، 200.

(95) ن. م. جـ 6، ص 162.

التوثيق في القرن السادس الهجري، وربما أخذ المسلف رهناً من المستلف، وساعد بيع السلف التجار على استغلال الزراع والاحتكار، خصوصاً للطعام، فيسلفون الفلاحين مستفيدين من اختلاف السعر في أول الموسم وآخره، فيخزنون المحاصيل وقت رخصها ويبيعونها عندما يرتفع السعر، واستغل التجار حاجة الجند المرابطي للمال فاشتروا براءاتهم قبل الخروج للجهاد[96].

والنوع الآخر من التعامل التجاري كان الحوالة على الصيارفة، وكره الفقهاء هذا-النوع من التعامل لأنهم اعتبروا الحوالة ربا[97].

وقد خضعت التعاملات المالية وأحكامها لآراء الإمام مالك وتلاميذه وآراء المجتهدين من فقهاء المذهب بالأندلس، وقد حفلت نوازل ابن سهل وابن رشد، والونشريسي بالعديد من هذه المسائل التي عرضت على فقهاء الأندلس.

ومن الملاحظ أن المعاملات المالية بين الناس في هذه الفترة كانت من التشعب والتنوع واتساع الجوانب نتيجة لازدهار أوجه النشاطات وتعددها كان له الفضل في ترك ثروة فقهية خصيبة مبنية على الاجتهاد.

وأما المعاملات الخارجية فكانت تقوم على المقايضة مع بلاد السودان، والتجارة مع الشرق والبلاد الأوروبية كانت قائمة على العملة الذهبية[98]، وعندما يصل تجار الغرب الإسلامي إلى هذه البلاد يحملون العملة المرابطية أو الموحدية إلى دور الضرب فيها ويسكونها لتعادل سكة البلد الذي يتاجرون فيه، وكانت صقلية تشترط إعادة سك العملة الإسلامية في دور ضربها. كما أن التجار الأجانب فعلوا الشيء نفسه عندما يدخلون بلاد الغرب الإسلامي[99].

وكان التجار اليهود في بلاد الغرب الإسلامي يتخذون من الوكالة نظاماً،

---

(96) الونشريسي: م. س. جـ 5، ص 60.
د. عز الدين موسى: م. س. ص 295.
(97) م. س. جـ 6 ص 315، 316.
(98) وكان من الممكن لأي تاجر الذهاب إلى دور السكة المنتشرة في العدوتين لسك العملة التي يريدها.
القاضي عياض: نوازله (مخ) [و7].
الونشريسي: م. س. جـ 1، ص 159، 164.
(99) ن. م جـ 6، ص 317، 323.

فالوكيل يوزع البضائع على الشركاء عند وصولهم، ويبيع لهم بضائعهم، ويقوم لهم مقام المصرف، إذ يودعون أموالهم عنده، وعن طريق الوكيل يتم الدفع المتوجب على أحدهم، بينما كان تجار المدن الإيطالية يودعون أموالهم في ديوان المشرف ومنها يدفع المشرف لتجار العدوتين[100].

وقامت المعاملات الخارجية على الثقة المتبادلة بين التاجر الأجنبي وتاجر العدوتين، فلا نجد التاجر المسلم يتقيد بما يحتفظ به التاجر الأجنبي من أموال في الديوان، فيبيعه بالسلف، وقد يتبع التاجر المسلم الطريقة نفسها مع تاجر أجنبي حديث بضمانة تاجر قديم، معروف وموثوق به، كما أن التاجر المسلم قد يشتري بضاعة في بلد أجنبي، على أن يدفع قيمة البضاعة في أي مرسى إسلامي ترسو فيه السفن، وفي حالة قيام الثقة أساساً للتعامل في التجارة الخارجية، كثيراً ما تنعكس على العلاقات الشخصية من قيام صداقات وتبادل الهدايا بين التجار[101].

التجارة في وقت الفتنة وبداية الموحدين:

ولكن هذا النشاط التجاري والازدهار الاقتصادي الذي عرفته الأندلس في ظل المرابطين، أصيب بنكسة شديدة في نهاية عهدهم نتيجة للفتن التي عمت الأندلس والمغرب بسبب ثورة المهدي بن تومرت والمريدين والقضاة، علاوة على ما أصاب البلاد من سنوات متتالية من الجفاف، والقحط فهجر الفلاحون مزارعهم بسبب الجفاف وتوالي الفتن، وشلت الصناعة بوجه عام، وعم الكساد البلاد لقلة الطلب على المعروض من المصنوعات والمنتجات، وشاعت البطالة، واشتدت المجاعة حتى اضطر أهلها إلى أكل الدواب، وعانى أهلها شدة عظيمة[102].

وقد وصف الإدريسي[103] مدينة قرطبة في هذه الفترة بقوله: «ومدينة قرطبة في حين تأليفنا لهذا الكتاب طحنتها رحى الفتنة، وغيرها حلول المصائب والأحداث، مع

---

(100) د. عز الدين موسى، ص 304.

(101) ن. م. ص 305.

(102) ابن عذاري: م. س. ص 43.

(103) الإدريسي: م. س. ص 579.

الحميري: م. س. ص 458.

اتصال الشدائد على أهلها»، كما أشار صاحب المعجب[104] إلى تدهور الأحوال بسبب فتنة الموحدين «فاتصلت الحروب، وغلت الأسعار وتوالت الفتن وعم الجدب وقلت المجابي وكثر على الإسلام المحن بالعدوتين».

وبسبب هذه الأحداث اشتد الغلاء، وكثرت المجاعة، وانتشر الوباء بالناس وكثر الموتى، واختفت الحبوب لقلتها، وارتفعت أسعارها حتى لقد بلغ مدّ القمح خمسة عشر ديناراً[105]، والربع من الدقيق بمثقال حشمي[106].

ووصف ابن قزمان[107] هذه الفترة في أزجاله، وصور الغلاء وضيق ذات اليد نتيجة الكساد الذي انتشر في البلاد، ويشكو غلاء القمح والدقيق والطعام الذي صار عزيزاً[108] وصور خلاء بيته من الطعام منذ فترة طويلة بصورة معبرة ومضحكة، إذ إن الفأر قد وجد في وعاء الطعام «القصرى» مسكناً ملائماً له، لطول العهد بفراغه من الطعام وعدم استعماله[109]، ومما زاد في متاعبه عدم وجود العمل برغم تعدد مواهبه[110].

---

(104) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 119، 120.

(105) ابن القطان: م. س. ص 197.

(106) ابن عذاري: م. س. ص 16.

(107) ابن قزمان: أزجال 35، 63، 67، 68، 105.

(108) قال في زجل 84:

يا فقى القمح غالي — والدقيق أغلى وأغلى
والبطن كما في علمك — بلا خبز لس يخلى

(109) وفي نفس الزجل السابق:

يا ثلاث أيام لي ذاب — لم يطقطق فيها غربال
أول أمس، وأمس واليوم — وأنا منه مشغول البال
وأراد الفار دويرة وخد — القصري انزال

(110) وفي زجل رقم 7:

لس عاد عندك يا قطب المآثر — أن تكون وشاح وزجال وشاعر
وأديب كاتب وعندي نوادر — ونكون ضايع بحال مشط أقرع

* * *

ونكون كافي في كل طريقة — وفهيم حفاظ وكاتب وثيقة
وتجي أوقات نعمل لك زعوقة — إن ريت حالي تضحك حتى تشبع

وزاد من عظم الخطب غارات النصارى المدمرة على المدن والقرى، وحرق أسواقها[111]، واستيلائهم على أهم المدن الصناعية بالأندلس وأهم موانيها وهي مدينة المرية وطرطوشة ولاردة مكنيسة وغيرها من المدن الصناعية الكبرى بالأندلس[112].

كان لهذه الغارات أثرها على الحركة التجارية في الأسواق، فشملها الكساد وأغلقت كثير منها أبوابها، بعد أن عدمت السلعة، بل إن الحوانيت التي كانت عامرة بالخضر الناعمة والفواكه الطيبة والتمر المدخر[113]، لم تعد تزخر وتزدان ببضاعتها وأصبح أصحابها لا يجدون ما يعملوه[114].

ولم يشمل الغلاء المواد الغذائية والصناعية فقط، بل تعداه إلى كراء المنازل فابن قزمان أشار في أحد أزجاله إلى أنه كان يكتري مسكناً صغيراً وجميلاً بربع دينار، ولكن صاحبه طالبه بالزيادة ومقدارها ثلاثة أثمان دينار، فاضطر ابن قزمان إلى ترك المنزل لضيق ذات اليد، والنزول في فندق الأحباس (الأوقاف) أو التنقل بين بيوت الأصدقاء والمبيت عندهم[115].

وترتب على هذا الغلاء والحالة المتدهورة، واختفاء السلع أن ظهرت طبقة من المنتفعين بهذه الظروف التي استغلتها أسوأ استغلال، فأثرت من ورائها، وتمنت دوام

(111) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 4، ص 345، 346.

(112) انظر الفصل الثالث في الباب الأول.

(113) ابن الخطيب: م. س. جـ 1، ص 115.

(114) قالوا في أمثالهم «جالس في الدكان يشرد الذبان».

الزجالي: م. س. رقم 776.

(115) يقول ابن قزمان: زجل رقم 87:

وكان أكريت دويرة من إنسان
بـرباعي سكنت فيها زمان
ثم قال لي يزيد ثلاث أثمان

واضطر في آخر الأمر أن يخرج من السكن لعدم استطاعته دفع الزيادة وسكن في فندق الوقف.

فالفندق بتاع الوقف نسكن
أو داني على الضيافة ساكن

الحال يقول صاحب الحلل الموشية[116] «واصطلى بحسرها طلاب العافية، ورضيها كل من ذهب إلى الفساد».

وزادت الأمور تعقيداً عندما استدعى بعض الثوار النصارى واستدعى البعض الآخر الموحدين، وقام أمير البحر علي بن عيسى بن ميمون بعد أن انضم للموحدين بمنع توصيل الأطعمة والأقوات إلى إشبيلية عن طريق البحر، وصادر أموال التجار الذين يسوقون الأقوات ويتصرفون في مصالح المسلمين، وقتلهم مما زاد في اشتداد الأزمة، فارتفع السعر، وعظمت المجاعة، باتصال الفتن والتحامها، حتى بيعت خبزة بدرهم ونصف، وبيع قدح القمح بستة وثلاثين درهماً، وباع الناس أموالهم بإشبيلية بالأيسر اليسير، واستوى الغني بها والفقير، وبيع أصل الزيتون بالشرف بنصف، ودار تساوي مائة دينار بعشرة دراهم[117].

وذاقت قرطبة وأهلها من سوء الفتنة ما لم يذقه أحد من أوائلهم في الفتنة الحمودية[118]، وصادر الموحدون أموال المخالفين لهم مما أضر بحركة المعاملات كثيراً[119].

وتأثرت حركة الطرق التجارية وسادها الخراب وعدم الأمن، وبعد أن كانت تعج بالمسافرين وتنتشر على جنباتها الأسواق والحوانيت والفنادق صارت «لا سكنى بها ولا عمارة»[120]، وعادت زاهرات الأمصار موحشة خرائب، وعامرات الأقطار سباسب[121].

واحتكر ابن مردنيش التجارة في إمارته، ولم تعد التجارة حرة، وصار يضيق بذلك على التجار ويزاحمهم فـ«اتخذ حوانيت بيع الأدم والمرافق تختنق

---

(116) الحلل الموشية: ص 119.
(117) ابن عذاري: م. س. ص 36.
(118) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 205.
وانظر ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 128، 137. عن الفتنة الحمودية
(119) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 206.
(120) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 202.
(121) ابن سعيد: م. س. جـ 1، رقم 252، ص 351.

بجانبه»[122]، كما تعهد لجنوة أن يبني لرعاياها الذين يسكنون بلنسية ودانية فندقاً يزاولون فيه تجارتهم وشؤونهم، وأن يعين لهم حماماً يذهبون له كل أسبوع مجاناً[123].

وكان حصن طبيرة بزعامة الثائر علي الوهيبي، يتعيش من غاراته على ما حوله من مدن وقرى، أو يقطع الطريق على المسافرين سواء في البر أو البحر، حتى شملت أضراره أهل العدوة خصوصاً، وقد جمع حوله الفسقة «من أصناف الدايرين من أهل الشرف والسرف والعصيان، وإذاية المسلمين في البر والبحر من كل البلدان، فكانت شجى على أهل العدوة والأندلس في نهب أموال المسافرين والتجار، في البراري والبحار»[124] ولم ينقطع خطر طبيرة إلا بعد أن استولى الموحدون عليها سنة 563 هـ (1167 م)[125].

وانتشر خطف النساء والأطفال، ووجد فيها بعض أشياخ الموحدين وطلبتهم تجارة رابحة، فباعوا النساء دون استبراء، واعتدوا عليهن، فلما علم الخليفة عبد المؤمن بذلك أمر بعدم بيع النساء دون استبراء، ولا يتولى بيعهن إلا من اتصف بالدين والأمانة، وأمر بالتوقف عن بيعهن في جميع ما يغنمن منهن حتى يخاطب بأصل أمرهن وكيفيته[126].

وبعد أن استقر الأمر للموحدين قليلاً، حاولوا إصلاح ما أفسدته الفتن والحروب، فأرسلوا بالمواد الغذائية وآلات الحرب، فحيت بعد موتها، ولكن الأندلس لم تستطع أن تستعيد نشاطها التجاري، إلا في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن[127].

(122) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 2، ص 124.

(123)

(124) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 367، 368.

ابن عذارى: م. س. جـ 3، ص 37.

(125) ن. م.

(126) ابن القطان: م. س. ص 160.

(127) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 202.

ابن عذاري: م. س. ص 99.

ابن أبي زرع: م. س. ص 206.

أما التجارة الخارجية فقد تأثرت تأثراً كبيراً، إذ تضررت التجارة مع السودان، فلم تكن صحراء صنهاجة خالصة للموحدين فلجأ إليها الثائرون من صنهاجة على الموحدين، وتحالفوا مع أبناء عمومتهم بني غانية أصحاب ميورقة، فكثرت حوادث قطع الطرق على التجار بين سجلماسة وغانة، مما أدى إلى تحول التجارة مع السودان عبر الصحراء من سواحل المحيط إلى وسط الصحراء من اتجاه وركلان والواحات إلى مصر، وأسهم انتقال تعدين الذهب من جنوب غانة إلى مالي في هذا التحول إسهاماً كبيراً مما أثر على كمية الذهب التي تصل إلى الموحدين عبر الصحراء[128].

كما ضيّق تجار غانة على التجار المغاربة في أسواقهم ووجدوا دعماً من سلطات غانة لهم، مما جعل الموحدون يهددون ملوك غانة بمعاملة تجارهم بالمثل[129].

ولم تكن علاقة الموحدين بدول المشرق بأحسن حالاً ومع أن عدداً من المغاربة عمل مكرماً في دول المشرق إلا أن الفاطميين في مصر كانوا يضيقون على الحجاج والتجار المغاربة، ويأخذون العشور من تجار المسلمين الغرباء[130] مما أدى إلى معاملة الموحدين لهم بالمثل[131].

وتأثرت التجارة مع الدول النصرانية في إسبانيا بسبب الحروب المتصلة واضطر الموحدون للتعامل مع المدن الإيطالية ومنحتهم امتيازات خاصة، إذ سمحوا لسفن جنوة بالاتجار من كافة موانىء الدولة وخفضت عن تجارها العشور، وحرصاً على سلامة أموال التجار الأجانب وضماناً لتحصيل الضرائب منهم كان البيع والدفع يتم عن طريق الأشراف، والمشرف هو المسؤول عن التجار الأجانب في كل مدينة[132].

من كل ما سبق شرحه يتضح تأثر الحياة الاقتصادية تأثراً كبيراً نتيجة للفتن والأحداث التي شملت أواخر عهد المرابطين وبداية الموحدين مما انعكس على الحياة الاجتماعية والسياسية.

(128) المقري: م. س. جـ 3، ص 107.
د. عز الدين موسى: م. س. ص 273.
(129) ن. م. ص 105.
(130) رحلة ابن جبير: ص 13، 38، 56.
(131) ابن القطان: م. س. ص 148.
(132) د. عز الدين موسى: م. س. ص 277، 278.

الفصل الرابع

النظم المالية

واردات الدولة: الضرائب الشرعية ـ الغنائم ـ الجزية ـ قلة الضرائب مع ضمان تحصيلها يزيد مال الدولة ـ قلة نفقات الدولة في بدايتها ـ الخدمات العامة من الأحباس ـ ازدياد النفقات العسكرية ـ اضطراب الأحوال الاقتصادية ـ فرض ضرائب غير شرعية ـ عدم تحديد القبالات ـ الاشتطاط في تحصيلها، المتقبل ـ الخراص ـ الغش والتلاعب في تحصيل الضرائب ـ التعتيب ـ بناء الأسوار ـ إتاوة البواب ـ القباض المشرف على وزن السلع ـ اختلال الأحوال الاقتصادية وعجز بيت المال عن تمويل الجيش ـ شكوى الناس لأمير المسلمين ـ التشديد على القضاة بالمراقبة وتعيين صاحب بيت المال ـ مطالبة المحتسب بالتأكد من الأسعار والقيام بحملات تفتيشية على الأسواق والمتاجر ـ التشديد على الموانىء.

في زمن الفتنة: استحداث ضرائب ووظائف لجبايتها ـ ومصادرة الأموال ـ السخرة ـ ضريبة مغادرة البلاد ـ ظهور طبقة من المستغلين.

العملة المرابطية: جودتها ـ قيمتها ـ الاهتمام بدور السكة ـ عمال دور السكة ـ سوق الصرف ومراقبة أحوال الغش ـ عملة الثوار المنتزين ـ عملة الموحدين ـ قيمتها.

النظم المالية:

اعتمدت واردات الدولة المالية في عهد يوسف بن تاشفين وبداية حكم علي ابن يوسف على الضرائب الشرعية وهي زكاة العين والماشية والعشور[1]، واعتمد بيت المال على الغنائم، فكان الجهاد لا ينقطع والغنائم كثيرة[2]، وهناك مصدر مهم لبيت المال وهو الجزية والأموال التي تحصل من اليهود في بعض الأحيان، خاصة يهود مدينة أليسانة من عمل غرناطة والذين اشتهروا بثرائهم الفاحش[3].

وكان لقلة الضرائب في بداية حكم المرابطين أثرها على ازدهار الحركة التجارية، ومضاعفة الإنتاج وعلى زيادة دخل الفرد، إذ كان طبيعياً أن تؤدي هذه السياسة الحكيمة إلى التخفيف عن كاهل التجار وتشجيعهم على المغامرة وارتياد الأسواق، لا يخشون إرهاقاً ولا عسفاً، ما داموا يؤدون عن أرباحهم ما يفرضه الدين

---

(1) «لم يكن في عمل من بلادهم خراج ولا معونة ولا تقسيط، ولا وظيف من الوظائف المخزنية، حاشا الزكاة والعشر».

انظر ابن أبي زرع: م بن ص 167.

الحميدي: جذوة الاقتباس، ص 342.

ابن المؤقت: السعادة الأبدية، جـ 2، ص 89.

(2) د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين، ص 412.

(3) الإدريسي: م. س. ص 571.

الحلل الموشية: ص 80، 81.

وذكر ابن عذاري: جـ 4، ص 23، أن يوسف بن تاشفين حصل من اليهود مائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار.

من زكاة، كما أن تخفيف الضريبة على المنتج تساعد على مضاعفة الإنتاج، ويشيع بين الناس لوناً من الرخاء يمكنهم من أن يقبلوا على الشراء، فتروج التجارة وتتكدس في الأسواق[4].

وبرغم قلة الضرائب فقد تضاعفت الأموال، وتدفقت على بيت المال، ولعل السبب في تفسير ذلك هو أن قلة الضرائب مع ضمان تحصيلها، خير من كثرتها وعجز الناس عن الوفاء بها، لذلك شدد المرابطون في تحصيل الضرائب الشرعية بحيث لا يفلت منها أحد، وأمروا بمراقبة عمال الخراج مراقبة دقيقة، وحاسبوهم حساباً عسيراً[5].

ويقول ابن خلدون أن الدولة سواء قامت على سنن العصبية أو الدين تكون قليلة الضرائب كثيرة الجباية في أول عهدها، لأن الرعايا ينشطون للعمل، فيكثر الاعتمار، وعندما تنتقل الدولة إلى الترف تكثر الضرائب فيثقل ذلك على الناس، فيقل الاعتمار، وتنقص الجباية ولا يكون ذلك إلا تدريجياً، فإن أقوى الأسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن[6].

ونتيجة لهذه السياسة المالية الحكيمة وجد في بيت المال عند وفاة الأمير يوسف بن تاشفين ثلاث عشر ألف ربع من الورق، وخمسة آلاف وأربعين ربعاً من الذهب المطبوعة[7]، وذكر ابن المؤقت[8] أن يوسف بن تاشفين جبى في حياته من المال ما لم يجبه أحد قبله، فتولى علي بن يوسف ملك أبيه والبلاد هادئة، والأموال وافرة، والأمور مستقيمة، والملك قد توطأ[9].

وكانت دولة المرابطين في بداية حكمها قليلة النفقات، فلم تكن تنفق على الجيش نفقات طائلة، إذ كان الجند يؤجرون على خدمتهم بمنحهم إقطاعات زراعية

---

(4) د. حسن محمود: م. س. ص 403، Dozy, R., op cit vol IV p. 225.

(5) د. حسن محمود: م. س. ص 409، 411.

(6) ابن خلدون: العبر، جـ 1، ص 279، 280.

(7) ابن أبي زرع: م. س. ص 137.
ابن المؤقت: م. س. ص 89.

(8) ابن المؤقت: ن. م.

(9) ابن أبي زرع: م. س. ص 157.

يستثمرونها ويتصرفون في غلتها[10]، أو تصرف للفارس مبلغ لا يزيد عن خمسة دنانير في الشهر بما في ذلك نفقته وعلف فرسه[11]، واعتمد الجند على نصيبهم من الغنائم اعتماداً كبيراً، كما أن البلاط المرابطي لم يكن يعيش في نفس البذخ وإنفاق الأموال التي عاشها أمراء الطوائف من قبل[12].

واعتمدت الخدمات العامة في غالب الأحيان على الأحباس، فلم تكن الدولة تتكفل بمصاريف المنافع العامة، فمن الأحباس[13] كان يمكن للمدن والقرى أن تحصل من القيم على الوقف بعد استئذان القاضي على حق الانتفاع بجزء من ماله والذي يخصص في الغالب لتموين مؤسسات الصدقات والمجذومين، إذ هي في كثير من الأحيان تكون محدودة الدخل، أما الهيئات ذات النفع العام التي عاشت زمناً طويلاً فإنها كانت تقريباً من مؤسسات الأمراء، وذلك بأن يعطى من ماله المال اللازم للتأسيس، وأن يتكفل بإدارة المؤسسة من دخل وقف خيري محبس عليها، وفي معظم الحالات يكون من وقف المحال التجارية والمخازن والمطاحن، وأفران الخبز ومعاصر الزيت، ومعامل النسيج، والحمامات، وكذلك المستغلات الزراعية مثل الحدائق والملكيات العقارية بل لقد حبست قرى بكاملها[14].

وكان يخصص دخل هذه الأحباس في الغالب لصيانة وخدمة المساجد، وإدارة المدارس المنشأة لتحفيظ القرآن الكريم، وغيرها من المدارس والمستشفيات، كما يخصص الدخل أحياناً لمعاونة الفقراء والمساكين الذين لا دخل لهم، وأحياناً لخدمة الحرمين في مكة والمدينة، فكانت الأحباس تقوم بخدمات عديدة للدولة فرفعت بذلك عبئاً كبيراً عن بيت المال[15].

---

(10) الطرطوشي: سراج الملوك، ص 123.

(11) الحلل الموشية: ص 67.

(12) «كان أمراء المرابطين وأشياخهم أقواماً ربتهم الصحراء، نيتهم خالصة، لم تفسدها الحضارة ولا مخالطة الأسافل».

الحلل الموشية: ص 82.

(13) انظر ابن رشد: البيان والتحصيل، جـ 12، ص 185، 319.

الونشريسي: المعيار المعرب، جـ 7، وكثر التحبيس حتى أنه كانت تحبس الأشجار لأخذ زيتها للإنارة، والمنشار الخشب للنجارة، وكانت تباع أحباس للاستفادة منها في جهة غير المحبسة لها.

(14) ن. م.

(15) ليفي بروفنسال: م. س. ص 83.

غير أن مصروفات الدولة ازدادت بمرور الوقت نظراً لتغير الظروف فلم يعد الجيل الثاني من المرابطين يسلك نفس السلوك المتقشف للجيل الأول، فصاروا يحيون حياة ميسورة يسرفون في بذلهم وفي عطائهم، وينفقون في سبيل الله[16].

وازدادت النفقات العسكرية بسبب خروج المهدي وانتهاز النصارى الفرصة لمهاجمة القلاع والحصون في الأندلس: يقول صاحب الحلل الموشية[17]: «ولم يزل أمير المسلمين علي بن يوسف يوالي الحروب على أصحاب المهدي من كل جانب ويبعث لمحاربتهم الجيوش والكتائب، ويقيمون المدة الطويلة في الحرب معهم والقتال، وينفق عليهم بيوت الأموال، فدامت أكثر مدته في حروب معهم وكروب».

أضرت الحرب مع مهدي الموحدين كثيراً باقتصاد البلاد، وزاد في صعوبة الأمر اتصال النصارى المعاهدين بألفونسو المحارب وشجعوه على غزو البلاد فاجتاحها طولاً وعرضاً وشمالاً وجنوباً مما أضرّ بالحياة الاقتصادية[18].

ونتيجة للعجز المتواصل في بيت المال اضطرت الدولة إلى فرض عدد من الضرائب أو القبالات فيذكر الإدريسي[19]، أن أكثر المصنوعات بمدينة مراكش فرضت عليها القبالات، مثل سوق الدخان، والصابون، والصفر، والمغازل، وكانت القبالات على كل شيء يباع دق أو جل، كل شيء على قدره، ولا شك أن هذه الضرائب قد فرضت في الأندلس، فشملت المحاصيل الزراعية، والمصنوعات وغيرها من الصادرات أو الواردات ولم يُستثنَ منها شيئاً.

ويبدو أن هذه القبالات لم تكن محددة، بمبلغ معين أو كمية محددة وإنما تركت لاجتهاد المتقبل، الذي كثيراً ما يشتط في تحصيلها، حتى حمل عليه ابن

---

(16) ابن الزبير: صلة الصلة، ص 82.
ابن فرحون: الديباج المذهب، ص 49، مفاخر البربر، ص 53.
المقري: أزهار الرياض، جـ 3، ص 209.

Dozy, R,. op cit vol IV p. 261.

(17) الحلل الموشية: ص 111.
(18) ابن عذاري: م. س. جـ 4، ص 73، جـ 3، ص 12، 13.
(19) الإدريسي: م. س. ص.235.

عبدون[20]، ووصفه بأنه شر خلق الله، وأنه خلق للضرر «يجري ويسعى لضرر المسلمين، ويفتح أبواب الضرر عليهم، ويغلق أبواب الخير والنفع عليهم»، ويستوي عنده في هذه الصفة الخراص[21] الذين اتهمهم في عدة مواضع من رسالته واتهمهم بالرشوة وطلب من القاضي أن يمنعهم من الخروج إلا بأمره، وأن يحدد لهم ما يجب عليهم ويوصيهم بالرفق والتحري وترك التشطط، والأنفة والحقد فهم «فساق، أكلة سحت أشرار، سفلة، لا خوف ولا حياء ولا دين، ولا صلاة لهم، إلا طلب الدنيا، وأكل السحت والربا»[22] وكان مجال هؤلاء يمتد إلى الريف المجاور فكانوا يزورون الأهراء والمطامير[23].

ولأن الدولة لم تكن تعطي للمتقبل والخراص راتباً عن عمله، وإنما تجعل أجره على أهل الزراعات والأموال، لذلك كان المجال كبيراً للتعدي، والشطط في تحصيل الأعشار، أو تناول الرشاوي، خصوصاً لأن هذه القبالات لم تكن محددة بمبلغ معين، أو كمية محددة، وإنما تترك لاجتهاد المتقبل الذي كثيراً ما يتعسف في جبايتها، فكثيراً ما يحدث أن تؤخذ القبالات أكثر مما يجب، بل إنها تغرم أكثر من مرة مثل قبالة الأضاحي وبعض المواد الغذائية التي تباع في المنازل، لذلك شدد ابن عبدون على وجوب تعريف الناس بعدم دفع قبالة الأضحيات لأنها أخذت من الجلابين، كما لا تؤخذ ممن باع طعاماً أو زيتاً في داره، لأنه سبق تحصيل أعشار أثمانها[24].

لذلك طلب من القاضي أن يحدد للمتقبل مقدار ما يأخذه، ولا يترك ذلك لاختياره، ولا إلى ما يصطلح مع الوزير عليه إلا بحكم القاضي، ووجوب تحديد مرتبات معلومة للخراص من بيت المال «لا على أهل الأموال كالذي يفعلونه اليوم وهو جور عظيم»[25].

---

(20) ابن عبدون: م. س. ص 30.

(21) الخراص: هوالذي يخرج إلى البساتين والجنان لتقدير غلات الزيتون، ومثيله من الغلات لتقييم خراجها، وترجمها بروفنسال بالجباة.

(22) ابن عبدون: م. س. ص 5.

(23) ليفي بروفنسال: م. س. ص 83.

(24) ابن عبدون: م. س. ص 30.

(25) ن. م. ص 30، 31، 6.

واستغل المتقبلون ضريبة الرحاب واشتطوا في جبايتها وادعوا أنها أوامر السلطان «وعياذاً بالله أن يأمره السلطان»، وتحكموا في الناس بتخويفهم وترويعهم باسم السلطان لأكل أموالهم بغير حق[26]، ويبدو أن تصرف المتقبل هذا كان متفقاً عليه مع بعض الوزراء الذين كانوا يرون جمع أكبر مقدار من الجباية لمصلحة الدولة في الظاهر، بينما هي في الحقيقة ليجمعوا ثروة عن هذا الطريق مدعين أن ذلك لمنفعة السلطان.

وقد استنكر الأمير علي بن يوسف هذه الطريقة في الجباية، وهذا التعسف في جمعها في رسالة وجهها إلى القضاة يقول فيها: «وأمر الزكوات على تباينها في الصفة، وأنواعها المختلفة تجرى على فريضتها، وتوقف على حدّ شريعتها، لا تحرف ولا تبدل، ولا تصرف عن جهتها، ولا تعدل، هذه أمثال مضروبة، وهدايات منصوبة، وقوانين موضوعة، وأعلام على طريق الحق مرفوعة»[27].

واختلفت المناطق في تحصيل العشور على المحاصيل بحسب القائمين على جمعها، فكانوا في إشبيلية يخرصوا الزرع بالجملة ويحصلوا العشور دون نصاب، فيعرضوا الزراع وصغار الفلاحين للظلم، لذلك طالب ابن عبدون هؤلاء الخراص بألا يخرصوا الزرع إلا في الفشقار[28]، بعد خروج ما يلزمه عند حصاده، كما يفعل أهل قرطبة كما شدد على القاضي بأن يحاسب الخراص ويراقبه جيداً، وإذا أتى بالزمام فيجب عليه أن يريه له ويمضي عليه[29].

وفي آخر حكم الأمير علي بن يوسف في عام 519 هـ ـ 1125 م أصدر أوامره إلى الأندلس بالنظر في الأسوار بجميع البلاد بفرض ضريبة التعتيب أو المعونة، وهي تكليف أهل كل مدينة بترميم وإصلاح أسوارهم، والعناية بها، بناء على نصيحة القاضي أبي الوليد بن رشد لضرورة حماية أسوار المدن بعد أن تعددت هجمات النصارى[30].

(26) ابن عبدون: ن. م. ص 31.
(27) د. محمود مكي: م. س. رقم 4، ص 173.
(28) الفشقار كلمة أرجونية الأصل (إسبانية) Fascal ومعناها كومة من حزمات الزرع المحصود، والفعل منه فشقر الزرع أي حصده، وجعله حزمات. دوزي: المعجم.
(29) ابن عبدون: م. س. ص 6.
(30) ابن عذاري: م. س. جـ 4، ص 73.

فلم يخلُ التعتيب من التلاعب والغش مثل ما حدث في غرناطة، فكان سبباً في عزل الأمير أبي عمر ينالة ابن أمير المسلمين علي بن يوسف[31]، ولكن هذا ليس دليلاً على أن كل من قام بعمل في الجباية فهو مختلس أو متلاعب، وإنما كانت أمثلة كثيرة تدل على الحرص في تطبيق الشريعة والعمل لصالح الدولة والمجموع، كما حدث في المرية[32].

وفي بعض الأحيان كانت ضريبة التعتيب تترك لأهل البلاد أنفسهم، فيتكفل بالأمر كل حي به مسجد يختارون جماعة منهم، ويقومون بترميم الجهات القريبة منهم دون تشغيب ولا تعتيب كعادة أهل قرطبة في رم أسوارها، وأهل إشبيلية دون إسراف وإجحاف[33].

غير أن القضاة كانوا لا يتهاونون في جمع المعونة لترميم الأسوار دون مراعاة بعض الظروف القاسية التي يمر بها أهل المدينة كما حدث في قرطبة عندما طالب قاضي الجماعة ابن المناصف[34] من الناس المعونة، فرفضوا دفعها بسبب الأضرار البليغة التي لحقتهم، والخسائر الجسيمة في الأموال من جراء اشتعال النار في سوق

---

(31) وقع الاتفاق بين قاضي غرناطة أبي القاسم بن ورد، وصاحب المستخلص (الأملاك السلطانية) أبى علي هدبة أن يجمع التعتيب منها، وأوكلوا الأمر إلى رجل من بني نجبة لجمعها، فلم يكن من الحزم ولا من الخدمة، فتمزق المال كل ممزق وعاث فيه كل مخرق، ولما عاين الأمير ينالة والي غرناطة الأسوار، وجدها غير صالحة، فذم البنائين وشدد على الناس في دفع المال، فجمع المال خوفاً منه لما عرف عنه من شدة وقسوة، ولكن عدم الأمانة وغش العمال في البناء وترميم الأسوار وفي وضع الأساس، عجل بسقوط أجزاء كبيرة من الأسوار على المساكن المجاورة بجهة باب الرملة وباب البيرة، مما تسبب في هلاك عدد كبير من الأهالي، فكثرت شكايات الناس، فأمر عليّ بن يوسف بعزل ابنه وإرساله إلى مراكش حيث واجهه بالمتشكين، فأمر بحبسه ومصادرة أملاك كاتبه وسجنه.

ابن عذاري: ن. م. ص 73، 74، 77.

(32) اختار الناس في المرية رجلاً منهم لترميم الأسوار، فأخذ الناس بالحزم، واستكثر بالسياسة والحزم، ولم ينفق شيئاً في غير موضعه، كما استعان بأهل الخبرة والمعرفة فلما رأى الناس ذلك تساهلوا في الأداء، وتعاونوا معه حتى كمل السور بإتقان وبيسر من المؤنة دون شرب ولا سجن.

ابن عذاري: ن. م. ص 74.

(33) ن. م.

(34) هو أبو عبدالله محمد بن أصبغ له ترجمة في الضبي، بغية الملتمس رقم 66، ص 51.

ابن الأبار: المعجم مترجمة 118، ص 130.

الكتان وسوق الحرير، وعندما ألح ابن المناصف في جمعها، رجمه الناس بالحجارة، فأمر بالقبض على المشاغبين وإلقائهم في السجن تمهيداً لقتلهم بتهمة الخلاف والنفاق، وكان ابن قزمان من بين الذين زج بهم[35].

كما ثار أهل إشبيلية على القاضي أبي بكر بن العربي حينما طالبهم بترميم أسوارهم بعد السيل الذي أتى على جانب منها، وفرض عليهم جلود أضحياتهم في عيد الأضحى، فاحضروها كارهين، ثم اجتمعت العامة العمياء، وثارت عليه، ونهبت داره، فاضطر إلى إقامة السور من ماله الخاص[36].

وكلفت حركة المهدي الدولة الكثير من الجهد والمال، إذ اضطرت إلى بناء الأسوار الضخمة لحماية المدن خاصة العاصمة مراكش، فتكلف سورها الذي أشار ببنائه القاضي أبو الوليد بن رشد سبعين ألف دينار من الذهب، وجمع له من الفعلة والصناع العدد الكثير، فأنجزه في مدة ثمانية أشهر بالرغم من عظم مساحته واتساعه، وفي نفس الوقت أصدر أوامره إلى الأندلس للعمل على تقوية أسوارها لحماية المدن من هجمات النصارى التي ازدادت بسبب انشغال المرابطين بالمهدي[37].

وكانت هناك عادة في الأندلس، يعطى للبواب الذي يفتح باب المدينة هبة من المسافرين والتجار، لأنه لم يخصص له راتب يتعيش منه، غير أن تدهور الأحوال الاقتصادية وتفاقم الغلاء، جعلت البواب يلزم المسافرين والتجار بما يشبه الإتاوة أو الفريضة حتى «صار ذلك كالقبالة، بل أثقل، وتسببوا في أكل أموال الناس بل أصبح يتساهل في عدم الإبلاغ عن الأشياء المسروقة التي تباع خارج الأسوار، لذلك ينصح ابن عبدون بأن يحدد للبواب ما يأخذه من العابرين إلى داخل المدينة، وأن يجعل القاضي شخصاً يراقب البواب خارج البوابات، ويكون من الأفضل إلغاء الهبة التي تعطى له، ويعين له أجر يتعيش منه، ويحصل على هذا الراتب من عند صاحب المواريث والأحباس، أما إذا رغب أحد المسافرين أو التجار في إعطاء البواب شيئاً، فيكون في شكل منحة وليس مجبراً عليه[38].

(35) ابن قزمان: زجل رقم 41.

(36) المقري: نفح الطيب، جـ 2، ص 27.

(37) ابن القطان: م. س. ص 107.

الحلل الموشية: ص 90، 98.

(38) ابن عبدون: م. س. ص 33.

واستغل بعض القباض المشرفون على وزن السلع هذه الوظيفة في زيادة الوزن لصالحهم، وإذا اعترض صاحب السلعة عليهم، أهانوه هم وأعوانهم، وتعدوا عليه، ووصفهم ابن عبدون[39] بأنهم لصوص عارفون بأوجه المكر.

واختلت أحوال البلاد في آخر عهد علي بن يوسف اختلالاً مفرطاً[40]، إذ بلغت الحالة الاقتصادية مرحلة حرجة، وعجز بيت المال عن تمويل الجيش ودفع أرزاق الجند، فاضطر أكثر هؤلاء إلى كراء دوابهم[41].

واضطر الأمير علي بن يوسف إلى أن يقسط على الرعية سوداناً يغزون في العساكر برزقهم وسلاحهم، ونفقاتهم، يخرجون ذلك من أموالهم ففعلوا[42].

وكان للمغالاة في ضمان تحصيل الضرائب في الظروف غير الملائمة التي تمر بها البلاد بسبب تأثر الزراعة والصناعة وكساد التجارة أن أصبح هناك مجالاً للغش والتلاعب ومحاولة التهرب من المغارم، وزيادة شكاوى الناس إلى أمير المسلمين مما جعله يوجه تعليماته للقضاة بتحري وكشف المظالم فيقول للقاضي «واستكشف الأحوال، وتعرف صورها واستعلم مع الرعية شأن الرعية وخبرها فكل ما رفعته إليك من أحوالها، وتظلمت فيه من عمالها، أجريته مع الحق كيف جرى، وعممت بالنظر ولم تخص قضيته دون أخرى، فكل بك معصوب وأنت عنه محاسب ومطلوب»[43]، وفي رسالته للقضاة يشدد عليهم بتوجيه أوامرهم لقضاة البلاد للقيام بفحص الشكاوى التي تضرر منها الناس[44] وفي آخر الرسالة يبرىء نفسه وذمته من هذه المسؤولية، «قد تبرأنا إليك من وزرها، وتخففنا بإسنادها إلى نظرك أمرها[45].

ويبدو أن بعض القضاة لجأ إلى تعيين بعض الجباة من أهل الذمة لضمان جمع الضرائب والقبالات في نهاية حكم علي بن يوسف، فلما علم بذلك الأمير تاشفين بن

(39) ن. م. ص 7.
(40) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 177.
(41) ابن عذاري: م. س. جـ 4، ص 102.
(42) ابن القطان: م. س. ص 109.
(43) د. محمود مكي: م. س. ص رسالة 4، ص 172.
(44) ن. م. ص 171.
(45) ن. م. ص 173.

علي بعد توليه وجه خطابه إلى بعض القضاة الذين زاروه في المغرب وعلى رأسهم القاضي محمد بن جحاف بتاريخ العشر الأول من جمادي الأول 538 هـ - ديسمبر 1143 م يأمر فيها القضاة والفقهاء بعدم استخدام الذميين فيقول «وكذلك نؤكد عليكم أتم تأكيد أمر أهل الذمة، ألا يتصرف أحد منهم في أمور المسلمين لأنه من فساد الدين»[46] مما يدل على أن أمراء المرابطين كرهوا استخدام الذميين في الأعمال التي لها علاقة بالمسلمين.

وشددوا على القضاة في تعيين صاحب بيت المال، وألا يمكن منه أحداً وأن يحافظ عليه بجهده ويعين له رجلاً غني عدل، حتى لا يترك أحداً يتصرف في شيء منه إلا بأمر القاضي، عليه أن يتفقد العاملين فيه، والتأكد من المدخول والمنصرف، أي بالمعنى المعاصر، عمل جرد سنوي، ولو أمكن كل شهر فهذا أصلح لئلا تقع الخيانة وتفسد الأمانة[47].

وطالبوا المحتسب بأن يمشي بنفسه على الأسواق ومعه أعوانه وميزانه الذي يزن به الخبز في أحد الأعوان، ويتأكد من أن اللحم عليه ورقة بسعره[48].

وكان السقطي[49] يرى ألا يعين الناظر في الحسبة أحداً من رجاله في وظيفة دائمة بل يجب أن يبدل منها من حين لآخر، حتى لا يكون هناك مجال للرشوة، ولا بد أن تقوم حملات تفتيشية على الأسواق والمتاجر، وتكون مفاجئة، لا يعلم بخروجها أحد ولا يعرف بالجهة المتوجه إليها، فإنهم إن عملوا ذلك تقدم واحد منهم، أو قدموا غيرهم من أرباب ذلك الأمر الذي يخرج فيه، ويشعرهم بقصده، فيغيب صاحب الذلة، وفاعل الريبة، أو يغيب عين الشيء الفاسد فلا تمكن إقامة الحجة عليه، وربما وجد بعد ذلك يزعم أن ذلك الشيء الفاسد لم يكن له، وإنما جعل بموضعه عند تغيبه عنه، ويخفق سعي المحتسب في ذلك.

وكانت الدولة تحمي أراضي ضفتي الوادي الكبير من أن يشغلها أو يستغلها أحد لبناء شيء عليها، ولعل الغرض من ذلك هو ضمان تحكم الدولة في مكوس

---

(46) د. حسن مؤنس: نصوص سياسية، رسالة رقم 1، ص 113.

(47) ابن عذاري: م. س. ص 10.

د. محمود مكي: م. س. ص 173.

(48) المقري: م. س. جـ 1، ص 218.

الواردات والصادرات ومنع التهريب، وفي ذلك يقول ابن عبدون[50]: «ويجب أن نحمي ضفة الوادي الذي هو مرسى المدينة للسفن أن يباع منها شيء أو يبنى فيها بنيان، فإن ذلك الموضع عين البلد وموضع إخراج الفوائد مما يخرجه التجار ومأوى الغرباء وموضع إصلاح السفن، فلا يكون ملكاً لأحد إلا السلطان وحده، ويجب للقاضي أن يحمي ذلك كل الحماية فإنه موضع التجار والمسافرين وغيرهم ويحد لصاحب المواريث أن لا يبيع منه شبراً واحداً».

النظم المالية زمن الفتنة وبداية حكم الموحدين:

استحدث أمراء الفتنة عدداً من الوظائف التي تتعلق بجمع الضرائب للحاجة الملحة للأموال لدفع أرزاق الجند المرتزقة، والإتاوات لملوك النصارى، واختاروا لهذه المناصب رجالاً عرفوا بالقسوة في جمعها، ومن أهمهم الطرقون وكان عليه أن يتتبع أي عرس، أو حفلة ليفرض عليهم ضريبة اللهو، والمنصب الآخر والذي كان موجودا من قبل وهو صاحب المواريث إلا أنه تعرز عن قبل، وصار له أعوان يتجسسون على المنازل للتأكد من حالات الحزن أو الوفاة[51].

فرض أمراء الفتنة الغرامات والضرائب المختلفة على رعاياهم كل في إمارته بعد أن توقفت معظم أوجه النشاط الاقتصادي، ولم يجدوا ما يدفعونه لأرزاق الجند، والإتاوات التي فرضها النصارى عليهم، واشتطوا في تحصيل المال ومصادرة الذخائر فبرم بهم رعاياهم وعزلوهم[52].

أما إمارة الأندلس فقد تفننت الدولة في فرض القبالات والضرائب الفادحة وعملت على تحصيلها بالوسائل المشروعة وغير المشروعة، يقول ابن الخطيب عن ابن مردنيش، «فاستكثر من القبالات، ورسم بدائع من المكوس، وقرر على المواشي

(49) السقطي: م. س. ص 9.

(50) ابن عبدون: م. س. ص 30.

(51) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 2، ص 124، 125.

(52) انظر ما حدث في قرطبة وغرناطة ومالقة ووادي آش ومرسية وبلنسية بسبب كثرة الضرائب والمصادرة.
ابن الخطيب: أعمال الإعلام، ص 255، 264، 265.
الإحاطة، جـ 2، ص 89، جـ 4، ص 366.
ابن عذاري: البيان المغرب جـ 4، ص 90.
ابن الأبار: المعجم، رقم 172، ص 191.

عدداً يلزم المئين، وفرض على الأدم، والبقول والحبوب معادن ثقيلة، تقارب أصول الأثمان[53].

فكانت الضرائب على كل شيء، دق أو كبر، وكل ما يباع في الأسواق تؤدى عليه ضريبة، حتى وصلت هذه الضرائب ما يقارب ثمن السلعة، فعجز الناس عن البيع والشراء ومن خلال قصة طريفة ذكرها ابن الخطيب[54] نتعرف على بعض

---

(53) ابن الخطيب: أعمال الإعلام، ص 161.

(54) ذكر ابن الخطيب في الإحاطة جـ 2، ص 124، 1125 الحكاية التالية: : «حدث بعض المؤرخين عن الثقة، قال كنت بجيان مع الوزير أبي جعفر الوقشي، فوصل إليه رجل من أهل مرسية كان يعرفه، فسأله الوزير عن أحوال ابن مردنيش وعن سيره فقال الرجل: أخبرك بما رأيته من جور عماله وظلمهم، وذلك أن أحد الرعية بشاطبة واسمه محمد بن عبد الرحمن كان له بنظر شاطبة ضويعة يعيش بها، وكان لازمها أكثر من فايدها فأعطى لازمها حتى افتقر، وفر إلى مرسية، وكان ابن مردنيش قد أصدر أمراً بأنه من فر من الرعية أمام الغزو، أخذ ماله للمخزن.

قال الرجل الشاطبي: فلما وصلت إلى مرسية فاراً عن وطني، خدمت عند الناس في البنيان، فاجتمع لي مثقالان سعديان، فبينما أنا أمشي في السوق، وإذا بقوم من أهل بلدي شاطبة، ومن قرابتي فسألتهم عن أولادي وزوجتي، فقالوا إنهم بعافية ففرحت فرحاً عظيماً، وسألتهم عن الضويعة، فقالوا: إنها باقية بيد أولادك، فقلت لهم: عسى تبيتوا عندي الليلة، فاشتريت لحماً وشراباً، وضربنا دفاً، فلما كان عند الصباح، وإذا بنقر عنيف بالباب، فقلت من أنت؟ فقال: أنا الطرقون الذي بيده قبالة اللهو، وهي متفقة بيدي، وأنتم ضربتم البارحة الدف، فاعطنا حق العرس الذي عملت، فقلت له: والله ما كانت لي عرس، فأخذت وسجنت حتى افتديت بمثقال من الذي خدمت به، وجئت إلى الدار، فقيل لي أن فلاناً وصل من شاطبة الساعة فمشيت لأسأله عن أولادي، فقال: تركتهم في السجن، وأخذت الضويعة من أيديهم في رسم الجبالي ، فرجعت إلى قرابتي، وعرفتهم بالذي طرأ علي، وبكيت طول ليلتي، وبكوا معي، فلما كان من الغد، وإذا بناقر بالباب، فخرجت فقال أنا رجل صاحب المواريث، أعلمنا أنكم بكيتم البارحة، وأنه قد مات لكم ميت من قرابتكم غني، وأخذتم كل ما ترك، فقلت والله ما بكيت إلّا نفسي، فكذبني وحملني إلى السجن، فدفعت المثقال الثاني.

ورجعت إلى الدار وقلت أخرج إلى الوادي إلى باب القنطرة، أغسل ثيابي من درن السجن، وأفر إلى العدوة، فقلت لامرأة تغسل الثياب، أغسلي مما عليّ، وجردتها، ودفعت لي زناراً ألبسه، فبينما أنا كذلك وإذا بالخصي قائد ابن مرديش يسوق ستين رجلاً من أهل الجبل لابسي الزنانير، فرآني على شكلهم، فأمر بحملي إلى السخرة والخدمة بحصن منتيقـوط عشرة أيام، فلبثت أخدم وأحضر عشرة أيام، وأنا أبكي وأشتكي للقايد المذكور حتى أشفق عليّ وسرحني، فرجعت أريد مرسية، فقيل لي عند باب البلد، كيف اسمك؟ فقلت: محمد بن عبد الرحمن، فأخذني الشرطي، وحملت إلى القابض بباب القنطرة، فقالوا هذا من كتبته من أرباب الحال بكذا وكذا دينار، فقلت والله ما أنا إلّا من شاطبة، وإنما اسمي وافق ذلك الاسم، ووصفت له ما جرى عليّ، فأشفق وضحك مني وأمر بتسريحي فسرت على وجهي إلى هنا (أي إلى جيان).

الضرائب، فكانت هناك ضريبة الأعراس، وضريبة الملاهي، وكان المكلف بهذه الضرية يسمى الطرقون وعليه أن يتتبع أي مكان به عرس أو حفلة، فيفرض عليهم ضريبة اللهو[55].

أما صاحب المواريث فعليه أن يحصل الضرائب من أهل المتوفى الورثة، بل ويتتبع الدور التي يتوفى بها أحد، والأكثر من ذلك أن يفرض الضرائب حتى في حالة الحزن التي يشك فيها، وبلغ من الحرص على تحصيل مثل هذه القبالات أنهم كانوا يتجسسون على المنازل ليلاً ونهاراً لتحصيل مثل هذه الضرائب سواء في فرح أو ترح[56].

وفرضت على الأراضي الزراعية كثير من الجبايات حتى أصبحت منتوجاتها لا تفي بدفع مثل هذه القبالات، مما أجبر العديد من الزراع وصغار الملاك على ترك مزارعهم وضياعهم، والهرب عنها، فما كان من ابن مردنيش إلا أن أصدر قانوناً يبيح للمخزن أي الحكومة أن تستولي على الأراضي التي يتخلى عنها أصحابها، وتصبح ملكاً للدولة[57].

وألزموا الناس بالخدمة الإجبارية، أو ما يعرف بالسخرة في إقامة الحصون وغيرها من خدمات الدولة، وكانت مدة السخرة تفوق العشرة أيام يؤديها الشخص دون مقابل.

وحصلت ضريبة على مغادرة البلاد، فكان المسافرون يدفعون قبالة يؤدونها للقابض على الأبواب، والقناطر عند تركهم لمدنهم[58].

وبدخول الموحدين زادت شكايات الناس لكثرة القبالات في الأسواق والمغارم ومصادرة الأموال للمخالفين للدعوة الموحدية[59].

ففرضوا على المسافرين قبالات ومغارم كثيرة خصوصاً على الذين يريدون

---

(55) ن. م.

(56) ن. م.

(57) ن. م.

(58) ن. م.

(59) ابن القطان: م. س. ص 150، 163، رسائل موحدية، رقم 12، ص 53، 54.

الرجوع إلى أوطانهم، فيزعم القباض أن للمخزن حقوق تمتد إلى جميع ما يحمله المسافر ويضطره بالوعيد إلى الخروج عن جزء كبير من ماله ومتاعه[60].

وتعسف بعض العمال في أخذ المال من الناس بالباطل، وضربهم بالسياط فيتسببون في إيغار الصدور وإيحاشها، «ويبتدعون من وجوه المظالم ما تضعف شواهق الجمال عن حملها»[61].

وفرضوا المكوس الكبيرة والمغارم على الطوائف المارة على البلاد للتجارة، فكانوا يوهمون الناس ويخوفونهم ويستحوذون على تجارتهم وأموالهم[62]، وقاموا بتحجير المراسي ومنع التصرف فيها[63].

وظهرت فئة من الناس لاستغلال الوضع، وعملت كوسيط بين أشياخ وطلبة الموحدين لتسهيل العمليات التجارية المشبوهة خصوصاً بيع النساء دون استبراء[64].

واستغل الراقصون الذين يردون بالكتب ويصدرون الناس، وأخذوهم بالنظر في كلفهم وألزموهم بزادهم وعلفهم في كل موضع ويحلون بأفنية الناس حللاً شنيعاً ويتحكمون عليهم بحكم المغرم[65].

وعندما اتصل الخبر بالخليفة عبد المؤمن وزادت شكايات الناس أرسل كتاباً مهماً إلى الطلبة والأشياخ والحفاظ يأمرهم فيه بالقضاء على أسباب الشكوى وأمر أن يجمع الطلبة والعمال وكافة المقدمين للأعمال لقراءته والاطلاع عليه، وأن يكتب منه نسخ لكل قبيلة من قبائل الموحدين، وكل كورة من الكور وينذر من لم يتبع ما جاء فيه بشر العقاب[66].

وتعددت المرتبات في دولة الموحدين، وكانت تسمى الجامكية أو البركة،

---

(60) ابن القطان: م. س. ص 157.
(61) ن. م. ص 154، 156.
(62) ن. م. ص 157.
(63) ن. م. ص 156.
(64) ن. م. ص 158.
(65) ن. م. ص 162.
(66) ن. م. ص 159، 163.

فكان أشياخ الموحدين، والوزراء، ورجال البلاط، والقضاة، والفقهاء، والطلبة، والجيش، والمرتزقة ينالون مرتباتهم من بيت المال، وتمتعت الطوائف الأخرى من الأطباء والمهندسين، والكتاب والشعراء، والرماة وغيرهم ممن كانوا يعملون في خدمة الموحدين بالأرزاق والمرتبات وبعضهم حصل على عدة مرتبات لشغله عدة وظائف[67].

غير أنه بعد أن استتب الأمر للموحدين في الأندلس، وخضوع مدنه لهم، استعملوا أصحابهم ممن يثقون بهم في الزكوات والفرائض، وتغيير أموال المخزن في البلاد التي استردوها، فبدأ يظهر العمران ويتصل الأمن، وتستقر الأمور[68].

بدخول المرابطين الأندلس والقضاء على التفكك السياسي الذي كان سائداً توحدت العملة وتوحدت الطرز المختلفة، وأصبحت العملة المرابطية هي السائدة، وقد بدأ المرابطون في سك عملتهم في قرطبة ابتداءً من 486 هـ ـ 1093 م، ونشطت دور السكة في عهدهم ومولوها بالذهب الذي يأتي من السودان الذي سيطروا عليه والدينار المرابطي الذهبي ظلّ مستخدماً لعدة قرون كأهم عملة ذهبية في المغرب[69].

وامتازت عملتهم الفضية بحسن سكها وأشكالها المنتظمة، وسمكها، وحجمها الصغير، وكانت بالغة الجودة، إذ إن المرابطين سيطروا على أحسن مناجم الفضة في إفريقيا، وسك المرابطون منها القطع النقدية الصغيرة من كسور الدرهم، وهم أول من سكها[70].

ومما يميز العملة المرابطية الكتابات المثبتة على الحاشية في الوجه الأول ولم تكن موجودة من قبل باستثناء بعض النقود الحمودية المعاصرة للدنانير الأولى التي ضربها الأمير يوسف بن تاشفين، والدرهم يزن في الغالب نحو غرامين، وكل ما عثر

---

(67) يقول المراكشي عن أبي بكر بن طفيل «وبلغني أنه كان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة، من الأطباء، والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد إلى غير هؤلاء من الطوائف. المعجب، ص 240.

(68) ابن صاحب الصلاة، م. س. ص 204، 206.

(69) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ص 386، 387.

(70) Codéra, F. op cit p. 220.

عليه ثلاثة نماذج فقط، أما الكسور مثل النصف والربع والثمن والجزء من ستة عشر جزءاً، فهي مسكوكة بعناية بالغة وأشكالها منتظمة، وهي في الغالب سميكة، مما يجعل حجمها صغير جداً، ولا توجد كتابة على حاشيتها لصغر حجمها ولا تاريخ سكها، وتكتفي الكتابات فيها بذكر الشهادة واسم الأمير وفي بعض الأحيان اسم ولي العهد[71]، وتوجد في كسور الربع وما يقل عنها في كثير من الأحيان مساحة ملساء تماماً بدون كتابة، وفي بعض الأحيان زخرفة بسيطة وتسمى قراريط[72].

والدينار المرابطي مكتوب على الوجه في الوسط عبارة «لا إله إلّا الله محمد رسول الله» وتحتها «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين» وعلى الحاشية «ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين»، وعلى الوجه الآخر في الوسط «الإمام عبد الله العباسي أمير المؤمنين» وفي الدائرة (الحاشية) تاريخ ضربه وموضع سكة[73]، وكانت كل سبعة دنانير تساوي عشرة دراهم[74]، ولأول مرة يظهر في الأندلس الدينار ذي العيار والوزن الثابت[75].

وأدى ازدهار التجارة وتحول الطرق التجارية نحو الجناح الغربي الإسلامي وسيطرة المرابطين على ذهب السودان أن جعل من العملة المرابطية لا عملة دولية فحسب، بل العملة الدولية الأولى، وليس أدل على ذلك من شيوع الثقة بالدينار المرابطي، ولا شك أن إقبال الناس على عملة الدولة إنما يدل على حسن ثقتهم بها، كما يدل على ارتفاع قيمة هذه العملة بسبب كثرة المعاملات والتداول، حتى لقد وصل الدينار المرابطي إلى القسطنطينية[76].

---

(71) Lavoix, Hanri, Catalogue des monnaies Musul3 P. 202, 210. Pièces 516, 527, 534, 535, 536, 537, 538, 540, 542, 543.

(72) أهدى ابن هود أمير سرقسطة إلى يوسف بن تاشفين بقرطبة هدية جليلة منها أربعة عشر آنية من الفضة مطرزة باسم ابن هود، فأمر يوسف بن تاشفين بضربها قراريط وفرقها ليلة عيد النحر في طبقات المرابطين في 488 هـ 1095 م.

ابن عذاري: م. س. جـ 4، ص 43.

(73) ابن أبي زرع: م. س. ص 138.

وانظر مجموعة كوديرا ص 376: 386 في كتابة اضمحلال المرابطين، Lavoix; Op. Cit.

(74) ابن يوسف الحكيم: ضوابط السكة، تحقيق: د. حسين مؤنس، ص 80.

(75) Codéra, F. Op. Cit., P. 220.

(76) د. حسن محمود: م. س. ص 403.

وهذا لا يعني أن العملات الأخرى التي كانت مضروبة في عصر ملوك الطوائف، أو في المدن الإسلامية التي سقطت في يد قشتالة مثل طليطلة وغيرها لم تكن متداولة، فلم يكن هناك ما يمنع من تداولها في الأسواق وشراء السلع أو العقار في جهات مختلفة من الأندلس، فقد ذكر أن النقود القرمونية وغيرها من العملة كانت متداولة[77].

واهتم المرابطون بدور السكة اهتماماً كبيراً، واختاروا صاحب دار السكة من المعروفين بالأمانة «عالماً أميناً وله بالصناعة علم ومعرفة»، كتمييز النقود، وأوصاف المعادن وما يصلحها وما يفسدها، وأسباب غشها، وما يزيله، مع دربة بأنواع خطوط الطوابع وتصنيعها وصحة ضبطها، مع النزاهة والديانة «وإلا عادت بالخسران وعدم الرجحان، وتعطل فايدها وقل عايدها»، وعليه أن يتفقد الدنانير والدراهم بعد الطبع حتى لا يكون الطبع على أحد الوجهين في اتجاه مخالف للآخر، أو اختلاط الكتابة فيها بسبب سوء السك، أو المبالغة في الضرب على الطابع عند سك العملة حتى تتجرش أي تكون عرضة للكسر، وعليه مراقبة وتفقد المعدن الذي يضاف إلى الذهب أو الفضة المضروبة نقـوداً، وهو في الغالب معدن النحاس ونسبته ١٪[78].

وكان يعمل في دار السكة معلمون وعمالون ومتعلمون ومن صفات العاملين في تلك الدور أن يكونوا ذوي خدمة ومهارة ومعرفة وتجربة لدقة العمل وخطورته، لأن السكاك إذا أخطأ في تشحير الذهب أي تسخينه وأنزله من فرن الطبخ وهو ناقص العيار جاء عليه في إعادته خسارة، ونقص، وإن غفل وتناهى في التشحير فوق حده كان فيه النقص الكثير، وكذلك الفضة[79].

والرجل الذي يضع الرسم الذي ستسك عليه العملة ويكتب نصها يعرف

---

(77) ذكر ابن سهل أن شخصاً اشترى أمة سوداء، بمبلغ مائة وواحد وستون مثقالاً ذهباً قرمونياً، واشترى شخص جنة بحاضرة قرطبة بمبلغ 240 مثقالاً ذهباً قرمونياً، وشخصاً استدان من آخر خمس مائة ونيف من ذهب أغلبية، وفي قضية أخرى دراهم ضرب ألمرية وقراريط طيبة ودراهم قاسمية (أي نسبة إلى القاسم بن حمود).

د. محمد عبد الوهاب خلاف: عن ابن سهل، ص 184.

(78) ابن يوسف الحكيم: م. س. ص 50.

(79) ن. م. ص 34.

بالفتاح بينما عملية الرسم تسمى الفتح، وينبغي عليه أن يكون بارعاً في الخط، وطوابع الدينار والدرهم هي خواتم الملك، فمن ضرب عليها فكأنما ضرب على خاتم الملك، وممنوع عليه أن يغير ما عهد إليه من الكتب في الدينار والدرهم، ولا يزيد في سطوره، ولا ينقص منها برأيه[80].

وتحفظ الآلات والأقلام المعدة للفتح مقومة ومحفوظة بجولق الأزواج، أي صندوق الأصول التي يطبعون بها السكة، إلى أن يحتاج إليها، فتخرج له، ويكون معه من يلازمه من الثقات عند الفتح إن كان غير مأمون، ويستتر إذ ذاك عن أعين الناس إلى أن يتم عمله فيرد آلاته للجولق، ولا يسمح له بالاتصال مع من يتهم بطلب الطوابع، كالكيماويين والمهتمين بالدلسه في الدنانير والدراهم، وليكن المعلم الحداد الذي يطرح له الأزواج (الأصول) أميناً عليها ويعهد إليه ألا يطرحها إلا بدار السكة، ولا يسمح له أن يطرحها خارجها بوجه ولا على حال[81].

وكان يطلب من الناظر التفتيش على الصيارفة، ويمحص عن خطوط الدنانير والدراهم التي أعدوها بأيديهم للصرف لئلا تكون خارجية الطوابع أي مغشوشة، وكذلك يبحث عن نقاش الحلى من الصاغة فإنهم أصل فواتح الطوابع الخارجية[82].

كما يلزم حاكم البلد ببحث أحوال الذميين وغيرهم، فمن سمع عنده صوت مطرقة أو وقود نار للصياغة فليضرب على يديه، ولا يترك صانعاً يخدم الصياغة في داره ولا مستتراً عن أعين الناس، لأن صناعة الدينار والدرهم والصياغة صناعة واحدة، تجمعهما المطرقة والنار[83]، وكانت عقوبة تزوير العملة وتزييفها شديدة فكان يطاف بالمزور الأسواق، لينكله ويشرد به من خلفه[84].

وسوق الصرف اعتبروه من أهم الأسواق وأحوجها للرقابة، لكثرة المترددين فيه

(80) ن. م. ص 53.

(81) ن. م. ص 54.

(82) ن. م.

(83) ن. م. ص 55.

(84) الونشريسي: م. س، جـ 5، ص 82، 83، جـ 6، ص 75، 407، 455.

و «المعاملة من الملتزمين له قل ما تخرج على ما يوجبه الشرع ويقتضيه النظر»، وما يحدث فيه من ربا[85].

ويرى كوديرا[86] أن سياسة المرابطين المالية والاقتصادية كانت تفوق بكثير سياسة الحكومات التي سبقتهم، ودليله على ذلك قطع العملة التي بقيت من أيام المرابطين، وهي تتميز عن كل قطع العملة التي عرفت من قبلهم في جمالها وهيئتها، والجدير بالذكر أن هذا النظام النقدي إنما أتوا به من المغرب فالمرابطون سكوا عملتهم قبيل دخولهم الأندلس بزمن طويل والتي ضربت في سجلماسة وفاس وغيرها من مدن المغرب.

وأشار أرشيبالد لويس[87] إلى أن المرابطين من وجهة النظر الاقتصادية لم يكونوا هدامين إطلاقاً وظلت أملاكهم، سواء في المغرب أو بلاد الأندلس، على ما كانت عليه من رخاء في ميداني الزراعة والصناعة، يضاف إلى هذا أنهم كانوا يسيطرون على سجلماسة وهي نهاية طريق معظم القوافل إلى ذهب بلاد السودان، فكان هذا الرخاء الذي ساد أيام المرابطين والموحدين من بعدهم الدعامة التي ارتكزت عليها حضارة المسلمين الرفيعة في الأندلس في القرن الثاني عشر.

سك بعض أمراء الفتنة عملة خاصة بهم، كل في إمارته، إذ عثر على دنانير ومثاقيل ودراهم سك في قرطبة ابن حمدين، مكتوب على الوجه الأول «لا إله إلا الله» وفي الدائرة «المنصور بالله أمير المسلمين حمدين بن محمد بن حمدين»، وفي الوجه الآخر «الإمام عبد الله أمير المؤمنين» وفي الدائرة (الحاشية) «بسم الله ضرب هذا الدينار بقرطبة عام أربعين وخمس مائة»[88].

كما سك الأمير أبو زكريا يحيى بن غانية بعد طرد ابن حمدين عملة كتب عليها في الوجه «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، «اللهم ارحم أمراء المسلمين بني

---

(85) ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 84، 85.

ابن يوسف الحكيم: م. س. ص 112.

(86) وانظر ما كتبه Antinio Prieto Vives في كتابه Los Reyes de Taifes Codèra, F. op cit p. 218.

(87) أرشيبالد لويس: م. س. ص 386، 387.

(88) Codèra, F. op cit pp. 387 - 390.

تاشفين» وفي الوجه الآخر ضربت في قرطبة سنة 542 هـ، كما عثر على أخرى ضربت بغرناطة بنفس الشكل[89].

أما عملة ابن قسي فكانت تشبه عملة الموحدين من ناحية الشكل المربع وعثر على نصف قيراط مضروب باسم ابن قسي وكتب في وجه «الله ربنا ومحمد نبينا والمهدي إمامنا»، داخل المربع، ولم يقتصر التربيع على الدراهم بل تعداه إلى الدنانير[90].

وكتب محمد بن سعد بن مردنيش أمير الشرق على عملته من المثقال والدنانير والدراهم وغيرها على الوجه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» الأمير محمد بن سعد وعلى الوجه الآخر «الإمام عبد الله أمير المؤمنين» «بسم الله ضرب هذا الدينار ببلنسية عام أربعة وأربعين وخمس ماية»، وفي دنانير أخرى ضربت في مرسية، على الوجه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» «يعتصم بحبل الله الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد أيده الله»، وفي الوجه الآخر «الإمام عبد الله أمير المؤمنين العباسي» «بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بمرسية عام ثمانٍ وخمسين وخمس ماية»[91].

ويبدو أن هذه العملة كانت متداولة في داخل البلاد فقط، أما المعاملات الخارجية ودفع الإتاوات للنصارى فلم تتم إلا بالعملة المرابطية الدينار أو المثقال، فقد صالح ابن مردنيش صاحب برشلونة كونت ريمون برنجير الرابع Remon Beren-guar IV، والملك ألفونسو السابع Alfonso VII ملك قشتالة على أن يدفع لهم في السنة خمسين ألف مثقال حشمية[92]، وتعهد بأن يدفع إتاوة إلى جنوة قدرها عشرة آلاف دينار مرابطي خلال عامين[93].

واتخذ الموحدون عملة خاصة بهم كانت مربعة الشكل «مركنة»[94] في جميع

---

(89) Ibid, pp. 391 - 392.

(90) ابن يوسف الحكيم: ضوابط السكة، ص 49، هامش 1.

(91) Codèra, F. op cit pp. 393 - 395.

(92) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 2، ص 258.

(93) Codèra F. op cit pp. 120 and 121. Ibid pp. 122 and 123.

(94) البيذق: أخبار المهدي، ص 27.

عملتهم من الدينار والدرهم وغيرها من العملات الصغيرة، وكان الدينار الموحدي ضعف الدينار العادي في الوزن، والدينار ثلاثة دراهم، والأوقية عشرون درهماً، وعرف الدينار الموحدي عند النصارى باسم دبلا Dobla[95].

فنعمت الأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين بنظام دقيق في النواحي المالية وكانت العملة المرابطية أو الموحدين فيما بعد لها ثقلها في المجال الاقتصادي، وحازت على ثقة الدول المعاصرة لهاتين الدولتين.

(95) ابن يوسف الحكيم: م. س. ص 49، هامش 1 للدكتور حسين مؤنس.



الباب الثالث

الحياة الاجتماعية

الفصل الأول : عناصر السكان.
الفصل الثاني : طبقات المجتمع.
الفصل الثالث : مظاهر الحياة الاجتماعية في البوادي.
الفصل الرابع : مظاهر الحياة الاجتماعية في الحضر.



الفصل الأوّل

عناصر المجتمع

(العرب ـ المولدون ـ أهل الذمة ـ الصقالبة ـ البربر)

صعوبة التمييز بين عناصر المجتمع الأندلسي ـ العرب ـ تأسبن العرب ـ انتساب العرب إلى الأمكنة التي ولدوا فيها ـ تمسك طبقة الخاصة بالأصول العربية ـ المولدون ـ اتخاذ المولدين أسماء عربية ـ دور المولدين في الحياة العامة ـ تأثير الأصول القوطية أو الإيبرية على المولدين ـ التمكين للهجة الرومانثية بجانب اللغة العربية.

المستعربة من اليهود والنصارى ومساهمتهم في الحياة الاجتماعية ـ تسامح الدولة في إقامة شعائرهم الدينية ـ لباس أهل الذمة ـ تغير معاملة الدولة بعد اتصال المعاهدين بألفونسو المحارب وتسهيل هجومه على الأندلس ـ أحياء اليهود ـ تحديد كتب الحسبة للعلاقات الاجتماعية للذميين بالمسلمين ـ علاقة ابن مردنيش بملوك النصارى.

الصقالبة ـ دورهم في الحياة الاجتماعية والسياسية.

البربر ـ عدم اندماج البربر في حياة الأندلسيين ـ حساسية الأندلسيين تجاه البربر.



تميزت الأندلس في آخر القرن الخامس الهجري بانحلال العناصر التي كان يتكون منها المجتمع الأندلسي وامتزاجها حتى أنه أصبح من العسير التمييز بينها وتكون من كل هذا الخليط ما يسمى بالأندلسيين، فالعرب الذين دام انقسامهم إلى منتصف القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) إلى كتلتين متطاحنتين مضرية ويمنية، استطاعوا نسيان أصلهم الشرقي الذي يعتمد على أساس القبيلة، وتخلوا شيئاً فشيئاً عن أنسابهم المرتبطة في أذهانهم بحياة البداوة هذه الحياة التي هجروها منذ أمد طويل[1].

وفي هذه الفترة نجد أن العصبية القديمة بين القبائل العربية والتي ملأت قسماً كبيراً من الحياة السياسية في الأندلس خلال فترة الولاة، وفي فترة الإمارة الأموية قد انقرضت بفضل صرامة الخليفة عبد الرحمن الثالث الذي قضى شيئاً فشيئاً على آخر الميول إلى العصيان والمعاكسات المتعجرفة التي كان يترأسها الزعماء العرب الذين ظل ولاؤهم مشكوكاً فيه حتى هذه الفترة، «فتأسبن» العرب شيئاً فشيئاً رغم افتخارهم بأصل بلدي أو شامي، هذا الأصل الذي كان عليه أن يضمن لهم على الخصوص معاملة ممتازة من طرف الحكام[2].

---

(1) Henri Pérés, la Poésie Andolouse en Arabe Classique, p. 252.

د. محمود مكي: التشيع في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد 1954، مجلد 2، ص 126.

(2) Lévi - Provencal, Histoire de L'Espagne Musulmane, Tome, III, P. 173.

واستعاض العرب عن تلك الأنساب بأخرى تذكرهم بالأمكنة التي ولدوا فيها كالمدينة، والقرية، والناحية، وهذا حدث هام في حد ذاته يظهر مدى التطور الذي حدث في حياة عرب الأندلس من حاله الترحل إلى حالة الاستقرار والحضر، ونجد الأعلام منذ هذه المرحلة من فقهاء، وقضاة، وقواد، ووزراء، وشعراء وكتاب يلحقون إلى الأقاليم والمدن مثل «القرطبي» أو «الإشبيلي»، بدلاً من الأصول القبلية كالمخزومي أو القيسي مثلاً، فارتبط العربي بالأرض، ومن هنا فقد الصفات التي يعتبرها ابن خلدون أساسية في نشأة الحضارات والمحافظة عليها، واكتسب في مقابل ذلك شعوراً لا يعدو أن يكون شعور الوطنية الذي امتحن فيه بالصراعات والأحداث المشتركة التي قوت من شوكته، وأعطته طابع المواطنة الحقة[3].

وهذا التحول العميق في تنظيم الأسر العربية تعمق في عهد الحاجب المنصور ابن أبي عامر لإحساسه بالخطر الدائم الذي سيلحق نظام الحكم بسبب ذلك الاحترام للعلاقات القبلية والشرف الدموي، فقرر وضع حد لهذا كله بجعل العرب وتابعيهم في نفس المستوى مع الأندلسيين الآخرين فيما يخص وظائف الدولة، وذلك بإلغاء الطريقة القديمة في الأندلس وهي التي تهم الجند العرب والأعطيات التي تخصهم[4].

وقد ذكر الأمير عبد الله بن بلقين[5] في مذكراته، أن الهدف الحقيقي من سياسة المنصور ابن عامر بالاستعانة بالجند من شمال إفريقية هو خشيته من جيش الخليفة الذي يتوقع منه أنه في يوم من الأيام سيتحد ويسقطه، لهذا قرر أن يغير من نظام هذا الجيش، وذلك بأن فَرَّق بين أفراد القبيلة الواحدة الذين كانوا يجتمعون في فرقة واحدة، وقرر أن يكون في كل فرقة جنود من أجناس مختلفة، لا تجمعهم قرابة ولا علاقة دموية، ولا شعار قبلي واحد حتى يتمكن من ضبط الجيش، وإبعاد الخوف عن نفسه.

وكان الوقت مناسباً دون شك، قابلاً لإصلاح جذري، فعصبية العرب في

---

(3) Henri Pérés, op cit p. 252.

(4) Lévi Provencal, op cit p. 174.

(5) الأمير عبدالله بن بلقين: التبيان، ص 16.

الأندلس تلاشت بالتدريج، فيلاحظ أن الأسر التي تنتمي إلى القبيلة الواحدة، أو البطن الواحد، انتشرت عبر أقاليم الأندلس، وبعض هذه العناصر نسيت أصلها نهائياً، ولم تعد تهتم به إلا نادراً، إذ اتخذ العرب من أجل تكوين الأسرة زوجات أو جاريات من الإسبانيات، وبعد أجيال معدودة كان الدم العربي يجري في عروق السكان الأصليين، وساعد الدين، واللغة هؤلاء الفاتحين إلى حد معين في الظهور كعرب، ولكنهم في الحقيقة صاروا إسباناً، أو أندلسيين، وإذا كان عامة العرب قد نسوا انتماءهم السلالي، ولم يبق لديهم شعور بضرورة الرجوع إليه، فإن الأمراء بخلاف ذلك ظلوا يتشبثون بانتسابهم لأجداد عظام أو لبطون من العنصر العربي الخالص، وبذلك يزهو المثقفون منهم، واعتبروه رمزاً للقوة الحاكمة[6].

والشعراء الذين درسوا أنساب العرب أثناء تعلمهم وتكوينهم لا يتوانون عند استعمال معلوماتهم في الأنساب لكي يضربوا على هذا الوتر الحساس، فكان البعض يتفاخر بأصل قيسي أو يمني عن طريق الولاء الغير مباشر أو بغير هذه الطريقة التي كثيراً ما تزور من الأنساب ذات الأصول العربية التي لا أساس لها، لأشخاص من البربر أو الإسبان الذين عاشوا في كنف رجال من العرب الذين يجري في عروقهم دم أوروبي أو إفريقي[7].

والمولدون هم عنصر المنحدرين عن الإسبان الذين خضعوا عن رضى للفاتحين ومنهم من اعتنق الإسلام ولزموا مساكنهم القديمة، ومنهم من سبي عند الفتح واستقر بها عقبه، ومنهم من أسلم بعد الفتح أو سبي بعد الفتح واستقر بها عقبهما، وهذا الصنف على أجناس منهم الروم، والجلالقة، والقشتاليون، والأراغونيون، ومنهم من كان من اليهود مستقراً بها قبل الفتح وأسلم عند الفتح أو بعده، أو دخل إليها بعد الفتح وأسلم[8]، وأطلق عليهم المؤرخون العرب[9] لفظ مسلماني، وجمعها مسالمة.

ولم يختلف أبناء هؤلاء المعتنقين للإسلام وأحفادهم الذين درج المؤرخون

---

(6) Henri Pérés, op cit pp. 235 and 254.

(7) Lévi Provencal, op cit p. 176.

(8) مجهول: ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم، ص 23.

على تسميتهم بالمولدين بعد أجيال قليلة عن المسلمين القدامى، ونتيجة لحركة التزاوج المستمرة بين الفريقين استطاع الدم الإسباني أن ينتشر وأن يتفوق على غيره، واتخذ المولدون أسماء عربية على العموم، وهذا شيء عادي، إذ أنه في كثير من الأحيان كان المسيحيون الذين ظلوا مخلصين لعقيدتهم ويعيشون وسط المولدين - وهم ما نسميهم بالمستعربة - قد اتخذوا هم بدورهم أسماء عربية، ولكن المسالمة والمولدين من بعدهم وكما حدث في أقطار إسلامية أخرى، استطاعوا المحافظة على أسمائهم الأجنبية دون أن يثيروا العرب المهاجرين حتى في بداية الفتح[10].

ويبدو أن المسلمين الذين احتفظوا بأسمائهم الإسبانية كانوا في أول الأمر رقيقاً في ملك الفاتحين أي أموال، فاعتنقوا الإسلام بعد تحريرهم، ووجود هذه الأسماء الأجنبية ودوامها في ظل الحكم الإسلامي العربي يثبتان مدى تأثير الأسماء الأجنبية على المفاهيم العربية للأنساب، فقد فرض العرق الإسباني على الشعب الفاتح استعمال الاسم العائلي، لم يكن هناك شيء أصعب - إلا بالنسبة لعلماء الأنساب وكانوا قليلي العدد - من معرفة أصل شخص ما في سلسلة من الأسماء المرتبطة بعضها ببعض بلفظة (ابن) وبواسطة الألقاب المنسوبة لأماكن الولادة، فإن الأسماء العائلية تدل على حياة حضرية وصلت إلى الأوج، ولم يستطع العنصر العربي، في أي بلد آخر أن يندمج مع الشعب المغلوب بمثل هذا التجانس التام[11].

وقام عنصر المولدين في المجتمع الأندلسي بدور كبير في الاقتصاد العام للبلاد، حيث كانوا يمثلون العنصر الأكثر نشاطاً والأحسن توافقاً مع المستعربين والبربر على ظروف شبه الجزيرة، وبمساعدتهم على التطور، أي معاونة الكثيرين منهم على الغنى والدخول شيئاً فشيئاً في المجتمع الأندلسي، حيث كان العنصر الفاتح يكون أرستقراطية خاصة[12].

وقد اعتمد الأمويون بمجرد استقرار حكمهم على طبقة وقورة من عناصرهم

---

(9) ابن حيان: المقتبس، جـ 1، ص 129؛ Henri pérés, op cit p. 254

(10) Ibid p. 254.

(11) Ibid pp. 254 and 255.

(12) Lévi Provencal op cit p. 181.

الحسنة السلوك، فاستطاعوا أكثر من مرة بفضل ولائهم أن يقضوا على أسباب الانقسام السياسي لتلك العناصر الطارئة من عرب أو بربر، وأن يظهروا زيادة على ذلك إخلاصهم للإسلام وتمسكهم به، رغم اتصالهم بجماعات المستعربين أو بولايات الإمارات المسيحية في الشمال[13].

وبذلك أظهر الأمويون حسن التدبير السياسي في اختيارهم للمولدين فحلوا المشكل الذي ظل مطروحاً بالنسبة لهم، حيث كان المسلمون يستولون بمساعدة قدماء الفاتحين للبلاد أنفسهم على الأراضي الشاسعة التي لم يستطع الفاتحون وحدهم أن يبقوها، وأن يواجهوا طبيعة أهل البلاد الحاقدة، فكانت فرصة جيدة لصالح الإسلام حيث أصبحت طبقة السكان الإسبان أحسن مما كانوا عليه تحت حكم القوط[14].

واتخذ المولدون أسماء عربية على العموم، وهذا شيء عادي إذا علمنا أنه في كثير من الأحيان، كان المسيحيون الذين ظلوا مخلصين لعقيدتهم ويعيشون وسط المولدين وهم ما نسميهم بالمستعربة قد اتخذوا هم بدورهم أسماء عربية[15].

والمولدون مع استعرابهم ومع احتفاظهم كذلك بطابع فكري خاص كانت تأخذهم في بعض الأحيان هم أيضاً رغبة في إنكار أصلهم الخاص والدخول عن طريق الولاء أو دونه في الأسرة العربية الكبيرة التي اندمجوا فيها بواسطة التزاوج المختلط الكثير[16]، وتولد عندهم نوع من العصبية في الناحية الفكرية، عندما أخذ بعض المولدين يحتجون على ما سموه بالدناءة الجنسية[17].

(13) Ibid p. 182.

(14) Henri Pérés op. cit., p. 255 and Lévi Provencal op. cit., p. 181.

(15) Ibid.

(16) Lévi Provencal, Ibid P. 182.

(17) وهذا ما دفع بأبي عامر بن غرسية في القرن الحادي عشر أن يكتب رسالته في فضل العنصر غير العربي نشرت هذه الرسالة في الدراسة التي نشرها الدكتور/أحمد مختار العبادي بعنوان: الصقالبة في إسبانيا ونشرت مرة ثانية في سلسلة نوادر المخطوطات التي قام بتحقيقها الأستاذ/عبد السلام هارون. وكان قاضي وشقة من بني سليمان بن تليد المعافري ت 295 هـ (908 م) رغم عنصريته إذ ينتمي إلى أسرة مولدة شديد العصبية للمولدين.

انظر ابن الفرضي: التاريخ.

وكان كثير من المولدين من أصل قوطي أو إيبيري قد احتفظوا بالألقاب والكنى الرومانثية التي عجزوا عن ترجمتها إلى العربية، واستعملوها كأسماء عائلية مثل بنو أنجلينو، وبنو سبريكو في إشبيلية، وبنو قسي وغيرهم، وكان كثير من المولدين يحملون أسماء تمثل التحول من اللاتينية إلى العربية مثل فليكس أصبحت سعيد، أو فيكتور صار زهير، وكذلك الأسماء المقدسة إذ أصبحت أسماء موسى وهارون وعيسى تقابل مويز ورون والمسيح، وكذلك الأسماء المأخوذة من أسماء الأعلام الفسكونية كفرتونِ أو لب، ومن جهة أخرى هناك عدد مهم من أسر المسالمة قد اتخذت في عهد الإمارة القرطبية على مثال الأسر العربية والبربرية ألقاباً مزينة بحرف المبالغة الإسباني «أون» الذي يضاف إلى اسم أو لقب عربي الرنة فأصبحت حفص: حفصون، وغالب: غلبون، وعبد الله: عبدون، والأزرق: زرقون[18].

والمولدون والمستعربون هم الذين مكنوا اللهجة الرومانثية الإسبانية المتفرعة عن اللاتينية، والتي كانت متداولة من قبل في شبه الجزيرة، من الاستقرار والخلود في إسبانيا الإسلامية، حيث كان استعمالها مؤكداً في جميع الجهات، وتقريباً في كل العصور بتنافس مع استعمال اللهجة العربية الأندلسية، وهذه اللغة المعروفة في العربية بالعجمية كان يجب أن تتحول فيما بعد إلى شكل عربي تبعاً للقاعدة الرسمية في الجهات المحتلة من طرف المسيحيين، وفي نفس الوقت وبتطور مقابل أصبحت العربية غنية بمجموعة ليست قليلة من الكلمات الرومانثية[19].

كان المستعربة بالإضافة إلى اليهود يكونون في إسبانيا مجموع السكان الذين أطلق عليهم العرب «أهل الكتاب» أو أهل الذمة، ولم يفقد المولدون اتصالهم بأقاربهم الذين ظلوا على ديانتهم، ولم يذكر في المصادر ما يثبت انقطاع هذه العلاقات في حياتهم العادية، يتبادلون الزيارات ويتعايشون كما كانوا قبل الفتح، في علاقة يومية دائمة خصوصاً في المدن الكبرى[20].

(18) Lévi Provencal op cit p. 185.

وذكر ليفي بروفنسال في الجزء الأول من تاريخ إسبانيا الإسلامية ص 302 أنها كانت موضة العصر في إسبانيا بالنسبة لأرستقراطية المدن والقرى كثير مثل من الأسماء التي ظهرت سواء في الميدان الأدبي، أو السياسي مثل بنو بدرون، وبنو زيدون، وبنو خلدون.

(19) Ibid p. 185.

(20) Henri Pérés, op cit P. 274.

وهذه الحياة الاجتماعية تدل على مدى تسامح مسلمي الأندلس تجاه سكان إسبانيا غير المسلمين، والحقيقة أن أي شعب مغلوب في أي قطر من الأرض، لم يحظ بمثل ما حظي به الشعب الإسباني إبان الحكم العربي من تطبيق لمعاهدات المهادنة وقوانين الإسلام التي أعطت للذميين حقوقهم كاملة في العيش الكريم، ونتيجة لذلك اقتحم الإسبان الحياة العربية وساهموا في بناء الحضارة الجديدة، وإذا بنا نجد بعض نسائهم في حريم الأمير كزوجات شرعيات أو كجواري، وفي حاشية القصر نجد بعض رجالهم كعبيد أو كأحرار، يقومون بخدمة سيدهم، وفي الجيش جنود مرتزقة، وحتى قواد في بعض الأحيان[21].

وأحياناً كانت القوانين تطبق من طرف القضاة المسلمين على مشتكين تجمع بينهم رابطة القربى[22]، أي أنهم من أسرة واحدة، ولكن دياناتهم تختلف، ومن هنا يمكننا أن نفهم أن الحكم العربي بتسامحه المألوف خول لأهل الذمة حق الاستيطان حتى في المراكز الحضارية الكبرى، دون النظر إلى ارتباطهم بتقاليدهم الدينية والاجتماعية، وإلى ما سوف ينتج عن ذلك، وأن وجود جماعات منهم في حواضر الأندلس، والحرية التي مارسوا بها شعائرهم الدينية، شيء شهد به التاريخ واحتفظت لنا به وثائق لاتينية وأخرى عربية، وكانت بعض هذه الطقوس تؤدى بفخامة تلفت الأنظار حتى أن بعض المسلمين المتعودين على بساطة الشعائر الإسلامية كانوا يبدون دهشتهم إزاء ما كانوا يشهدونه من احتفالات النصارى بالمناسبات الدينية ومواكبهم فيها[23]،

---

(21) انظر ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 2، جـ 4، المقتبس لابن حيان.

(22) انظر الونشريسي: المعيار جـ 2، جـ 7، جـ 8، بخصوص قضايا السماح للمسيحيين ببناء كنائس أو مشاكل بينهم وبين المسلمين في بعض العقارات أو يهود حبسوا أملاك لأبنائهم تعود بعدها للمسلمين وقضايا عن نصارى أسلموا في إشبيلية وفرت جماعة منهم إلى قشتالة.

(23) يبدو هذا في نص للوزير الكاتب أبي عامر بن شهيد (القرن الخامس الهجري) يتعجب فيه من حماسة هؤلاء النصارى لأداء طقوسهم بعد أن رآها عندما بات ليلة في إحدى الكنائس يقول: «وقد فرشت بأضغاث آس، وعرشت بسرور وائتناس، وقرع النواقيس يهيج سمعه، وبرق الحميا يسرع لمعه، والقس قد برز في عبدة المسيح، متوشحاً بالزنانير أبدع توشيح، قد هجروا الأفراح، وأطرحوا النعم كل إطراح، وقال في ذلك شعراً منه:

والقس مما شاء طول مقامنا — يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدي لنا بالراح كل مصغر — كالخشف خفره التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه شربهم — لسلافة، والأكل من خنزيره

بل لقد أعجب بعض المسلمين بطريقة النصارى في أداء طقوسهم الدينية وسجلوا حبهم لبعض الفتيات من النصارى[24].

وتدل بعض الفتاوى التي أدلى بها بعض الفقهاء الأندلسيين على أن الحكومة الإسلامية لم تتعرض بسوء للكنائس القائمة، ولكنهم لم يسمحوا بإنشاء كنائس جديدة في المناطق التي امتد إليها العمران في قرطبة أو غيرها، ولا في الأحياء ذات الأغلبية المسلمة[25].

ويبدو أن أهل الذمة كان لهم لباس خاص يعرفون به، ويلبسون زناراً مميزاً لملابسهم[26]، وإن كانوا لا يلتزمون به في أحيان كثيرة، ويظهر أنه في بداية حكم المرابطين طالبوهم بالالتزام به إلا أنهم عادوا إلى عدم التقيد به وهذا ما أشار إليه ابن عبدون[27] بأنه «يجب أن تكون لهم علامة يعرفون بها على سبيل الخزي لهم». بل يبدو أن بعض أهل الذمة تزيوا بأزياء المسلمين حتى لم يعد يفرق بينهم وزادوا في

---

(24) المقري: نفح الطيب، جـ 1، ص 525، 526.

قال الشاعر أبو عبدالله بن أحمد بن الحداد في فتاة مسيحية أحبها:

وعرجا يا فتى عامر ... بالفتيات العيسويات

فإن بي للروم رومية ... تكنس ما بين الكنيسات

أهيم فيها والهوى ضَلَّة ... بين صواميع وبيعات

وفي قصيدة أخرى يبين كثرة زيارته للكنيسة لرؤية حبيبته المسيحية:

وأولعني بصلبان ورهبان ونساك

ولم آت الكنائس عن هوى فيهن لولاك

ابن بسام: الذخيرة، القسم الأول، مجلد 2، ص 705، 707.

(25) الونشريسي: م. س. جـ 2، ص 218، 226.

(26) ويظهر ذلك من قصيدة أبي عبدالله بن أحمد بن الحداد من القرن الخامس الهجري، إذ يقول:

وبين المسيحيات لي سامريه ... بعيد على الصب الحنيفي أن تدنو

مثلثه قد وحد الله حسنها ... فثنى في قلبي بها الوجد والحزن

وطى الخمار الجون حسن كأنما ... تجمع فيه البدر والليل والدجّن

وفي معقد الزنار عقد صبابتي ... فمن تحته دعص ومن فوقه غصن

وفي ذلك الوادي رشا أضلعي له ... كناس، وقمري فؤادي له وكن

ابن بسام: الذخيرة قسم 1، مجلد 2، ص 708.

وانظر فتوى بشأن تشبه أهل الذمة في زيهم بالمسلمين في الونشريسي، جـ 6، ص 421.

(27) ابن عبدون: م. س. ص 51.

مظاهر الأبهة وغيرها، مما دعا الجرسيفي[28] أن يشدد في منع أهل الذمة من التزيي بما هـو من زي المسلمين أو بما هو من أبهة، وينصب عليهم علماً يمتازون به من المسلمين كالشكلة في حق الرجال، والجلجل في حق النساء.

ومن خلال كتاب ابن عبدون[29] يستدل على أن بعض النساء المسلمات كن يزرن الكنائس، ربما للتفرج على الاحتفالات الدينية والمواكب التي تجري فيها بمناسبة الأعياد، أو مصاحبة صديقاتهن المسيحيات، لذلك فهو يشدد في أن «تمنع النساء المسلمات من دخول الكنائس المشنوعة، فإن القسيسين فسقة زناة لوطة»[30].

كما طالب ابن عبدون[31] بأن «تمنع الإفرنجيات من الدخول في الكنيسة، إلا في يوم فضل أو عيد فإنهن يأكلن ويشربن ويزنين مع القسيسين»، وهذا يدل على وجود عدد كبير في المدن الأندلسية، وعلى شيوع عادة دخول النساء في الكنائس في غير أيام الأعياد والأيام المشهودة، وإن كان هذا التشدد الذي يبديه ابن عبدون مع النصارى ربما مظهراً من مظاهر النزعة المتشددة التي سادت حكم المرابطين، وإن كان هذا لم يمنع من أن يقوم النصارى بإقامة شعائرهم حتى أنهم يضربون نواقيس كنائسهم في الاحتفالات[32].

وظهرت بعض الأصوات التي تنادي بالتشديد على النصارى وإجبار القسيسين على الختان «كما كان يفعل بهم المعتضد بن عباد (ت 462 هـ/ 1069 م) فإنهم متبعون بزعمهم لسنن عيسى ـ عليه السلام ـ وعيسى قد اختتن ولهم في يوم اختتانه عيد يعظمونه ويتركون ذلك»[33]، وزاد هذا التشدد خصوصاً بعد أن اتصل المعاهدون

---

(28) الجرسيفي: م. س. ص 175.

(29) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص 48.

(30) ابن عبدون: ن. م. وفي ذلك يقول الشاعر أبو عبدالله بن أحمد بن الحداد:

وكـل قس مـظهـر لـلتـقـى	بـآي إنـصـات وإخـبـات
وعـيـنـه تـسـرح في عـيـنـهـم	كـالـذئب يبغي فـرس نعجـات

ابن بسام: م. س. ص 705.

(31) ابن عبدون: م. س. ص 48.

(32) الونشريسي: م. س. جـ 2، ص 218، 226.

ابن عبدون: م. س. ص 55.

(33) ابن عبدون: ن. م. ص 49.

بالفونسو المحارب (ابن ردمير) ومعاونتهم له في انتهاك أراضي المسلمين مدة عام فأصدر القاضي أبو الوليد بن رشد فتوى بإجلاء النصارى المعاهدين عن الأندلس[34].

وعندما علم الأمير تاشفين بن علي باستخدام أهل الذمة في بعض الأعمال الخاصة بالجباية، شدد على القضاة في رسالته المؤرخة في جمادى الأولى 538 هـ/ 1140 م، بعدم استخدام أهل الذمة في أي عمل يمس مصلحة من مصالح المسلمين[35].

ونصح الجرسيفي[36] بأن يمنع أهل الذمة من الإشراف على المسلمين في منازلهم والتكشيف عليهم، ومن إظهار الخمر والخنزير في أسواق المسلمين، ومن ركوب الخيل المسروج وإذلاله «كطرح الكناسة، ونقل آلات الخمر، ورعاية الخنازير وشبه ذلك لما فيه من علو الكفر على الإسلام، ويؤدب من فعل ذلك»[37].

أما بالنسبة لليهود فعاشوا في أحياء خاصة بهم في بعض المدن مثل قرطبة وغرناطة واشتهر يهود أليسانة من عمل غرناطة بغناهم وثروتهم، حتى أن يوسف بن تاشفين فرض عليهم الجزية وغرمهم أموالاً ضخمة[38].

ولكننا نجد بأن حي اليهود لم يكن مقصوراً عليهم فقط بل كان فيه دور للمسلمين ونستدل على ذلك من قضية عرضت على قاضي الجماعة بقرطبة وهي أن وكيل اليتيم باع داراً له لقربها من دور اليهود، وحيث تباع الخمر ومجتمع أهل الشر والفساد[39] وقضية أخرى عن ضرر يهودي اشترى داراً من مسلم في درب يسكنه أهل

---

(34) ابن عذاري: البيان المغربي، جـ 4، ص 72.

الونشريسي: م. س. جـ 2، ص 151.

(35) د. حسين مؤنس: نصوص سياسية، وثيقة رقم 1، ص 113.

(36) الجرسيفي: م. س. ص 122.

(37) ن. م. بينما يأمر ابن عبدون «بأن لا يحك مسلم اليهودي، ولا النصراني، ولا يرمي زبله، ولا ينقي كنيفه، فاليهودي والنصراني كانوا أولى بهذه الصنع، لأنها صنع الأذلين، ولا يخدم مسلم دابة يهودي ولا نصراني، ولا يستزمل له، ولا يضبط بركابه، وأن يعرف هذا أنكر على فاعله».

ابن عبدون: م. س. ص 48.

(38) الإدريسي: م. س. ص 57، الحلل الموشية، ص 80، 81.

وانظر هجاء أحد شعراء اليهود المرابطين في اليهود في الأندلس للدكتور محمد بحر، ص 70، 71.

(39) ابن سهل: م. س. ورقة 33.

الخير، فسكنها، وتأذى الجيران بما لا يجوز فعله كشرب الخمر[40]، وقضية أخرى يرغب فيها اليهود أن يخرج ناظر أحد المساجد الماء لهم من المسجد لدورهم والمسجد ملاصق لدرب اليهود[41].

وقد لعب اليهود دوراً هاماً في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية خصوصاً في القرن الخامس الهجري[42]، وكانت الجالية اليهودية بقرطبة تمارس شعائرها في حرية تامة، واستمرت مدرسة قرطبة للدراسات العبرية تمثل مركز الصدارة في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) وتوسعت حتى أصبحت داراً للإفتاء للشريعة اليهودية[43].

وحددت كتب الحسبة بعض العلاقات الاجتماعية لأهل الذمة بأنه «يجب أن لا يذبح يهودي لمسلم، ويؤمر اليهود أن يتخذوا أوضاعاً لأنفسهم»[44] ويرى ابن عبدون[45] أن أهل الذمة غير أمناء في نقل العلوم، لذلك حذر من التعامل معهم، وأنه «يجب أن لا يباع من اليهود ولا من النصارى كتاب علم إلا ما كان من شريعتهم، فإنهم يترجمون كتب العلوم وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم وهي من تواليف المسلمين»، وكان يشك في نصيحتهم الخالصة لمرضاهم من المسلمين فقال: «لا يترك طبيباً يهودياً أو نصرانياً أن يجلس ليطبب المسلمين، فإنهم لا يرون نصيحة مسلم ألا أن يطببوا أهل ملتهم»[46].

أما الأمير محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرق الأندلس فكانت علاقاته طيبة

---

(40) الونشريسي: م. س. جـ 8، ص 437.

(41) ن. م. جـ 7، ص 52، 53.

(42) انظر حادثة هجوم الفونسو (ابن ردمير) ملك أراجون على بلنسية واستخدامه لأحد اليهود في جمع الإتاوة التي فرضها على أهل بلنسية.
ابن عذارى: البيان المغرب.

(43) جـ 4، ص 41، وما بلغه يوسف بن النغريلة من نفوذ في إمارة غرناطة، الذخيرة قسم 1، مجلد 2، ص 766، وما بعدها.

(44) د. محمد بحر عبد المجيد: اليهود في إسبانيا، ص 35.

(45) ابن عبدون: م. س. ص 49.
ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 94.

(46) ابن عبدون: م. س. ص 57. 46 ن. م.

مع النصارى خصوصاً، فعقد مع الممالك النصرانية المعاهدات، إذ صالح ملك قشتالة ألفونسو السابع، وريمون برنجير الرابع صاحب برشلونة على أن يدفع لهما في السنة خمسون ألف مثقال حشمية[47]، وأرسل إلى ملك إنجلترا هنري الثاني بهدية فخمة من الذهب والحرير والخيل والجمال[48].

وتعهد ابن مردنيش لجنوه بأن يبني لرعاياها الذين يسكنون بلنسية ودانية فندقاً يزاولون فيه تجارتهم وشؤونهم، وأن يعين لهم حماماً يذهبون له كل أسبوع مجاناً، وبلغ من شططه أنه أقطع أحد أكابر فرسان البشكنس «بيدرو رويث أثاجرا Pedra Ruiz de Azgra» مدينة شنتمريه ابن رزين مع سائر مرافقها وأراضيها[49]، وتشبه بالنصارى في لباسهم وركوبهم[50].

ويطلق اسم الصقالبة في الأندلس على الرقيق الذين كانوا يجلبون من البلاد السلافية، ويعرفون أيضاً بالفتيان، والخلفاء والخرس، والخصيان والمجابيب، وهي نعوت تتردد كثيراً في المصادر التاريخية الأندلسية، أما تسميتهم بالخلفاء فلأن هذه التسمية كانت تطلق على أكابرهم، وأما تسميتهم بالخرس فلأنهم لم يكونوا يعرفون لغة البلاد في بداية أمرهم فكانوا أشبه بالخرس[51] ويسميهم ميتز بأرستقراطية العبيد[52].

وجاء أغلب الصقالبة أطفالاً من الجنسين إلى الأندلس، حيث تطور الأمر إلى استخدامهم في الحرس والحاشية والجيش، فأخذت أعدادهم تزداد بسرعة ومع أنهم

---

(47) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 2، ص 124.

(48) Codéra, F. op cit p. 115.

(49) Ibid PP. 122 - 123.

(50) المقري: نفح الطيب، جـ 1، ص 223.
ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 260.

(51) المقري: م. س، جـ 1، ص 342.
ابن بسام: الذخيرة قسم 3، مجلد 1، ص 112.
د. محمد بنشريفة: الأندلسيون من خلال أدبهم، ص 1.

(52) آدم ميتز: الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، جـ 1، ص 280.

كانوا من حيث العدد قلة في المجتمع الأندلسي الكبير، إلا أن نفوذهم فيه كان كبيراً جداً بسبب تقريب الخلفاء لهم وثقتهم بهم[53].

وكان هؤلاء الصقالبة غير منسجمين مع بقية عناصر المجتمع الأندلسي الأخرى، كما كرههم المجتمع القرطبي، ولا سيما في أوائل الدولة الأموية، واستكثر الخلفاء الأمويون منهم حتى كان عددهم في أواخر الدولة الأموية كبيراً جداً[54]، ويجري على الجميع اللحم والخبز والطير والحيتان، وغير ذلك[55].

وحينما ولي الحجابة المنصور بن أبي عامر حاول أن يكسر شوكة الصقالبة ويقضي عليهم في بداية أمره، ولكنه بعد أن استبعد الموالي المخلصين للأمويين منهم، عاد فكون طائفة جديدة عرفت بالفتيان العامريين، وكون هؤلاء الفتيان في عصر الطوائف إمارات معروفة في شرق الأندلس، منها إمارة مجاهد العامري الذي استولى على دانية والجزر الشرقية، وإمارة مبارك ومظفر العامريين اللذين كانا يشتركان في حكم بلنسية وشاطبة، وإمارة لبيب الصقلبي في طرطوشة، وإمارة خيران العامري في ألمرية[56]، وكان شرق الأندلس مقسماً بين هؤلاء الصقالبة وانحاز إليهم جميع الصقالبة الذين كانوا في قرطبة وغيرها، وأدى قيام هذه الإمارات إلى ظهور نزعة شعوبية عبر عنها بعض الأدباء والشعراء، الذين عاشوا في ظل حكمهم[57].

ولم يكن الصقالبة أهل عسكرية وخدمة في البلاطات فحسب، بل كان منهم بعض العلماء الأعلام، وباعتبار الصقالبة عنصراً مهماً في المجتمع الأندلسي أصبحوا محوراً لحركة أدبية لا بأس بها، فقد بلغ شعر المديح الذي قيل فيهم في عصر الطوائف غايتـه ومن أشهر من مدحهم من الشعراء ابن دراج القسطلي[58]، ولكن هذه

---

(53) حاز نصر الخصي على ثقة عبد الرحمن الأوسط بالاتفاق مع حظية الأمير عبد الرحمن طروب البشكنسية.

انظر: ابن حيان: المقتبس، تحقيق د. محمود مكي، ص149.

(54) د. أحمد مختار العبادي: الصقالبة في إسبانيا، ص 11.

(55) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 41.

(56) عن هذه الإمارات انظر ابن بسام: الذخيرة قسم 4، مجلد 1، ابن الخطيب أعمال الأعلام.
محمد عبدالله عنان: دول الطائف.

(57) د. محمد بنشريفة: الأندلسيون من خلال أدبهم، ص 6.

(58)ابن دراج القسطلي: الديوان تحقيق د. محمود مكي، ص 478، 481.

المدائح التي قيلت في هؤلاء الصقالبة المتحكمين لم تكن منبعثة من تقدير لهم أو إكبارهم وإخلاص في حبهم، وإنما هي قصائد من قبيل المدائح التي تقال للتكسب والارتزاق[59].

وكان أصحاب البيوتات الأندلسية الميسورة والطبقة الوسطى في المجتمع تشتري العبيد الصقالبة الخصيان للعمل داخل المنازل في الخدمات المختلفة، وربما كان الفحول (وهم غير الخصيان) يعملون في المهن الأخرى خارج المنزل، هذا إلى جانب أن بعض الجواري من الصقلب كانت تتخذ للمتعة أو يقمن بالغناء والرقص، وأسعار هذا الصنف من الرقيق تتفاوت تبعاً لمهارة وما تجيده الجارية[60].

وكان البربر عنصراً بارزاً في المجتمع الأندلسي منذ فتحها إلى سقوطها، وفضلهم في بناء حضارة الأندلس والنهوض بها لا ينكر، ويمكن أن نميز في العنصر البربري بالأندلس بين ثلاث فئات.

١ ـ **الفئة الأولى**: دخلت في أول الفتح وقد اندمجت شيئاً فشيئاً في المجتمع الأندلسي، وأسهمت كعنصر كبير العدد في ازدهارها وبنائها[61].

٢ ـ **الفئة الثانية**: تتكون من البربر الذين استقدمهم الحاجب المنصور بن أبي عامر وأصبحوا عماد جيشه، وهؤلاء وإن كانت لهم آثار مهمة في الجهاد وبسيوفهم بنى المنصور أمجاده التاريخية والعسكرية، إلا أنهم لم يندمجوا في المجتمع الأندلسي فظلوا متميزين بالزي والشارة واللغة وكان الأندلسيون وأهل قرطبة خاصة يطوون جوانحهم على بغض شديد لهم وحين ثارت فتنة قرطبة بعد أفول نجم العامرين أثارت أحقاداً دفينة بين الأندلسيين والبربر عامة وقد أوقد نار الفتنة أهل قرطبة وإن كانوا احترقوا بلهيبها[62].

وذكر أرشيبالد لويس[63] أن تغير نظام الجيش الأموي باعتماده على البربر

(59) ن. م.، المقدمة ص 70.

(60) د. محمد عبد الوهاب خلاف: م. س. ص 261.

(61) Lévi,Provencal op cit, Tome III p. I67.

(62) د. محمد بنشريفة: م. س. ص 2.

(63) أرشيبالد لويس: م. س. ص 312.

والصقالبة انطوى على خطرين عظيمين: أحدهما أن الأرستقراطية العربية لم تعد تهتم بشؤون الحرب وركنت إلى استئجار من يتولون الدفاع عنها، والثاني وهو الأكثر خطورة هو إفلات زمام المرتزقة بعد وفاة المنصور بن أبي عامر فانقلبوا على الرعية المدنية مع أنهم نظموا في الأصل من أجل الدفاع عنها، وهكذا التهمت كلاب الحراسة الخراف التي كانت تحرسها وانتهت إلى الفوضى والانحلال.

٣ - **الفئة الثالثة**: فكانت باستدعاء أهل الأندلس لبربر صنهاجة الملثمين وكانت وجهة نظر الجانب الأندلسي هي الاستعانة بالمرابطين للوقوف في وجه ألفونسو وأطماعه[64]، ويرى بروفنسال أن المرابطين حين تدخلوا في أمور الأندلس كانوا محقين حين استرابوا بأمراء عاجزين أو قانعين[65].

وبدخول المرابطين الأندلس تعزز عنصر البربر الموجود به، والذي كان منتشراً في المدن والأقاليم، يقومون بأعمال التجارة والزراعة أو الصناعة، ويبدو أن قبائل الملثمين كانوا يعيشون بمعزل عن المجتمع الأندلسي، إذ كانت لهم عاداتهم، وتقاليدهم، كما أن أغلبهم من الطبقة العسكرية خشنة الطباع «لا عهد لها بالدعة ولا علم عندهم برخاء العيش، إنما هم أحدهم فرس يروضه، ويستفرهه، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبي دعوته»[66].

كانت نظرة الأندلسيون إلى المرابطين في أول الأمر نظرة احترام وإجلال فبفضلهم هزم ألفونسو السادس في الزلاقة، ومن قبلها لم يجرؤ أحد من ملوك الطوائف على التصدي له، واعتبر الأندلسيون المرابطين مخلصيهم من ظلم أمراء الطوائف، وكثرة ضرائبهم، وقسوة عمالهم، ولم يبد الأندلسيون تحمساً أو دفاعاً عن ملوك الطوائف عندما قرر يوسف بن تاشفين عزلهم، وأظهروا إعظامهم له، وأشربت قلوب أهل الأندلس بحب يوسف وأصحابه[67].

(64) الأمير بلقين: م. س. ص 103، الحلل الموشية ص 38.
عبد الواحد المراكشي: المعجب ص 130.
المقري: م. س. ص 442.
ابن أبي زرع: م. س. ص 144.
(65) ليفي بروفنسال: أدب الأندلس وتاريخها، ص 16.
(66) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 163.
(67) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 166، 200.

غير أن هذه النظرة ما لبثت أن تلاشت بعد زوال الخطر القشتالي عن الأندلسيين، وبدأت تطفو على السطح من جديد تلك الحساسية تجاه بربر العدوة فبرغم ما قام به البربر تجاه الأندلسيين خاصة المرابطين منهم كانوا ينظرون إليهم نظرتهم إلى البدو الغلاظ الذين لا عهد لهم بحضارة أو مدنية، بل هذه هي إحساساتهم تجاه جميع أهل العدوة، يقول المقري[68]: «ولما كان البربر بالقرب منهم وليس بينهم سوى تعدية البحر، ويرد عليهم من طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع، ازدادوا منهم نفوراً، وأكثر تحذرهم من نسب، أو مجاورة، حتى ثبت ذلك في طبائعهم، وصار بغضهم مركباً في غرائزهم، فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس وبغضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم، فلم تجد أندلسياً إلا مبغضاً بربرياً والعكس».

وليس أدل على كراهية الأندلسيين للمرابطين من الرسالة التي كتبها أبو مروان ابن أبي الخصال[69] إلى جند بلنسية بعد هزيمتهم من ألفونسو ملك قشتالة وأراجون (ابن رذمير) وقتل عدد كبير منهم، وقد أفحش في هذه الرسالة على المرابطين، وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة.

وهذه الرسالة تكشف عن الحقد الدفين الذي امتلأت به قلوب الكثيرين من أهل الأندلس على المرابطين، وتكشف عن مشاعر هؤلاء الحانقين، بصورة لا تحتاج إلى بيان أكثر، وتبين الحجج التي كانوا يتذرعون بها في الحملة على المرابطين، وما كانوا يرددونه في مجالسهم إذا خلا بعضهم إلى بعض، وتناجوا بما تضمه جوانحهم

(68) المقري: م. س. جـ 1، ص 244.

(69) يقول في الرسالة: «أي بني اللئيمة، وأعيار الهزيمة، إلامَ يريعكم الناقد، ويردكم الفارس الواحد، ومن لرعاة الإبل بالجد المقبل: لقدماً ما أذهبتم التالد والطارف، وعجباً عجيباً من جذامي المطارف! وأنتم قَدَحْتُم في ملكنا، وأذنتم بانتثار سلكنا، فلولا من لدينا من ذويكم، وضراعتهم إلينا فيكم لألحقناكم عجلاً بصحرايكم، وطهرنا الجزيرة من رحضايكم، بعد أن نوسعكم عقاباً، ونجد أن لا تلووا على وجه نقاباً، فاللؤم تحت عمايمكم، والوهن والفشل طي عزائمكم، لكن ما جبلنا عليه من الأناة، وتوخيناه قدماً من إيقاظ ذوي الملكات، يكفنا عن استيصالكم ويحملنا على شحذ نصالكم».

د. حسين مؤنس: نصوص سياسية: وثيقة رقم 2، ص 117، 118.

وذكر عبد الواحد المراكشي أن الرسالة كتبها أبو عبدالله بن أبي الخصال، ثم ذكر مرة أخرى أنها لأبي مروان أخاه، ولكنها من إنشاء أبي مروان.

انظر المعجب ص 176، 177.

د. حسين مؤنس: م. س. ص 117.

من كراهية تجاه المرابطين، غير مقدرين أن مصير الإسلام والمسلمين بالأندلس كله، كان مرتبطاً في ذلك الوقت بوجود المرابطين ـ أو بغيرهم من جند العدوة، وأنه في اليوم الذي يكف فيه أولئك عن الذود عن الأندلس، سينتهي أمر الإسلام فيه، وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك.

وتعرض الأندلسيون في أمثالهم العامية للبربر والمرابطين[70]، فوصفوا البربري بالجشع والطمع[71]، وسخروا من المرابطين ولباسهم للعمائم لأن أهل الأندلس لم يعتادوا لباسها[72] وتهكموا من شجاعة البربر وتهاونهم في الدفاع عن الحصون وحراستها[73].

وبدخول الموحدين الأندلس تعزز العنصر البربري خصوصاً من قبائل مصمودة وإن ظلوا هم أيضاً بعيدين عن العناصر الأخرى التي تمازجت واختلطت أكثر، وازداد انصهارها بحيث كان من الصعب التمييز بينها، وكونت عنصراً واحداً هو العنصر الأندلسي الذي جمع بين كل العناصر السابقة، وأصبحت تشبه نسيجاً مطرزاً بألوان متكاملة ومتعددة، أو لوحة من الفسيفساء ذات الأشكال المتداخلة المكملة بعضها البعض.

---

(70) يقولون: «كل ما يجي من المغرب مليح إلّا ابن آدم والريح».
الزجالي: أمثال العوام تحقيق د. محمد بنشريفة، رقم 1082.

(71) «عطي للبربري شبر، طلب ذراع»، «والبربري والفار، لا تعلمهم باب الدار» ن. م. رقم 1644، 175.

(72) «طالع هابط بحل عمام في رأس مرابط».
ن. م. رقم 1062.

(73) «بَيْدَم أتمق حُسَى الرامي، أُخُذ الحصن» أي أنه إلى أن لبس حسى (حسين) الرامي خفه ن. م. رقم 208.



الفصل الثاني

طبقات المجتمع وطوائفه

المرابطون ـ عدم اختلاطهم بالأندلسيين ـ الجيل الأول من المرابطين ـ الجيل الثاني عبيد وحشم المرابطين ـ استغلال البعض لباس المرابطين.

الموحدون طبقة السادة وشيوخ الموحدين.

الفقهاء ـ مكانة خاصة ـ تكوين الثروات ـ حساسية المجتمع تجاه بعض الفقهاء ـ طبقة الخاصة (الأرستقراطية) تكدس الثروات فيها ـ المستهلك الرئيسي للمنتجات ـ تنشيط التجارة والصناعة ـ التأثير في الحياة الفكرية ـ سلبية الطبقة المتوسطة ـ الموظفون ـ الجند ـ رجال العلم والأدب والتجار والحرفيون ـ سمات هذه الطبقة العامة ـ انخفاض مستوى معيشتها ـ تأثر العامة بالأزمات أكثر من غيرهم ـ الحرف التي يحترفها العرب ـ حرف البربر ـ المسالمة ـ الموالي ـ مفاهيم العامة.

طبقة العبيد ـ دورها في تدعيم طبقة الخاصة ـ أعمالهم ـ الجواري.

المرتزقة ـ مساندة المنتزين ـ أجورهم لمدد معينة.

الصوفية ـ عوائدهم وطرق احتفالاتهم ـ انخراط الأمراء والأثرياء في التصوف.

طبقات المجتمع وطوائفه:

كان المرابطون يتألفون من قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة والتي ربطت بينها رابطة القرابة والمصلحة المشتركة، وارتبطت منذ بداية الدولة بما يشبه التحالف، وظلت كل قبيلة تتمتع باستقلال ذاتي في نطاق هذه الوحدة العامة لكل شيخها وأشرافها الذين يصرفون شؤونها، ويتمتعون بنفوذ مطلق على أفرادها، وتأثرت دولة المرابطين بهذه الروح القبلية تأثراً كبيراً[1].

وكانت هذه القبائل صاحبة السيادة تؤلف طبقة أرستقراطية في المجتمع الملثم وفي الدولة، تختص نفسها بالشرف والرئاسة، فالولاة من قبيلة لمتونة على الخصوص أو من إحدى قبائل صنهاجة، ولهم القيادة العليا على جيوش المرابطين بالأندلس[2].

ويبدو أن المرابطين لم يختلطوا بالأندلسيين إذ عاشوا في القصبة في الغالب أو أحياء خاصة بهم، ومعهم حشمهم وعبيدهم[3].

والجيل الأول من المرابطين الذي دخل الأندلس كان حديث العهد بحركة الزهد والتقشف، «رجالاً لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبي دعوته»[4]،

(1) انظر د. حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ابن خلدون: العبر، جـ 6، ص 191.

(2) Dozy, R. Historia Abbadidoruma, vol II, p. 249.

(3) الحلل الموشية، ص 86.

(4) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 163.

فيوسف بن تاشفين وهو أمير المسلمين «لباسه الصوف، لم يلبس قط غيره، وأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها مقتصراً على ذلك، ولم ينتقل عنه مدة عمره إلى أن توفي»[5]، واستطاع شيوخ المرابطين أن يسيروا على هذا النهج ويقاوموا مؤثرات المال الوفير، والحياة الأندلسية المترفة الراقية، فقد أثر عن الأمير سير بن أبي بكر الزهد والتقشف وخشية الله[6]، وصار في نفس الطريق الأمير أبو عبد الله بن عائشة الذي لم يكن بين قواد المرابطين مثله بأساً وجداً في نصرة الدين، واستبصار في أداء الطاعة[7].

ولكن هذه الحياة البسيطة لم تستمر طويلًا بعد وفاة يوسف بن تاشفين، إذ تغلبت الحياة الأندلسية بمتعها وبهجتها ومسراتها، ولم يكن من الممكن أن يقاوم المرابطون هذه المتع طويلاً، إذ إنهم عاشوا في ظلها، وانغمسوا في لجتها، واضطروا أن يعيشوا كما كان الناس يعيشون في الأندلس، وهذا أمر طبيعي، فلا بد أن تطغى الحضارة الأندلسية المتقدمة على المرابطين ذوي الحضارة البسيطة الساذجة، وليس من المعقول أن تظل أجيال المرابطين في حاله التقشف والزهد والاستنفار للحرب، تلك الحياة التي مارسها الجيل الأول في عهد الأمير يوسف بن تاشفين، فقد زادت الغنائم، وتكدس المال، واختلطوا وشاهدوا كيف يعيش أهل الأندلس، فهؤلاء المرابطون أشبه بالمسلمين الأوائل في صدر الإسلام، عاشوا حياة البساطة والزهد والجهاد، ولكن الحال تغير بعد أن اتسعت الفتوحات واختلطوا بالشعوب الأخرى ذات الحضارات المتقدمة في الأمصار المفتوحة.

ظهر التحول في عهد الأمير علي بن يوسف، ورغم ما عرف عنه من تقشفه إذ كان أقرب إلى الزهاد منه إلى الملوك[8]، وما عرف عن ابنه الأمير تاشفين من أنه لم يشرب قط مسكراً، ولا استمع إلى قينة، ولا اشتغل بلذة مما يلهو به الملوك[9] إلا

---

(5) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 136.
(6) الونشريسي: المعيار، جـ 9، ص 703.
(7) ابن الأبار: التكملة، جـ 1، ص 55.
د. حسن محمود: م. س. ص 421.
(8) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 171.
(9) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 1، ص 448.

أنهم كانوا يعيشون في قصور فخمة، فأمير المسلمين علي بن يوسف كان إذا رحل إلى الأندلس نزل بإشبيلية في معرش له غاية في الحسن والجمال، وصفه الفتح بن خاقان[10].

واتخذ الأمراء والقواد القصور الحسان، وتفنن فنانو الأندلس في بنائها وزخرفتها، وتأنقوا في المأكل والمشرب، واتخذوا مجالس من الشعراء والمغنين والندماء، ويمنحونهم العطايا الكبيرة[11].

وكانوا يسيرون في الطرقات مرتدين اللثام، متمنطقين بالسلاح، فيدخلون الرعب والفزع في قلوب السكان الآمنين، ومع أن ابن عبدون[12] اشترط على جميع الأندلسيين بأن لا يمشي أحد في المدينة بسلاح، إلا أنه أكد بصفة خاصة على البربر، بدعوى أنهم قوم إذا غضبوا قتلوا، أو جرحوا.

ويبدو أن بعض عبيد وحشم المرابطين كانوا يسيئون إلى الناس[13] ويستغلون

(10) يقول الفتح: «خرجت بإشبيلية مشيعاً لأحد زعماء المرابطين، فلما انصرفنا، مال بنا إلى معرش أمير المسلمين - أدام الله تأييده - الذي ينزل به عند حلوله إشبيلية، وهو موضع مستبعد كأنه الحسن فيه، مودع ما شئت من نهر ينساب انسياب الأراقم، وروض لما وشت البرود يد راقم، وزهر يحسد الماء رباه، ويتمنى الصبح أن يسم له محياه.
ابن خاقان: قلائد العقيان، ص 111.

(11) ذكر المقري أن أبا بكر بن باجة كان يجالس الأمير أبي بكر بن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى على بعض قيانة موشحة أولها:

«جرر الذيل أيما جر»

وختمها بقوله:

عـقـد الله الـنـصـر الأمـيـر الـعـلا أبـي بـكـر

فلما طرق ذلك التلحين سمع الأمير ابن تيفلويت صاح: واطرباه، وشق ثيابه، وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت، وحلف بالأيمان المغلظة ألاّ يمشي ابن باجة إلى داره إلاّ على الذهب.
المقري: أزهار الرياض، جـ 2، ص 209.
ومدح الشاعر ابن خفاجة الأمير أبو إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين.
انظر ديوان ابن خفاجة.

(12) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص 28.

(13) قيل إن سبب ثورة قرطبة سنة 514 هـ أنه في أثناء الاحتفال بالعيد مد عبد من عبيد المرابطين يده إلى امرأة وأمسكها فاستغاثت، فأغاثها الناس، ووقع بين العبيد وأهل قرطبة فتنة عظيمة، وهاجموا قصر الوالي وانتهبوا ما فيه، وأحرقوا دور المرابطين، وفر الوالي بصعوبة، مما استدعى حضور عليّ بن =

لباس المرابطين ويتلثمون ويموهون على الشعب، ويرتكبون الشرور والآثام، مما أثار السخط لذلك يؤكد ابن عبدون[14] بأنه «يجب ألا يلثم صنهاجي، أو لمتوني، أو لمطي فإن الحشم[15] والعبيد، ومن لا يجب أن يلثم يلثمون على الناس ويهيبونهم، ويأتون أبواباً من الفجور كثيرة بسبب اللثام.

ولكن التشبه بلباس المرابطين لم يكن يرتكبه الخدم والحشم فقط، بل استغله بعض الأندلسيين، فتنكروا في زيهم وتلثموا، وارتكبوا ضروباً من الفساد، متخفين في اللثام، وهذا ما يظهر في زجل لابن قزمان[16] يحكي أنه لبس العمامة وتلثم ليخفي شخصيته ليقابل إحدى النساء.

بل وصل الحال ببعض الأندلسيين إلى استغلال لباس المرابطين في قضاء حوائجهم إذ كان البعض يتلثم ويغير شكله، حتى يجري الناس إلى برهم، وإكرامهم وقضاء حوائجهم مخدوعين في لباسهم وهيئتهم[17].

وقد انتشرت هذه الجاليات الملثمة في المدن والقرى بعد أن تزايدت أعدادهم يستعلي أفرادها على أهل البلاد ويحيون حياة تكاد تكون في معزل عن طبقات المجتمع الأخرى، بل إنهم كانوا يأنفون من الخضوع لأحكام القضاء، مما جعل أمير المسلمين علي بن يوسف يكتب إلى أحد القضاة قائلاً: «وقد عهدنا إلى جماعة

= يوسف على رأس جيش كبير من المغرب حاصر به قرطبة.
انظر الحلل الموشية، ص 86.
ابن عذاري: م. س. جـ 3، ص 6.
ابن الأثير: الكامل، جـ 10، ص 197.

(14) ابن عبدون: م. س. ص 28.

(15) المقصود بالحشم قبائل جزولة ولمطة ومصمودة وزناتة الذين تحالفوا مع المرابطين من بداية دولتهم.
الحلل الموشية، ص 33.

(16) يقول ابن قزمان في زجل 87:

قلت يا ليت شعري أش نعمل؟	قمت عممت راسي بالحنبل
وفتلت بيد وانعدل	شي على شي شكله بني زروال
جات لعمري مَلْيح شيا عظيم	لولا ما تم كل في التعميم
أغات الله وفضل عن تلثيم	الشبيكة بش يصطد السردال

وبنو زروال قبيلة بربرية، والسردال، هو السردين بعامية الأندلس.

(17) ابن عبدون: م. س. ص 28.

المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تقضيه ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه»، ونحن أولاً، وكلهم آخر، قد صرت قاضياً سامعون منك غير معترضين في حق عليك، والعمال والرعية كافة سواء في الحق»[18] لذلك طالب ابن عبدون[19] بأن يتخذ القاضي أعواناً من البربر ممن لهم كلمة مسموعة لدى هذه الطبقة.

وقام المجتمع الموحدي على الطبقية من بدايته، فكانت القبائل الموحدية السلطة والسلطان وغير الموحدين رعية لها، فيقول ابن القطان[21] أن ابن تومرت اختص هذه القبائل بكثير من الاختصاص، وعقد لهم من البر والتكرمة ما أنهضهم» وأكد عبد المؤمن هذا النظام عندما اختص أبناءه «السادة» وأبناء هذه القبائل بالوظائف الكبرى، وقصر التعليم على النابهين من أولادهم، وصارت هذه الطبقة تشمل السادة بني عبد المؤمن، وأشياخ الموحدين وملكت الأموال الجمة والضياع الشاسعة التي تقدر بعشرات الآلاف، واستثمروا الأموال في التجارة والصناعة فعظمت ثرواتهم[21]، ووصف ابن سعيد[22] قصور الموحدين بأن كل قصر يستقل بالديار والبساتين والحمامات والإصطبلات حتى أن صاحب القصر ليغلق بابه على جميع خوله وأقاربه

---

(18) ابن بسام: الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص 261، 262.

(19) ابن عبدون: م. س.

(20) ابن القطان: م. س. ص 80.

(21) يقول المراكشي عن هذه القبائل: «وقبائل الموحدين الذين يجمعهم هذا الاسم ويعمهم، وهم الجند والأعوان والأنصار ومن سواهم من سائر البربر المصامدة رعية لهم وتحت أمرهم سبع قبائل: أولاها قبيلة ابن تومرت وهي قبيلة تسمى هرغة وهي قليلة العدد بالنسبة إلى قبائل الموحدين، ثم قبيلة عبد المؤمن وتسمى كومية وهي قبيلة كثيرة العدد، جمة الشعوب، لم يكن لها من قديم الدّهر ولا في حديثه ذكر من رياسة، ولاحظ من نباهة، إنما كانوا أصحاب فلاحة، ورعاة غنم، وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللّبنْ والحطب، وسوى ذلك من سقط المتاع فتبارك المعز المذل، المعطي المانع، فأصبح القوم اليوم، وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب، ولا تطاول أيديهم يد، لكون عبد المؤمن منهم، ثم أهل تينمل وهم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع ثم هنتاتة وهي أيضاً قبيلة ضخمة جداً وفي بعضها رياسة وشرف من الدهر القديم، ثم كنفيسة وهي قبيلة عزيزة منيعة ثم كدميوه، وليست كلها بل بعضها رعية ثم من استجاب للموحدين من قبائل صنهاجة ثم بعض قبائل هسكورة ويضيف المراكشي قائلاً: «فهن حملة قبائل الموحودين المستحقين لهذا الاسم عندهم، والذين يأخذون العطاء وتجمعهم الجيوش، وينفرون في البعوث وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية لهم».
المراكشي: م. س. ص 225، 226.

(22) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 1، ص 161.

ولا يحتاج إلى شيء من خارج داره، ولا يشتري شيئاً من السوق لمأكله، ولا يقرىء أولاده في مكتب خارج بيته ولا يخرج من بابه إلا راكباً».

الفقهاء:

كان للفقهاء مكانة خاصة في المجتمع الأندلسي، فهم رجال الدين والدنيا، فمنهم الأئمة، والخطباء، والفقهاء، والقضاة، والمشاورون، والمفتون والعدول وغيرهم واستمدوا مكانتهم، ونفوذهم من كونهم حفظة الدين وحملة الشريعة، ومن المجتمع الذي يجلهم، والدولة التي تحترمهم، وتقف عند رأيهم وتعمل بإشاراتهم، حفاظاً منها على تقليد مرعي ظهر مع قيام المجتمع الأندلسي في أوائل العصر الأموي بالأندلس، واستمر حتى خروج الإسلام منها، ولهذا كانت سوق الفقه نافقة، والإقبال على دراسته كبيراً، وربما وحدة المذهب، وطابع الفقه المالكي وأهله، وتجاور الإسلام والمسيحية من أهم العوامل والأسباب في هذه المكانة الخاصة التي كانت للفقهاء في الأندلس.

وقد ذكر ابن سعيد[23] في وصفه للمجتمع الأندلسي أن للفقه رونق وجلالة «وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى أن الملثمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه، وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه، لأنها عندهم أرفع السمات».

وتقويم ابن سعيد هذا ليس خاصاً بعصري المرابطين والموحدين في الأندلس وإنما هو تقويم عام يستند إلى تاريخ الأندلس وينسحب على مختلف العصور[24]، فالفقهاء والقضاة كونوا طبقة متميزة في المجتمع الأندلسي، وهذه الطبقة كانت ذات أثر وتأثير واضح ومميز فيه قبل المرابطين وبعدهم، إذ كانت لهم مواقف كثيرة تبين هذه المنزلة وقوة التأثير.

وحادثة الربض[25] في عهد الأمير الحكم بن هشام (180 : 206 هـ)

---

(23) المقري: نفح الطيب، جـ 1، ص 221.

(24) د. محمد بنشريفة: الفقهاء في الأدب الأندلسي، ص 1.

(25) عن حادثة الربض انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 2، ص 106.

المقري: نفح الطيب، جـ 1، ص 339.

ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ 1، ص 44.

د. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 279.

(796 : 822 م) التي أججها الفقهاء بإثاراتهم للعامة لم تكن إلا لإحساسهم بقوة الأمير الحكم، الذي وجدوا فيه خطورة على مكانتهم ونفوذهم، التي وصلوا إليها في عهد والده هشام (172 : 180 هـ) (788 : 796 م)، فكان من نتائجها صلح على عقد غير مكتوب أصبح فيما بعد أساساً للعلاقة بين الدولة والفقهاء، يقول الدكتور حسين مؤنس[26]: «إن الصلح الذي تم بين الحكم الربضي والفقهاء كان في حقيقة الأمر، حلفاً بين الفقهاء والأمراء، واتفاقاً على التأييد المتبادل: الفقهاء يؤيدون السلطان ويعلون جاهه بين الناس، والسلطان يؤيد جاه الفقهاء بإضفاء الاحترام والأموال والخطط على من يطلبها منهم.

فكان الحكام مهما بلغوا من قوة لا يستطيعون البطش بهم، خوفاً من سلاحهم الذي يعمل له ألف حساب، والذي يهددون ويلوحون به دائماً، وهو الاتهام بالفساد، والخروج على الدين، والكفر والإلحاد، لذلك تحاشى الحكام الصدام بهم، وحاولوا في كثير من الأحيان تنفيذ مطالبهم إما بحرق كتب أو إصدار فتوى بتكفير وإعدام من يخرج على محيط أفكارهم، والتاريخ حافل بكثير من هذه الحوادث في الأندلس[27].

وكنتيجة لهذه المكانة الرفيعة التي تمتع بها القضاة والفقهاء، أن عظم أمرهم، وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم، والتف حولهم الناس متزلفين متقربين، فقصدهم أصحاب الحاجات يلتمسون الوساطة والشفاعة، وحسدهم كثيرون من أهل الأندلس بسبب هذا الجاه العريض، وهذه الأموال الجمة التي حازوها[28] ويتبين ذلك من قول الشاعر أبي جعفر أحمد بن محمد

---

(26) د. حسن مؤنس: شيوخ العصر، ص 35.

(27) مثل متابعة ابن مسرة وتلاميذه من بعده، وترك المنصور بن أبي عامر الفقهاء يعيشون حرقاً وتدميراً في مكتبة الخليفة الحكم المستنصر التي بذل فيها الجهد والمال حتى يقال إنها احتوت على ستة آلاف مجلد في شتى فروع العلم بدعوى البحث عن كتب الفلسفة - وحرقهم كتب المفكر الفيلسوف ابن حزم بعد اتهامه بالمروق على الدين.
انظر بالترتيب، ابن حيان: المقتبس، جـ 9، ص 3.
ابن بسام: الذخيرة القسم الأول، مجلد 1، ص 169، 171.

(28) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 171.

المعروف بابن البني[29] يهجو القاضي أبا عبد الله محمد بن حمدين قاضي قرطبة ويعرض به كما هجاهم الشاعر ابن خفاجة[30]، وغيرهم من الشعراء[31].

وقد استطاع ابن العريف من خلال وظيفة المحتسب أن يتعرف على كثير من القضاة والفقهاء الذين يكنزون الذهب والفضة، فسماهم «علماء أهل السوء وكبراء أهل الدنيا المغرورين»، ويصف هؤلاء الفقهاء بقوله: «كان الكبر والفخر والسرور بجمع الدنيا في وجوههم بادياً، وناموا واتكوا بجنوبهم على اللين من أنواع الملبوس إيثاراً لراحة النفوس، عملاً متمادياً، واعتمدوا بظهورهم على صدور المجالس زهواً على الخواطر المُجَالس ظاهراً بادياً، وأي ظهور لم تثقل بأعباء الدين، ولا نشطت للقيام بأمور المساكين، بل خفت واستراحت بطرحها لأثقال الأمانة، وقامت بشرائع أمثالها أهل العجز والخيانة»[32].

أما ابن قزمان فقد أعطى صوره سيئة للفقيه في عدد كبير من أزجاله، فصوره في صورة المنافق الجشع، المستغل للنفوذ في الحصول على ما ليس من حقه، وعلى فساد أخلاقه في حياته الخاصة، والتظاهر أمام الناس بالصلاح والتقوى[33]، فهو عندما

(29) يقول في هجاء ابن حمدين، ونسبت هذه الأبيات أيضاً إلى الشاعر المعروف بالأبيض:

أهل الرياء لبستم ناموسكم ... كالذئب أولج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتم الأموال بابن القاسم
وباشهب شهب البغال ركبتم ... وبأصبغ صبغت لكم في العالم

ابن إدريس التجيبي (أبو بحر بن صفوان): زاد المسافر، ص 71، المعجب، ص 171.

(30) ابن خفاجة: ديوانه، ص 366.

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم ... فيها صدور مراتب ومجالس
وتزهدوا حتى أصابوا فرصة ... في أخذ مال مساجد وكنائس

(31) انظر شعر الأعمى التطيلي في هجاء الفقهاء، ديوان الأعمى التطيلي تحقيق د. إحسان عباس، ص 90، 91.

(32) ابن العريف: طريق السعادة، ورقة 22.

(33) وصف ابن قزمان كيف استدرج أحد الفقهاء حتى جعله يشرب الخمر، زجل 94:

وإذا كنت مع فقيه أو إمام ... ويقول لك «شربت قط مُدام»؟
قل «أشْنُه يا فقي، ذا الكلام! ... بالله ما ذقت قط شراب تفاح!
وإن أجمعك به زماناً طويل ... وعسي لِسْ لذا الصبر غير قليل
قل اسمع وجدت إليك سبيل ... جِي نُقُلُك بالرَّسْلَة أو بالصياح
تَدْرِ إذ قلت لي شربت عقار ... بقليلات وربما بأقداح

يتحدث عن خصائص بعض الزهور، صور زهر الخيري بالفقيه في نفاقه لأنه يكون منكمشاً بالنهار متفتحاً بالليل، وسماه فقيه النوار[34].

ولم تسلم هذه الطبقة من ألسنة العامة وأمثالهم التي تدل على كراهيتهم لهم، منهم يصفونهم باستغلال النفوذ، والرياء، والنفاق[35]، وصوروا تهافتهم على جمع المال وتسارعهم إلى العطاء[36]، ومنها ما يصور قلة ورعهم وقولهم ما لا يعملون به[37] ونعتوهم باستغلال الباعة في شراء حوائجهم بسعر رخيص[38].

ومع ذلك فقد اختلف موقف الشعراء تجاه الفقهاء في هذا العصر، ففريق سالمهم وهادنهم بل تقرب إليهم بالمديح، إما اعترافاً بعلمهم وفضلهم، كالمدائح التي قيلت في القاضي عياض، وأبي بكر بن العربي، أو طمعاً في نوالهم وعطائهم

= تحفظ أسماها؟ سيقلك «لأ» | قل خذ، نملأ منها أذنيك ملأ
هي هي القهوة والمُدَام والطلا | والحميا والخندريس والراح
يا سروري في يوم من الأيام | بنديما مَلِيْح وشرب مُدام
كم ل ننصح في ذا وذا ونُلام | وأنا نستخف بالنُّصَّاح!
قال أحسنت، والله، إن ذا مَليح | إذ رآني نشرب قطيعاً صحيح
وَنَزَهْزَه من الطرب ونصيح | فشرب ُه قطَيع، وزهزه وصاح
ورقد لك بعد الشراب والطعام | فكما أصبح لبس ثيابو وقام
فما ابيض في عين ذاك الظلام | وما اسود في عين ذاك الصباح

(34) وفي زجل 43 شبه زهرة الخيري بالفقيه يقول فيه:

وفقيه النوار | انماهُ الخيري
بالنهار يوري وقار | ويرى بيع مري
إذا كان الليل | يمضي للناس يجري
ويصيح يا خلاع | بارك الله فيكم

(35) يقولون «ما بين قاضي وزامر» الزجالي: أمثال العوام، رقم 1516، وقيل هذا المثل بعد عقاب القاضي أبي بكر بن العربي لأحد الزمرة بثقب شدقيه «فانبطلت الحكمة عليه».
ابن عذارى: البيان المغرب، جـ 4، ص 93.

(36) «أسرع من يد فقي، إذ أقل: خُذ».
الزجاجي: م. س. رقم 506.

(37) «خاف الله واتقيه، ولا تعامل الفقيه».
ن. م. رقم 924.

(38) «شِرَ فقي، جيد ورخيص، وموصل للدار».
ن. م. رقم 1876.

بالنسبة لابن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة، وأبي أمية أحمد بن عاصم قاضي قضاة الشرق، وبني عشرة قضاة سلا، وبني سمجون بطنجة[39]، ومن الملفت للنظر أن جل ممدوحي ابن قزمان إن لم نقل كلهم هم من الفقهاء[40].

وعلى آية حال فإن هذه الطبقة، أو البيوتات الكبيرة منهم والتي توارثت القضاء، عندما أحست بالخطر على مراكزها بانهيار المرابطين، تزعموا مدنهم وأعلنوا الثورة، واستقلوا بهذه المدن، وكونوا ما عرف بعصر الطوائف الثاني[41].

طبقة الخاصة (الأرستقراطية):

وكانت الطبقة الأرستقراطية هي الأكثر ثراءً في المجتمع الأندلسي فقد ملكت هذه الطبقة الأموال الكثيرة التي تقدر بعشرات الآلاف وتولى بعض أفرادها الخطط الرسمية واستثمر أمواله في الصناعة والتجارة[*]، وساعدتها ثروتها على بسط نفوذها السياسي وسيطرتها الإدارية، وزادت هذه السيطرة بدورها إلى السماح لأبنائها بتوسيع نفوذها الاقتصادي، وزيادة ثرواتهم، وتوسيع ملكياتهم، مما أوجد نوعاً من الصراع والتنافس بين العائلات الكبرى على المناصب، والمصالح الاقتصادية كما حدث بين عائلتي الطبيب المشهور أبي العلاء بن زهر وعائلة الزهري أصهاره وأصدقاءه في إشبيلية، ووصلت هذه المنافسات والمنازعات إلى أسماع الأمير علي بن يوسف، فأمر عميد عائلة الزهري بالإقامة في مراكش، وأبي العلاء بن زهر بالإقامة في فاس، وحاول ابن زهر مقابلة أمير المسلمين إلا أنه رفض «ولم يسمح له بالوصول»، خصوصاً بعد ما وصله عن إساءته للمرابطين.

ويصف ابن عذاري[42]، ما وصل إليه نفوذ ابن زهر والزهري في إشبيلية بقوله: «وكان قبل في غاية الجاه والعزة والتمكين من الدولة، يولي من قبله حاكم يحكم من حاشيته، وصاحب المدينة من توليته، وشهود البلد بحكمه، وأمر المستخلص وأملاك

---

(39) د. محمد بنشريفة: م. س. ص 12، 13.

(40) انظر ديوان ابن قزمان.

(41) انظر الفصل الثاني من الرسالة ثورة القضاة.

(*) ابن سعيد: م. س. جـ 1، ص 163.

(42) ابن عذارى: م. س. جـ 4، ص 65.

السلطان جارية على نهيه وأمره بمدينة إشبيلية، والزهري في كل ذلك تلوه ومقتد به، فما راعوا حق الحرمة، ولا أدوا شكر النعمة».

ولا شك أن استحواذ الأرستقراطية على القسم الأكبر من الثروة يجعل هذه الطبقة المستهلك الرئيسي لكثير من المنتجات، فكان أثرها ملحوظ في تنشيط التجارة والصناعة، فتشييد القصور وما يتطلبه من أثاث وفراش وجواري وخدم وحشم ومأكل وملبس لا بدّ أنه يبعث في الحياة التجارية النشاط ويفتح أمام العمال والحرفيين مجالات العمل المختلفة[43].

ولم يتوقف تأثير هذه الطبقة على المجالين السياسي والاقتصادي، فاحتلت مركز الصدارة في جميع ميادين الثقافة والفكر سواء في المجالات التشريعية أو الفكرية أو الدينية أو الفنية والأدبية، وليس معنى ذلك أن هذه الطبقة كانت تصدر الأوامر مباشرة إلى العلماء والشعراء والفنانين وغيرهم، ليعالجوا هذا الموضوع أو ذاك، بهذه الطريقة دون تلك، ولكن احتلالها مركز الصدارة والقيادة في المجتمع فسح لها المجال لتحقيق توجيهها سواء هذا التوجيه إرادياً أم غير إرادي[44].

وهذا لا يعني أنه لم تكن هناك تيارات ثقافية تولد بعيداً عن الأرستقراطية بل وربما تسير ضد مصالحها أيضاً، ولكن المجال لم يفسح لتطور مثل هذه التيارات نظراً لعدم دعمها من قبل النظامين، الاقتصادي والسياسي القائمين، علاوة على إهمال المؤرخين لها لأنها تتعلق بالأرستقراطية ولا ترضي ميولها، ولأن الأرستقراطية نفسها قاومت مثل هذه التيارات بشدة وعنف لأنها تهدد مصالحها، ولأن المؤرخين إنما يؤلفون كتبهم على وجه العموم تحت رعاية أمير أو ملك أو أسرة ذات سلطان ونفوذ، حتى إذا ألفوها وهم بعيدون عن هذا التأثير مباشرة فهم يفكرون دون ريب فيمن ستقدم إليه هذه الكتب فيدفع فيها ثمناً يعظم كلما وافقت هذه الكتب هواه وراقت ذوقه[45].

(43) ن. م.
ابن عذارى: م. س. جـ 4، ص 65.

(44) د. صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجري، ص 76.

(45) ولعل ما حدث للفيلسوف أبي الوليد بن رشد يمكن أن يكون مثلاً حياً، ويتحدث عبد الواحد المراكشي عن سبب نكبة أبي الوليد بقوله «وكان لها سببان جلي وخفي: فأما سببها الخفي وهو أكبر أسبابها، فإن الحكيم أبا الوليد ـ رحمه الله ـ أخذ في شرح كتاب الحيوان لأرسطاطاليس صاحب كتاب المنطق، فهذبه وبسط أغراضه وزاد فيه ما رآه لائقاً به فقال في هذا الكتاب، عند ذكره الزرافة وكيف تتولد وبأي ـ

وكانت هذه الطبقة لاهية عما يحيط بالبلاد من أخطار، أو لكثرة ما أحدق به من أخطار، وفتن، دفن همومه في كأس يشربه أو قينة يسمعها إن كانت له هموم[46].

لقد نشطت عناصر الأعداء من الأسبان النصارى وحاولت الإطاحة بما بقي من المراكز التي يسودها الإسلام والقضاء نهائياً على نفوذ المسلمين بالجزيرة، واستخدمت كل الوسائل الشنيعة لتحقيق غرضها، وتشتيت وحدة المسلمين، بينما هؤلاء يلهون ويشربون تاركين الأمر كله للمرابطين يدافعون عنهم ويتولون مسؤولية الجهاد وتجهيز الجيوش وصور القاضي أبو بكر بن العربي[47] سلبية هؤلاء فقال: «ولقد نزل بنا العدو ـ قصمه الله سنة سبع وعشرين وخمس مائة، فجاس ديارنا، وأسر جيرتنا، وتوسط بلادنا، في عدد حدد الناس عدده، فكان كثيراً، وإن لم يبلغ ما

أرض تنشأ: «وقد رأيتها عند ملك البربر» جارياً في ذلك على طريقة العلماء في الإخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم غير ملتفت إلى ما يتعاطاه خدمة الملوك، ومتحيلو الكتاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق فكان هذا مما أحنقهم عليه، غير أنهم لم يظهروا ذلك، وفي الجملة فإنها كانت من أبي الوليد غفلة، فقد قال القائل «رحم الله من عرف زمانه فمانه، وميز مكانه فكانه»، واستمر الأمر على ذلك إلى أن استحكم ما في النفوس، ثم إن قوماً ممن يناوئه من أهل قرطبة ويدعي معه الكفاءة في البيت وشرف السلف، سعوا به عند أبي يوسف، ووجدوا إلى ذلك طريقاً، بأن أخذوا بعض تلك التلاخيص التي كان يكتبها، فوجدوا فيها بخطه حاكياً عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم، «فقد ظهر أن الزهرة أحد الإله..»، فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة فاستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة وهم بمدينة قرطبة، فلما حضر أبو الوليد ـ رحمه الله ـ قال له بعد أن نبذ إليه الأوراق: أخطك هذا؟ فأنكر! فقال أمير المؤمنين: لعن الله كاتب هذا الخط! وأمر الحاضرين بلعنه. ثم أمر بإخراجه على حال سيئة وإبعاده وإبعاد من يتكلم في شيء من هذه العلوم، وكتبت عنه الكتب إلى البلاد بالتقدم إلى الناس من ترك هذه العلوم جملة واحدة، وبإحراق كتب الفلسفة كلها، إلاّ ما كان من الطب والحساب وما يوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار، وأخذ سمة القبلة، فانتشرت هذه الكتب في سائر البلاد وعمل بمقتضاها.

عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 305، 306.

(46) من قصيدة لأبي الحسن بن الجد يقول:

ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر	هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من في كفه قدح	يحدو به ملهياه الناس والوتر
صمت مسامعه من غير نغمة	مما تمر به الآيات والسور
من حوله كل مغتر وما علموا	أن الذي زخرفت دنياهم غرر

ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 242.

(47) المقري: نفح الطيب، جـ 4، ص 477.

حدده، فقلت للوالي والمولى عليه، هذا عدو الله قد حصل في الشرك والشبكة، فلتكن عندكم بركة، ولتكن منكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة، فليخرج إليه جميع الناس، حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار، فيحاط به، فإنه هالك لا محالة، أن يسركم الله له، فغلبت الذنوب، ورجفت بالمعاصي القلوب، وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوي إلى جاره، وإن رأى المكيدة بجاره فإنا لله وإنا إليه راجعون».

وكان لانحلال المجتمع الأندلسي، وابتعاده عن مسرح الحوادث الكبرى، حيث انفرد بتدبيره المرابطون من جهة[48]، والقشتاليون من جهة أخرى، أن أفرز هذا المجتمع طبقة من الشبان الأرستقراطية من أهل قرطبة وإشبيلية وغيرها من المدن الأندلسية، وجدوا بين أيديهم مالاً ووقتاً فارغاً، وبطالة، إنهم جماعة من الشبان لا يبالون بغير اللذة واللهو والعكوف على الشراب، وإحياء الليالي بالغناء والرقص، والبحث عن العشق ـ وكان للحروب الكثيرة التي ذهب ضحيتها كثير من الرجال ذوي السن، وخلفوا شباناً ورثوا عنهم بعض المال فأنفقوه في شهواتهم، ولم يجدوا أباً يرعاهم أو عملاً يشغلهم، وديوان ابن قزمان[49] يعطينا صورة لهذا المجتمع المتفسخ، فيتحدث عن الربض الذي يسكنه، ليس به من يضايقه من الفقهاء ولا الحجاج أي الرجال والشيوخ، ولم يعد به إلا الأرامل الجميلات.

الطبقة المتوسطة:

ترتب على ازدهار الصناعة والتجارة أن وجد جماعة كبيرة من الناس وسيلة للعيش، وكون هؤلاء القسم الأكبر من سكان المدن التي تحتوي على الملاكين الكبار الذين اختاروا المدينة سكناً لهم، وبينهم الحكام ومن يحيط بهم من الخاصة أو

---

(48) هناك رسالة كتبها أبو عبدالله بن طاهر إلى الوزير الأجل أبى عبد الملك بن عبد العزيز (ابن رويش) يقول فيها: «وأرجو أن يتلافى جميعها من نظر أمير المسلمين ـ أيده الله ـ ما يعيدها فيملأها خيلاً ورجالاً، ينفر بهم خفافاً وثقالاً، عليهم من قوادها شيبها وشبانها: وفيهم أجناده زنجها وعربانها».
ابن خاقان: قلائد العقيان، ص 67.

(49) يقول ابن قزمان في زجل رقم 87:

والـربض لا شيـوخ ولا حـجـاج   وأرامـل مـلاح بـلا أزواج
وَيُجُـون طـول النهـار عن حَـاج   وأشيـات لَسْ يَنْبَغي أن تُقَـال

الأرستقراطية وأتباعهم، ومن الموظفين والجنود الممتهنين ورجال العلم والأدب والتجار والحرفيين وعناصر كثيرة أخرى تستفيد من الإمكانيات الموجودة في المدينة للحياة والحصول على موارد الرزق، ومن هذا الخليط هناك مجموعة من الناس يمكن أن نطلق عليها اسم الطبقة الوسطى، وهذا يعتمد في الدرجة الأولى على المستوى المعاشي الذي يحيون فيه، وعلى أسلوبهم في الحياة، وموقفهم من الأرستقراطية الحاكمة والمصالح المشتركة التي تربطهم، ويمكن أن ندخل في هذه الطبقة التجار، وأصحاب المشاريع الصناعية، وموظفي الدولة الصغار، والملاكين الصغار.

فالتجار ولا سيما الكبار منهم تنحصر مطالبهم من السلطة الحاكمة في الأمن الداخلي، أو النظام، والعدالة، والسلم الخارجي، ومن الطبيعي أنه بانعدام الأمن الذي يحفظ للتجار أموالهم، والعدالة التي تحفظ لهم حقوقهم، والسلم الذي يضمن أمان الطرق وحرية التنقل، لا يمكن أن تزدهر التجارة ولا تتطور، ومن ثم تؤثر على حركة التجارة وأرباح التجار[50].

ومع هذا فإن ثراء التجار في هذه الفترة لا يمكن أن يقارن بثراء كبار الملاكين العقاريين ولهذا لا ينتظر أن ينافسوهم في النفوذ الاقتصادي، أو السياسي، ولأنهم كما أشرنا يتطلبون الأمن الداخلي والعدالة والسلم الخارجي لنجاح أعمالهم، لذا فهم يؤيدون الطبقة الحاكمة ويسندونها طالما حققت لهم هذه المطالب بالإضافة إلى المصالح المشتركة التي تربطهم بالأرستقراطية الثرية، أما إذا لم يستطع الحاكمون أن يحققوا لهم هذه الأهداف، أو إذا أسرفوا في إثقال كاهلهم بالضرائب فإنهم لا يترددون في مساعدة أعدائهم للتخلص منهم[51].

أما أصحاب المشاريع الصناعية الذين لم تكن وسائل الإنتاج وأدواته تساعدهم على تكوين ثروات كبيرة، ومع ذلك كانت مصانع النسيج والخزف والزجاج والورق والحديد والصفر والصباغة وغيرها منتشرة في الأندلس[52]، وكانت تستخدم عدداً من

---

(50) د. صلاح خالص: م. س. ص 51.

Petit Dutaillis, la Commune Francaise, p, XI.

(51) ن. م.

(52) انظر الفصل الخاص بالصناعة.

العمال يختلف قلة وكثرة تبعاً لأهمية المشروع وكبره، ونجاح هذه المشاريع يعتمد لحد كبير على نجاح التجارة، ولهذا فشأنهم شأن التجار فيما يتطلبونه من الدولة أو في موقفهم من الأرستقراطية الحاكمة.

وكان الموظفون الكبار كالوزراء والقاضي وصاحب المدينة وصاحب الشرطة في الغالب من العائلات الكبيرة، أما الذين يشغلون الوظائف الأخرى الأقل أهمية فهم ينتمون إلى طبقة أدنى[53]، ويتدخل في ذلك مستوى معيشتهم المتوسط، وارتباط مصالحهم بالأرستقراطية الحاكمة ارتباطاً وثيقاً، وأما صغار الملاك فهم دائماً يتطلعون إلى زيادة ثرواتهم طمعاً في اللحاق بالأرستقراطية الثرية.

والطبقة المتوسطة لا تستطيع التمتع بترف الأرستقراطية وبذخها، وفي نفس الوقت لا يقاسون صعوبات العيش الذي تقاسيه العامة، ويعملون على الحفاظ على ما يملكونه من جهة، ولتوسيع هذه الملكية أملاً في أن يصلوا يوماً إلى صفوف الأرستقراطية الحاكمة ومساندتها، ومع أنهم يكونون جزءاً هاماً من سكان المدينة غير أنهم ليسوا خطراً على الحاكمين ففي الغالب يميلون إلى الهدوء والمسالمة وإطاعة أولي الأمر[54].

العامة:

أطلق المؤرخون[55] المسلمون على الأكثرية الساحقة من سكان المدن اسم «العامة» يفرقونها عن «الخاصة» «الأرستقراطية» التي تعني في نظرهم أشراف البلد وأغنياؤه، ومن يحيط بالأمير من خواص ووزراء، وتحت اسم العامة يدخل الحرفيون والعمال وصغار التجار والأجراء والعاطلون وجميع أولئك الذين نزلوا المدينة للبحث عن وسيلة للرزق، يستخدمون قوتهم على العمل للحصول عليه، واعتاد المؤرخون المسلمون أن يصموا العامة بألفاظ يفهم منها الذم كرعاع وغوغاء ودهماء وسفلة.

وأهم ما يميز هذه الطبقة مستوى معيشتها المنخفض، وسرعة تأثرها بالأزمات

---

(53) ابن عبدون.

(54) ومن أمثلتهم في ذلك «لا تقل طابت ولا احترقت»، أو «العاقل من يرى ويستحسن». الزجالي: م. س. رقم 5، 20، 253.

(55) ابن عذارى: م. س. جـ 4، ص 62، 63.

التي كثيراً ما تجتاح البلاد يقول عنهم القلصادي[56]: «وكان الأندلسيون الذين عامتهم اتباع كل ناعق»، ومع أن تأثير هذه الأزمات لم يكن يقتصر على العامة بل يمس الطبقات الأخرى، إلا أن تأثيرها على العامة أكبر نظراً لإمكانياتها الاقتصادية المحدودة، ويعطينا السقطي[57] مثلاً لأجور وتكاليف مخبزة، وهذا المثل يعكس مستوى الحياة وتكاليف العيش عندما يتحدث عن غذاء رئيسي هو الخبز، يقول السقطي إن قنطاراً من الطحين، وسعره المألوف في تلك الفترة هو ثلاثون درهماً في السوق ولكي يصنع منها صاحب المخبزة خبزاً فلا بدّ من دفع الأجور والمصاريف التالية:

ثلاثة عجانين بدرهم ونصف أي أن أجرة العجان $\frac{1}{2}$ درهم، وعامل يساعدهم $\frac{3}{8}$ درهم، والوقاد $\frac{1}{2}$ درهم، وللماء والملح $\frac{1}{16}$ درهم، وللخشب $\frac{5}{8}$ درهم، ويبيعه خبزاً بمقدار 36 درهماً، ومن هذا نرى أن القنطار من الطحين (حوالي 50 كـ. ج) تكلف لصنعه خبزاً مبلغ ثلاثة وثلاثون درهماً ويكون ربح صاحب المخبزة ثلاثة دراهم منها بدل استهلاك أدوات العمل، والكيلوغرام من الخبز يباع للمستهلك بحوالى نصف درهم، ولا شك أن هذا العدد من العمال يمكنه أن يصنع أكثر من هذا المقدار من الطحين في اليوم فقد يستهلك قنطاراً أو قنطاراً ونصف» (أي مائة أو مائة وخمسين كيلوغرام).

كما يذكر السقطي[58] أن على الجزار ألا يربح في كل خروف أكثر من درهمين، وكان يجب أن تراعى مصلحة العامل ورب العمل، لذا يجب أن لا يتجاوز يوم العمل المدة الواقعة بين شروق الشمس ونصف المدة بين صلاتي العصر، والمغرب[59].

ويبدو أن هذه الأجور كانت لا تختلف خصوصاً في عصور الازدهار إذ أن المقري[60] عندما أورد الحديث عن بناء الزهراء في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر

---

(56) القلصادي: الرحلة، ص 18.

(57) السقطي: رسالة في الحسبة، ص 27، 28. القنطار 50 كـ ج.

(58) السقطي: م. س. ص 34.

(59) ن. م. ص 45.

(60) المقري: م. س. جـ 1، ص 526.

ذكر أن أجور الرجال كانت تتراوح بين الدرهم والنصف وثلاثة دراهم حسب مقدرته ومهارته الحرفية.

وقد أورد لنا مؤلف مجهول[61] الحرف التي يتعاطاها كل عنصر من عناصر المجتمع الأندلسي فذكر أن العرب احترفوا الحرف التي ليست بخاملة مثل تدريس العلم وسرد كتب الوعظ في المساجد (التوريق على الكراسي) وتحمل الشهادة والنساخة للكتب وتعليم الصبيان، وإمامة المساجد والوقوف عليها من نحو إصلاح وقبض وكراء وولاية نظارة وحسبة وكتابة عند الملوك ووزارة وولاية الأمور الصالحة. أما البربر في الحواضر فقد احترفوا ضفر الحلفة، وخدمة الأوعية أي السلل للزرع، وفتل القنب والمحاريث والبرذاع للبهائم، والحبال والشطاطيب[62] لكنس الديار وصيادة الطيور للأكل، والحملان في الأسواق، وحملان الزرع إلى الديار وبيعه في الأسواق وخزر الدلاء، وجلب الماء، والبناء، وطبخ الجير والجبص وغير ذلك[63].

ومن أسلم من أهل الأندلس فعملوا في صيد الحوت والسردين وصنع السفن وآلاتها إلى غير ذلك[64].

والموالي بالحواضر احترفوا بالدباغة والحياكة والخرازة، وبيع النعال المخروزة، وبيع الحياك والجلاليب ونسجها، والضرب بالطبول والبنود، والحجامة وحمل الموتى، وحفر قبورهم، ودواء المرضى، وعلاج الجروح والمرض، وطحن برحى، وخرط عود، والقيام بالمساجد والأذان بها ورصد وقت، وبيع لحم، ونجارة خشب وعظم سرج، وصنع كسوة جياد، وسرير مكحلة[65]، وخدمة فخار وغيره، وسبك حديد وآلة الحرب، وصنعة نحاس، ومبيت بالأسواق بالليل وحرس الفنادق، وتسمير البهائم، وحمل السلوع[66] من بلد إلى بلد.

---

(61) مجهول: ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم، ص 23.

(62) جمع شطابة: مكنسة بعامية المغرب.

(63) مجهول: م. س. ص 24.

(64) ن.م.

(65) مكحلة هي البندقية في عرف المغاربة.

(66) جمع سلعة في عامية المغرب.

ومن أسلم من اليهود احترف بخياطة الملف والثياب وضفر القيطان[67] الذي يخاط مع الثياب، ونسج العقد[68]، ونسج قلنسوة وتبطينها وصيغها، وتصفيفها، وحجامة وبلاجة[69] ودلالة بأسواق وبيع لبن ممخوض وبيع وإصلاح نعل مخروز.

والموالي منهم احترفوا طبخ الخبز والسفنج والشواء وصنعة القدور للطبخ وبيعها وعصر الزيت وحمله، والصابون، وبيع ملح وحوت وشحم، وصناعة فانيد[70] وبيع أدوية وعشب وتسفير كتب، وتجبيص الرباع، وتزويق الخشب، وتزليج الرباع، وصناعة منسج للحياكة، وصناعة الصفر، وصباغة وخدمة حمام، وسقي ماء، وسبك فداويش وشعرية وثريد ومقروط، ورغائف[71] بقصد البيع، وبيع صوف وكتان وآلات الطرب والتغني بها، والضرب للدنانير والدراهم وحلى النساء، وخرط مرجان وبيعه، وكراء أواني البنائين، وحفر بير وتصفية معدن وخدمة الرخام[72].

وكانت نقابات الحرفيين تختار كل منها رئيس من بينها يسمى «الأمين» يقدم اسمه إلى المحتسب، ويقوم بدور الخبير في الخلافات النقابية بين أهل الحرف وعملائهم، وهو الذي يبلغ المحتسب مطالب الجماعة فيما يخص تقدير ثمن التكاليف وتحديد ثمن البيع[73].

وكان للعامة مفاهيمها الخاصة ومثلها التي استوحتها من الأفكار الدينية والمفاهيم العامة السائدة في المجتمع والتي كانت تغذيها الأرستقراطية الحاكمة وتشجعها، واستوحتها أيضاً من ظروفها الخاصة وحياتها العملية، فمن الدين جاءهم الإيمان بالقضاء والقدر وشرعية الحكم وإطاعة أولي الأمر، والإرادة الإلهية، وكثير من مفاهيم الخير والشر، ومن ظروفهم وحياتهم العملية استفادوا بالخبرة والتجارب العملية التي تعكس في تفكيرهم كثيراً من المفاهيم التي قد لا تتفق مع المفاهيم التي

---

(67) جدائل من الحرير أو غيره شبه الحبال الرقيقة.

(68) أزرار رقيقة في عامية المغرب للجلاليب.

(69) صناعة مغاليق الأبواب، وبفاس سوق البلاجين معروف بهذا الاسم إلى اليوم.

(70) كريات صغيرة سكرية تصنع مصبوغة بألوان مختلفة.

(71) أنواع من النشويات مكرونة وشعرية، أما المقروط والرغائف نوع من الفطائر.

(72) مجهول: م. س. ص 25.

(73) ليفي بروفنسال: م. س. ص 89.

يوصي بها الدين، ومع ذلك فهي تمتزج بنفسياتهم، وتلعب دورها في سلوكهم وأخلاقهم، فكان رجل الشارع مثلاً مؤمناً بل يبدو متعصباً أحياناً، معتقداً بالقضاء والقدر وبقوة الله وجبروته ومع ذلك لا يمنعه من الغش والنهب عندما تحين الفرصة ومن خداع الآخرين في معاملاته معهم أحياناً، وكان يستنكر عدم العدالة في الحياة، ولكنه لا يترك فرصة إذا لاحت لاستغلال الاضطراب والفساد لأن حياته التي يحياها كل يوم تدفعه إلى ذلك[74].

ومع كل فإن العامة احتفظت باستقلال نسبي في شعورها وسلوكها تجاه مشاكل الحياة، فهي لم تذب في ظل الأرستقراطية كما هو شأن الطبقة المتوسطة، ولم تكن تابعة لها، ولذلك كان لها دور مهم في الحياة السياسية رغم أن هذا الدور في أغلب الأحيان لم يكن عن وعي، ورغم أن سلوكها على العموم تلقائياً ودون أهداف محددة وإنما كانت مندفعة إلى كل ما تقوم به بحاجتها إلى الوجود في الحياة[75].

ولا شك أن الازدهار الاقتصادي قد انعكس على هذه الطبقة فزيادة الثروة نتيجة النشاط التجاري والصناعي أدت إلى تشييد القصور وتموين الجيوش وبلاطات الأمراء والأثرياء بالجواري والعبيد والخدم مما فتح أمام الحرفيين والعمال مجالات جديدة للعمل، غير أن انتكاس هذه الحالة وتمزق البلاد بين عدد من المنتزين والحروب المتصلة أدت إلى فراغ خزانة الدولة، ثم خزائن هذه الإمارات وأدت الحروب والفتن إلى تخريب الزراعة وعرقلة وسائل المواصلات التي ألحقت بالتجارة أسوأ الآثار، مما دفع هؤلاء المنتزين إلى فرض ضرائب عديدة لمواجهة زيادة النفقات وكساد الحال علاوة على الإتاوات الضخمة التي فرضها عليهم ملوك النصارى، فكان الرخاء النسبي الذي حدث في أيام المرابطين والذي عم جميع القطاعات قد انتكس ليحل محله أزمة مالية قاسية كان لها أسوأ الأثر في حياة الطبقات الدنيا على الخصوص، فزاد من استياء العامة التي أصبحت خطراً قضى على معظم هؤلاء المنتزين[76].

العبيـد:

كون العبيد طبقة مهمة في المجتمع الأندلسي، وكان دورها كبير في تدعيم

(74) انظر ابن عبدون والسقطي وأساليب الغش العديدة التي ذكراها.

(75) د. صلاح خالص: م. س. ص 64.

(76) انظر الفصل الثاني من الباب الأول ثورة القضاة.

سلطة الأرستقراطية وتمكين نفوذها الاجتماعي، فكانوا أدوات بيد المالكين للأرض خصوصاً، يستخدمونهم لتنفيذ أغراضهم أو قضاء حاجاتهم، وأهم هذه الأغراض والحاجات هي استخدامهم كقوة عمل في الإنتاج، خاصة الإنتاج الزراعي الذي يتطلب المشقة والجهد.

فكان لكل ثري عدد من العبيد يتناسب وثراءه من جهة وحاجاته من جهة أخرى، والعبيد بالأندلس يحملون عادة من بلاد بعيدة، معظمهم من السود من إفريقيا أو من أواسط أوروبا وهم الصقالبة، وهم بحكم القانون ملك لأسيادهم يفعلون بهم ما يشاؤون، وبواسطة هؤلاء العبيد استطاع كبار الملاك من العرب والبربر فرض سلطانهم على أناس غالباً ما كانوا غرباء عنهم تماماً، ويزداد الاعتماد على العبيد عندما يحس السادة بسلطتهم تضعف[77].

واستخدم العبيد في الأعمال اليدوية من صناعة، وزراعة، كما قاموا بالخدمة في القصور، بينما استخدمت النساء والغلمان في العمل في المنازل أو كوسيلة للمتعة واللهو[78]، وحالة العبيد لم تكن سيئة على العموم، لا سيما في قصور الأمراء والملوك إذ كانوا يتمتعون بمستوى حياة جيد بل قد يصلون إلى مراكز رفيعة[79].

أما الإماء والجواري فينقسمن عموماً إلى نوعين: جواري الخدمة وهن الجواري اللاتي يستخدمن في القصور لقضاء الحاجات المنزلية وما شابهها، وكن في الغالب من الروميات والزنجيات والأرمن، فيقمن بتدبير المنزل وتربية الأطفال وإرضاعهم، وطهو الطعام[80].

والنوع الثاني من الجواري فيشمل ما يطلق عليهن في الأندلس «جواري

---

(77) Lévi Provencal, op. cit., pp. 122, 130.

(78) السقطي: م. س. ص 47، 58.

(79) انظر ابن حيان: المقتبس تحقيق د. محمود مكي عن مركز الخصيان الذي وصلوا إلى مركز مرموق في عهد الخلافة الأموية بالأندلس، وتوليهم إمارات الشرق بعد سقوط الخلافة.
وانظر المقتبس تحقيق د. عبد الرحمن الحجي.
ابن بسام الذخيرة قسم 3، مجلد 1، 4، مجلد 1.
د. أحمد مختار العبادي: الصقالبة في إسبانيا.

(80) السقطي: م. س. ص 49.

اللذة»، فكانت وظيفتهن تسلية أسيادهن، وجلب المتعة إلى نفوسهم بشتى الطرق، وهن على العموم يثقفن ثقافة خاصة تساعدهن على أداء واجباتهن، فيتعلمن الشعر، والغناء والموسيقى والرقص، ويخترن من بين الجـواري الشابـات الجميلات، وأثمانهن مرتفعة وتزداد ارتفاعاً كلما تعددت صفات الجارية واتسعت ثقافتها، ويحتل قسم من الجواري منزلة كبيرة في القصور، فترتفع مكانتهن بقدر ما لهن من تأثير على أسيادهن[81].

وعدد هؤلاء الجواري خصوصاً جواري اللذة يختلف تبعاً لثروة السيد، إذ كان البعض يمتلك المئات[82]، ولا شك أن عددهن الكبير كان يجعل مهمتهن صعبة الأداء، إذ أن اللاتي تستأثرن باهتمام السيد وحبه، هن جوار معدودات، إن لم تكن جارية واحدة.

المرتزقـة:

كانت هذه الطبقة تظهر بشكل واضح في فترة الطوائف، لحاجة الأمراء إلى القوة العسكرية التي تساندهم، لعدم وجود أساس شرعي معين لسلطتهم ولم تكن القوة العسكرية من أجل الجهاد، وإنما لاستخدامها في صراعاتهم الداخلية بين بعضهم البعض، وإلى فرض سلطتهم على رعاياهم، فكان لا بدّ لهم من اللجوء إلى استعمال المرتزقة بشكل واسع، وكان كل ما يتطلب من المرتزقة في ذلك العصر هو

---

(81) ابن بسام: الذخيرة، القسم الثالث، مجلد 1، ص 112.
اشترى هذيل بن خلف بن لب بن زرين المعروف بالأصلع صاحب السهلة (موسطة ما بين الثغر الأعلى والأدنى بقرطبة) جارية أبي عبد الله المتطبب ابن الكتاني بعد أن أحجمت الملوك عنها لغلاء سعرها، فأعطاه فيها ثلاثة آلاف دينار، وكانت واحدة القيان في وقتها، لا نظير لها في معناها لم ير أخف منها روحاً، ولا أملح حركة، ولا ألين إشارة، ولا أطيب غناءً، ولا أجود كتابة ولا أملح خطاً، ولا أبرع أدباً، ولا أحضر شاهداً على سائر ما تحسنه وتدعيه، مع السلامة من اللحن فيما تكتبه وتغنيه، إلى الشروع في علم صلح من الطب ينبسط بها القول في المدخل إلى علم الطبيعة، وهيئة تشريح الأعضاء الباطنة وغير ذلك مما يقصر عنه كثير من منتحلي الصناعة، إلى حركة بديعة في معالجة صناعة الثقاف والمجاولة بالحجفة واللعب بالسيوف، والأسنة والخناجر المرهفة، وغير ذلك من أنواع اللعب المطربة، لم يسمع لها نظير ولا مثيل ولا عديل، وابتاع إليها كثيراً من المحسنات المشهورات بالتجويد، طلبهن بكل جهة، فكانت ستارته في ذاك أرفع ستائر الملوك بالأندلس، وحدثت عنه أنه اجتمع عنده مائة وخمسون حظية ومن الصقلبة المجابيب ستون وصيفاً لم تجمع عند أحد من نظرائه.

(82) ن. م.

أن يطيعوا سادتهم طاعة عمياء، وأن يكونوا ممتهنين صنعة القتال، أما الأصل الذي جاءوا منه، والعنصر الذي ينتسبون إليه والدين الذي يعتنقونه، فقليل الأهمية بالنسبة لهؤلاء الثوار، وهؤلاء في الغالب من المحاربين النصارى الذين يؤتى بهم من الشمال لقاء أجور معينة، واستعمال هؤلاء النصارى يكون عادة لمدة معينة تختلف طولاً وقصراً، أو لمهمة بعينها، لقاء أجر معين، والسبب الواضح لاستعمال هؤلاء المرتزقة هو الحاجة الماسة التي يشعر بها هؤلاء الأمراء الصغار إلى القوة في حروبهم الداخلية الدامية، وما يتمتع به هذا النوع من المحاربين من كفايات عسكرية[83].

الصوفية (الفقراء):

وكرد فعل للتناقضات الموجودة في المجتمع الأندلسي، وما فشى فيه من تفسخ، لجأ البعض إلى العزلة والانزواء عن هذا المجتمع، واتخذ من الصوفية ملاذاً لعله يجد فيه مخرجاً لما يعانيه، وانتشرت الزوايا والربط في أنحاء الأندلس، وسموا بالصوفية، والمريدين، والفقراء[84].

وقوبل هذا الموقف السلبي من جماعة الصوفية أو الفقراء، بموقف سلبي من جهة الدولة في أول الأمر، واختلفت آراء ومواقف الفقهاء تجاههم[85]، ومن الملاحظ أن عدداً كبيراً من مشايخ هؤلاء الصوفية كان ثرياً، تصدق بعضهم ببعض ماله أو جله

---

(83) كمثل استعانة ابن ملحان، وابن هود، وغيرهم بالمرتزقة النصارى.
انظر الفصل الثاني من الباب الأول.

(84) انظر الونشريسي: المعيار المعرب جـ 11، ص 42، 48، 49، 50، جـ 7، ص 115، الرسالة الفصل الثاني الخاص بالمريدين.

(85) الصوفية استنكرها كثير من فقهاء المالكين يقول الفقيه الحفار «إن فسدتهم فشت في الحصون والقرى، استخلفهم الشيطان على حل عرى الإسلام وهدم قواعده»، وسئل عنهم الإمام مالك «يأكلون كثيراً ثم يأخذون في القصائد ويقومون فيرقصون» فقال أصبيان هم؟ أمجانين؟ وقال ما سمعت أحداً من أهل الإسلام يفعل ذلك.
كما أنكرها الطرطوشي وأبي بكر بن العربي.
انظر الونشريسي: م. س. جـ 11، ص 41، 42، 162، 163.

وانعزل في بعض الرباطات واجتمع حوله المريدين[86]، بل وكثر تحبيس أماكن الزوايا أو الجنات لتنفق على هؤلاء المتصوفة[87].

وكان لهؤلاء الصوفية عوائد وطرائق ينهجونها خصوصاً في بعض المناسبات الدينية، وبعد صلاة الجمعة، وقد ذكر لنا الونشريسي في معياره تلك العادات والاحتفالات التي يقومون بها إثر صلاة الجمعة يجتمعون في مجلس على شيخ يختارونه هو أقواهم على أذكار الذاكرين، وأكثرهم استنباطاً وفهماً لآداب المريدين، فيجلس الشيخ على يمين الداخل لمجلسهم، ثم يجلسون على حسب تواردهم بعد مصافحة الشيخ، كل منهم يتساوى في ذلك أكبرهم وأصغرهم، ويخرج خديم الشيخ بعد ذلك سبحة منظومة في خيط بها عدد معلوم، قصد به الإحصاء للتسبيحات والتهليلات والضبط ليكون انتهاؤهم في ذلك إلى عدد معلوم، ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الصلاة والسلام على رسول الله (ﷺ) ثم يختمون ذلك بالسلام على سائر المرسلين والحمد لله رب العالمين، بعد ذلك يقرأ منشدهم شيئاً من كتاب الله ويختمه بالصلاة على رسول الله (ﷺ) فيصلون أيضاً عند ذلك في مرة، ويتبعه قارىء آخر ثم يقرأ الشيخ وطائفة منهم دفعة آيات من القرآن تتضمن طلبهم من الله عز وجل العفو والغفران مثل: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾[88]، ﴿رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾[89]، ويذكرون بعد ذلك أنواعاً من الأذكار، فالدعاء والاستغفار.

وعلى أثر ذلك ينشد منشدهم قصيدة إما في مدح النبي (ﷺ) وإما في الحض على فعل الخيرات، أو ما يحذرون من الوقوع في الزلات، فيوجب سماع ذلك عند

---

(86) تصدق أحمد بن قسي بماله وابتنى رابطة بقرية من أحواز شلب، وأبو الوليد بن المنذر، كذلك وانزوى في رباط الريحانة على ساحل البحر في شلب.
انظر ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 249.
ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ 2، ص 202.

(87) ذكر في المعيار جـ 7، ص 115، أن امرأة حبست زاوية ببسطة على الفقراء، وحبست امرأة موضع ليزرع ويصنع من قمحه طعام يأكله فقراء يذكرون الله ويرقصون ويغنون ليلة المولد النبوي.
ن. م. ص 114.

(88) آية 23 سورة الأعراف.

(89) آية 118 سورة المؤمنون.

بعضهم بكاءً وخضوعاً، ويظهر على ظواهرهم سكوناً وخشوعاً، ويقرأ قارىء آخر كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»[90] (ﷺ) فيسمعون ما يجب له من تعزيز وإعظام، ويقرأ آخر مثله بعض مجالس الواعظين، يذكرون فيها بأخلاق الصالحين، وأعمال المجتهدين، ثم يقوم مذكر آخر بإملاء الشيخ بأنواع من التذكيرات وأصناف من حسن المقالات، فيصافحونه في تلك الأقوال، ويبنون بمصالح الأعمال.

بعدها يحضر خديم الشيخ بأمر منه ما حضر من الطعام، فيأكل منه الحاضرون إلا الصوام، ثم يحمل الخديم بقيته لنفسه، ويشاركه فيه من هو مثله من أبناء جنسه، وذلك من مال الشيخ وخالص كسبه، ويرتجي بذلك غفران ذنبه، لا يوظف على أحد منهم في ذلك قليلاً ولا كثيراً، بل يحسن إلى الغني منهم، ويقضي مطالبه، ويجزل العطاء إلى من كان فقيراً منهم، فإذا فرغوا من الأكل حمدوا الله عزّ وجلّ وشكروه، وعظموه على إسداء نعمته ثم يجيء الخديم بإناء فيه من الطيب ما يتيسر، فيتطيب الشيخ منه، ثم الذي عن يمينه، ثم جميع من حضروهم وفي هذه الأثناء يصلون على النبي الكريم ويختمون بقراءة سورة من قصار المفصل إلى إكمال الفاتحة، ثم يقرأون بعض ما ألف في توحيد الله تعالى، ثم يدعو الشيخ بعد ذلك، وعلى دعائه يؤمنون رافعين أكفهم راغبين، ويمسحون بها وجوههم ويصافحون أيضاً شيخهم، وينصرفون[91].

ولم يقتصر الانخراط في سلك المتصوفة على هذه الطوائف من المجتمع بل إننا نجد أن بعضاً من أمراء وشيوخ المرابطين ينضمون إلى هذه الفرق الصوفية[92].

وطريقة هؤلاء الصوفية أو الفقراء كما وصفها ابن سعيد[93] تختلف عن مثيلاتها

---

(90) كتاب الشفاء للقاضي عياض.

(91) الونشريسي: م. س. ص 48، 49، 50.

(92) كان الأمير تاشفين بن علي يحب مجالس المريدين وكتبهم (ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 1، ص 448 ابن عذاري، البيان المغرب، جـ 4، ص 79)، ودخل الأمير أبو إسحق بن يحيى المسوفي في سلك الصوفية، حتى أن الشيخ طلب منه يزيل اللثام ويذهب إلى السوق ويأتي وعلى رأسه طبق به طرف حتى يتأكد من صدقه للانخراط في الجماعة فامتثل وعمل بما قاله شيخ الصوفية.

الشادلي: التشوف، ترجمة 105، ص 254.

وانظر ترجمة رقم 93 ص 238.

(93) المقري: م. س، جـ 1، ص 220.

في الشرق فيقول عنها: «وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدروزة التي تكسل عن الكد وتحوج الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى نهاية».

ونظراً لانتشار هذه الطائفة وتغلغلها في الغرب الإسلامي، فإن الموحدين لم يحاولوا أخذ موقف عدائي تجاه أفرادها، بل حاولوا أن يغضوا الطرف وألا يصطدموا بزعمائهم محاولين كسبهم إلى جانب الدعوة الموحدية أو على الأقل تحييدهم وعدم إلجائهم إلى اتخاذ موقف معادٍ.

الفصل الثالث

مظاهر الحياة الاجتماعية في البوادي

اتصال المدن بالقرى الأندلسية - تركز المساحات الزراعية الكبيرة في أيدي البيوتات القديمة العربية والبربرية - ارتباط الفلاحين بالملاك بالتبعية - امتداد القرى على ضفاف الأنهار والوديان ورؤوس الجبال - محافظة القرى الأندلسية على شكلها القديم - بيوت القرية - منازل الموسرين بالقرية - ضيافة أهلها - الأسرة في القرية - الزواج - الاحتفال بالعرس - صداق العروس - جهازها - عمل المرأة العادية - المرأة الموسرة - ملابس سكان القرية والبادية - سكان البوادي والقرى - مرافق القرية العامة - تعاون أهل القرية - تقويم خاص للزراعة ومصطلحات الزراعة - الخلافات بين الفلاحين - العمل الفلاحي - المشاركة في الإنتاج - العمال المياومين - الأجر - مدة العمل - مواسم الاحتفالات - شراء الحاجيات من المدينة - فقيه القرية - أجره - مهامه - الحراز - مشاكل الفلاحين - العلاقة بملاّك الأرض - دورهم في الحياة الثقافية.

البوادي والقرى:

عند الكتابة عن القرى والبوادي في الأندلس، نلاحظ من ناحية اختلاف مفهوم القرية والبادية عنه في مناطق أخرى من إفريقية والمشرق، كما يجب التنويه إلى أن بعض الإشارات التي وردت في بعض النصوص لا تعني بالضرورة أن نمط القرية الأندلسية ظل جامداً لا يتغير وإنما الغالب عليه ندرة هذا التحول أو التغيير في سلوك هذه القرى ونمط حياتها المعيشية.

وإذا أخذنا كلام ابن خلدون[1] عندما تحدث عن القرى والبوادي، فإننا نلاحظ أنه أشار إلى هذا، على اعتبار أن مفهوم البادية والقرية لا يتفق مع بلاد كالأندلس وبعض البلاد الأخرى فيقول: «وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصاراً ورساتيق من بلاد الأندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها، لأن العجم في الغالب ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتنازعون في صراحتها والتحامها إلا في الأقل، وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل الأنساب، لأن لحمة النسب أقرب وأشد فتكون عصبيته كذلك، وتنزع بصاحبها إلى سكنى البدو والتجافي عن المصر الذي يذهب بالبسالة، ويصيره عيالاً على غيره».

والأندلس منذ الفتح كانت أداة بيد الفاتحين للاحتفاظ بالوضع الاقتصادي الجديد الناشىء عن اقتسام الفاتحين الجدد للأرض، فاقتسموها فيما بينهم،

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 856.

واحتفظوا بالفلاحين الذين يزرعونها من قبل الفتح بالشروط التي وضعوها، والتي كانت أقل عسراً من الشروط التي كان يرزح تحتها الفلاحون في زمن حكم القوط، إذ يبدو أن من التشريعات الإسلامية التي سادت الأندلس أن الفلاح لم يكن مرتبطاً بالأرض، بل كان له حق العمل حيث شاء، وهناك نوع من نظام المساهمة في الإنتاج كان متبعاً على وجه العموم في البلاد[2]، إلا حيث يشتغل العبيد، وليست لدينا إشارات ثابتة عن اشتغال العبيد في الأرض بالأندلس بنطاق واسع كما هو الحال في المشرق[3].

وتركزت المساحات الكبيرة في أيدي العائلات أو البيوتات القديمة سواء عربية أو بربرية وهذه الضياع الكثيرة لأهل الأمصار والمدن، لم تأت دفعة واحدة، ولا في عصر واحد، «إذ ليس يكون لأحدهم من الثروة ما يملك به الأملاك التي تخرج قيمتها عن الحد، ولو بلغت أحوالهم في الرفه ما عسى أن تبلغ، وإنما يكون ملكهم وتأثلهم لها تدريجياً إما بالوراثة من آبائه وذوي رحمه حتى تتأدى أملاك الكثيرون منهم إلى الواحد وأكثر لذلك، أو بحوالة الأسواق، فإن العقار في آخر الدولة وأول الأخرى عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعي المصر إلى الخراب تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشي الأحوال فترخص قيمتها وتتملك بالأثمان اليسيرة، وتتخطى بالميراث إلى ملك آخر، وقد استجد المصر شبابه باستفحال الدولة الثانية، وانتظمت له أحوال رائعة حسنة تحصل معها الغبطة في العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذٍ، فتعظم قيمتها، ويكون لها خطر لم يكن في الأول، وهذا معنى الحوالة فيها، ويصبح مالكها من أغنى أهل المصر، وليس ذلك بسعيه واكتسابه، إذ قدرته تعجز عن مثل ذلك[4].

وكان الفلاحون يرتبطون بالمالكين برباط تبعية غير واضح لنا حتى الآن، وإن كان هذا لا يمنع من وجود ملكيات صغيرة في شكل ضيعات أو جنات أو منيات، ولا بد لصاحب الضياع والأملاك من حامية تذود عنه، وجاه ينسحب عليه من ذي قرابة

---

(2) الونشريسي: المعيار جـ 8، كان حراز الزيتون ليلاً ونهاراً له نسبة عندما يخرص الزيتون ففي بعض الحالات يأخذ كل قفيز مدان أو ثلاثة، وأجباح النحل لمن يخدمها تصل الحصة إلى النصف، ص 228، 229، 235.

(3) في البصرة مثلاً.

(4) ابن خلدون: م. س. ص 869، 870.

للملك، أو خالصة له أو عصبية يتحاماها السلطان ليستظل بظلها ويرتع في أمنها من طوارق التعدي[5].

وتميـزت الأندلس بأنهارها الكثيرة ووديانها العديدة، فانتشرت الزراعة على ضفافها، وامتدت القرى حتى أنها اتصلت بالمدن، يقول ابن سعيد[6]: «وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة، لا تكاد تنقطع العمارة ما بين قرى ومزارع، والصحاري فيها معدومة».

وذكر ابن اليسع[7] أن المسافر بين مدن الأندلس وقراها، لا يتزود بالماء لوفرته في كل مكان، والطرق عامرة، حتى أن المسافر ربما مرّ في اليوم الواحد على أربع مدن، ومن المعاقل والقرى ما لا يحصى، ففي شرف إشبيليه الذي يمتد حوالى أربعين ميلاً من إشبيلية إلى مدينة لبلة حوالى مائتين وعشرين قرية[8] عامرة آهلة بالحمامات والديار الحسنة[9].

وامتدت على طول ضفاف الوادي الكبير الذي يخترق قرطبة البساتين والضياع وانتشرت القرى حتى بلغت عدداً كبيراً[10]، وبلغت قرى غرناطة مائتان وسبعون قرية[11].

والقرى لم تقتصر على هذه الأماكن بل انتشرت في جميع جهات الأندلس في السهول والوديان ورؤوس الجبال[12].

---

(5) ابن خلدون: م. س. ص 871.

(7) المقري: نفح الطيب، جـ 1، ص 205.

(7) ن. م. ص 159.

(8) ذكر الإدريسي أن في شرف إشبيلية ثمانية آلاف قرية عامرة، ويبدو هذا العدد مبالغ فيه. الإدريسي: م. س. ص 541.

(9) المقري: م. س. ص 159، نقلاً عن صاحب مناهج الفكر.

(10) ذكر أن قرى قرطبة بلغت ثلاثة آلاف قرية.

المقري: م. س. 458.

(11) ن. م. ص 177.

(12) ن. م. ص 342.

ويبدو أن الغالب في المدن والقرى الكبيرة إحاطتها بالأسوار، لحمايتها من هجمات النصارى المستمرة[13].

والقرى الأندلسية حافظت على شكلها القديم إلى عهد قريب، وهي تشبه في كثير من الوجوه بعض القرى المغربية، وتختلف القرى بعضها عن بعض من ناحية المساحة، فهناك بعض القرى التي تقرب أن تضاهي المدن من حيث نظافتها وأناقة بيوتها واعتناء أهلها بملابسهم وحياتهم[14].

وبيوت القرى الأندلسية مصبوغة باللون الأبيض فتبدو غاية في الحسن والجمال يقول ابن سعيد: «ومما اختصت به أن قراها في نهاية من الجمال لتصنع أهلها في أوضاعها وتبيضها لئلا تنبو العيون عنها»[15]، وقال عنها الوزير أبو عامر محمد بن الحمارة[16]:

لاحت قراها بين خضرة أيكها ... كالدر بين زبرجد مكنون

وعندما زار ابن سعيد مصر في القرن السادس الهجري تعجب من أوضاع قراها «التي تكدر العين بسوادها ويضيق الصدر بضيق أوضاعها»[17]، فقارن بينها وبين قرى الأندلس البيضاء المتناثرة على بساط أخضر تسر الناظرين.

ومنازل القرية في العادة بسيطة وهي في الغالب من طابق واحد يحيط به سور وداخله حديقة صغيرة بها بعض الزهور وبعضاً من أشجار الفاكهة، أما المنازل فكان بسيطاً للغاية به قاعة أو بيت مخصص للضياف، ومكان آخر للعائلة والأرض تكون

(13) ن. م. ص 205.

(14) Lévi Provencal, Histoire de l'Espagne Muslimane, Tome III p. 413.

(15) ذكر ابن سعيد قرية نارجة بأنها قرية كبيرة تضاهي المدن قد أحدقت بها البساتين وهي من أعمال مالقه.
المقري: م. س. ص 178.
وذكر الإدريسي أن قرية بزليانة بالقرب من مالقه وتبعد عنها بحوالى ثمانية أميال كالمدينة.
الإدريسي: م. س. ص 565.

(16) المقري: م. س. ص 205.
ابن اليسع في المقري ص 209.

(17) ترجمة الوزير أبو عامر بن الحمارة في الضبي: بغية الملتمس، ص 517.

مفرشة بالحصير من الحلفا وفي بعض الأحيان يفرش عليها بساط أو حنبل ويدار ببعض الوسائد للاتكاء عليها[18].

وفي فناء المنزل يوجد بئر لجلب الماء للأسرة، وخلف المنزل يوجد مكان للحيوانات والطيور التي تربيها الأسرة، وإذا كانت القرية على النهر أو الوادي فلا يكون هناك حاجة إلى حفر البئر لسهولة جلب الماء، وتستخدم الأسرة الكانون في طهي الطعام وعمل الخبز، ويستعملوه في الشتاء داخل المنزل للتدفئة[20].

وليس معنى ذلك أن كل قرى الأندلس كانت لها بيوت مبنية بالحجر أو الطوب أو الطين فهناك قرى كان فلاحوها يعيشون في كهوف وخيام من الشعر أو بيوت من القصب ويبدو هذا من قصيدة لأحد أئمة المساجد الذي عين في إحدى البواد وكان من المدينة فقاسى الشيء الكثير من هذه القرية وأهلها وإن لم يذكر اسم هذه القرية، ولكن من خلال قصيدته نتعرف على ما كانت عليه بعض هذه القرى الصغيرة[21].

أما منازل الموسرين من أهل القرية فتختلف بالطبع اختلافاً كبيراً عن منازل صغار الفلاحين أو عمال الفلاحة الذين يبدو أنهم هم الذين كانوا يعيشون في الكهوف أو الأخصاص، ومن خلال قطعة أدبية منسوبة للوزير أبو حفص عمر بن شهيد[22] يصف فيها منزل بدوي فيقول: «وصلنا إلى منزل بدوي ذي هيئة وزي:

له منزل رحب عريض مزرب[23] ... بأعواد بلوط وطوج مفتل[24]

---

(18) المقري: م. س. ص 205.

(19) Lévi Provencal, op. cit. P. 414.

(20) Ibid P. 4I6.

(21) من قصيدة للشاعر أبي محمد الإشبيلي ويرجح الدكتور محمد بنشريفة أنها للشاعر الأليري:

بدوت وقدما كنت أعرف حاضراً ... وسكنى البوادي لا يحل ويحرم
تكلفت سكناها وكان ضرورة ... وفي باطني أمر به الله يعلم
ثويت بها ما بين قوم بيوتهم ... كهوف وأشعاف وبيت مروم

انظر، مخطوط رقم 1725 الخزانة العامة بالرباط.

د. محمد بنشريفة، البسطي آخر شعراء الأندلس، بيروت 1985 م.

(22) له ترجمة في الحميري: الجذوة، ص 283، الضبي، البغية رقم 1165.

(23) محاط بزرائب أو أسوجة.

(24) أي مفتول من الحلفا.

ترى بعد الآرام في عرصاته   وقيعانه كأنه حب فلفل

وعندما رآهم رحب بهم، وأمر النساء بترك المكان وأُخْذ الأطفال إلى جهة بعيدة عن الضياف، وأدخلهم إلى بيت نظيف مخصص لاستقبال الزوار يصفه بقوله: ثم مال بنا إلى بيت مكنس، منوع مُجَنَّس، قد جلله حصراً بلدية، وغشاه بسطاً يدوية، ومد فيه شرائط وحبلا، كأنه يريد أن يخرج خيالاً[25]، وعلق منها غلائل وملاءات، وهمايين وسراويلات وكم شئت من خرق معصفرة، وعصائب مزعفرة، حتى المقنعة والخمار، والدلال المستعار، وقد اتخذ في الحائط كوة وثانية، وملأها حقاقاً وآنية، وأودعها من عتاد العروس فاخره، ومن طيب البادية أوله وآخره، مثل حراقة الورد بالبان، وعصارة العصفر بالزعفران، وشيء من الأثمد والاسفيداج ومراود الزجاج، وحبات المصطكى واللبان، وغبار العفص وقشور الرمان، وكثير من سنون ذلك المكان. فقلت يا صاحب المنزل هنئت وهنيت لقد أوتيت وأوتيت وجعلت أرقق عن صبوح[26] وأقول:

متى كان الخيام بذي طلوح[27].

من أين للبداوة، بهذا الرونق والطلاوة، وكيف حتى أغرت على حانوت العطارة، ومتى نقل سوق البز إلى هذه الديار؟ لقد قرت بك الأعين وسرت الأنفس، هذا زي العروس فأين العرس؟ فضحك البدوي ملء فيه[28].

من خلال هذا النص نرى تشابهاً كبيراً بين منزل هذا الريفي وبين مثيله في قرانا، فالبيت المخصص لاستقبال الضيوف «الصالة أو القاعة» في العديد من هذه المنازل مفروشة بحصير أو بساط أو حنبل، وهناك حبل معلق عليه بعض الملابس وفي الحائط كوة بها رفوف مصفوف عليها بعض الأواني والأحقاق للمفاخرة أمام الزوار ولإحساسهم بأن هذا البيت يملك هذه الأشياء التي اشتروها في الغالب من المدينة.

---

(25) يرى الدكتور إحسان عباس أنها تعني خيال الظل.

انظر، ابن بسام: الذخيرة قسم 1 مجلد 2 ص 677.

(26) يضرب مثلاً لمن كنى عن شيء وهو يريد غيره «أعن صبوح ترقرق» ن. م. ص 678.

(27) صدر بيت وعجزه «سقيت الغيث أيتها الخيام». ديوان جرير ص 278.

(28) ابن بسام: م. س. ص 676، 677، 678.

وكثير من أهل القرى والبوادي الأندلسية كرماء[29] بينما اشتهر عن بعضها البخل والحرص الشديد[30]، وكانوا يقدمون لضيوفهم الدجاج والبيض والشراب[31] والإسفنج بالعسل، والرغائف الساخنة، واللبن الرائب[32].

وذكر ابن بشكوال[33] أن أبا عمر أحمد بن سعيد كان يقصده الطلبة في داره في إحدى قرى الأندلس، وهم نيف على أربعين تلميذاً فيدخلون داره في شهر نوفمبر وديسمبر ويناير في مجلس فرش ببسط الصوف مبطنات، والحيطان باللبود من كل حول، ووسائد الصوف، وفي وسط المجلس كانون في طول قامة الإنسان مملوءاً فحماً، يأخذ دفئه كل من في المجلس، فإذا فرغ الدرس، أمسكهم جميعاً وقدمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب، وأيام تقدم ثرائد اللبن بالسمن أو

---

(29) يقول الإدريسي عن سكان قرى وبوادي شلب «وأهل هذه البلاد في غاية من الكرم، لا يجاريهم فيه أحد.

الإدريسي: م. س. ص 543.

(30) حكى ابن سعيد قال: «ولقد اجتزت مع والدي على قرية من قراها، وقد نال منا البرد والمطر أشد النيل، فأوينا إليها، وكنا على حال ترقب من السلطان وخلو من الرفاهية» فنزلنا في بيت شيخ من أهلها، من غير معرفة متقدمة، فقال لنا: إن كان عندكم ما اشترى لكم فحماً تسخنون به فإنني أمضي في حوائكم، وأجعل عيالي يقومون بشأنكم فأعطيناه ما اشترى به فحماً، فأضرم ناراً، فجاء ابن له صغير ليصطلي، فضربه، فقال له والدي: لم ضربته؟ فقال يتعلم استغنام مال الناس والضجر للبرد من الصغر ثم لم جاء النوم قال لابنه: أعط هذا الصبي كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه، فدفع كساءه إليّ ولما قمنا عند الصباح وجدت الصبي منتبهاً ويده في الكساء، فقلت: ذلك لوالدي فقال هذه مروءات أهل الأندلس وهذا احتياطهم، أعطاك الكساء وفضلك على نفسه، ثم فكر في أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص، فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه خوفاً من انفصالك بها وهو نائم، وعلى هذا الشيء الحقير فقس الشيء الجليل.

المقري: م. س. جـ 1، ص 224.

(31) ضيافتهم معلومة لقدومهم ... دجاج وبيض والمدام المحرم

مخطوط الخزانة العامة (رقم 1725 د).

د. محمد بنشريفة: م. س. ص 162.

(32) أخلاي كنا بركاب الضيف أنزله ... ألذ عندي من الإسفنج بالعسل

أو من رغائف كانون ملهوجة ... أو رائب بقري جيد العمل

ابن بسام: م. س. ص 677.

(33) ابن بشكوال: الصلة جـ 1، ترجمة 71، ص 41.

الزبد، فيأكلوا تلك الثرائد حتى يشبعوا، وبعدها يقدم لهم لوناً من الحلوى، فكان الطلبة يقون على هذه الوجبة إلى اليوم التالي طيلة مدة الثلاثة شهور.

ولا تختلف الأسرة في تكوينها عن أي أسرة في القرى في أي عصر فهي تتكون من الأب والأم والأبناء، وإن كان الأبناء في كثير من الأحيان عندما يتزوجون لا ينفصلون عن منزل الأسرة. ويتم الزواج في غالب الأحيان من بنات وأبناء القرية الواحدة أو من القرى المجاورة أو من الأقارب وفي حالات قليلة يتزوج من المدينة، وفي هذه الحالة تأتي العروس إلى منزل أهل العريس في القرية في موكب يتقدمه الملهين، وأهل العروس والعريس وأصدقائه ولا يخلو الموكب طبعاً من العربدة، ولذلك نصح ابن عبدون[34] ألا يخرج الموكب إلى البادية إلا بعد أخذ إذن من القاضي، حتى يخرج معهم من الأعوان من يحرس العرس من العربدة، لأن الآباء في هذه يتركون الحرية للأبناء الشباب للاستمتاع بهذه المناسبة، وكما نبه ابن عبدون[35] على وجوب تجريد هؤلاء الشبان من أسلحتهم عند إقبالهم على العرس وقبل أن يشربوا، أما إذا حدث ما يعكر الموكب، فيقبض على المتسبب في الشغب ويهبط به إلى صاحب المدينة يؤدبه ويسجنه.

وفي أغلب الأحيان يقوم فقيه القرية بعقد القران، أما في القرى التي لا يوجد بها فيستدعي أهل العروسين أحد العدول من جهة قريبة، والقرى البعيدة والقليلة العدد فمن الممكن أن يشهد على هذا الزواج أهل القرية أو أكثر من خمسة أشخاص من أهلها[36] ويشترط والد العروس في صداقها أن تكون هدية العرس كبش أو ثور أو الاثنين معاً على حسب حالة الأسرتين[37].

وجهاز العروس في البادية أو القرية جهاز بسيط ليس في فخامة المدينة وهو عبارة عن فراش ولحاف وبعض الملابس والحلى[38].

(34) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص 53.

(35) ن. م. ص 54.

(36) وسئل ابن رشد عن قرية ليس فيها عدول وهم قدر العشرين، وربما افتقروا لتزويج يتيمة فقيرة ولا ولي لها.

الونشريسي: المعيار جـ 3 ص 270. جـ 9 ص 180، 182.

(37) ن. م. ص 92.

(38) Lévi Provencal Op. Cit., p. 410.

والمرأة في القرية تقوم بالأعمال المنزلية من إعداد طعام العائلة وعمل الخبز لأن القرية الأندلسية غير المدينة التي يباع فيهه الخبز حاضراً، وترعى الأطفال وتقوم بتربية الصغار. وتحلب البقر والماعز، وتعمل من الحليب المخيض والزبدة والسمن والجبن، وتربي بعض الطيور من دجاج وأوز وقنليات وغيرها. وتغزل القطن والكتان والحرير[39].

أما المنازل التي تقع على طريق المسافرين فكانت النساء فيها تقوم ببيع الخبز، والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة التي تحضرها وتبيعها للمسافرين[40].

وتحمل بعض النساء في الصباح الباكر البيض والحليب واللبن المخيض والزبدة والسمن والعسل والزيت، أو ما غزلته من القطن والكتان إلى سوق القرية، وفي الغالب تذهب إلى المدينة المجاورة حيث تجد في أسواقها سعراً أفضل، ومشترين أكثر، وإن كانت هذه المنتجات كثيراً ما تتعرض للتفتيش والمراقبة من قبل المحتسب منعاً للغش[41].

وكان ينهى عن بيع اللبن الحليب بالزبد والسمن، ولا يخلطوا الحليب الطازج بالقديم ولا بالماء، ولا المخيض بالشراز، ولا الطيب منه بالرديء ويؤمرون أن يتخذوا محارة مثقبة القاع لقطع الرائب والعقيد لتنزل من ذلك التثقيب ميصمها، ويؤمر بتنظيف أوانيهم وغسلها وتغطيتها بين أيديهم وتعاهدهم بالذب عنها وعن تنظيف مساحتهم التي يكونون فيها[42].

أما نساء القرية الموسرات فكانت تعاونهم في الأعمال المنزلية بعض الخدم أو العبيد. وإن كان هذا الشيء نادراً ما يكون بهذه القرى والبوادي إلا عند أصحاب الضياع، وفي الغالب لا تأتي إليها الأسرة إلّا لتمضية بعض الوقت أو للترويح عن النفس في صحبة الأصدقاء[43].

---

(39) السقطي: م. س. ص 55.

(40) المقري: م. س. جـ 1 ص 226.

الإدريسي: م. س. ص 565، 568.

(41) ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 87، 92.

(42) ن. م. ص 92.

(43) قال الفتح في وصف ضيعة للقاضي أبي الحسن بن أضحى: «حملنا إلى إحدى ضياعه بقرب من حضرة =

وملابس سكان القرى والبوادي خشنة تلائم عملهم، وتتكون من القميص والسراويلات ويبدو أنهم تأثروا بملابس النصارى فلبسوا الزنار أيضاً، والقروي يمسك بسلاحه في جميع جولاته وهو عبارة عن رمح طويل، وكان معظمهم يطيل شعره. لذلك كان ينبه على من ظفر بأهل البادية في المدينة أن يقص له شعره يقول ابن عبدون[44]، يجب إذا ظفر بأهل البادية وغيرها ممن أطال شعره أن يقص عليه، أو يحلق ويؤدب، ويجبر على ذلك فإن ذلك علامة أهل الشر والذعرة، يجب أن لا يباع السلاح من العزاب من أهل البادية ومن ظفر به منهم، وبيده رمح طويل أخذه منه، فإنها ترفع نفوسهم مع الشعر الطويل وكان معظمهم يمشي حفاة.

ويظهر أن الشباب العزاب من أهل القرى والبوادي كثيراً ما يتسببون في إثارة الفوضى والشغب خصوصاً في المناسبات، لذلك يحمل عليهم ابن عبدون[45] ويصفهم بأنهم ذعرة فساق حلالون أي لصوص خصوصاً عند خلاء القرى في وقت الصيف، لذلك يجب أن تزداد حراسة الجند وتضاعف ويأمر الشيوخ في القرى بألا يخرجوا منها وأن ينبهوا على أبنائهم بعدم التعدي أو السرقة، وإلا عوقبوا بدلاً منهم.

أما المرأة فلباسها كسوة وسراويلات وتضع على رأسها ما يسمى بالكنبوش أو القب، وتلبس الجوارب والأخفاف في قدميها[46].

وسكان هذه القرى والبوادي من العرب والبربر والمولدين، فمن سكن من العرب في القرى والبوادي احترفوا الفلاحة وخدمة الأجنات والغرس، ونسج الحرير، وبيعه غير منسوج وطيه وبيع بز وتسبب في جلبه، وبيع العطور وسبك الشمع ونسج الكتان وبيع لبن البقر لمن يمخضه، أو يقومون ببيع الفاكهة والخبز والخضر[47].

= غرناطة فحللنا قرية على ضفة نهر أحسن من شاذ مهر (متنزه في نيسابور) تشقها جداول كالصلال ولا ترمقها الشمس من تكاثف الظلال، ومعنا جملة من أعيانها فأحضرنا من أنواع الطعام، وأرانا من فرط الإكرام والإنعام ما لا يطاق ولا يجد، ويقصر عن بعض العد. القلائد ص 236.
المقري: جـ 1 ص 676، 677.

(44) ابن عبدون: م. س. ص 55.
د. محمد بنشريفة: البسطي آخر شعراء الأندلس ص 161.

(45) ن. م. ص 54، 57.

(46) الونشريسي: م. س. جـ 3، ص 350. والكنبوش غطاء للرأس من نسيج رقيق نوعاً من الفوال.

(47) مجهول: بعض مشاهير أعيان فاس ص 23.

أما البربر الذين نزحوا من المغرب فمن كان منهم من أهل البادية استقر في القرى واحترفوا حلب البقر والقمح والسمن والزيت والعسل، والصوف والدجاج والفواكه والملح والأعواد وخدمة الفحم والخشب ونحو ذلك[48].

وأهل البلاد الذين أسلموا من كان منهم في البادية اكتسبوا البقر والغنم والحرث والعسل وأهل الجبال منهم كانوا يغرسون الأجنات والفواكه، وقطع الخشب وطبخ الفحم[49].

وكان لكل قرية من هذه القرى مرافقها العامة من مسجد وحمام ورحى لطحن الحبوب، وتخدم الرحى بالماء أو الحيوان ولها سوق في يوم معين من الأسبوع، أو عدة أسواق إذا كانت كبيرة، ويأتي إلى هذه الأسواق الجلابون لشراء الغنم والبقر للذبح، وجلابو الحبوب من القمح والشعير[50] وغيرها من سائر القطاني[51].

واحتل الثور مكاناً مهماً في حياة القرى والبادية إذ كانوا يعتمدون عليه في الحرث وإدارة السواقي والأرحاء للسقي والطحن بجانب غيره من الدواب.

وربطت بين أهالي القرية الواحدة، رابطة التعاون في معظم أعمالهم، فتعاونوا في زراعة حقولهم أو في جمع المحصول، وكانوا يستعيرون الدواب من بعضهم خصوصاً الثور لحرث الأرض[52]، أو إعارة مكان في دار أحدهم يحفر فيه مطمورة لخزن الحبوب[53].

وكان لهم تقويمهم الخاص بهم لمعرفة الأوقات المناسبة للزراعة[54] منتزعة من

---

(48) ن. م. ص 24.

(49) ن. م.

(50) ابن عبدون: م. س. ص 31، 88.
الإدريسي: ص 541، 552، 565.

(51) الونشريسي: م. س. جـ 6، ص 410.
ليفي بروفنسال: أدب الأندلس وتاريخها ص 90.

(52) الونشريسي: م. س. جـ 9، ص 108، 109.

(53) ن. م. ص 108.

(54) «فابريل، يعتدل المؤخر والبَكِير»، إذا ريت الخوخ والرمان فكر في ثيابك أيها العريان.
الزجالي: أمثال العوام تحقيق د. بنشريفة رقم 1739، 9.

أعمالهم في الحقول وتجاربهم[55]، ونجد في أمثالهم مصطلحات فلاحية عديدة مثل الفدان ويعني الحقل، والزريعة للبذور، والأزواج لبهائم الحرث، والخطارة لطريقة خاصة في السقي والطياب للصحو، والسانية لدولاب الماء، والعصير لزمن القطيف[56].

ولكن هذه الحياة الهادئة كثيراً ما كان يعكر صفوها نزاع على الري أو على أحقية البعض في ملكية ساقية[57] أو التنازع على سبخة من أرض بين أراضي قوم محدقة بهم لم يدعها أحد، فيقوم يطلبها مدعياً ملكيتها ويأتي بشهود من قرية مجاورة، فيقوم سائر الجيران بإنكار هذا الزعم الذي ادعاه، وتأتي فتوى ابن رشد بأن دعوى هذا الشخص غير جائزة والواجب أن تبقى على حالها مسرحاً لجميع أهل القرية ومنفعة لعامتهم[58].

وكثيراً ما نجد أن عدداً كبيراً من الفلاحين يقومون بزراعة الأرض كشركاء، لأحدهما الزريعة والآخر كراء الأرض والبقر على أن يقتسموا المحصول بنسب يتفقون عليها غير أن هذه الشركة كثيراً ما تنتهي إلى النزاع وتصعيد الأمر إلى القضاء. ونفس هذه المشاكل تحدث في الشركة في البهائم والغنم. أو بيع زريعة لآخر لا تنبت[59].

إلا أن أبراج الحمام المنتشرة في هذه القرى، والدجاج والطيور وتعدي بقر الجار أو غنمه على الزرع والشجر كثيراً ما كان سبباً في انتهاك السلام والوئام بين الجيران حتى أنه يؤدي في بعض الأحيان إلى عقر الحيوان أو موته[60]، وربما كان على أهون من ذلك ما يؤدي إلى القتل[61].

---

(55) «الفول إذا نور، شهرين يدور»، «آش بين قرقج، وبطيخ قال: مبيت ليل» وقرقج = البطيخ قبل أن ينضج والمعروف عند الفلاحين أن البطيخ ينضج في الليل.

الزجالي: ن. م، رقم 349، 85.

(56) ن.م. جـ 1، ص 249.

(57) الونشريسي: م. س. جـ 10 ص 304.

(58) ن. م. ص 180.

(59) الونشريسي: ن. م. جـ 8، ص 140، 150، 195، جـ 6، ص 56.

(60) الونشريسي: ن. م. جـ 5، ص 249، جـ 8، ص 326.

(61) ذكر ابن سعيد أن فتنة تدمير دامت سبع سنوات بسبب ورقة دالية جمعها قروي مضري من جنان يمني بغير إذن فقتله. =

أما العمل في الفلاحة أو الرعي أو تربية النحل فكان يقوم به الفلاحون أصحاب الزراعات ويستأجرون عمالاً لهذه الأعمال، ونظام العمل يتم على أساس المشاركة في الإنتاج. أي على ربع أو خمس المحصول[62] ويستأجر الراعي بالزبد[63]، وكانت الإجارة على أجباح النحل لمن يخدمها بجزء من العسل قد يصل إلى النصف[64].

أما بالنسبة للعمال المياومين الذين يؤجرون ليوم أو بضعة أيام فكان لهم مكان خاص يستأجرون منه، ولهم رئيس ينظم هذه العملية. وإن كان ابن عبدون[65] حمل على هؤلاء العمال الذين لا يخلصون في عملهم ويبتكرون مختلف الأسباب حتى لا يعملون كل ما أوكل إليهم ويحصلون على أجرهم في نهاية اليوم، لذلك فهو ينصح بأن يجعل في موقف رجالة الخدمة رجل مثيل خير، يفصل بين الناس إذا اختلفوا في وقت الانطلاق، فإن هذه الطائفة غير منقادة للحق، لأنهم شبان وعزاب، فيكري الرجل نفسه بالنهار بأجرة معلومة إلى وقت معلوم، ومن حلول الوقت يترك العمل، ويرجع إلى التلدد وقلة الإنصاف، ويعقل نفسه بجمع حطب، أو بطهر، أو يمضي إلى حاجة الإنسان، وشبه ذلك في الموضع دون عمل، حتى يحين الوقت، ويأتي كأنه قد وفاك حقك، ويشترط لنفعه، ويبين أشياء لا يكافىء عليها، وهو غش مغبن فلو جعل لهم من الأرض، على ما يرى أهل البصر، قطعة يحفرونها لكان ذلك راحة للفريقين، يجب أن يحد لهم طول اليد، وطول البقعة من الأرض في عرضها كذلك، ويجبروا على ذلك حتى يكون لهم عرفا.

ووقت العمل يبدأ من بزوغ الشمس إلى منتصف المدة ما بين صلاتي العصر والمغرب[66] وكثيراً ما يحاول هؤلاء الخدام سرقة بعض المحصول أو الفواكه، لهذا يأمر بأن من ظفر منهم وهو يسوق جفان به شيء منها أن تؤخذ منه ويؤدب على ذلك[67].

= ابن سعيد: المغرب، جـ 1، ص 48.

(62) ن. س. جـ 8، ص 163، 223.

(63) ن. م. جـ 8، ص 26.

(64) ن. م. ص 235.

(65) ابن عبدون: م. س. ص 56.

(66) السقطي: م. س. ص 65.

الونشريسي: م. س. جـ 8، ص 264، 265.

(67) ابن عبدون: م. س.

وكانت لأهل القرى مواسمهم التي يحتفلون بها فيخرج الجميع من القرى إلى الحقول والأودية ولا يقتصر هذا الموسم على أهل القرى بل يخرج معظم الأندلسيين من المدن وغيرها، حيث يبيتون عدة ليالي في الحقول التي يسمونها بالقنبانية[68]. وزمن موسم العصير في الخريف يجمعون فيه العنب[69]. والموسم الآخر هو زمن صباغة الحرير ويخرج فيه الأندلسيون لجمع القرمز ويقيمون خيامهم في بطن الوادي والحقول، ويصحبون معهم في هذه المواسم الآلات الموسيقية ويمضون الوقت يغنون ويرقصون ويشربون[70].

وتحتفل هذه القرى برؤية هلال رمضان وذلك بإيقاد النار لإعلام القرى المجاورة ببدء شهر الصيام[71]. وهناك الاحتفالات بالأعياد الدينية كبقية أهل الأندلس[72].

وبهذه المناسبات كان سكان الريف يقصدون المدن القريبة منهم لشراء حاجاتهم من الملابس والأواني وما يحتاجونه من مستلزمات لعمل الحلوى والطعام[73].

وكانت الدولة تعين لهذه القرى فقهاء لمساجدها ولتوجيه الناس إلى معرفة أمور دينهم ودنياهم يقول ابن سعيد[74] عند الحديث عن القرى العديدة خارج قرطبة: «في كل واحدة منها منبر وفقيه مقلص تكون الفتيا في الأحكام والشرائع له، وكان لا يجعل القالص على رأسه إلا من حفظ الموطأ وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبي (صلعم) وحفظ المدونة، وكان المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويسلمون عليه، ويطالعونه بأحوال بلدهم.

وكثيراً ما وجد بعض هؤلاء الفقهاء الذين يعينون في هذه القرى والبوادي

(68) القنبانية من الكلمة اللاتينية Campania أي الحقل المحرث كما يسميها الأندلسيون.
(69) ديوان ابن قزمان زجل رقم 50.
(70) المقري: م. س. جـ 1، ص 178.
(71) الونشريسي: م. س. جـ 10 ص 149.
(72) انظر الفصل الرابع الحياة العامة.
(73) ليفي بروفنسال: م. س. ص 91.
(74) المقري: م. س. جـ 1، ص 458.

صعوبة في التعامل مع أهلها، مما يجعلهم يهربون من خدمة هذه المساجد. وقد سجل أحدهم ما لاقاه وقاساه من التعامل مما جعله يزهد في منصبه[75].

ويبدو أن هناك قرى لم تكن الدولة تعين لها فقهاء، ويتولى أهلها التكفل بتعين

---

(75) أعبر عما كنت في الرسم أكتم ... فإن لسان الحال عني يترجم
بدوت وقدماً كنت أعرف حاضراً ... وسكنى البوادي لا يحل ويحرم
تكلفت سكناها وكان ضرورة ... وفي باطني أمر به الله يعلم
ثويت بها ما بين قوم بيوتهم ... كهوف وأشعاف وبيت مروم
حفاة عراة لا يحل جوارهم ... وأن تختبرهم ليس في القوم مسلم
حقيق على من كان مثواه بينهم ... يلام ويجلى في البلاد ويشتم
خيارهم الأشرار منهم فإن يكن ... لفرعون كفر كفرهم منه أقدم
دللت عليهم خيَّب الله سعيهم ... فلا عالم منهم ولا متعلم
ذئاب كلاب في ثياب ثعالب ... ومكسبهم أكل حرام ومغنم
رياضتهم لا تستطاع وإنما ... يروضهم سوط وسجن ومغرم
زنادقة في طبعهم ظناً وجدت ... خلافة فقل إمام منهم اليوم يسلم
كسالى عن التوفيق صم عن الهدى ... إذا ما دعوا للخير عن قصده عموا
لباسهم الزنار والسحت أكلهم ... صبي بزنار وشيخ مقدم
مساجدهم لم يَعمُرو بصلاتهم ... ويعجبهم منها الذي يتهدم
نسوا الله بالدنيا فأعمى قلوبهم ... وولى عليهم من يجور ويظلم
صغت لنواقيس النصارى عقولهم ... فمهما رأوا أهل الصليب تبسموا
ضيافتهم معلومة لقدومهم ... دجاج وبيض والمدام المحرم
عوائدهم ترك الصلاة وعندهم ... بأمر النساء العاطرات تهمم
غلبت على طول المقام بأرضهم ... على أنني منهم لشيم وأشأم
فقيههم لا يعبأون بأمره ... وإن جاء زَفَّان يعز ويكرم
قرينهم الشيطان حرضهم على ... ركوب المناهي فهي إثم ومأثم
سبيل الهدى والرشد لا يسلكونه ... فهم في ضلال غافلون ونوم
شيوخ القرى لا ينصفون إمامهم ... وفي أجرة الشراط يعموا ويصمموا
هم الظالمون الهالكون نفوسهم ... وما خلقت إلاّ إليهم جهنم
وقارهم غدر وودهم قِليً ... وأكبرهم سناً مسيء ومجرم
لأنفسهم لا يملكون شفاعة ... فويل لهم مما جنوه وأجرموا
يقيناً لقد حق العذاب عليهم ... ولكن رب العرش يعفو ويرحم
فهذا خطاب للأئمة في القرى ... خطاب صحيح والموفق يفهم

مخطوط الخزانة بالرباط رقم 1725.

د. محمد بنشريفة: البسطي آخر الشعراء الأندلس، ص 161.

فقيه أو إمام لمسجد القرية، وفي هذه الحالة يتفق معه على أجره ومعاشه من حبوب وإدام وعسل، ولكن يظهر من كثرة النوازل أن أهل هذه القرية لم يكونوا ملتزمين في دفع أجرة فقيه القرية أو الالتزام بالصلاة[76] مما يؤكد القصيدة التي قالها الفقيه أبو محمد الإشبيلي. وكان بعض الفقهاء لا يجد ما يفعله فينشر شعيره الأخضر أو التبن في صحن المسجد وينتظر حتى يجف في الشمس[77].

وكانوا يتفقون مع معلم أو فقيه مؤدب لتعليم أولادهم القرآن ومبادىء الحساب والعربية على أساس أجر محدد أو الاتفاق على تأدية شيء معين من غلة أو زيت إذا ما ختم الصبي القرآن[78].

ويأمر القاضي أهل القرى أن يتخذوا في كل قرية حارزاً يحرز أموال الناس من السائبة «فإن الرعية ترى مال أهل الحاضرة حلالاً لها، ولا تطلق دابة ولا بهيمة إلا مرسنة، وقيل الحارز حماية السلطان به، يجب أن يحرز أموال الناس والمسلمين في زمان الغلات وغيرها من أي وجه كان من أوجه الضرر إذا سنبل القصيل، يمنع من حصاده وبيعه، فإنما يفعلون ذلك فراراً من الزكاة فيه «ويطلب من أهل القرى الساكنون على ضفة النهر أن يغرسوا القصب في مواضع كثيرة، فإنها في جملة العُدَد التي يحتاج الناس إليها باضطرار ولا يستغنى عنها[79].

وكان الفلاحون يتحملون وزر سوء الأوضاع والاضطرابات فضلاً عن تعسف المالكين وجور جامعي الضرائب من متقبل وخراص وغيرهم، وهم أول ضحايا القحط والمجاعات، وأكثر من يصاب بالاضطرابات والحروب الداخلية المستمرة، فلا تكاد الحرب تنشب بين أميرين حتى تحرق المزارع، وتخرب البساتين خارج أسوار المدن التي يعتصم بها سكانها، وإذا أغار المسيحيون من الشمال، وكثيراً ما يغيرون في هذه الفترة على المسلمين فهمهم الأول إحراق وإتلاف الزرع وانتهاب الضرع، والفلاحون في كل ذلك يقاسون.

---

(76) الونشريسي: م. س. جـ 7، ص 70، 71، 113، 114، 138، 139.

(77) ن. م. جـ 8، ص 440.

(78) ن. م. ص 292، 236، 237، 259، 279.

(79) ابن عبدون: م. س. ص 36، 49.

ولم تكن علاقتهم بطبقة الخاصة مالكي الأراضي سوى علاقة التبعية التامة، التي فرضتها ظروف الحياة القاسية، ورغم أن تمرد العامة في المدن ودورهم في الحياة السياسية إيجابي في كثير من الأحيان، فإن الإشارات التاريخية التي تدل على إسهام الفلاحين بشكل إيجابي لا توجد، رغم أن وضعهم السيء قد يستغل من قبل الثوار والمتمردين فيحشدون لنصرة هذا الثائر أو ذاك، ولهذه الظاهرة أسبابها الطبيعية فابتعاد الفلاحين عن مراكز الحياة السياسية في المدن، وانتشارهم وتفرقهم، وخضوعهم المباشر لرحمة أسيادهم كلها مبررات كافية لتوضيح هذه الظاهرة[80].

ودور الفلاحين في الحياة الثقافية لم يكن له تأثير، إذ تعاونت الظروف المحيطة بهم على إبعادهم عن التيارات الثقافية الأدبية والفكرية التي تتركز في المدن في بلاط الأمراء وتصور الأغنياء، فأبناء القرى والبوادي ذوي المواهب والرغبة في تلقي العلم، كانوا يذهبون إلى المدن لأخذ العلم أو العمل في بلاط الأمراء والخاصة، ونجد في كثير من التراجم انتساب علماء وشعراء إلى عدد من القرى الأندلسية[81].

وكثيراً ما كان القروي أو البدوي عرضة للتندر عليه ومجالاً للسخرية والفكاهة منه[82] ووقوع السذج من أهل القرى والبوادي في حبائل المحتالين، وسماسرة التجار[83].

---

(80) د. صلاح خالص: م. س. ص 48.

(81) ينسب إلى قرية المنصف من أعمال بلنسية الفقيه الزاهد أبو عبدالله المنصفي، وإلى قرية سنبوس من جهات شلب ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار، ومن قرية الزاوية من أعمال أونبة الوزير العالم ابن حزم، ومن قرية متيطة من أعمال بنلسية عدد كبير من الأدباء والعلماء.

(82) راجع ما حدث بين الشاعرة نزهون الكلاعية، والشاعر الأعمى المخزومي، من مجادلة وسخرية نزهون منه وتعبيره بأنه من حصن المدور نشأ بين التيوس والبقر «فمن أين له معرفة بمجالس النعم؟».
المقري: م. س. جـ 1، ص 192.

(83) ذكر السقطي: ص 16 أن الوارد بالدقيق إذا وصل إلى مكان جلب الدقيق للبيع والشراء، اجتمع عليه الباعة وسألوه عن موضعه وأحواله وكيفية أسعار موضعه، وكيف اشترى الطعام، وما صدق الكيل له من الوزن، وفي أي رحى طحن، فإن كان بدوياً وأجابهم أنه أخذ الطعام من إصابته حَزْراً دون كيل وسمّى لهم الرحى التي طحن فيها أمكنتهم المواربة فيه والحيلة عليه، وأمهنوا دقيقة بكل وجه وجعلوا النقص الذي يظهر في ذلك في جانب الأخذ بالحرز دون الوزن، وفي أي الرحى كثيرة التغير معلومة الأخسار والرحى الذي فيها مشهور السرقة، وتولى الوزن المذكور واحد منهم فتارة يأخذ الدقيق من العدل من قفة الوزن، ويفرق بكلتى يديه في الأرض ويطيل المدة في ذلك ويفرق المجتمع في الأرض برجليه ليغفل =

فكانت الحياة في القرى والبوادي صورة مصغرة لحياة الحضر تمد المدينة بكل ما تحتاجه في حياتها اليومية، ويشارك أبناءها من المثقفين في الازدهار الفكري والحضاري للأندلس، شكلت دوراً أساسياً ولم تعش على هامش المدينة.

= من صاحب الدقيق، ويواعد الوزان لذلك نساء من السعـاة يكنسونه ويجمعونه ويقسمونه مع الوزان آخر النهار، وتارة يأخذ في القفة أكثر من الربع ويوقف قدمه على عقبها يرفد القفة بها وينقص منها غرفة بعد غرفة حتى يطول الأمر، ويعلم أنه بقي زائداً على الربع ثلاثة أرطال أو أربعة فيخطف القفة بسرعة من العمود ويفرغها في وعاء رجل يعرف مواطأته له على ذلك حتى يحاسبه بعد ارتفاع السوق على نصف الربع زائداً أو أزيد من ذلك، وتارة يلتمس القفة من البائع ويفرغ الربع كله في وعاء رجل معد لذلك فيمضي به بين الناس، وربما يشعر به صاحب الدقيق فيصيح به ويثقل نفسه بالوزن والعدد ولا يجيبه إلا بعد أمد فإذا عرفه أنه دفع ربع دقيق لمن لم يدفع له ثمنه غالطه وقال له: قد كان دفع الثمن لك ووزنته عليه، أليس الرجل الذي صفته كذا ولباسه كذا، ويوافقه شريكه على ذلك ويشهد له بالدفع فيخسر المسكين وهو على حق.

الفصل الرابع

مظاهر الحياة الاجتماعية في الحضر

المرأة الأندلسية ـ طبقة الخاصة ـ المرأة المرابطية ـ المرأة في طبقة العامة ـ الملابس ـ الأناقة ـ الحياكة ـ ملابس المناسبات ـ ملابس المرابطين (الرجال، المرأة) ـ لباس المرأة الأندلسية ـ طلب الأوروبيين منسوجات الأندلس ـ ملابس شرق الأندلس ـ النظافة ـ الحمامات ـ العطور ـ المنازل ـ بيوت الخاصة ـ بيوت العامة ـ الاحتفالات ـ عيد الأضحى ـ شراء الأضحية والاحتفال به ـ عيد عاشوراء ـ عيد يناير، حلوى الأعياد ـ عيد العنصرة، عيد العصير ـ ليلة ٢٧ رمضان، خميس إبريل ـ الاحتفالات الخاصة ـ الخطبة ـ الزواج ـ حفل الزفاف ـ السابع (العقيقة) ـ الإعذار ـ زيارة المقابر ـ عادات الأندلسيين الشراب ـ الخروج إلى المتنزهات ـ فحص غرناطة ـ إشبيلية وضواحيها ـ شريش ـ بسطة ـ مرسية ـ بلنسية ـ ألمرية ـ مستلزمات النزاهة ـ الألعاب ـ أدوات الطرب ـ المطاعم والفنادق ـ بعض العادات ـ الباعة الجائلون ـ الحارات ـ حب الغلمان ـ سلبية الأندلسيين.

كان للحياة الأندلسية مظاهرها الخاصة بها، واحتفالاتها المتعددة التي ولع الأندلسيون بالتحضير لها. والتفنن في انتهاز فرص السرور للاستمتاع بها، وحظيت المرأة بمركز متميز في هذا المجتمع، إذ كان للحرية التي تمتع بها الجميع في ممارسة حياتهم دور كبير في سلوكيات الأفراد ومفاهيمهم.

ولنا أن نتصور حال المرأة في أوساط الخاصة (الأرستقراطي) إذ أدركنا أنها لم تكن مضطرة عموماً للقيام بأي عمل لا في داخل البيت ولا في خارجه، فإن لم تكن متزوجة فما عليها إلا الانتظار حتى يأتي الزوج، أما إذا تزوجت فيكون همها الأول انتزاع حب زوجها وإعجابه ليزداد تعلقه بها بمختلف الوسائل. ولكن المجتمع بتقاليده وعاداته ونظمه لا يسمح لها بتحقيق هدفها هذا بسهولة، ولا يجعل مهمتها يسيرة، فمن حق الرجل الذي يكلفه العرف والشرع أن يحب نساء أخريات لأنه يستطيع إذا توفرت له الإمكانيات المادية أن يتزوج بأربع نساء وأن يشتري من الجواري العدد الذي يرغب، لذلك كانت جهود المرأة لأن تحب تكتنفها الصعوبات والعراقيل، فهي إما أن ترضى من الغنيمة بالفشل إذا تعلق زوجها بزوجة أخرى من زوجاته، أو بجارية حسناء من جواريه أو بعدد منهن، وإما أن تحظى بحبه وعطفه[1].

وكان للمرأة المرابطية شأن مهم في داخل المجتمع المرابطي، واشتهر عنها دورها وتأثيرها الكبير في توجيه البيت والأسرة، فكانت نساء الأمراء والنبلاء والقادة والعمال وغيرهم من الملثمين يتمتعن بسلطة ونفوذ كبير، وذكر أن الأميرة تميمة بنت

(1) د. صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس، ص 93.

يوسف بن تاشفين وأخت الأمير علي بن يوسف أمير المسلمين، أنها كانت تطلب العلم، وتحفظ الشعر، وتجيد قوله، وتتخذ الموكلين والكتاب، وتظهر إليهم في غير ما حياء أو خجل، وتحاسبهم دون أن تجد غرابة في ذلك[2].

وبلغ من نفوذ بعض الأميرات أن قصدهن الشعراء يمدحونهن، وتوجه إليهن أصحاب الحاجات يلتمسون شفاعتهن، كتب الشاعر ابن خفاجة إلى الأميرة مريم بنت الأمير أبي بكر بن تيفلويت قصيدة طويلة يتشفع بها إلى زوجها الأمير أبي الطاهر تميم، وقيل عنها «أنها ممن تقوم على كثير من الخير، وتحفظ جملة وافرة من الشعر، وتحاضر به وتثيب عليه» فما وقفت على ما كتب به حتى نفد العهد بحملانه على أتم وجوه البر والمحافظة والمكارمة[3].

وكانت بعض نساء المرابطين يجدن القتال والحرب، روى البيدق[4] أن «فانو بنت عمر بن ينتان» وهي فتاة رائعة الحسن وافرة الجرأة، كانت تقاتل الموحدين أمام القصر (القصبة) وهي في ثياب فارس، وكان الموحدون حسبما يقص البيدق يتعجبون من قتالها، ومن شدة بأسها، وما أعطاها الله من الشجاعة، ولم يعرفها الموحدون حتى قتلت وتبين أنها امرأة في ثياب رجل.

وعرف عن المرأة المرابطية أنها تخرج سافرة، لا تضع لثاماً على وجهها، وإذا كان هذا الأمر يبدو غريباً في المجتمع المغربي، والمجتمعات الإسلامية الأخرى، إلا أنه لم يكن بهذه الغرابة في المجتمع الأندلسي الذي تأثر كثيراً بعادات النصارى، والتاريخ الأندلسي قبل عهد المرابطين يحظى بذكر عدد لا بأس به من النساء اللاتي كن يظهرن بلا حجاب، فهناك ولادة بنت الخليفة المستكفي التي اشتهرت بمجالسها الأدبية التي تقول فيها الشعر، والتي تضم الشعراء والأدباء والمغنين، كما اشتهرت بجمالها وأناقتها[5].

وروى أيضاً أن اعتماد الرميكية زوجة المعتمد بن عباد كان لها تأثيرها الكبير

---

(2) ابن الأبار: التكملة رقم 2875 (كوديرا).
ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ص 106.
(3) ابن خفاجة: ديوانه ص 96، 97.
(4) البيدق: أخبار المهدي، ص 103.
(5) المقري: نفح الطيب، جـ 4، ص 208، 209.

على حياته، ولها دور بارز في الحياة العامة في إشبيلية، ومما يشهد على ذلك ما تحمله النقوش من ذكر اسمها يوم الشروع في بناء صومعة إشبيلية سنة 472 هـ/ 1079 م[6].

والمرأة الأندلسية عامة كان لها دورها الفعّال في مجتمعها، لما عرفت به من ثقافة وإحسان لتدبير شؤون منزلها، والبت في القضايا الكبيرة، والمشكلات المستعصية حتى أن المقري[7] ذكر أن بعض النساء كن يشرن على القاضي بحلول لبعض القضايا.

ولا شك أن إتاحة الفرصة للمرأة الأندلسية في ميدان العلم والثقافة قد صقل شخصيتها، ووسع آفاق تفكيرها، وجعلها تحتل مكانة مرموقة في مجتمعها.

وعلاقة المرأة لدى العامة بالرجل كانت قائمة على نوع من التعاون والتضامن الذي فرضته الحياة وقسوة تكاليف المعيشة، والرجل العامي يعمل بجهد خارج المنزل لكي يحصل على قوت العائلة ومعاشها اليومي في الوقت الذي تعمل فيه المرأة في الدار لتدبير شؤونه وتربية الأطفال. وأحياناً يتعدى عملها إلى خارج المنزل فتقوم ببعض الأعمال أو تشتغل بالتجارة[8].

ولقد ترك زرياب المغني[9] بصماته الواضحة على الملابس والطعام، وشتى فنون الحياة الأندلسية، فملابس الربيع كانت ملونة من الخز، لا بطائن لها ولا أكمام. وملابس الخريف قريبة الشبه بالربيع إلا أنها مبطنة، والصيف في الغالب بيضاء خفيفة

---

(6) د. محمد بن عبود: التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية، ص 193.
المقري: م. س جـ 4 ص 219.

Levi Pronencal, Inscription arabe d'Espagne, P.40.

(7) ذكر المقري أن زوجة قاضي مدينة لوشة الذي كثيراً ما يستعصي عليه الفصل في قضايا الناس كان يدخل إلى زوجته ليستنير برأيها، أو بالأحرى بحكمها فتشير عليه بما يحكم المقري: م. س. جـ 4 ص 294.

(8) كانت أم الشاعر المعروف ابن اللبانة «أبو بكر محمد بن عيسى الداني» امرأة برزة فارسة دكان وصاحبة مكيال وميزان وعلى ذلك فقد كانت امرأة صدق وفي حرفتها على ما بلغني صاحبة حق مشتغلة ببيع لبنها مقبلة على ما يعنيها من حال زمنها حتى غلب اسم اللبن عليها ونسب أولادها به إليها».
ابن بسام: الذخيرة، قسم 3، مجلد 2، ص 667.

(9) المقري: م. س جـ 3، ص 127، 129.

من الكتان والحرير والقطن والأردية الإفريقية، والمقاطع التونسية، والمآزر المشفوعة[10]، بينما ثياب الشتاء داكنة من الصوف وإذا اشتد البرد لبسوا الفراء[11].

وكان الأندلسيون على جانب كبير من الأناقة والترتيب في ملابسهم، واشتهر الأندلس في عصر المرابطين بصناعة أنواع عديدة من المنسوجات، منها النسيج الفاخر المطرز والموشى بخيوط الذهب، والذي يحمل أسماء عديدة، ولكل اسم مواصفاته ومواده ورسومه، وزخارفه، واشتهرت عدة مدن منها ألمرية ومالقة ومرسية وغرناطة وفنيانة ودلاية بهذه الصناعات من النسيج، حتى المنسوجات التي اشتهرت في الشرق مثل الأصبهاني والجرجاني برعت ألمرية في صناعته وتفوقت عليه.

وبرع الأندلسيون في حياكة ثيابهم، وكانوا يصنعونها من الحرير والقطن والكتان والصوف على اختلاف أنواعه وجودته، وتفاوته في الأثمان، فاستعملوا الحرير الموشى بالذهب والأقشمة الحريرية الخفيفة الرقيقة التي تزدان بزخارف نباتية وأزهار تشبه الأكاليل، ومن الديباج طرزوا الملابس الفاخرة. واستخدموا الكتان والأقطان المزينة بأشكال هندسية صغيرة على شكل معينات وغير ذلك من الأشكال، وعملوا من الحرير الموشى بخيوط الذهب الحلل وهي عبارة عن قطعتين من الثياب، الرداء والإزار معاً[12] واستعملوا هذا النوع من الحرير في أشكال أخرى من الثياب كان يتعجب من حسنها أهل المشرق إذا رأوا شيئاً منها[13].

وكثر استعمالهم للملف المصبوغ في ملابس الشتاء وهو نوع من الصوف[14] فإذا اشتد البرد لبسوا الفراء الذي تفننوا في تصنيعه، وتحلية الملابس به[15].

(10) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 1، ص 135.

(11) د. مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، ص 83، 84.

(12) د. عبد العزيز الأهواني: ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي، «ألحان العامة» مجلة المخطوطات العربية، مجلد 3، سنة 1957 ص 154.

(13) المقري: م. س. جـ 1، ص 223.

(14) ابن الخطيب: م. س. جـ 1، ص 135.

(15) يقول ابن قزمان في زجل (131):

واحتجت بعدك صدرة فرو   واسعة الكم لها طرو
وبرها يكون وبرأ لفيف   أبيض رطب شط أملس خفيف
نطيفة الطرز والصدر

ومن خلال ديوان ابن قزمان نتعرف على بعض أنواع الملابس والألوان التي كانت شائعة بينهم، فهناك الملابس الخاصة بالمناسبات الرسمية، والخاصة بالأعياد وغيرها، وذكر أنواعاً مختلفة للخياطة، فهناك البيرون أي الخارجية أو ما يسمى بالفوقية، وتلبس فوق القفطان، وهناك خياطة تشبه أهل الشام، وهناك المذيل أي الطويل، والمخروط الأكمام، أو القباطي الرقيقة وهي بدون أكمام[16].

ولا نجد في خواص الأندلس، وأكثر عوامهم من يمشي دون طيلسان، وهو عبارة عن ثوب موصول بغطاء الرأس فكان لا يغطي رأسه بالطيلسان إلا الشيوخ المعظمون[17] واستعمل كثير من الأندلسيين غفائر الصوف، وكان اللون المفضل لديهم الأحمر والأخضر، يضعونها تحت القلانس، ويتدلى منها شيء على القفا، أما اللون الأصفر فكان مقصوراً على اليهود، وكان العلماء يرخون ذؤابة من عمائمهم إذا تعمموا من تحت الأذن اليسرى ولا يسدلونها بين الأكتاف كما في المشرق، وإن رأوها في رأس مشرقي داخل إلى بلد من بلادهم أظهروا التعجب، والاستظراف، ولا يأخذون أنفسهم بتعلمها، لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم، وكذلك في تفصيل الثياب[18].

والغالب على أهل الأندلس ترك العمائم، لا سيما في شرق الأندلس حتى الأمراء والعظماء والعلماء يبدون حاسري الرؤوس، أما في غرب الأندلس فكان القضاة والفقهاء والعلماء هم الذين يضعون العمامة، ولكنها كانت تختلف عن عمامة أهل المشرق، وغير مسموح لليهود بالتعمم مهما كان الأمر[19].

(16) ويقول في زجل رقم (98):

كنريد نلبس فذا العيد ... محشواً جديد مشاكل
متقن الخياط محكم ... قد حرز ورى ومقدم
الذي ترالسى أرشد ... بالله قول لي مندام
بهيذا البيون نعيد ... أو بذا التفصيل مت الشام؟
والمذيل عندك اجود ... أو ذاك المخروط الأكمام؟
أنا بالقباطي معزا ... أنها أشكل وأطرا
القباطي عندي أحكم ... لسن نريد ثوباً مكمم

(17) المقري: م. س. جـ1 ص 222.

(18) ن. م ص 223.

(19) ن. م. ص 222، 223. ابن الخطيب: الإحاطة، جـ1، ص 136.

أما المرابطون والبربر فكانوا يضعون على رؤوسهم عمامة خاصة بهم، كانت مجالاً لسخرية الأندلسيين، ولم يكن المرابطون يلبسون زياً معيناً، وإن كانوا يفضلون اللون الأبيض في ثيابهم[20]، ومن خلال الهدية التي أرسلها الأمير يوسف بن تاشفين إلى ابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر، والتي ذكرها صاحب الحلل الموشية[21]، نجد أنهم كانوا يستعملون العمائم المقصورة والسوسية، والغفارة، والبرانس البيض والسود، والحمر والقباطي والأكسية البيضاء، والملونة، والجبة من الصوف الرفيع، والإشكرلاط وهو الجوخ القرمزي اللون. ويبدو أنهم تأثروا بعد ذلك بلباس أهل الأندلس، ولو في حياتهم الخاصة.

أما لباس النساء المرابطيات فاللأسف لا نعرف عنه شيئاً، وقد ظهر من قول المهدي في غطاء وتسريحة شعر المرابطية، والتي شبهها «بسنم الجمل» أسنمة البخت[22] المائلة[23] وهذا الغطاء عبارة عن قطعة من النسيج الرقيق طوله نحو ذراع تعصب المرأة به رأسها ويلتف ويرتفع على شكل سنم الجمل بنحو ربع ذراع، ويزخرف بالذهب واللؤلؤ وغيره من الأحجار الكريمة[24]. وما زالت نساء الصحراء المغربية يجمعن شعورهن كلها إلى الأمام بشكل السنم، ويبدو أن المرأة المرابطية كانت تفضل الألوان الزاهية كطبيعة أهل الصحراء خاصة اللون الأحمر «حب الرمان»[25].

وكانت المرأة في الأندلس في هذه الفترة تلبس الخمار، وهو من الأقمشة

---

(20) سماهم المهدي بن تومرت الزراجنة تشبيهاً بالطائر المعروف بهذا الاسم، وهو أبيض الريش أسود البطن.
ابن القطان: نظم الجمان، ص 85، الحلل الموشية، ص 111.

(21) الحلل الموشية ص 27.
يذكر صاحب الحلل أنه كان من بين الهدايا التي أهداها يوسف بن تاشفين إلى ابن عمه أبي بكر بن عمر «مائة عمامة مقصورة، وأربع مائة من السوس، ومائة غفارة ومائتين من البرانس منها بيض وكحل وحمر، وألف شقة من لون حب الرمان، ومائة شقة من أشكري، وسبع مائة كساء بيض ومصبوغة، ومائتي قبطية شال مختلفة الألوان والأنواع ومائتي جبة واثنتين وخمسين جبة إشكرلاط ملف رفيع، وسبعين كبة ملف رفيع.

(22) البخت هي الإبل الخراسانية.

(23) ابن القطان: م. س، ص 26.

(24) دوزي: معجم الألبسة ص 239.

(25) انظر، هدية يوسف بن تاشفين لأبي بكر بن عمر.

الحريرية التي تختلف من حيث درجة الجودة والشفافية والثمن. فتضعه على رأسها وينسدل على وجهها، واستعملت المعاجر وهو أشبه بما يسمى الآن الشيفون، وهو حرير شفاف تغطي به الوجه أو تشد به الرأس[26].

وتفنن في لبس المصبغات والمذهبات والديباجات من الملابس، وحلى المرأة القلائد والدمالج والشنوف، والخلاخل الذهب الخالص، والفضة والأحجار الكريمة من الياقوت والزبرجد والزمرد ونفيس الجوهر كثير ممن ترتفع طبقاتهم المستندة إلى ظل دولة أو أصالة معروفة موقرة، وبلغن في استعمال أشكال الحلى درجة من الغلو[27].

وكان لهم ذوق رفيع في اختيار الألوان والأنواع، فابن قزمان[28] يبين خبرته في ذلك فيقول أن الثوب الأزرق يلزمه برنس أخضر، ولا ينسى أن يخصص الأزرق بأنه سماوي والأخضر بأنه فستقي.

وتميزوا بأنهم على جانب كبير في ترتيب ملابسهم، الأمر الذي دفع بكثير من المسيحيين الأوروبيين أن يرسلوا في طلب المنسوجات التي تصنع في الأندلس، بل كان من عظماء المسيحيين، من يؤثر ارتداء الملابس الإسلامية[29].

أما شرق الأندلس فقد تأثر بلباس النصارى، فكثيراً ما تزيا أمراءهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم، فسلاحهم كسلاحهم، وأقبيتهم من الإشكرلاط وغيره كأقبيتهم، وكذلك أعلامهم وسروجهم[30]، وروي أن الأمير محمد بن سعد بن مردنيش أمير الشرق مال إلى اتخاذ زي الروم من اللباس الضيق، وركوب البرازين

---

(26) د. عبد العزيز سالم: تاريخ المرية الإسلامية، ص 158.
د. عبد العزيز الأهواني: م. س، ص 154.
(27) ابن الخطيب: م. س، جـ 1، ص 138.
(28) يقول ابن قزمان في زجل رقم (24):
من لبس ثوباً سماوي ... من إقامت ألمريّ
لا تكون عليه غفارة ... إلا خُضَر فُستقي
(29) د. عبد العزيز سالم: م. س، ص 163.
د. مصطفى الشكعة: م. س، ص 83.
(30) المقري: م. س. جـ 1، ص 223.

الهماليج، واتخاذ السروج الضخمة القرابيس[31].

وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون، وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يوم فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها، وابن قزمان[32] يصور حالته وضيقه بالغلاء وعدم وجود مال معه ليدفع أجرة الحمام وقص شعره. ويبين أهمية النظافة واللباس الأنيق، خاصة إذا كان عاشقاً.

وكانت الحمامات منتشرة في المدن، والقرى، والحمام يتكون من مدخل ثم ثلاث أو أربع غرف أساسية مغطاة دائماً بأقباء وكلها لغرض الاستحمام. ويكملها في نهاية الجهة المقابلة حجرات الوقود وخلافها. ويدخل إلى الحمام بباب منخفض يؤدي إلى أسطوان أو ممر ضيق متعرج، ويلي ذلك في كثير من الحمامات صحن صغير مغطى أو مكشوف يلحق به مرحاض[33].

ويلي الأسطوانة «البيت البارد»، وفيها يخلع المستحمون ملابسهم، في بعض الحمامات المترفة كان يسبق الحجرة الباردة أخرى لخلع الملابس والاستحمام، أما في الشتاء فكان المستحم يخلع ملابسه في الحجرة الوسطى الدافئة لقربها من القدر الساخن.

ويلي البيت البارد قاعة وسطى أعظم حجماً وأهمية، في وسطها فضاء مربع مغطى بقبة ممراتها مغطاة بأقباء تحملها أعمدة تحف بجوانب الصالة كلها أو في جانبين أو ثلاثة منها وتسمى «البيت الوسطاني» وأخيراً تصل إلى «البيت الساخن» وهو حجرة ضيقة طويلة كالأولى مغطاة في نهاياتها بالحنايا المعروفة، وفي الحائط الذي يقع في صدر الحجرة قدر كبير من النحاس الأحمر تخرج منه أنابيب رصاصية حاملة

---

(31) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 260.

(32) يقول ابن قزمان في زجل رقم (68):

قصتي صارت طريفة ... يا بعد لَسْ ماع قَصَّة
ولا ما نعطي في حمام ... ولا ما نعطي في قصة

* * *

من شان العاشق أن يرجع ظريف ... قميصا ابيض وقُرْقا نظيف
ورأساً مغسول وروحا خفيف ... فأوحش ما عندي عاشق مزيلي

(33) ليوبولد توريس بالباس: الأبنية الإسلامية الإسبانية، ص 109.

الماء الساخن إلى أحواض مصنوعة من الرخام أو الحجر أو الطوب الأحمر وتسمى صهاريج، وهي موضوعة في دخلات الحجرات الساخنة وتختفي في بعض الأحيان تحت تجاويف تفتح في الجدران، وهناك أبنية أخرى للماء البارد. وترصف الحجرتان الساخنة والدافئة بقطع من الرخام[34].

وفي الحمامات المتواضعة حيث لا توجد مياه جارية كانت تحمل إليها من أماكن أخرى، وتحل الجرار محل الأحواض، ويجلب الماء من آبار وينقل على دواب الحمل[35].

والمكان المستخدم في تسخين المياه يوجد تحت القدر، ويتسرب الدخان والهواء الساخن من أرضيات الجزءين المجاورين، ثم يخرج من مداخن ملصقة بالجدران. والحجرة المخصصة للوقود ملاصقة للقدر وتسمى فناءً، ولها مدخلها المستقل وليس بينها وبين سائر الحجرات السابقة أي اتصال[36].

ويسمح بدخول الضوء للحمام عن طريق فتحات أو كوات في السقف ذات شكل نجمي تسمى مضاوي من الزجاج الملون، وتضاء ليلاً بالشموع.

ويجلس بالقرب من الباب الموصل للحجرات الداخلية رجل على كرسي عالٍ مسؤول عن حفظ ملابس المستحمين وأشيائهم، وتقديم المناشف وطفل لتنظيف الشعر[37].

وكان على المستحم أن يدفع ثمن الدخول، وكان زهيداً جداً، فالحمامات في الغالب تابعة للدولة أو المساجد أو الأحباس، وكان الحكاك أو الخادم ينظف جسم المستحم بقفاز من الشعر مزيلاً الطبقة الخارجية العالقة بالجلد، وخضعت الحمامات لرقابة المحتسب، وكان يمنع أن يحك مسلم نصرانياً أو يهودياً، ويجب أن تكون صهاريج الحمامات مغطاة فإن كانت مكشوفة لم تؤمن نجاستها، فهو موضع طهارة،

---

(34) د. محمد عبد الوهاب خلاف: قرطبة الإسلامية، ص 30.

(35) ن. م ص 32.

(36) ليوبولد توريس بالباس: م. س، ص 110.

(37) د. محد عبد الوهاب خلاف: م. س، ص 32.

ويجب أن لا يمشي الطياب ولا الحكاك ولا الحجام في الحمام إلا بالتبان وسراويلات[38].

ونظراً لتقدم صناعة العطور في الأندلس من الأعشاب والزهور المختلفة فقد استعملها الأندلسيون بكثرة، يقول ابن الخطيب: وثياب أهلها بالعبير تتأرج، وحورها تتجلى وتتبرج»[39].

واهتم الأندلسيون بمنازلهم، فكانت قصور علية القوم بها الفرش الوثيرة، وأنواع البسط الفاخرة التنتلية، والستور الجميلة من الديباج وغيره، وكانت الحيطان تغلف بالحصر الفاخرة المبهجة للنظر والتي يؤتى بها من بسطة التي اشتهرت بصنعها، ويبسط في قاعات ديارهم نوع من المفصص، المعروف في المشرق بالفسيفساء ويعرف عندهم بالزليجي، ويشبه الرخام الملون وكانت له ألوان عجيبة[40].

ويحيط بالمنزل حديقة تتخللها ممرات تتفاوت من منزل إلى آخر بها نافورات وبركاً وجواسق، وكانت الزهور والماء تؤلفان عنصراً حيوياً للبهجة في المساكن الأندلسية، والأحواض والبيلات من الرخام المصقول المصنوع في ألمرية[41]، وأكثر ديارها لا تخلو من الماء الجاري والأشجار المتكاثفة كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك[42].

أما بيوت العامة فكانت كعادة الأندلسيين نظيفة تحتوي على بئر في وسط الدار غالباً، ويشمل عدة غرف وأحياناً غرفة أو غرفتين علويتين من الداخل يصل إليها عن طريق درج مبني بالطوب أو السلالم الخشبية والتي تصنع من أخشاب سميكة وتثبت بمسامير، ويحتوي على فرش نظيفة تختلف في قيمتها من دار إلى أخرى[43].

وكان أهل الأندلس محبين للهو والترف والمجون والاحتفال بأعيادهم الكثيرة والمناسبات العديدة التي يختلقونها للاحتفال بهذه الأعياد، فكانت هناك أعياد الفطر

(38) ابن عبدون: ص 48.
(39) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص 109.
(40) المقري: م. س جـ 3، ص 220.
(41) مانويل جوميث مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة د. عبد العزيز سالم، ص 334.
(42) المقري: م. س. جـ 3، ص 214.
(43) ابن قزمان زجل رقم 87.

والأضحى وعاشوراء، ونصف شعبان، والسابع والعشرين من رمضان وأعياد ينير، والعنصرة، والعصير وخميس أبريل[44]. فكانت هذه الأعياد مناسبات للزيارات وتبادل التحيات، واجتماع الأهل والأصحاب، أو الخروج إلى المتنزهات.

وعيد الأضحى وما يزال لا يكون الاحتفال به إلا بالأضحية، وقد احتل كبش العيد مكاناً كبيراً في أشعارهم وأزجالهم، وأمثلة عامتهم، بل لقد احتل في ديوان ابن قزمان مكاناً كبيراً، لم تحتله زوجته أو أولاده، فقد شغل الزجال في سبعة من أزجاله[45]، وجعلنا نعيش معه في هذه الرحلة التي عاشها، والتي لا يبدو فيها اختلاف كبير عن حياتنا المعاصرة، فهو يصف إلحاح الزوجة، والأولاد لشراء الأضحية فيضطر تحت هذا الإلحاح أن يشتريه «والقصد فرح الأولاد»[46].

وصور ابن قزمان[47] المدن الإسلامية في القرن السادس الهجري، والتي ما زالت قائمة في كثير من المدن الإسلامية، فقبل عيد الأضحى بأربعة أيام تساق الخراف من كل مكان إلى ميادين تسور بأخشاب، ويذهب الناس يوم الوقفة (يوم منى) إلى هذه الأسواق والتي يشتد عليها الزحام، فيقلبون الخراف ويساومون الباعة ويدفعون الثمن لما اشتروه، وينادون الحمالين، فيرفع الواحد الكبش على عنقه ويمضي إلى بيت المشتري الذي يوصيه طول الطريق بالعناية به بصوت عالٍ ليسمعه الناس، ولا يذهبون إلى الأسواق إلا على الفاره من الركوب، ولا يعرف منهم المهنة والمشي إلا أهل الصنايع والأراذل[48].

وصباح العيد تكون الأسرة كلها مشغولة بتهيئة الأضحية، والكل مشمر عن ساعده لإعدادها بعد الذبح، فتعلق ليتم تقطيعها[49]، وترسل الأسرة برأس الكبش إلى

(44) الزجالي : أمثال العامة، جـ 1، ص 241، 242.
(45) ابن قزمان: زجل أرقام 8، 48، 82، 85، 89، 91، 118.
(46) ن. م زجل 48.
(47) ن. م رقم 82.
(48) ابن حوقل: صورة الأرض ص 114.
(49) يقول في زجل 89:

وتـرى كـبش مـعـلق والـقـطـيـطـس تحـت يـعـوي
وأنـا عـريـان فـالـسـراول أو في مـنـديـل خـبـز مـلوي

الحارة حيث تشوط في حفر[50]. وتنشغل العائلة كلها في طهي السقط ويعرف بالقلايا أو التقلاية، ثم الشواء والأكل[51].

وهكذا تقضي الأسرة طوال هذا اليوم في تجهيز الطعام والمشوي، والمحمر وحمل الأطباق، والقلل، وفي استقبال الأقارب، مما يرهق الجميع ولكنه إرهاق محبب، ففي نهاية اليوم السعيد تتنهد الأسرة متذكرة العيد[52].

أما عيد عاشوراء، فهو عيد الفاكهة والحلوى، وما زالت هذه العادة في المغرب فكانوا يشترون الفواكه المتعددة، وأنواع الياميش والحلوى، وهناك الاحتفال بشهر شعبان فتقام فيه المآدب، التي تسمى الشعبانية، ويشترى الأبواق والنفير للصبيان يلهون بها، فيملأون الدنيا صياحاً، وفي ليلة 27 رمضان تشترى الحلوى والفاكهة[53].

ولم تقتصر الأعياد الأندلسية على هذه الأعياد، بل كانت هناك أعياد موسمية متأثرة بالمسيحية، فعيد ينير (يناير) وهو أشبه بعيد النيروز، وكانوا يحتفلون به احتفالاً كبيراً في المنازل والشوارع حيث تقام النصبات[54] في الحارات وهي عبارة عن موائد

(50) وفي زجل رقم 48:

وفي شأن تشويط الروس　　حفر في كل حار

وما زالت هذه العادة موجودة في المغرب، إذ تعمل حفرة على رأس كل حارة لتشويط الرأس ويجتمع حولها أطفال الحارة.

(51) يقول ابن قزمان في زجل 82:

واش إلا القلايا　　والقديد المُسَرَّح
وشواي لجنب　　وأنا جالس نملح
ونصغف على النار　　ثم نبتدي نملح
وأنا كن طِيبطْ　　في دخان مشمر

(52) وفي زجل 48:

ثقلة العيد في حملان　　الكباش والقرايب
والقدور والصحيفات　　والقلل والمحالب
واش يقاسي الإنسان　　من حرارة فالأعياد

(53) الزجالي، م. س. جـ1، ص 228.

(54) يقول ابن قزمان في زجل 72:

الحَلْوُن يُعجَن　　والغِزْلان تباع
يفرح لينير　　من ماعُ قِطاع
لقد ذا النصبات　　أشكالا ملاح

كبيرة يضع عليها الباعة أصناف الحلوى والفواكه، وروى في احتفال أهل الأندلس أن النصبة ببعض بلاد الأندلس يبلغ ثمنها سبعين ديناراً، أو يزيد على السبعين، لما فيها من قناطير السكر، وأرباع الفانيد وأنواع الفواكه، ومن غراير التمر، وأعدال الزبيب والتين على اختلاف أنواعها وأصنافها وألوانها، وضروب ذات القشور من الجوز، واللوز، والقسطل، والصنوبر، والبلوط إلى قصب السكر. ورائع الأترج، والنارنج، والليمون. وفي بعض البلاد طاجن من الأسماك المملح ينفقون فيه ثلاثين درهماً إلى نحوها[55].

وكانت هناك حلوى خاصة بعيد ينير تسمى مدائن، لأن معظمها يصنع على شكل مدن مصغرة ذات أسوار، وتشبه التي تصنع الآن في البلاد الأوروبية وتعرف باسم Salettes وقد وصف ابن عبد الملك المراكشي[56] المدائن التي كان يصنعها أهل الأندلس والمغرب بأنها تنقش وتصنع فيها أشكال من العجين، مركبة على البيض المصبوغ بالحمرة أو الخضرة، أو بغير ذلك من الألوان بحسب المتخير لها، ثم يفرم الجميع بالزعفران ويطبخ في الفرن، ويجمع إليه أصناف الفواكه، ويحتفل كل إنسان في انتخابها، وتجويد صناعتها، ويتباهى في الإنفاق فيها على قدر وسعه واعتنائه بذلك، ثم يدفع ذلك كله إلى الصغار لإدخال السرور عليهم، وتوسيعاً في الترفيه لأحوالهم وتبشيراً بخصب عامهم وتفاؤلاً لبسط الرزق فيه لهم، فيلهجون ويتمكن جذلهم، ويتفاخرون بينهم وتتمادى لديهم أياماً بحسب كثرتها وقلتها، ثم يأتون عليها أكلاً وتفكهاً بما معها من أصناف الطرف والفواكه.

أما عيد العنصرة أو المهرجان فهو يقام في شهر يونيه، وقد نقل ابن خلكان[57] عن بعض الأندلسيين «أن يوم العنصرة يوم مشهور ببلاد الأندلس، وهو موسم للنصارى كالميلاد ونحوه، وهو اليوم الرابع والعشرون من حزيران، فيه ولد يحيى بن زكريا عليهما السلام».

واشتهر عيد العنصرة بشعلة النار التي يسمونها العنصرة يقيمونها في الشوارع

---

(55) الزجالي: م. س جـ 1 ص 239.

(56) ن. م.

(57) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 7، ص 227.

ويقفزون فوقها كما تشير إلى ذلك أمثالهم[58]. وكانوا يبتهجون بهذا العيد لأنه عيد الصيف والربيع[59].

وكان الأولاد في هذا العيد يرشون الناس بالماء في الأسواق والشوارع ويلعبون بالمقارع والعصي، مما جعل بعض المحتسبين[60] يطالبون بمنع ما يفعله السفلة والصبيان من الرش بالماء في الأسواق والشوارع وتزليق الطرق يوم المهرجان والنهي عن اللعب بالمقارع والعصي في الطرقات حتى لا يتأذى المارة.

والعيد الآخر الذي اهتم به الأندلسيون كثيراً، هو عيد العصير وكان يستغرق الاحتفال به عدة أيام، ووقت هذا العيد في الخريف عند جني العنب، فيخرج الناس مع أولادهم إلى الحقول وقد ارتدوا أحسن وأجمل ما عندهم من الملابس والحلى، ويصحبون معهم أصناف المأكولات والمشروبات، وآلات الموسيقى والطرب فيرقصون ويعبثون، وينزلون في الأودية والأنهار ويسبحون ويستحمون، ويبقون على هذا الحال عدة أيام. مطمأنين إلى أسلحتهم التي يحملونها، وعلى أن هذه الجنان والبساتين قريبة من المدن والقرى التي يسكنونها، ولأن الدولة تزيد من إجراءات الحراسة[61].

وفي عيد خميس أبريل يحتفلون بشراء المجبنات وهي الفطائر المحشوة بالجبن، والإسفنج وهي تشبه الزلابية المعروفة في مصر[62].

وقد اعتبر أبو بكر الطرطوشي[63] هذه الأعياد من البدع إذ يقول: «ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة 27 رمضان، وكذلك على إقامة

---

(58) يقولون في أمثالهم «الكبش المصوف ما يكفز العنصرة» أي الكبش لا يستطيع القفز فوق العنصرة حتى لا يحترق صوفه، ويقولون «كفزها بحل عنصر».

الزجالي: م. س، رقم 373، رقم 1148.

(59) يقولون «خروجك من ينير أخير من خروجك من العنصر» لأن بعد العنصر الخريف والشتاء. الزجالي ن. م رقم 914.

(60) الجرسيفي: رسالة في الحسبة ص 124.

(61) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 1، ص 138، ابن قزمان - زجل رقم 50.

ابن عبدون: م. س. ص 54.

(62) الزجالي: م. س. ص 241.

(63) الطرطوشي: الحوادث والبدع، ص 141.

ينير بابتياع الفواكه كالعجم، وإقامة العنصرة، وخميس أبريل، بشراء المجبنات والإسفنج وهي من الأطعمة المبتدعة».

كما انتقدها بشدة الأمير أبو القاسم العزفي[64] وعلل انتشارها بين المسلمين في الأندلس بمجاورة النصارى ومخالطتهم، وفي المغرب بالإتباع والقدوة، وذكر أنه «ما عبر من ذاك البر (الأندلس) إلى هذا البر (المغرب) بدعة لا أشفع منها ولا أضر»، وقد حاول العالم الأمير المذكور أن يحول أهل بلده عن هذه البدع وصرفهم عنها بالاحتفال بالمولد النبوي والاحتفاء به، وذكر ابن عباد الرندي أن الأمير العزفي لم يبلغ كلية غرضه في إبطال أمر النيروز والمهرجان[65].

وكان الناس يخرجون في الأعياد رجالاً ونساءً وأطفالاً للتفرج في الشوارع والساحات. ويسموه البروز، فيشترون تماثيل الحلوى، واللعب للأطفال، وقد نهى عبد الرؤوف[66] عن شراء الدوامات أو مثلها للصبيان.

وكانت تقام في الساحات حلبات الاحتفال يلعب فيها الحواة، ويسمون أيضاً بالعجايبي، لأنه يأتي بالألعاب الغريبة العجيبة، وهناك وصف لأحد هؤلاء في صف الأطباق على العصا، وإدارتها، وهي ما زالت إلى الآن يقوم بها بعض هؤلاء اللاعبون في كثير من البلاد[67].

---

(64) هو محمد بن أحمد العزفي شهر بأبي القاسم، ولد في 15 شوال سنة 607 هـ واستولى على سبته ليلة 27 رمضان سنة 647 هـ، وأطاع يعقوب بن عبد الحق المريني سنة 672 هـ، وتوفي في 13 ذي الحجة سنة 677 هـ، وهو الذي بنى سوراً بجانب المنارة سنة 649 هـ، وكان عالماً أديباً.

مجهول: بلغة الأمنية، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ص 22.

(65) الزجالي: م. ص 241.

(66) ابن عبد الرؤوف: في آداب الحسبة ص 83.

(67) يصف ابن عميرة المخزومي أحد هؤلاء بقوله «وكان لأحدهما وصف يزيد على الأوصاف وعمل هو المشار إليه في الصحاف، تُصَف له في مداراة، وتلقى بمجال إقباله وإدباره فيأخذها بإصبعين، ويديرها لرأي العين، فترى عجباً من نصب وإمالة، وإثبات وإزالة، واتساق بغير قد، والتصاق دون ود، وربما أكفأها في الهواء وقد غمرها بالماء، فتحسبه جمد فما يقطر، أو عاد سرابا في عين من ينظر، ويمر بها فيجعلها تحت ذيله، ثم يقتلعها بجملة سيله، فيفقدها العيان، ويخلى منها المكان، ويخلع الثياب ولا أثير هناك، وينزع السراويل فلا زيادة على تلك وذاك، فإذا استوفى بعض جوانبه، وقضى وطراً من عجائبه، ارتج من الأمام والوراء، وقام كتاركة بيضها بالعراء، ويؤتى بالنار وحرها مرهوب ولهيبها مشبوب، فيودعها ذاك المستودع ويبدع في شأنها فوق ما أبدع، وربما وضعت له القلة بمائها، فلا ترى =

أما الاحتفالات الخاصة بالعائلة فكانت كثيرة. . فهناك الاحتفال بالخطبة والزواج، وكانت عملية اختيار الفتى لعروسه عملية سهلة، فالاختيار يتم عادة بواسطة الأهل والأصدقاء، أو يكون الفتى رأى الفتاة أو شاهدها، في مكان عام أثناء شرائها الحاجيات من السوق أو زيارة أحد الأقرباء أو الأصدقاء، وكانت الأمهات تتدخلن تدخلاً صريحاً في اختيار العروس لأبنائهن، ومثل هذا يقابل أحياناً بعدم الرضا من جانب الشباب لعدم اقتناعه بالعروس، وكانت تقوم بعملية الخطبة النساء المسنات على سبيل حب الخير والوصل بين الفتى والفتاة[68].

وإذا تمت الخطبة كان أهل العروسين يتفقون على الصداق وهدايا العرس وفي بعض الحالات كان الصداق لا يقتصر على النقود بل يكتب للعروس داراً مثلاً، وفي هذه الحالة يسجل في عقد القران وتوضح فيه حدود الدار وأبعادها، ويشهد الشهود على ذلك[69].

وكان الجهاز ومكوناته من الأمور المهمة التي تناقش بين الأسرتين، وكانت مكونات جهاز العروس غالباً مدعاة للتفاخر بين أفراد الحي والعائلة والأصدقاء لذلك كان الأب يعطي ابنته أحياناً أشياء تزيد على حاجتها على سبيل الإعارة، وذلك ليظهر أمام أهل الزوج والأصدقاء أنه جهز ابنته بجهاز كامل، وأنه ينتمي لطبقة اجتماعية ميسورة أعلى من حالته الحقيقية، غير أنه في مثل تلك الحالة كان الزوج يرفض أحياناً رد تلك الأشياء المعارة، ويعتبرها داخلة في مكونات جهازه، ضارباً عرض الحائط بما يقوله والد العروس، ولذلك كان الأب يطالب بتلك الأشياء بمجرد الانتهاء من احتفال الزواج وتهاني المدعوين، وفي أحيان أخرى يختلف العريس على مكونات الجهاز وقيمته، وحيث يرى أنه لا يتناسب مع قيمة ما دفع من صداق[70].

= أعجب من إخفائها، يختطفها اختطافا، وقد هزّ منها أعطافا، وركب فوقها صحافا، فيحمل منها جنيناً حسن، ودفيناً يأمن النبش، ثم يقوم عنها عجلان ويترك شخصها كما كان وهذا خلال نغمات حسان سماعية، وهيئات إيقاعية، يقف عليها الحسن وتهش لها العيون والآذان.

الزجالي: م. س. ص 253.

(68) د. محمد عبد الوهاب خلاف: م. س. ص 270.

(69) ابن سهل ورقة 91، 100.

(70) ن. م.

وإذا تم الاتفاق بين الأسرتين على تحديد وقت الزفاف يستعد آل العروس، وكان الاحتفال بالأعراس ينفق عليها ببذخ، ومجالاً للمباهاة والظهور، فكان يحيي هذه الحفلات العازفون على آلات الطرب المختلفة من عود ودف وغيره[71]، وقد عدد الشقندي[72] في رسالته التي يفخر فيها بالأندلس حوالى تسعة عشر آلة.

وكانت الراقصات يرقصن في العرس حاسرات الرأس كاشفات عن شعورهن[73]، والعروس تبدو مجلوة في غاية الزينة[74] على رأسها التاج[75]، والحواة يقومون بألعابهم ليدخلوا السرور على المدعوين[76].

ويبدو أنهم كانوا يحتلفون بالعرس في الشوارع أيضاً، فقد وصف أحدهم زفة العرس بقوله: «فلعهدي بعرس في بعض الشوارع بقرطبة، والنكوري الزامر قاعد في وسط الحفل، وفي رأسه قلنسوة وشي، وعليه ثوب خز عبيدي، وفرسه بالحلية المحلاة يمسكه غلامه»[77]، وكان لا بدّ لأهل العروس أن يحصلوا على تصريح من القاضي إذا كانت العروس ستزف إلى خارج المدينة، حتى يأمر القاضي بأن يصحب الموكب عدد من الأعوان لحراسة الموكب من العربدة[78].

وكان يتخلل هذه الاحتفالات كثيراً من ضروب اللهو والعربدة والشراب وفي بعض الأعراس كان يختلط الرجال والنساء، ولذلك كان يطلب منع اللهو كله في الأعراس وغيرها كالعود وغيره، إلا بعض ما كان من الدف العربي الذي يشبه

---

(71) ابن عبد الرؤوف: م. س، ص 83.

(72) يقول الشقندي: «وقد سمعت ما في هذا البلد (إشبيلية) من أصناف أدوات الطرب كالخيال والكريج، والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس، والكثيرة والفنار والزلاعي والشفرة والنورة ـ وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه ـ والبوق وإن كان جميع هذا موجوداً في غيرها من بلاد الأندلس فإنه فيها أكثر».

المقري: م. س. ص 213. جـ 3.

(73) ابن عبدون: م. س. ص 51.

(74) ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 83.

(75) ابن قزمان: م. س زجل رقم 21.

(76) ابن عبدون: م. س ص 51.

(77) الحميدي: جذوة المقتبس، ص 134.

(78) ابن عبدون: م. س. ص 54.

الغربال، ونهى الجرسيفي[79] عن اختلاط الرجال والنساء في هذه الحفلات.

واستخدموا الطهاة لطهي طعام وحلوى العرس، وكان يشترط على الطباخ ألا يأخذ شيئاً من الطعام، إلا إذا كان هناك شرط مسبق بينه وبين أصحاب العرس، وإن كان في كثير من الأحيان يعطونه شيئاً منها على سبيل الهدية والبركة[80].

وعني الأندلسيون بطهو الطعام وعمل أصناف عديدة منه، وتفننوا في عمل الأشكال المختلفة من الحلوى، وكان لهم ذوق جميل في تقديمها، وما زال العديد منها يصنع بالمغرب وألفوا كتباً عديدة في هذا المجال[81].

وإذا رزقت الأسرة بمولود جديد في الأسرة يحتفل بتلك المناسبة، وتقام حفلة السابع أو العقيقة[82]، وهي ذبح كبش أو أكثر باسم المولود، ويحتفل بالأم وتقدم لها الهدايا، وفي هذا اليوم يدعى الأهل والأصدقاء وتقدم المأكولات والفواكه والحلوى على اختلاف، أنواعها وكل على حسب مقدرته.

وحفلات الإعذار أو الطهور كانت من المناسبات العائلية السارة التي تحييها، الأسرة بإقامة المآدب وحفلات الموسيقى والغناء.

وكان لأهل الأندلس عادة خروج النساء والرجال إلى المقابر ليلة العيد، وابن قزمان يبين ما في ذلك من تناقض الحياة[83]، وفي كتب الحسبة صورة لما يدور في المقابر من خلاعة وفساد، ومن الأشياء التي بدت غريبة هي سكنى المقابر واتخاذ بيوت فيها أو خوابي، ووصف ابن عبدون مقبرة إشبيلية وما يحدث فيها، وكأن ما

---

(79) الجرسيفي: م. س. ص 121.

(80) ابن عبدون: م. س. ص 52.

(81) مثل كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس لمؤلف مجهول، وقد نشره هويس ميراندا، وكتاب فضالة الخوان لابن رزين.

(82) ابن قزمان زجل 89.

(83) ابن قزمان: زجل رقم (48).

كل وجه مزين ليلة العيد هُ برا
والبكا بالمقابر على الأحباب ذِمَرا
احتفال الفجايع فاحتفال المسر
ودموع الترحم في ثياب الشطار

حدث في القرن السادس الهجري يعيد نفسه في الخامس عشر الهجري في بعض المقابر في بعض المدن الكبرى، يقول ابن عبدون[84]: «وأقبح ما في مقبرتها وبها يعاب أهل بلدنا، السكنى على ظهور الموتى لقوم يشربون الخمر، وربما يفسقون، وقد أحدثوا فيها خلوات وسروباً تجري على الموتى» وقد أكد على القاضي بأن يهدم دورها، وينزع الباعة من أبنيتها، فإنما هي موضع جلوس الناس على أفنية القبور». ويجب أن لا يترك فيها أحداً من الباعة، فإنهم يكشفون على الناس المحزونات، ولا يترك الشبان أيام العيد يجلسون فيها على الطرق لاعتراض النساء، وعلى المحتسب أن يقوم بهذه الأمور ويعضده ويسانده القاضي.

ولأهل الأندلس ولع شديد بالشراب الذي كان شائعاً بين الخاصة والعامة، ومجالس الشراب ووصف الخمر من الموضوعات التي شغلت كثيراً من شعرائهم وزجاليهم، وقد أخفق المسؤولون في منعها، وكانت جهودهم دائماً تذهب سدى، واشتد المرابطون في متابعة المحلات التي تبيع الخمر أو من يشتريها، وأمروا قضاتهم وفقهائهم بمعاقبة شاربي الخمر، واشتدوا في تنفيذ العقوبة، واشتهر القاضي أبو بكر ابن العربي في عقاب شاربي الخمر وأرباب اللهو، وكانت له فيهم عقوبات قاسية ومهلكة[85].

واستمرت حملة أمراء المرابطين على الخمر وشاربيها فكانت رسائل أمراء المسلمين تأمر القضاة بالتشديد وكسر دنان الخمر، ومتابعة شاربيها حتى آخر أمرائهم الأمير تاشفين بـن علي، ففي رسالة موجهة منه في العشر الأول من جمادى الأولى سنة 538 هـ/ ديسمبر 1143 م، يؤكد على هذه المبادىء «وأوعزوا في جميع جهاتكم بإراقة دنانها»[86].

وبرغم كل الإجراءات التي اتخذت بشأن الخمر فقد فشلت الجهود في منعها، وتبدو صعوبة القضاء عليها، لاختلاط المسلمين بالمستعربين، وزواج المسلمين بالنصرانيات، فأصبحت متفشية بينهم، والإغضاء عن أهله غالباً عليهم، وكثيراً ما نقرأ

(84) ابن عبدون: م. س. ص 26، 27.

(85) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 4 ص 93.

(86) د. حسين مؤنس: نصوص سياسية، وثيقة 1، ص 113.

في أخبار قضاتهم إعراضهم وتغافلهم عن السكارى، حتى لقد كان بعض الناس لا يتصور الحياة بدونها[87].

وكان يباع الترفاس (ثمرة تشبه الكمأة) والترمس وغيره مما يؤكل مع الشراب بالقرب من المساجد، فندد ابن عبدون[88] بهذا العمل، وأمر بألا تُباع مثل هذه الأنواع حول المسجد، فإنه فاكهة الخلاع، وللبعض فلسفته في شرابها، وقوله بأنها حلال وغير حرام[89].

واشتهر عن الأمير محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرق الأندلس أنه كان ينادم كبار الأبطال، ومشاهير الفرسان، ومساعير الحرب، فيعاقرهم الخمر، ويعاطيهم الكأس[90].

وكان ابن همشك يخرج إلى محال النزهة، وفي صحبته محاولـو اللهو وقارعو أوتار الغناء، ومعهم الشراب[91].

وكان للأندلسيين ولع كبير بالخروج إلى الجنان وإلى ضفاف الأنهار، والوديان للنزهة وقضاء الوقت، سواء في الأعياد أو الأيام الأخرى، خاصة وقت الصيف، والأندلس تشتهر بطبيعتها الخلابة، فهي تجمع بين المروج الخضر المنبسطة، والجبال تزينها الغابات وأرضها تكثر فيها الأنهار والوديان، وعرفت عدة مدن بفحوصها وأنهارها التي يخرج الناس إليها للنزهة والسباحة.

---

(87) يقول ابن قزمان في زجل رقم 90.

إنما أن نتوب أنا فمحال
وبقائي بلا شريبة، ضلال
بَيْنُ بَيْنُ، ودعني مما يقال

كلمة بين بين اسم النبيذ بالأعجمية الأندلسية. انظر ديوان ابن قزمان ص 599.

(88) ابن عبدون: م. س. ص 43.

(89) في زجل رقم 119 يذكر أن الطبيب ابن قمنال أشار بشرابها وابن قمنال طبيب يهودي مشهور في بلاط المرابطين، د. عبد العزيز الأهواني، مجلة المعهد المصري بمدريد عدد 18 ص 77.

حرام هُ مَنْ قَلْها؟ لا تكذب لَسْ حرام
اليوم عاد قال ابن قمنال أنْ حلال

(90) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 254، 255.

(91) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 1 ص 229.

فهناك فحص غرناطة La Vega de Granada وهو البسيط الأخضر الممتد الذي تشرف عليه غرناطة من الجنوب الشرقي، والذي يشبه غوطة دمشق، حديث الركاب وسمار الليالي يقول ابن الخطيب: «ولأهلها بهذه الجنات كلف، ولذوي البطالة فوق نهره أريك من دمث الرمل، وحجال من ملتف الدوح»[92].

ولإشبيلية من المتفرجات والمتنزهات الكثير، وقد اتخذ أهلها من ضاحيتها طريانة وتطيلة متنزهاً لهم، يخرجون إليه كلما سنحت لهم الظروف، ويقضون أوقاتهم في التنزه على شاطىء نهر إشبيلية تحت ظلال الثمار التي تمتد لأكثر من أربعة عشر ميلاً، وتغريد الأطيار أو يصيدون من أسماكه التي لا تعد ولا تحصىء أو يسبحون، أو يكترون القوارب للنزهة فيه، ويتخلل ذلك كله حلقات الرقص والغناء والشراب وسماع الموسيقى العذبة من مختلف أدوات الطرب، ومن وقت لآخر تسمع الضحكات العالية لنادرة قيلت، أو لنكتة لطيفة طريفة والجميع لاهٍ ضاحك، وإلا اعتبر ثقيل الظل[93].

ويصف الشقندي[94] وادي إشبيلية، وما يحدث فيه بقوله: «وقد سعد هذا الوادي بكونه لا يخلو من مسرة، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر، لا ناهٍ عن ذلك ولا منتقد، ما لم يؤدِ السكر إلى شر وعربدة، وقد رام من وليها من الولاة المظهرين للدين قطع ذلك فلم يستطيعوا إزالته، وأهله أخف الناس أرواحاً، وأطيعهم نوادر وأحملهم لمزاح بأقبح ما يكون من السب، قد مرنوا على ذلك، فصار لهم ديناً، حتى صار من لا يبتذل فيه، ولا يتلاعن ممقوتاً ثقيلاً».

وكانت مدينة شريش تشبه إشبيلية من ناحية متنزهاتها، وملاهيها التي انتشرت في كل مكان، يخرج إليها الأسر أو الأصحاب، فلا ترى بها إلا عاشقاً ومعشوقاً»[95].

واشتهرت مدينة بسطة بمروجها وأنهارها المتعددة التي يسبحون فيها، أو يخرج

---

(92) ابن الخطيب: ن. م ص 117.

(93) المقري: م. س. جـ 1 ص 182.

(94) المقري: م. س جـ 3 ص 212. من رسالة الشقندي في ذكر فضائل أهل الأندلس.

(95) ن. م ص 184.

أهلها إلى مروجها يستمتعون بالخضرة وجمال الطبيعة، وعليهم الملابس الجميلة الزاهية[96].

ووصفت مرسية حاضرة شرق الأندلس بالجمال وطيب الهواء، فواديها قسيم وادي إشبيلية، فكلاهما من منبع واحد، بها البساتين المتهدية، والأغصان اليانعة والنواعير المطربة الألحان[97].

ولكثرة البساتين بمدينة بلنسية عرفت «بمطيب الأندلس» ورصافتها من أحسن متفرجات الدنيا، وفيها البحيرة المشهورة الكثيرة الضوء والرونق[98] يسبح الجميع بها ويبدو أن الأندلسيات كن يسبحن ويستحممن في الأودية والأنهار كما ذكر ابن قزمان[99] في أحد أزجاله.

لم يقتصر خروج الأندلسين إلى أماكن البساتين والمتنزهات أو ضفاف الأنهار والأودية وإنما كانوا يذهبون إلى عيون المياه المعدنية، وما أكثرها بالأندلس ويسمونها الحمة، واشتهر حصن الحمة القريب من مدينة ألمرية، وكان في رأس الجبل. ويذكر المتجولون في أقطار الأرض أنه لا يوجد مثيل لهذه الحمة، ولا أتقن منها بناء، ولا أسخن منها ماء، فكان المرضى أو الذين يريدون الاستشفاء والنقاهة من أمراضهم، ويقصدون إليها من جميع الجهات، ويقيمون إلى أن يشفوا من عللهم وأمراضهم، ويستعيدوا صحتهم[100].

أما أهل ألمرية فيخرجون إليها زمن الربيع مع نسائهم وأولادهم، يحتفلون بهذه المناسبة في المطاعم والمشارب، ويتوسعوا في الإنفاق على أنفسهم، وربما أقاموا بها عدة أيام أو أسابيع فيكترون المساكن يقيمون فيها فترة قضائهم هذا الوقت وربما

---

(96) ابن الخطيب: معيار الاختيار ص 109.

(97) المقري: م. س. ص 220.

(98) ن. م. ص 221.

(99) يقول ابن قزمان في زجل رقم 28:

مر ترى الوادي مجلل	بالصبايا والوصايف
عملوا ثياب من الما	ومن الشعور ملاحف
تم برقعوها الأقمار	فرأيت أجمل وأجمل

(100) الإدريسي: م. س ص 566.

بلغ كراء المسكن، بها في الشهر ثلاث دنانير مرابطية وأكثر وأقل[101].

وكان لكلف الأندلسيين بالخروج والتنزه خارج ديورهم أن اهتموا بإنشاء المطاعم والمشارب والحوانيت على طول الطريق الواصل بين المدن بعضها البعض، تبيع لهم الخبز، والسمك والجبن واللحم وغيرها من ضروب الأطعمة، ومن جميع الفواكه كل منها في إبانه[102].

ويصحب الأندلسيون في كل خرجاتهم للنزهة آلات الموسيقى والطرب والشراب، والبعض كان يتسلى بلعب الشطرنج والنرد وغيره، مما جعل ابن عبدون[103] يأمر بوجوب منعها إذا كانت على سبيل القمار «لأنها حرام وتشغل عن الفرائض، ونهى عن لعب الصبيان لعبة اللطمة والمقرع» لأن ذلك ينذر بالنفاق والهرج.

وكانت هذه النزهات لا تخلو من عبث الشباب خاصة العزاب منهم، خصوصاً عندما يثقلوا من الشراب، وفي هذه الحالة كان يتدخل الأعوان (الشرطة) والجند للبحث عنهم وإلقاء القبض على المشاغب[104].

واشتهرت في الأندلس بعض المدن بملاهيها، وأماكن الفسق فيها مثل إشبيلية وبرشانة التي قيل فيها: «للمجون بها سوق، وللفسوق ألف سوق»[105].

كما عرفت مدينة أبدة بعدد من أصناف الملاهي والمراقص التي ترقص فيها راقصات مشهورات ومعروفات بحسن الانطباع والصنعة يصفهم ابن سعيد[106] بقوله: «فإنهن أحذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدَّك وإخراج القروي والمرابط والمتوجه».

ويبدو أن البغاء كان مسموحاً به في الأندلس، وقد سميت البغايا بالخراجيات،

---

(101) ن. م.

(102) ن. م.

(103) ابن عبدون: م. س. ص 53، 54.

(104) المقري: م. س جـ 3 ص 212، ابن عبدون: م. س. ص 54.

(105) ابن الخطيب: معيار الاختيار ص 106.

(106) المقري: م. س. جـ 3، ص 217.

وكانت لهن أماكن خاصة بهن في بعض الفنادق التي سميت بدور الخراج(107) واشتهرت بعض الدروب التي تقع فيها مثل هذه الفنادق(108). وكانت البغايا أو الخراجيات يقفن خارج الفندق بكامل زينتهن المبالغ فيها، متبرجات كاشفات عن شعورهن لإغراء الرجال، بل وتحريض النساء أيضاً، مما جعل ابن عبدون(109) يأمر بأن تمنع نساء دور الخراج عن كشف رؤوسهن خارج الفندق، والتحلي للنساء بزينتهن، وينهين عن السير بينهن ولو سمح لهن بذلك.

بل كان من الممكن الإرسال في طلب الخراجيات إلى المنازل(110)، ولا بدّ للخراجية أن تجيد الرقص والغناء، وسائر فنون التسلية(111)، وكانت دور الخراج يسمع فيها أصوات الغناء والموسيقى التي كانت تتسرب إلى خارجه(112).

وكان بعض الرجال يعترض النساء الغاديات في الشوارع بالمعاكسة، وقد شددت كتب الحسبة في وجوب الضرب على أيدي هؤلاء الرجال، وفي بعض الأمثال العامية سخرية شديدة من أولئك الذين يتتبعون النساء(113). وفي زجل طويل لابن قزمان(114) يحكي كيف تتبع إحدى النساء الجميلات فأخذ يناجيها بكلمات عذبة حتى

---

(107) ابن عبدون: م. س. ص 50، د. عبد العزيز الأهواني، ألفاظ مغربية ص 155.

(108) ابن قزمان: زجل رقم 147 الذي يذكر فيه شهرة درب ابن زيدون.

ابن سعيد: م. س. جـ 1، رقم 115 ص 177.

(109) ابن عبدون: م. س. ص 51.

(110) السقطي: م. س. ص 49، ابن قزمان: زجل 90.

(111) الزجالي: م. س مثل «لا أنت مليحة ولا تفني بس تسلي»، 1796، ويقولون «فندق ابن راغو نصارى ويهود ومسلمين أبن لطاف، رقم 1770.

(112) في زجل 147 يقول ابن قزمان:

والنقر فالعيدان ... يفعل ويصنع
وصولة المزمار ... من بَرٍّ تسمع

(113) الزجالي: م. س مثل «من الخبز لِسْ نَشْبع، العجب نتبع، وزلال القلاع، لا دار ولا قطاع». رقم 1375، 1030.

(114) يقول ابن قزمان في زجل رقم 78:

كنت واقف بباب بعد العصر ... إذ رأيت شخص قد خطر ونظر
إش كان هذاك؟ شمس كان أو قمر؟ ... أو خمار كان أو حق أو شغل بال؟
وَجْنَةُ شَطْ بْيَضْ مثل القُطُون ... عَيْن أكحل وحاجبا مقرون

يلفت انتباهها ولكنها استطاعت في الأخير أن تجعله أضحوكة للناس.

ويبدو أن عادة الوقوف أمام باب الدور كانت شائعة في الأندلس حتى أن بعض النساء كن يجلسن للمسامرة أو لمتابعة الرائح والغادي، لذلك يشدد ابن

= بُونْ، كل الملاحة، بون بون بون   ما أظن أن يرى لها من مثال
وفي خدية وردة كالحيا   العباد دون أن تراه من مثال
وسوالف ترى شعاع الضِيا   مِسْتُهُ طالع بين الردى والخلال
وضريسات كأنها الكافور   وشفيفات كأنها الزعرور
أما جِنّي كانت أمْ حور   وحلاوة وكُلٌ سحر حلال
قَلّي قلبي: تمضي ترى أين تدخل   وتعالج، فأما إنْ تحصل
وتعربد فَتِقْتِل أو تُقْتَل   قصتين هي إما هلاك أو وصال
قلت ستى نكن غلامك قط   هذا عنقي، خُذِ الحبل واربطِ
مولتي، كم تَزْنْ وكم تَخْبط؟   روح تزهق في أمر هذا الدلال
قالت أحسنت، أكثر نحبك أنا   لِسْ عن كل ما ذكرت غنا
قلت جِدْ هو، فعجل امش بنا   قالت: «اصبر يبقى لك إنْ تَحْتَال
زُوج خَارجْ بعد العِشَا للمَزْد   جِي، ولكن إياك يميزك أحد
والبس أطار وِجِبْة واشْمَا تجد   وكلامك غير مع الأشْكَال
آش نقولك؟ بقيت كذا مبهوت   وأخذ به فزع بحال نموت
وقفز قلبي قفز مثل الحوت   وضرب بالجناح بحال برطال
قلت يا ليت شعري آش نعمل؟   قمت، عممت راسي بالحنبل
وفَتَلَتْ بِيَدْ وانعدَل   شَيْ على شَيْ شَكْلة بنى زروال
جات لعمري مَلَيّح شيئاً عظيم   لولا ما تم كل في التعميم
أغاث الله وفضل عن تلثيم   الشبيكة بس يصطد السِرْدَال؟
منديل الخبز صار على قصير   زدت فيه مقطعاً جَديد من حصير
وبقي لي عن العواتق كتير   وحرزت الرسم وجا فالشمال
ثم وليت خارج الباب الزقاق   بِذِك الطلعة والثياب الرقاق
لو تراني حافي بلا أقراق   والرُّكِيزْ فاليد عوض أقزال
كالطبيب متى السجاج ملبوس   والسليخة لعُنْقُ عن بُرْنُس
سبحان الله، ما زنمكم الأندلُوس   تضربوا البوق وتطنزوا فالرجال
في سويقة حصل لي عند الناس   من شمات ومن عقوب أكداس
قوم يقولوا «أخرج ترى بزفَاس   وآخر يضربوا لي بالقرمال
قلت جيدة الساع صرن ملاح   لا عشيقة ولا عقولا صحاح
لعن الله من يختبل ذا المزاح   اهْنَ نَبْقَ لذل هول السُّوفًال

عبد الرؤوف[115] على منع النساء من الجلوس على أبواب دورهن، لما فيه من الكشفة وعدم الاستتار.

وكان الباعة الجائلون يجلسون على رأس الحارات أمامهم النصبات عليها الفواكه والحلوى. وأصناف المأكولات أو الخضر، ويوجد بعض من الباعة بالقرب من مسجد الحي يتخذون لأنفسهم مواضع معروفة في رحابة، يبيعون فيها الأرانب التي يسمونها القنليات والطيور والجبن والتين ويبدو أنهم من القرى المجاورة للمدينة وكثيراً ما يحدث بينهم الخلاف لتسابقهم إلى المصلين الداخلين أو الخارجين، أو يعلو صياحهم بسبب شجارهم على الأماكن، فشعار هؤلاء الباعة كل من سبق جلس، لذلك كانت كتب الحسبة تشدد على وجوب الرقابة على رحبة الجامع، ومطاردتهم، حتى يمتنعوا عن الجُلوس أو البيع بجواره، ويطلب منهم عدم البيع إلا في الأسواق المخصصة لهم[116].

أما الأزقة والحارات فكان يسمع فيها من وقت لآخر نداء الباعة الجائلون على بضاعتهم كل على طريقته، ويطوف بها القرادون (القرداتية) يعرضون ألعابهم التي علموها للقرود، وكذلك يطوف بائعو الأعشاب المشعوذون، والحجامون، وبائعو الغزل وغيرهم من الباعة وأصحاب المهن يدقون على الأبواب مما يزعج بعض الناس، لذلك يشدد الجرسيفي[117] على منع القرادين من دخول الدور لما في ذلك من ترويع الحوامل والأولاد الصغار، وكذلك يمنع الطوافون على الدور الملبسين على الناس، والمتحيلين عليهم ممن يتخذ بالأباطيل ويتعلل بالأطاليل كالحساب والكهنة، والعشابين، والمهانين والمتحدثين، وأهل الفجور، وكل بالغ من الحجامين والغزالين، وكل جاهل بخُطة يدعيها وينتسب إليها وأيضاً الجهلة من القوابل.

وابتلي أهل الأندلس بحب الغلمان، وأنه لمن العسير توضيح الأسباب النفسية والاجتماعية لهذه الظاهرة الغريبة، فإذا كان من الممكن الاعتقاد أن الحرمان الجنسي سبباً رئيسياً من أسباب هذا الاتجاه في الطبقات الفقيرة، فإن مثل هذا السبب يفقد

---

(115) ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 113.

(116) ابن عبدون: م. س. ص 43. ابن عبد الرؤوف: م. س. ص 73.

(117) الجرسيفي: م. س. ص123.

أهميته تماماً في أوساط الخاصة التي ابتذلت فيها المرأة، والتي كان انتشار حب الغلمان فيها لا يقل عن انتشاره في غيرها من الطبقات، إن لم يزد عنها، وربما كان السبب الرئيسي فضلاً عن عادة اقتناء الغلمان، هو البحث دائماً عن وسائل جديدة للمتعة، فكان الغلمان إحدى هذه الوسائل.

ومما يلفت النظر في هذا الموضوع أن التعلق بالغلمان والتغزل بهم لم يكن منتشراً فحسب بل إنه لا يبدو أمراً معيباً أو غير مرغوب فيه، لا سيما في أوساط الخاصة، لذا فهو يرد لدى كثير من شعراء هذا العصر، وكتابه[118]، حتى بعض القضاة الذين عرف عنهم الشدة والوقار مثل القاضي أبي بكر بن العربي[119]، واستغرق ديوان ابن قزمان[120] عدداً كبيراً من الأزجال في التغزل في عدد من

---

(118) د. صلاح خالص: م. س. ص 102 ـ وانظر المقري: نفح الطيب.
ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.

(119) يذكر المقري أن أبا بكر ركب مع أحد أمراء المرابطين، وكان أميراً شاباً، فهز عليه رميحاً كان في يده مداعباً له فقال:

يهز على الرمح ظبي مهفهف	لعوب بألباب البرية عابث
فلو أنه رمح إذاً لا تقيته	ولكنه رمح وثاني وثالث

المقري: نفح الطيب، جـ 2، ص 56.

(120) يقول ابن قزمان في مقدمة ديوانه أنه كتب من أجل الوزير الشاب الأمين أبو إسحق إبراهيم بن أحمد الوشكي فيقول «ولما أجمع الدهر بينه وبيني وأقر بذلك المنظر الشريف عيني، لم يزل يأخذ نفسه بزيارتي وافتقادي، ويشتمل شرف ملذهبي فيه واعتقادي، فجريت عليه مدة اختلافه، علي وتكراره بالزيارة إلي، من المذاهب الطريفة والمقاطع الحلوة، ما تضيق عنه البطاقة، وتضعف عن جمعه القوة والطاقة. ويرد أغنياء البلاغة إلى حال الفاقة، حتى نبت ذلك المزروع، ورشحت له أصول وتبعت له فروع، وحصل عندي من المودة والمحبة، ما يقع منه شهلان في مقدار حبه، ومن الوجد الكثير ما يصغر عنه التعبير، فلم أجد ما أتحبب به إليه، ولا براً أخلعه عليه؛ إلا أن جمعت له أزجالي قديماً وحديثاً، وطلبت به رضاه طلباً حثيثاً». ويفتح ديوانه بالغزل فيه فيقول:

نريد ولخوف النَشْبَه نبكي	واش نقدر؟ نموت وراك يا وشكي
عشقت وصحت الرواية	فقل لي «لقد في أمرك آية
من ذاب نبتديك نعمل نكاية	نرضى برضاك فذل وانكي
قد إشْوَرْت أنا لمن نثق بيه	وقلت لهم «فلان نموت فيه»

* * *

أشَيْقِرْ حلو مليح رقيق شاط	أصابع شريف ملوكي خطاط
تراه بحال من مد بجماط	يتعجب إذا رآها كعكي

وكلمة شاط: بمعنى طويل، وكلمة بجماط بقسماط نوع من البسكويت.

الغلمان، بل إن ديوانه نفسه كتبه من أجل أحد هؤلاء الشباب وذاعت شهرة الأندلسيين بهذا الأمر وتعدى الجزيرة إلى المشرق[121].

هكذا كان المجتمع الأندلسي، مجتمعاً لاهياً عما يحيط به من أخطار، لا هم له إلا كأس يشربها أو قينة يسمعها[122] تاركاً الأمر كله للمرابطين يدافعون عنهم، ويتولون مسؤولية الجهاد وإعداد الجيوش، ثم يعدهم للموحدين. وفي هذا الجو الموبوء، والحياة القلقة المضطربة تحولت العلاقة بين الناس إلى صورة قاتمة يلفها الشك، وأصبحت تقوم على سوء الظن والحيطة والحذر وأمثالهم العامية[123] في هذه المرحلة تعكس هذا الوضع.

وكانت الثورة على المرابطين أعظم فساد حل بالأندلس، وألح النصارى بالضرب على جهاته حين علموا عجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع لما هم فيه من الفتن حتى تغلبوا على كثير من بلادها. واللمتونيين أثناء هذه الحالة قد انقطعت عنهم مواد الغرب مما دهمه من فتنة المهدي، وأجحفوا بالناس بسبب اجتياح جندهم بالأندلس، وتحاملت عليهم الناس، وتوفرت دواعي الشتات بفترة الخوف[124].

وحل الموحدون محل المرابطون فزاد أمر الناس سوءاً وزاد شكهم وريبتهم خصوصاً بعد أن فرض الموحدون ما يشبه الأحكام العرفية في بداية حكمهم، لذلك

---

(121) عندما زار ابن حيان النحوي مصر وقابل الفقيه العلامة ابن دقيق العيد قال له: «أنتم يا أهل الأندلس فيكم خصلتان، محبتكم الشباب وشربكم الخمر».

انظر، الزجالي: م. س. جـ 1، ص 257.

(122) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 242. من قصيدة لأبي الحسن بن الجد.

ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر ... هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من كفه قدح ... يحدو به ملهياه الناس والوتر
صمت مسامعه من غير نغمته ... مما تمر به الأبات والسور
من حوله كل مغتر وما علموا ... أن الذي زخرفت دنياهم غرر

(123) يقولون: «إذا ريت الجالس يسلم على الواقف إدر إن ريبه تم»، «لا تقل طابت ولا احترقت، العاقل من يرى ويستحسن».

الزجالي: م. س رقم 33، 2025، 253.

(124) ابن الخطيب: م. س ص 249.

ابن جذري: خريدة القصر، القسم الرابع، جـ 2 ص 614.

أصبح كل إنسان مشغولاً بنفسه لا يسأل حتى عن جاره بل يتعوذ منه[125]. وصار الناس يأوون إلى منازلهم مبكرين قبل حلول الظلام، وإلا تعرضوا للقبض عليهم، ومن اضطر للتأخر عن داره ليلاً، كان يضطر إلى المبيت في غير منزله تجنباً للوقوع في يد العسس[126].

(125) يقولون «شوية إن لِس لك، ، دعها تحترق» أي إذا كان الشواء ليس لك فدعه يحترق. الزجالي: م. س رقم 1900.

(126) د. محمد عبد الوهاب خلاف: م. س ص 295.

الباب الرابع

الحياة الثقافية

الفصل الأول : التيارات الفكرية.
الفصل الثاني : معاهد العلم ومراكز الثقافة.
الفصل الثالث : العلوم النقلية.
الفصل الرابع : العلوم العقلية.
الفصل الخامس : الآداب.

الفصل الأوّل

التيّارات الفكريّة

حقيقة موقف المرابطين من الثقافة ـ رأي بعض المستشرقين ـ الرد على المستشرقين ـ شخصية يوسف بن تاشفين ـ أساس دعوة المرابطين ـ حرية الرأي ـ اتجاهات الحركة الفكرية في عهد المرابطين ـ في عهد الموحدين ـ الاهتمام باللغة البربرية ـ التيار الصوفي ـ مؤلفات المريدين ـ علماء فلسفة ـ الفلسفة علم الخاصة ـ تيار علم الكلام ـ التأليف في علم الكلام ـ في عهد الموحدين ـ تطور مذهب مالك ـ اختلاف نوعية التيارات الفكرية بالمناطق.

عند الكتابة عن الحياة الفكرية في الأندلس في نهاية عصر المرابطين وبداية الموحدين لا نستطيع الفصل بين استمرارية هذه الحركة الثقافية الممتدة بين جيلين، فهي أشبه بسلسلة منتظمة الحلقات، بدأت بدخول الإسلام إلى الأندلس، وانتهت بخروج المسلمين منه، وكل حلقة تمثل مرحلة زمنية معينة، إلا أنها تؤدي إلى الحلقة التي تليها دون فصل بين هذه الحلقات، وإن كانت كل مرحلة تتميز بازدهار اتجاهات معرفية بعينها.

فالحركة الفكرية في عهد المرابطين امتداد واستمرار للحركة الفكرية في عهد دول الطوائف وكذلك الحال بالنسبة للحركة الفكرية في عهد الموحدين هي استمرار لعهد المرابطين، إذ إن الازدهار الفكري في عهد الموحدين ما هو إلا ثمرة جهود المرابطين في تشجيع العلم والعلماء فالعالم والمفكر لا يمكن أن يولد بين يوم وليلة، ومعظم المفكرين والعلماء الذين ظهروا في بداية عهد الموحدين ولد معظمهم وعاش وتلقى العلم مع بداية دخول المرابطين للأندلس.

وقد كانت مبالغات دوزي التي ثبت خطأ معظمها في حق المرابطين السبب الذي دفع أستاذ المستعربين الإسبان فرانثيسكو كوديرا إلى أن يرد عليه ويستخرج بدقته المعهودة العدد الضخم من العلماء وأهل الآداب الذين تألق نورهم في هذه الفترة ويثبت بهذا خطأ وصف هذه الفترة بأنها فترة متبربرة[1].

يقول المؤرخ والعالم الكبير ليفي بروفنسال[2]: «لقد حمل المؤرخون على

(1)آنخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس ص 19.

(2) ليفي بروفنسال: الشعر العربي الكلاسيكي في الأندلس، «محاضرات من تاريخ إسبانيا المسلمة» ص 16.

المرابطين منذ نحو قرن تقريباً، وإنما اتبعوا في ذلك دوزي الذي درس تاريخهم دراسة ناقصة لنقص المراجع، فتمثلوهم برابـرة صحراويين متـوحشين أجلافـاً متعصبين، طغت جموعهم على إسبانيا لتستبد بها ولتخمد فيها كل شيء حتى عبقريتها الخاصة، وكان ذلك التصوير خطأً فاحشاً، وظلماً بيناً، والحق أن المرابطين حين تدخلوا في أمور إسبانيا الإسلامية كانوا محقين حين استرابوا بأمراء عاجزين أو قانعين بالتبعية لملوك المسيحيين، قد أعطوهم أرضهم قسمة، وتمادوا في تمزيق بعضهم بعضاً، فإن كان المرابطون قضوا على المعتمد بالنفي الكريه، وأخذ البعض عليهم ذلك بحق، فإن المعتمد نفسه مع سمو شاعريته، كان بعيد الشبه من أهل الصلاح، ثم إن المرابطين كانوا قبل عبورهم إلى إسبانيا يجتذبون أهل الأدب والشعر من الأندلس إلى بلاطهم الناشىء في جنوبي مراكش، ويطلبون التهذيب على أيديهم، مع أنهم كانوا قريبي عهد بحياة بدوية رحالة شبيهة بحياة العصور الإسلامية الأولى، ومن الحق أنهم حين عبروا إلى إسبانيا ورفعوا قرطبة من جديد قصبة للأندلس وعاشوا فيها، قد عاشوا على هامش الجماعة الأرستقراطية المحلية دون أن يمسوها أو ينكروا عليها امتيازاتها، وبذلوا العطايا ليشجعوا إشراق مواهب جديدة ولم يستعملوا في دواوينهم إلا أهل الأندلس، فعلت في زمنهم منزلة السجع في الرسائل الرسمية علواً لم يتهيأ مثله على الأرجح لأي عصر آخر، على أن المرابطين لم يتولوا السلطان إلا مدة شديدة القصر، إلى منتصف القرن الثاني عشر تقريباً، فلم يتهيأ لهم التأثير في تطور الأدب الأندلسي.

واستشهد الأستاذ أنخل جنثالث[3] برأي أستاذه خليان ريبيرا في مقالته عن الزجال المشهور ابن قزمان الذي قال: «استقرت في عقول الناس (عن العصر المرابطي) صورة خيالية غير واقعية لشعب متعصب عدو للفلسفة منصرف إلى اضطهاد الناس وذلك نتيجة لما تعود الناس أن يقرأوه عن أوصاف لتاريخ هذا العصر، وأحوال الدين فيه، كتبها فقهاء، ولكن هذا الشعر يحمل إلينا نسيماً جديداً فهو غريب في روحه، يحمل إلينا نفحات من أجواء المجتمع العليا والدنيا، ونحن نظفر فيه بأوضح الإشارات عن هذا المجتمع الذي كان مدركاً لنفسه فخوراً بثقافته الأدبية المهذبة،

---

(3) آنخل جنثالث: م. س ص 20، 21.

رغم تفرق أمره وضياع وحدته - وإن تأمل أحوال الأندلس إذ ذاك ليوحي إلينا بكثير من الخواطر إذ إن من الصعب أن نجد فترة من التاريخ الإسباني تألق فيها مثل هذا العدد من عباقرة عظماء من هذا الطراز مفكرين وشعراء وأهل أدب ورجال علم، ويصعب جداً كذلك أن نجد فترة تضارع هذه في التفكك السياسي، وفي الأهمية الاجتماعية، فهذا الشعب الذي بلغ هذا المبلغ من الثقافة، قد ترك قياده السياسي والدفاع عن أرضه إلى جموع من الأفارقة هم المرابطون».

لقد أساء البعض من المستشرقين إلى المرابطين واتبعهم للأسف عدد من مفكرينا العرب خصوصاً الذين حصلوا على رسائلهم من جامعات أجنبية[4]، وكان اعتمادهم على رسالة الشقندي[5] الذي ادعى أنه لولا توسط ابن عباد عند الشعراء ما مدحوا يوسف بن تاشفين، وأنه لم يفهم أشعارهم ولا الأشعار التي أرسلها له المعتمد ابن عباد[6] وتجاهلوا أن رسالة الشقندي قالها ليفخر بالأندلس وأهله على المغرب، ويعرض بالمرابطين تودداً للموحدين وتزلفاً للسادة الجدد، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة مناقشة هذه الأبيات التي قالها ابن زيدون لمحبوبته ولادة بنت المستكفي، والتي لا تليق أن ترسل إلى شخصية جادة مثل يوسف بن تاشفين، وإن كنت أعتقد أن هذه الواقعة لا أساس لها من الصحة، وأنها مجرد نكتة ودعابة أطلقها الأندلسيون تعريضاً بابن تاشفين، لأنه لم يعر الشعراء المداحين التفاتاً، ولأنه لا يجيد العربية، فقد «عرفوا بحبهم للدعابة والنوادر والتنكيتات والتركيبات، وأنواع المضحكات ما تملأ الدواوين كثرته، وتضحك الثكلى، وتسلي المسلوب قصته، بما لو سمعه الجاحظ لم يعظم عنده ما حكى وما ركب، ولا استغرب أحد ما أورده ولا تعجب»[6] فما بالك

---

(4) مثل د. حكمت علي الأوسي وكانت أطروحته عن الأدب الأندلسي في عهد الموحدين من مدريد.

(5) انظر، رسالة الشقندي في الفخر بالأندلس وأهله في المقري: نفح الطيب جـ3، ص 191.

(6) من الخطأ التصور أو الاعتقاد بأن يوسف بن تاشفين لم يكن يفهم العربية، فهو عندما قرأ عليه الكاتب القدير أبو بكر بن القصيرة جوابه لألفونسو قال له هذا جواب طويل وأمر أن يكتب على ظهر خطاب الفونسو عبارة جوابك يا أنفنس، ما تراه لا ما تسمعه إن شاء الله وأردف الكاتب بيت أبي الطيب المتنبي.

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسل إلا الجيش العرمرم

الحلل ص 43.

المقري: م. س. جـ 3 ص 156.

بأهل إشبيلية بلد المعتمد بن عباد[7] والذين بلغوا درجة كبيرة في الدعابة والملح والظرف.

كان على هؤلاء أن يعرفوا أن شخصية يوسف بن تاشفين رجل الصحراء الذي عاش على الفطرة بعيداً عن نفاق ورياء شعراء المدح، والذي تربى في رباط ابن يس على تعاليمه، لن يقبل هذا النوع من الشعر، شعر المدح الذي يرى فيه صورة لفساد الحكم في الأندلس، لذلك تجاهل هذا الجيش من مرتزقة الشعر، إذ رأى فيهم مجرد أناس يطلبون الخبز، بينما كان يريد هؤلاء المداحون أن يروا في ابن تاشفين معتمداً آخر، وإلا سلقوه بلسانهم الحاد، وقلبوا الحقيقة ضلالاً. فصاحب الحلل الموشية يقول عنه: «كان يفضل الفقهاء، ويعظم العلماء ويصرف الأمور إليهم، ويأخذ فيها برأيهم ويقضي على نفسه بفتياهم»[8].

كان أساس دعوة المرابطين العلم وعليه قامت دولتهم، وكانت نزعة عبد الله بن يس إلى علم الفقه والدين أقوى منها إلى أي علم آخر، فغلب هذا الميل على الدولة، ومن ثم كان تقديمها للفقهاء، واختصاصها لهم دون غيرهم من أرباب المعارف المتنوعة، برغم ما صار إليها من جيوش العلماء والفلاسفة من جراء ضم الأندلس للمغرب، ولم يكن هؤلاء يطمعون في القرب من الدولة قرب حظوة على ما يقول المؤرخون إلا أن يتلبس أحدهم بلباس الفقهاء وعلماء الدين، كما فعل مالك بن وهيب وزير علي بن يوسف، ولكن هذا لا يعني أن اضطهاداً فكرياً كان ينال غير هذا الصنف من العلماء أو أن حقوقهم كانت مضيعة، فإن غاية الأمر أن وظائف الدولة كانت من نصيب رجال الشريعة، وفيما عدا ذلك فإن كل العلماء كانوا قائمين

---

(7) كان من أهم أسباب نقمة دوزي على المرابطين نفيهم للمعتمد بن عباد إلى أغمات وهو في واقع الأمر لم يكن نفياً، فأغمات بلد جميل وكانت عاصمة للمرابطين قبل مراكش تتمتع بطبيعة خلابة، وفي نفس الوقت لم يكن يعامل كسجين، فكان يزوره من يريد من الأصحاب والشعراء الذين يقضون معه الأوقات الطوال، وأرسل مرة إلى يوسف بن تاشفين يطلب منه طبيبه الخاص لمعالجة بعض حريمه فلبى طلبه، ونسي دوزي ما فعله المعتمد بن عباد بخصومه ومن قبل والده المعتضد، إن أقل ما يقال في المعتمد أنه أعطى ملكاً لم يحسن سياسته، فأنكر شعبه تصرفاته، وعرّض بلاده بعبثه واستهتاره لطمع قشتالة، ثم حمل السلاح على حماة البلاد الذين أنقذوها من السقوط في يد العدو. عبد الله كنون: النبوغ المغربي، ص 63، 64، ابن بسام: الذخيرة، قسم 2، مجلد 1، ص 227.

(8) الحلل الموشية: ص 82.

بنشاطهم الفكري لا يعترض سبيلهم معترض.

ثم إن اصطناع الدولة لنوع خاص من العلوم كثيراً ما كان ظاهرة ملحوظة في كثير من الدول، فلم يعب عليها بل اعتبر من أسباب نهضة ذلك العلم، على أن اهتمام المرابطين بعلوم الدين كان يزينه تشبعه بالروح السلفي المتسامح، وعدم مجاراته للخلافات المذهبية والبدع والأهواء التي كانت حينئذٍ تنخر جسم الوحدة الإسلامية بالمشرق[9].

وإذا كان حرق كتاب الإحياء للغزالي قد عد كارثة في نظر البعض فإنه تصرف بسيط كان يقوم به المسؤولون في الأندلس في عصورها المختلفة. فهذا الكتاب عندما وصل إلى الغرب الإسلامي وجد فيه فقهاء الأندلس أو فقهاء قرطبة على الخصوص ما لا عهد لهم به من آراء المتكلمين ومذاهب الصوفية، وقد تداولته الأيدي من خاصة الناس وعامتهم، مما جعلهم يقرروا مجافاته لظاهر الشريعة، وساذج العقيدة وحذروا الناس من مطالعته والنظر فيه، وعندما أصدر قاضي الجماعة بقرطبة ابن حمدين ومعه فقهاءها فتوى بحرق الكتاب أصدر الأمير علي بن يوسف أوامره بجمع الكتاب وإحراقه، ولم يعتبر المرابطون موالاة الغزالي لدولتهم، وثناءه عليهم سبباً يمنع من تنفيذ فتوى الفقهاء، وهذا إن دل على خضوع المرابطين لهذه الطبقة، فهو في نفس الوقت يدل على احترامهم للقانون، وهم أول من ينفذه ويحترمه. ومع وجود بعض الآراء المعارضة لهذه الفتوى والتي أشرنا إليها سابقاً فإنهم لم يصادروا هذه الآراء، ولم يحكموا على أصحابها بالقتل أو السجن أو العزل أو النفي. وهذا دليل على حرية الفكر، ولم يثبت من خلال المصادر التي بين أيدينا أنهم وقفوا في وجه أي تفكير أو حجروا عليه.

وعندما يذكر المراكشي[10] أنه: «انقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتاب، وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصر»، فهذا معناه أن كل علم كانت له فرصته في البروز

---

(9) عبدالله كنون: م. س. ص 68.

(10) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 163، 164.

والظهور كما أنه من المعلوم أن غالب أهل العلم والأدب في هذا العصر خصوصاً درسوا الفقه، وشاركوا في معرفة أصوله وفروعه. ولقب فقيه كثيراً ما كان يطلق على العالم بأي فرع من العلوم ولو لم يشتغل بالفقه[11].

وعلى أية حال فإن علم الفقه على المذهب المالكي قد تفوق على العلوم الأخرى، وواصل تقدمه، وكثرت مناظراته، وعقدت المجالس الحافلة في مدن الدولة كلها سواء في الأندلس أو المغرب، وامتزجت دراسة الفقه بعلم الأصول، وظهر الاشتغال بعلم الكلام على طريقة أهل النظر والتأويل، ولم يكن قبل ذلك مما يشتغل به أحد، وعني كثيرون بعلم القراءات، هذا العلم الذي لم ينقطع الاشتغال به في مختلف العصور وهو من فروع علم التفسير، ونشط الاشتغال بعلم الحديث والرواية فكثرت الرحلات لسماعه والأخذ عن رجاله رغبة في علو الإسناد والضبط والإتقان[12].

ومع أن الحركة الفكرية في بداية الموحدين امتداد للحركة الفكرية في آخر عهد المرابطين إلا أن هناك اختلافات في الاتجاهات الفكرية خصوصاً ما يتعلق بالفقه والمذهب المالكي على الخصوص، فدعوة ابن يس كان الهدف منها نشر الدين والتمكين لتعاليمه، السمحة من النفوس، فلزم ذلك رفع راية العلم والعرفان، فالدين الإسلامي والمعرفة متلازمان ودعوة ابن تومرت كانت ترمي إلى غاية أبعد من سلفه وهي تجديد الدين، وهي مهمة تقتضي التوسع في العلم أكثر مما يقتضيه نشر الدين، فاعتمدوا على الشعر والشعراء وأجزلوا لهم العطايا، لأنهم وسيلة الدعاية المؤثرة السريعة في هذا الوقت، ففي كل رحلة أو احتفال أو مقابلات رسمية كان للشعراء مكانهم البارز[13].

لم يشجع عبد المؤمن المذهب المالكي وأمر بتحريق كتب الفروع، ورد الناس إلى قراءة الحديث، وكتب بذلك إلى جميع طلبة المغرب والعدوة[14]، واستمر هذا

---

(11) المقري: م. س. جـ 1، ص 221.

(12) عبدالله كنون: م. س. ص 71، 72.

(13) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص 49 وما بعدها، عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 213.

(14) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص 195.

الموقف في عهد يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين الذي اشتط وتصلب في تنفيذ خطة ابن تومرت ومحاربة علم الفروع قصد الإجهاز عليه، فأحرق كتب المذهب وعوضها بالصحاح العشرة، والمنتخب الذي اختاره منها[15] ومع هذا فعلم الفقه على مذهب مالك قد واصل تفرعه وانتشاره كما كان من قبل أو أكثر، ونتيجة للتفاعل مع الدعوة الجديدة مال أهله إلى الترجيح والتأويل، ونبذوا التعصب لأئمتهم ومشايخهم، واتخذوا من البحث والنظر هدفهم للوصول إلى معرفة الحقائق وتقرير الأحكام، فرجعوا بذلك إلى أصوله الأولى ومصادره من الكتاب والسنّة وما إليهما.

واهتم الموحدون الأوائل اهتماماً زائداً باللغة البربرية جنباً إلى جنب مع اللغة العربية حتى بعد أن استقام الأمر لهم، وبلغ من المحافظة عليها وتكريم أهلها أن حظرت الوظائف الدينية على من لا يحسن التعبير بها، بل عزلت الخطباء الذين لا

(15) يقول عبد الواحد المراكشي، «وفي أيامه انقطع علم الفروع، وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله (صلعم) والقرآن، ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد، وكمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، نوادر أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن حبيب، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها، لقد شهدت منها وأنا يومئذٍ بمدينة فاس، يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار، وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة «الصحيحين والترمذي، والموطأ، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن البزار، ومسند ابن أبي شيبة، وسنن الدارقطني، وسنن البيهقي، في الصلاة وما يتعلق بها، على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة، فأجابوه إلى ذلك، وجمعوا ما أمرهم بجمعه، فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب، وحفظه الناس من العوام والخواص، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السني من الكسي والأموال، وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجدّه، إلا أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب هذا يشهد لذلك عندي ما أخبرني غير واحد ممن لقي الحافظ أبا بكر بن الجد، أنه أخبرهم قال: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لي: يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا، فأي هذه الأقوال هو الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك، فقال لي وقطع كلامي: يا أبا بكر، ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا، وأشار إلى كتاب سنن أبي داود، وكان عن يمينه، أو السيف، فظهر في أيام يعقوب هذا ما خفي في أيام أبيه وجده.
عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 278، 279.

يعرفون اللسان الغربي وبدلت مكانهم من يستطيع التعبير باللغتين[16]. ويبدو هذا الاتجاه غريباً وإن كان الأستاذ عبد الله كنون فسره بأنه ربما تقليد الموحدين الأعمى لابن تومرت واقتدائهم به في إلقائه دروسه بالعربية والبربرية، وكتابة تآليفه باللغتين، وإذا كان ابن تومرت في دعوته كان مفتقراً إلى حماية البربر له، ومضطراً إلى مصانعتهم لمساعدته في القيام بنشر دعوته، غير أنه كان يحاول تعليم هذه القبائل العربية، ولم يستعمل البربرية إلا بقدر الحاجة إليها، وحاول أن يلقن الناس العربية بأساليبه المبتكرة، ولكن هذا الموقف الذي سلكه عبد المؤمن يبدو شاذاً[17].

وظهر في آخر عهد المرابطين ذلك التيار الصوفي الذي اتخذ الطابع الثيوصوفي ولم يكن لهذا النوع من التصوف قبل ذلك وجود كبير في الأندلس أو شمال إفريقية

---

(16) أشار ابن أبي زرع إلى دخول الموحدين فاس قال: فلما دخل الموحدون المدينة بدلت أحوال بأحوال، ورجال برجال، وبدل الخطباء والأئمة بجميع البلاد، فكان لا يؤم ولا يخطب إلا من يحفظ التوحيد باللسان البربري، «وعند الكلام عن خطباء القرويين ذكر أنهم عزلوا خطيب القرويين أبا محمد مهدي بن عيسى» وكان من أحسن الناس خَلقاً وخُلقاً، وأفصحهم لساناً وأكثرهم بياناً، وكانت موعظته تؤثر في القلوب لصدقه وإخلاصه، وكان يخطب كل جمعة خطبة لا تشبه الأخرى، فأقام يخطب عليه مدة من خمسة أشهر، ودخل الموحدون المدينة فعزلوا مهدي وقدموا مكانه الفقيه الصالح المبارك أبا الحسن بن عطية لأجل حفظه اللسان البربري، لأنهم كانوا لا يقدمون للخطابة والإمامة إلّا من يحفظ التوحيد باللسان البربري، وبعد وفاته 558 هـ تولى بعده الفقيه الصالح يسكر بن موسى الجورائي، وهو أحد أشياخ المغرب في الدين والورع والفضل والزهد والمجاهدة والتقشف، وكان يؤم ولا يخطب، لأنه كان أعجمي اللسان شديد العجمة، فقدم من ينوب عنه في الخطبة».

ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 62، 71، 72 .

(17) فسر الأستاذ عبد الله كنون سلوك عبد المؤمن هذا بأنه:

«إما أن يكون مراده، تحدي العرب بذلك، ليتوسل إلى إبعادهم عن مواقف الزعامة الدينية، ومواطن قيادة الفكر العام من انتقادهم عليه في يوم ما، ونبذهم طاعته بالعراء. كما حدث بالفعل في أيامه الأولى (ثورة الماسي الذي اتبع نهج ابن تومرت، ثورة سبته بزعامة القاضي عياض وهي مزيج بين دينية وسياسية». وإما أن يكون أراد استرضاء البربر بذلك، واستبقاهم على حالهم الأول، إذ كان قد تقرر عندهم أنهم أهل التوحيد الحق والإسلام الصحيح وغيرهم مبتدعة ومقلدون لا يصح الاقتداء بهم. كما لا يصح أن يقفوا مواقف الوعظ والإرشاد لئلا يضلوا العامة، وينحرفوا بهم عن مذهب الدولة ومعلوم أن ليس من يقرره للعامة ويبينه لهم إلا البربر الذين تلقوا عن صاحبه مباشرة إذ كـانت أكثرية الرعية وجل أهل العلم إن لم نقل كلهم في البلاد سنيين لا يرضون بالدخول في ذلك المذهب فأحرى لئن يقوموا بالرعاية له.

عبدالله كنون: م. س ص 115، 116.

كما لم تكن هناك حركة فلسفية جديرة بهذا الاسم، وذلك للموقف العدائي الذي وقفه فقهاء المالكية من التصوف والفلسفة على السواء، ولم يوجد من مظاهر التصوف في هذه البلاد حتى منتصف القرن الخامس سوى الزهد الساذج الذي كان منتشراً بين طوائف لا تكاد تعرف من الفلسفة، ولا من التصوف الإشرافي شيئاً، وإن كان بعضهم على حظ غير قليل من علم الكلام والعلوم الإسلامية الدينية واللغوية[18].

والتصوف كما يعرفه ابن خلدون[19] هو «محاسبة النفس على الأفعال والتروك والكلام في الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاماً ويترقى منها إلى غيرها، وللصوفية آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم، إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة، فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلح على التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه، فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس يوجد بغيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه».

والتصوف في هذه المرحلة كان يمر بمرحلة انتقال واضحة المعالم من الطور البدائي الساذج الذي هو طور الزهد والرياضة وحياة المجاهدة، إلى الطور الفلسفي الذي ظهرت ثماره كاملة واضحة في مذهب ابن عربي[20] في عهد الموحدين، فكانت مرحلة ابن العريف وابن برجان والميورقي وابن قسي تمثل المرحلة الوسطى[21].

وقد حاول آسين بلاثيوس[22] أن يربط بين هذا التيار وبين اتجاه ابن مسرة (ت 319 هـ/ 931 م) ويجعلها امتداداً لها، وتابعة في هذه الفكرة بعض المفكرين مثل

---

(18) د. أبو العلاء عفيفي: أبو القاسم بن قسي وكتابه خلع النعلين، مجلة كلية آداب إسكندرية ـ مجلد 11 سنة 1957، ص 53.

(19) ابن خلدون: المقدمة، جـ 3، ص 1065.

(20) هو محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي إشبيلي مرسي الأصل استوطن دمشق ودعي في المشرق محي الدين والحاتمي والقشير، لملازمته رسالة القشيري إلى الصوفية وإكبابه على قراءتها. له مؤلفات ومقالات متعددة تتجاوز الحصر.

انظر، ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، سفر 6 ترجمة 1277، ص 493، 498.

(21) د. أبو العلاء عفيفي: م. س. ص 54.

(22) في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي ص 369، وفي دراسته عن كتاب محاسن المجالس لابن العريف.

لاجاردر[23]. Lagardere, V. وأرفوى[24] Ur Voy Doninque.

ومدرسة ابن مسرة كما هو معلوم تجمع بين مبادىء المتصوفة وبين بعض أصول الاعتزال ومبادىء الباطنية[25]، وهذا يتعارض خصوصاً مع ابن العريف، وابن برجان في رسائله لهم بالتزام السنّة «وتكلف ما يرافق السنّة من الظن الجميل»[26] وفي رسالة أخرى يظهر موقفه من الباطنية والظاهرية فيقول: «وكلتاهما أعني الباطنية والظاهرية تنافرهما الحقيقة[27].

وابن الزبير[28] يذكر ابن برجان بأنه كان متقيداً في نظره بظواهر الكتاب والسنة، بريأ من تعمق الباطنية، بعيداً عن قحية الظاهرية، شديد التمسك بالكتاب والسنة، جارياً في تأويل ذلك على طريقة السلف وعلماء المسلمين، وما عليه السواد الأعظم.

وقد استمر تلاميذ ابن مسرة متأثرين بآرائه وأفكاره وظلّت آثارهم واضحة فيمن تلاهم من مفكري الأندلس ومتصوفتها، غير أن الدولة رأت أن مثال هؤلاء المفكرين الذين يتجهون إتجاهاً باطنياً إنما يكونون خطراً حقيقياً على الدولة، إذ كانوا يشكلون

---

(23) Lagardere, V. La Tariqua et la Révolte des Muridum, P. 157.

(24) Urvoy, Dominique, Une étude Sociologique des Mourements Religieux dans L'Espagne Musulmane, PP. 272, 273.

(25) يقول ابن حزم أن ابن مسرة شارك المعتزلة في القول بالقدر، وكان يقول أن علم الله وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتان وأن لله تعالى علمين أحدهما أحدثه حملته وهو علم الكتاب. وهو علم الغيب، كعلمه أن سيكون كفار ومؤمنون بالقيامة والجزاء ونحو ذلك، والثاني علم الجزئيات وهو علم الشهادة، وهو كفر زيد وإيمان عمرو ونحو ذلك فإنه لا يعلم الله تعالى من ذلك شيئاً حتى يكون، واستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿ علم الغيب والشهادة ﴾ وكان يقول بالاستطاعة والوعد والوعيد ورؤية الله.
وأما المبادىء الباطنية فإنه بناها على آراء منسوبة لا نبذ وقليس، وليس له وإنما هي بعض آراء فيلون السكندري وأفلوطين، ومن هذه الآراء الجمع بين معاني صفات الله والقول بوجود مادة روحانية يشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلّهية، واعتبرت هذه المادة أول صورة برزت للعالم العقلي الذي يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية، وقد دافع ابن مسرة عن هذا المذهب تحت ستار إسلامي من آراء المعتزلة والباطنية، ويستنتج مما جاء في كتب ابن مسرة أن النبوة اكتساب، لا اختصاص، وأنه قد يحرزها من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس، وإن أنكر بعض أصحابه نسبة هذا القول إليه.
راجع ابن حزم: الفصل جـ 4، Asin Placios, Ibn Masarra, P. 45.

(26) مخطوط طريق السعادة من رسالة لابن العريف إلى سيد المالقي (و81).

(27) ن. م (و65).

(28) ابن الزبير: صلة الصلة، ترجمة 45 ص 32.

خطراً على الوحدة المذهبية، أي الالتزام بمذهب مالك أو ربما يكونون أدوات ولو من طريق غير مباشر للسياسة الفاطمية التي كانت تطمح إلى بسط نفوذها على العالم الإسلامي[29].

ولم ينتهِ تأثير ابن مسرة في الأجيال التي أتت بعده فقد استمرت في طائفة من المفكرين كان من أبرزهم إسماعيل بن عبدالله الرعيني الذي أدركه ابن حزم. وإن كان لم يلتق به، وقد أحدث الرعيني في المذهب أقوالا نفرت منه المسريين وكفروه[30].

وقد أصبح علم الشريعة على صنفين، صنف مخصوص بالفقهاء، وأهل الفتيا، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات، وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة، ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها، وكيفية الترقي فيها من ذوق إلى ذوق، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك[31].

وكان هدف متصوفي هذا التيار الجديد أن يدخلوا العنصر الفلسفي إلى تصوفهم، مبتدئين بالغزالي الذي اتخذوه نموذجاً، وأستاذاً، ولذلك نجدهم خاصة أحمد بن قسي يعكفون على كتبه بالدرس والتحصيل وينشرون آراءه، ويدافعون عنها في إيمان وحرارة، وكان من الطبيعي أن يتخذوا من الغزالي أستاذاً، ومن تعاليمه

---

(29) د. محمود مكي: التشيع في الأندلس ص 108.

(30) كان يقول أن الأجساد لا تبعث أبداً، وإنما تبعث الأرواح، وأن الإنسان حين يموت تلقى روحه الحساب ويصير إما إلى الجنة وإما إلى النار، وأنه لا بعث إلا على هذا الوجه أبداً، وأن العالم لا يفنى أبداً.
وكان لا ينسب الفعل إلى الله وينزهه عن ذلك ويرى أن العرش هو الذي يدبر العالم، وينسب قوله إلى ابن مسرة، ويستشهد على ذلك بأقوال من كتبه، وكان يقول بنكاح المتعة، وهذا المبدأ من أهم الأشياء التي تمسك بها الشيعة الاثنا عشرية في فقههم. وكان الرعيني عند فرقته إماماً واجبة طاعته، يؤدون إليه زكاة أموالهم، ويذهب إلى القول بأن الحرام قد عمّ الأرض، وأنه لا فرق بين ما يكتسبه المرء من صناعة أو تجارة أو ميراث، أو بين ما يكتسبه من الرفاق، وأن الذي يحل للمسلم من كل ذلك قوته كيفما أخذه، وكان يرى الدار دار كفر مباحة دماؤهم وأموالهم إلا أصحابه فقط.
ابن حزم: م. س. ص 199، 200.
د. محمود مكي: م. س. ص 132.
وانظر، ترجمته في ابن سعيد: المغرب جـ 1 رقم 58 ص 121.
الحميدي: الجذوة ص 53.

(31) ابن خلدون: م. س. ص 1065.

دستوراً وطريقاً، لأنه كان أدنى إلى مشاربهم في فهمه للدين وموقفه منه ومن التصوف، على أن ثقافتهم الروحية والفلسفية لم تقف عند الغزالي وكتبه، بل تأثرت أيضاً بذلك الجزء الضخم من التراث الفلسفي اليوناني الذي ترجم في المشرق ثم نقل إلى الأندلس، ومن ذلك فلسفة أفلاطون وأرسطو، كما اتصلت بمؤلفات فلاسفة المشرق الإسلامي مثل الفارابي وابن سينا وإخوان الصفا، وبمؤلفي كبار المتكلمين لا سيما المعتزلة، ومؤلفات الصوفية حتى عصر القشيري، ومع أنه لم تظهر في تصوفهم نزعة فلسفية واضحة على نحو ما ظهرت في تصوف ابن عربي في الجيل الذي تلاهم، فقد اتجهوا بالتصوف إلى وجهة جديدة ذات طابع إشراقي متميز في أساليبه ومصطلحاته ومعانيه كما يظهر ذلك في مؤلفات ابن برجان وابن العريف وابن قسي[32].

وكثر التأليف في التصوف والصوفية، وانتشرت كتب المريدين، فكان لأبي الحكم بن برجان عدة تصانيف مهمة في التصوف[33]، وكان لابن العريف عدة مصنفات في التصوف والأدعية والأمداح النبوية وما يلزم المريد للوصول إلى مراده، وبين في كتابه محاسن المجالس منازل الحياة الصوفية، ورتبها في اثنتي عشرة درجة هي المعرفة، والإرادة والزهد والتوكل، والصبر والحزن والخوف والرجاء والشكر والمحبة والتوبة، وأخيراً الأنس بالله، وقام المستشرق الإسباني آسين بلاثيوس بتحقيق ودراسة هذا الكتاب.

ولابن العريف كتاب «مفتاح السعادة وتحقيق طريق الإرادة»، وهو ما زال مخطوطاً وإن كان كاتبه قد أشار في بداية المخطوط على أنه مجموعة من أدعية ورسائل ابن العريف جمعها له، والثلث الأول من المخطوط يتعرض للطريقة التي يجب أن يسلكها المريد، أما باقي المخطوط فهو رسائل لابن العريف لعدد من شيوخ الصوفية الذين تعرضنا لهم في حركة المريدين.

وذكر المقري[34] كتاباً ثالثاً لابن العريف اسمه «مطالع الأنوار ومنابع الأسرار»

---

(32) د. أبو العلا عفيفي: م. س. ص 54، انظر المؤلفات في الفصل الخاص بالعلوم العقلية.

(33) ابن الزبير: م. س. ص 32، 33. ألف ابن برجان، الإرشاد، الإشارات، تفسير الأسماء الحسنى، الإلهام.

(34) المقري: نفح الطيب، جـ 7، ص 497.

أخذ منه عدداً من الأشعار الخاصة بالأمداح النبوية، وهذا الكتاب في حكم المفقود ولم يذكره غير المقري.

ولأبي الحسن بن غالب[35] عدة تواليف مشهورة منها كتاب «الاعتبار»، وكتاب «الأيام والحجب» ويضيف ابن عبد الملك[36] أن له في طريقة التصوف مصنفات لا نظير لها منها كتاب «اليقين».

كما ألف الصوفي الكبير أبو العباس أحمد بن معد المعروف بابن الإقليشي مصنفات عديدة مفيدة منها كتاب الكواكب، وكتاب «النجم من كلام سيد العرب والعجم»، وكتاب «الغرور من كلام سيد البشر» وأشعار عديدة وحملت عنه معشراته في الزهد وكتبها الناس[37].

ومؤلفات ابن الخراط أبو محمد الإشبيلي عديدة في مختلف الفنون، وكتبه في التصوف كثيرة منها كتاب «التوبة» في سفرين، و «معجزات الرسول» في سفر، ومقالة في «الفقر والغنى»، وكتاب في «الصلاة والتهجد» في سفر، العاقبة تضمن ذكر الموت وما بعده»[38].

وألّف أبو العباس أحمد بن الصقر السرقسطي كتاب «أنوار الأفكار فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزهاد والأبرار»[39].

وكان لأبي بكر بن مؤمن مصنف جمع فيه كلام شيخه أبي العباس بن العريف نثراً ونظماً، وآخر جمع فيه كلام الزاهد أبي عبدالله بن يوسف السبتي ابن الآبار ورسائله وحكمه[40].

وبرغم موقف القاضي ابن العربي من التصوف فإنه ألف سراح المريدين وهو ما

---

(35) ابن الزبير: م. س رقم 201 ص 99.

(36) ابن عبد الملك: م. س. سفر 5، قسم 1 ر قم 415 ص 209.

(37) ابن الأبار: التكملة جـ 1 رقم 167، ص 61.

(38) ابن فرحون: م. س، ص 176.

(39) ابن الخطيب: الإحاطة جـ 1، ص 189، 193.

(40) ابن عبد الملك: م. س. سفر 5، قسم 1، رقم 242 ص 127.

زال مخطوطاً، ويبدو أن ابن العربي ألفه في وقت أحس فيه بضرورة تأليفه إذ كان يمر بظروف تشجع على الابتعاد عن الناس.

ولابن بشكوال كتاب في التصوف بعنوان «المستغيثين بالله عزّ وجل عند المسلمات والحاجات والمتضرعين إليه سبحانه بالرغبات والدعوات وما يسر الله الكريم لهم من الإجابات والكرامات»[41]. وألف أبو عمر بن عفيون الغافقي كتاباً بعنوان «زهاد الأندلس وأئمتها»[42].

ويقول ابن عبد الملك[43] أنه وقع على مجموع في التصوف كتبه محمد بن خلف المعروف بأبي عبدالله الشبوقي كتبه بسجن مراكش عندما غرب عن الأندلس.

وكتب أبو القاسم أحمد بن قسي كتاب «خلع النعليـن» وهذا الكتاب كما يقول عنه الدكتور أبو العلا عفيفي مجموعة من اللمحات الإشراقية[44].

ورغم تشدد الفقهاء تجاه الصوفية والفلسفة فقد ظهر في هذه الفترة أعلام لهم خطرهم في تاريخ الفلسفة الإسلامية أمثال ابن باجة (ت 533 هـ/ 1138 م) وابن طفيل (581/506 هـ) (1185/1110 م) وابن رشد الحفيد (526 :591 هـ ـ 1126 :1194 م) والفكرة الأساسية التي أضافها ابن باجة إلى التراث الفلسفي هي التي تتعلق باتحاد العقل الفعّال بالإنسان، وكانت هذه الفكرة هي الأساس الذي بنى عليه ابن طفيل رأيه الصوفي في وحدة الوجود، وتناولها ابن رشد وسار بها إلى الأمام[45] والفلسفة فيما عدا فلسفة ابن طفيل ظلت بعيدة إلى حد كبير عن التصوف[46].

ويبدو أن الاشتغال بالفلسفة ظل مقصوراً على خاصة العلماء خوف بطش العامة

---

(41) توجد منه نسخة مخطوطة في دار الكتب الظاهرية ضمن مجموع.
انظر فهرس مخطوطات الحديث 30، وفهرس الأدب جـ 2 ص 225، 226.

(42) ابن عبد الملك: م. س. سفر 8، ص 579.

(43) ابن عبد الملك: م. س. سفر 5، قسم 2، رقم 1151 ص 582.

(44) راجع دراسة الدكتور أبو العلا عفيفي عن كتاب خلع النعلين، ورأى ابن عربي في هذا الكتاب في مقالته بمجلة الآداب جامعة الإسكندرية مجلد 11 عام 1957.

(45) آنخل جونثالث: م. س. ص 347.

(46) د. أبو العلا عفيفي: م. س. ص 54.

أو اضطهاد الفقهاء، يقول ابن سعيد[47] «وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم، وإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم، ولا يتظاهر بهما خوف العامة، فإنه كلما قيل «فلان يقرأ الفلسفة» أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة، وحرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن».

ولكننا من خلال التراجم التي عرف عنها اشتغالها واهتمامها بعلم الكلام وهو عدد كبير، نحس بأن علم الكلام اتخذ تياراً فكرياً شغل مجتمع العلماء والطلبة مما جعل الأمير علي بن يوسف يرسل إلى القاضي أبي الوليد بن رشد، لمعرفة رأيه في هذه الموجة التي شغلت العدد الكبير يقول السؤال: «ما يقول الفقيه القاضي الأجل الأوحد أبو الوليد وصل الله توفيقه وتسديده ونهج إلى كل صالحة طريقه، في الشيخ أبي الحسن الأشعري، وأبي إسحق الإسفراييني، وأبي بكر الباقلاني، وأبي الوليد الباجي ونظرائهم ممن ينتحل علم الكلام، ويتكلم في أصول الديانات، ويصف الرد على أهل الأهواء، أهم أئمة رشاد وهداية؟ أم هم قادة حيرة وعماية».

أجاب ابن رشد «هم أئمة خير، وممن يجب بهم الاقتداء»[48].

وكثرت تساؤلات طلبة العلم لشيوخهم عما يقرأونه في هذه الكتب، وما يسمعوه وكتاب القاضي أبي بكر بن العربي «العواصم من القواصم»[49] حافل بكثير من تساؤلات الطلبة وإجابة القاضي ابن العربي عليها، وكان يكرر النصح لهم بعدم قراءة هذه الكتب قبل التمكن من كتب السنة يقول «وعلى كل حال فالذي أراه لكم على الإطلاق، أن تقتصروا على كتب علمائنا الأشعرية، وعلى العبارات الإسلامية، والأدلة القرآنية، وأنتم في غنى عن ذلك كله، وخذوا مني نصيحة مشحونة بنكت من الأدلة، وهي أن الله سبحانه رد على الكفار على اختلاف أصنافهم».

(47) المقري: نفح الطيب جـ 1 ص 221.
(48) مجموعة فتاوى ابن رشد (و 85).
(49) ابن العربي: العواصم من القواصم جـ 2 ص 108.

ولتبسيط علم الكلام ألف بعض الفقهاء كلاماً مبسطاً في شكل أرجوزة ليسهل على الطلبة حفظها، وهناك أرجوزة مهمة للإمام أبي الحاج يوسف بن موسى الضرير المتوفى سنة 520 هـ/ 1126 م)[50].

واستمر الاهتمام بعلم الكلام بعد المرابطين إذ كان الموحدون يعتبرون من لم يعرف العقائد على سبيل التفصيل على طريقة الأشعري بالأخص كافراً ليس معه من الإسلام إلا الاسم، ومن ثم سموا أنفسهم بالموحدين، ووصفوا خصومهم المرابطين بالمجسمين وألف لهم المهدي عقائد مختصرة باللسانين العربي والغربي (البربري) فتأثر الناس خطاه وصنفوا في هذا العلم. ولكن هذا العلم شوه في أوائل عهد الموحدين بما أضافوه إليه من تعاليم شيعية بدعية اقتداء أو جرياً وراء ما كان يذهب إليه المهدي بن تومرت من ذلك المذهب. فكان الاعتقاد بالإمام وعصمته شائعاً في ذلك الوقت وكانت الخطب على منابر المغرب والأندلس وإفريقية لا بد أن تشتمل على الدعاء للإمام المعصوم المهدي المعلوم «واستمر هذا الدعاء إلى أن منعه يعقوب المنصور»[51].

وعلى أية حال فإن الكتب التي كانت تعدم وتحرق سواء كتاب الإحياء في عهد المرابطين أو كتب المذهب المالكي التي أحرقت في عهد الموحدين لم تمنع انتشار هذه الكتب وتداول علومها، إذ إن جلّ الاعتماد في هذا العصر كان على الحفظ

(50) مخطوط خزانة القرويين شرح أرجوزة الإمام أبي الحجاج يوسف بن موسى الضرير، انظر، فهرس مخطوطات خزانة القرويين ج ص 353.

(51) يرى الأستاذ عبد الله كنون أن المذهب الأشعري الذي ادعى المهدي والخلفاء الأول تشجيعه لم يخلُ من تعاليم شيعية غالية تدعم ما يقوله المهدي ويدعو إليه، وإنهم أيضاً لم يكونوا على مذهب أهل الظاهر ودليله على ذلك كتب المهدي بن تومرت أعز ما يطلب، والعقيدة والمرشدة وكتاب الطهارة، إلى غير ذلك من تعاليق المهدي وكلها ليس فيه ذكر الظاهرية ولا بعلم من أعلامها. بل إن في تعاليقه الأصولية ما يعارضها وهو إثبات القياس ومدحه مما لا يجنح إليه أهل الظاهر، فإذا كان هذا إمام الموحدين ومهديهم الذي أسس دولتهم ومهد مذهبهم لا يرى رأي الظاهرية، ولا يبدي نحوها أدنى ميل، فلا شك أن خلفاءه كانوا كذلك، وإنما كان الفقهاء ينسبونهم إليها تشنيعاً، كما أن ميل المهدي إلى الاجتهاد هو وأتباعه جاءهم من الشيعة الذين أخذوا بعض آرائهم وخرجوا بها مذهبهم، والشيعة كما لا يخفى يقولون بالاجتهاد وهذا هو السبب الذي يفسر به انصراف الفقهاء المغاربة عن دعوة الموحدين إلى الاجتهاد حيث إنها كانت مشوبة بتعاليم شيعيـة لا يقبلوا منها.
عبدالله كنون: م. س. ص 125، 126.

والاستظهار فبعد حرق هذه الكتب لم يصعب على الناس وطلبة العلم أن يجدوا من يستظهرها بلفظها وبحفظها عن ظهر قلب. وتكتب عنه، فالمذهب المالكي لم ينهزم مطلقاً أمام الدعوة إلى الاجتهاد التي كان يتزعمها الموحدون، ولا أمام المذهب الظاهري الذي نشط نشاطاً كبيراً في هذا العصر، وذلك برغم الحملة المنظمة من رجال الدولة الموحدية للقضاء عليه. غير أن الفقه المالكي استفاد من المحاولات التي كانت تحدث بينهم وبين خصومهم فلم يقبل ذلك الفقه الساذج الذي يقارن أقوال أئمة المذهب بعضها ببعض ويرجعها في النهاية إلى رواية ابن القاسم عن الإمام مالك، بل صار يعتمد على الأدلة وينظر في الخلاف العالي، وبذلك أخذ خير ما في الدعوة المعارضة له ودعم وجوده[52].

ولكن الملاحظة العامة أن التيارات الفكرية التي سادت الأندلس في هذه المرحلة آخر عهد المرابطين وبداية الموحدين! كانت تختلف من منطقة إلى أخرى. فالتيار الصوفي الفلسفي بجانب التيار الديني التقليدي انتشر في منطقة الشرق بينما التزم الوسط خصوصاً في منطقة قرطبة بالتيار التقليدي السلفي أي الالتزام بالمذهب المالكي، وفقهه، بينما نجد أن الغرب كان يتأرجح بين الالتزام بالتيار التقليدي السلفي وبين التيار الصوفي الفلسفي المتأثر بالمذهب الشيعي.

وإذا كانت منطقة الشرق قد تميزت عن غيرها من مناطق الأندلس باتجاهاتها الفكرية المتميزة، فهذا يرجع إلى طبيعة المنطقة واتصالاتها المستمرة بالمشرق وانفتاحها على تياراته الفكرية التي يحملها إليها التجار والعلماء وطلبة العلم خلال رحلاتهم والتي سنوضحها عند الحديث عن مدرسة المرية.

وأنسب ما يمكن أن يقال عن هذه التيارات الفكرية هو ما ذكره ابن سعيد[53] بقوله «وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، للفقه رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم من العلوم. وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى أن الملثمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه. وهي الآن

---

(52) عبدالله كنون: ن. م. ص 123.

(53) المقري: م. س. جـ 1 ص 221.

بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السمات، وعلم الأصول عندهم متوسط الحال، والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة. حتى أنهم في هذا العصر فيه كأصحاب خليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة، وهم كثيـرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق، فليس عندهم بمستحق للتمييز، ولا سالم من الازدراء، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية.

الفصل الثاني

معاهد ومراكز الثقافة

اهتمام المرابطين بالتعليم ـ المحضرة ـ المسجد ـ شروط المؤدب ـ مراقبة المؤدب والأطفال ـ طريقة تعليم الصغار ـ مواد الدراسة ـ أجر المؤدب ـ تعليم المرحلة المتوسطة والعالية ـ الرحلة لطلب العلم ـ انتشار الكتب والمكتبات ـ ظاهرة شراء الكتب ـ المرأة تجلس للتدريس ـ مهارة النساء في الخط والكتابة ـ إقبال أمراء الملثمين على العلم ـ استمرار طريقة التعليم في عهد الموحدين ـ مدرسة عبد المؤمن.
مراكز الثقافة ـ قرطبة ـ إشبيلية ـ غرناطة ـ دانية ـ ألمرية ـ شلب.

أولاً: معاهد العلم والتعليم

اهتم المرابطون بالتعليم ونشره منذ اللحظة الأولى التي ارتبطوا بها بدعوة ابن يس، وأخذوا يقبلون على الكتاتيب والمدارس في شغف، واعتنوا بنشرها في أنحاء المغرب وليس أدل على ذلك من أن ابن تومرت قبل سفره للمشرق قد حفظ القرآن الكريم وجوّده وألمّ بقدر من علوم الدين واللغة العربية بمسجد قريته إيجلى الواقعة بجبال الأطلس ببلاد السوس[1]، ومما يدل على انتشار معاهد العلم في كل مكان.

فلما احتكوا بحضارة الأندلس الرفيعة، تفتحت أمامهم آفاق جديدة في العلم، وبدأوا يتعلمون من الأندلسيين، الذين عرفوا بحبهم للعلم، وشغفهم الكبير بالتعلم، فاهتموا بتربية وتعليم أبنائهم منذ نعومة أظفارهم، ولم يكن التعليم مقصوراً على الأولاد بل شمل البنات أيضاً. ولم يطرأ أي تغيير على النظام الذي كان معمولاً به من قبل إذ كانوا يرسلون أبناءهم إلى الكتاب الذي يسمونه المحضرة أو الحضار أو المسيد[2]. وعلل الدكتور بنشريفة[3] سبب تسمية الكتاب بالمحضرة، لحضور التلاميذ إليه أو لكونه يحضرهم ويهيئهم للتعليم المتوسط أو العالي، وكلمة المحضرة أو الحضار ما زالت مستعملة بالمغرب.

وبرغم اهتمامهم بالتعليم إلا أنه لم يكن عندهم مدارس خاصة لتلقي العلم كما

---

(1) ابن القطان: نظم الجمان، ص 37.

(2) ابن عبدون: رسالة في الحسبة ص 25.

(3) الزجالي: أمثال العوام، تحقيق د. محمد بنشريفة جـ 1 ص 231.

كان بالمشرق بل ظلّ المسجد هو المكان المخصص للدراسة فإن لم يكن المسجد فبيت الأستاذ نفسه، وطالب العلم هو الذي ينفق على نفسه، وربما ترك عمله الذي يتعيش منه من أجل تلقي العلم، يقول المقري «ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة، فهم يقرؤون لأن يعلموا، لا لأن يأخذوا جارياً، فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه، يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يعلم»[4].

وكان ابن عبدون[5] ينهى عن تعليم الأطفال في المساجد، ويأمر بأن يكون لهم محضرة خاصة بهم، وإن كان ولا بد في المسجد، فتكون في السقائف خشية أن يتسبب الأطفال في نجاسة المسجد.

واهتموا بالمحضرة والشخص الذي يقوم بتأديب الصغار، واشترطوا فيه شروطاً عديدة لأنه مسؤول عن ترويض الصغار، فكان يشترط في المؤدب ألا يكون عزباً، ولا شاباً، بل يكون شيخاً خيراً، ديناً، عفيفاً، ورعاً، قليل الكلام والشهوة إلى استماع ما لا يعنيه وأن لا يحضر الجنائز البعيدة، ولا يكثر من البطالة، ولا يهمل الصبيان، ولا يتغيب عنهم إلا لأخذ الغذاء والوضوء، ويكون راتباً في مكانه، محافظاً على حوائج الصبيان[6].

وبالرغم من الاشتراط على المؤدب بألا يكثر من عدد المتأدبين عنده، حتى يستطيع أن يؤدبهم ويعلمهم، إلا أن كثيراً من أصحاب هذه الكتاتيب لا يلتزمون بهذا الشرط، وكان الفقيه الزاهد أبو العباس بن العريف[7] يرى أن يباح للمؤدب المشهود له بالصلاح والعلم وعدم الجشع، إذا وجد في نفسه القدرة أن يعلم عدداً أكبر من

---

(4) المقري: نفح الطيب، جـ 1، ص 221.

(5) ابن عبدون: م. س. ص 24، 25.

(6) ن. م.

(7) ابن عباد الرندي: الرسائل الصغرى، الرسالة الخاصة من رسائل ابن العريف، ص 221، مخطوط طريق السعادة (و 58).

يقولون «لا صبي يحفظ، ولا مؤدب يعذر».

الزجالي: م. س. ص 223.

الصبيان، إذ يرى في تعليم الصغار القرآن ثواباً وأجراً فيقول: «إذا علم العلم من نفسه علم يقين أنه ليس بحريص على حظ نفسه من المال والجاه، وأمكنه أن يستكثر من الصبيان بوجه مباح صحيح فعل من ذلك الغاية، فإن أولى الناس بتعليم الخير أقربهم من القبول».

وكانوا يراقبون تعليم أولادهم، ويختبرون حفظهم، ولا يقبلون عذر المؤدب إذا أهمل أو قصّر[7م]، ويجلس بعض الآباء بالقرب من المحضرة ينتظر خروج أولادهم، ومنهم من يدخل بين السفينة والأخرى يسأل عن شيء مما يشوش على المؤدب ويزعجه[8]، ويرون ضرورة استعمال الشدة في تعليم هؤلاء الصغار حتى يتعودوا من صغرهم على العلم[9].

ويرى ابن عبدون[10] ألا يؤدب الصبي بأكثر من خمسة أسواط للكبير، وثلاثة للصغير، وتكون من الشدة على حسب احتمالهم، وذلك أن إرهاف الحدّ في التعليم، مضر بالمتعلم لا سيما أصاغر الولد، لأنه من سوء الملكة، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين، أو المماليك، أو الخدم سطا به القهر، وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقاً وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالاً على غيره، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها، ومدى إنسانيتها فارتكس وعاد أسفل سافلين[11].

أما المواد التي كانت تدرس لهؤلاء الصغار في المرحلة الأولى مرحلة الكتاب

(7 م) م. س.

(8) ابن عباد الرندي: م. س. الرسالة الرابعة، يقول ابن العريف «أو ربما كان آباؤهم قريباً منهم، فالأطفال بين داخل وخارج، والآباء بين جاء وخارج».

(9) يقولون «ضرب المعلم للصبي كالماء للزرع».
الزجالي: م. س. ص 223.

(10) ابن عبدون: م. س. ص 25.

(11) ابن خلدون: المقدمة جـ 4، ص 1363، 1364.

هو تعلم القرآن الكريم الذي جعلوه أصلاً في التعليم، ثم أخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والهجاء، وحسن الألفاظ في القراءة وتجويد التلاوة. ويأمر من كان كبيراً بالصلاة ويكتب له التشهد، وما يقول في الصلاة، ويعطي بعض الحساب[12].

أما القاضي أبو بكر بن العربي[13] «فكان يرى تقديم العربية والشعر على سائر العلوم، لأن الشعر ديوان العرب». ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين، ثم ينتقل إلى دروس القرآن، فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة، لأنه من الصعب أن يؤخذ الصبي بكتاب الله يقرأ ما لا يفهم، فيكل ويتعب عن فهم غيره، ثم بعد ذلك ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه، ثم الجدل، ثم الحديث وعلومه، ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علمان إلا أن يكون المتعلم متقبلاً لذلك، لجودة فهمه ونشاطه وذكائه.

وكان يرى الاقتصار على كتب الأشعرية والعبارات الإسلامية والأدلة القرآنية، أما العلوم الأخرى كالفلسفة وعلم الكلام وكتب الباطنية وغيرها فهذه تتوقف على الشخص «إذا وجد في نفسه منة، أو تفرس فيه الشيخ المعلم له لذلك فلا بد من توقيفه على جميع مآخذ الأدلة، واتساع درجات العلم، وتمكنه من بحبوحات المعارف ـ حتى يكون مستقلاً بأعباء الشريعة مطيقاً على حمل أثقالها، بصيراً بالنضال عنها، والذب عن حرماتها، إذا احتج إليه فيها»[14].

ولكن الأندلسيين كانوا يؤثرون دراسة القرآن تبركاً وثواباً، وخشية ما يعرض للولد في سنوات الصبا من الأمراض والآفات والقواطع عن العلم، فيفوته القرآن لأنه ما دام في الحجر منقاد للحكم، فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر، فربما عصفت به رياح الشبيبة، فألقته بساحل البطالة، فيغتنمون في زمان الحجر، وربقة

(12) ابن عبدون: م. س. ص 25.
ابن خلدون: م. س. ص 1360.
(13) ابن خلدون: ن. م. ص 1362.
(14) ابن العربي: العواصم من القواصم جـ2 ص 109.

الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلواً منه، وكان ابن خلدون[15] يحبذ رأي ابن العربي في منهجية التعليم ويرى رأيه.

ولابن العريف[16] رسالة مهمة في طريقة تربية وتعليم الصغار فيقول «وليس على المعلم واجباً أن يتولى كل صبي بنفسه في كل أوقاته وأحواله، فإن هذا غلو وحقحقة، وإنما عليه أن يتولى جميعهم بنظره، ورأيه حتى لا ينصرف الصبي إلا وقد كتب وقرأ غيره إذا أمكنه ويتركه إلى الغفلة في بعض الأوقات فلا بد منها، ولا بد للمعلم أن يسمح لهم فيها، فإنها العون على وقت الشدة، والمجاهدة له ولهم، ولكن ليكون هم المعلم في تعلمهم أخلاق الديانة من الحياء، والسخاء، والتواضع، وذكر فضائل الفقر، وعيوب الغنى، ونحو ذلك من أوصاف الإيمان، أهم عليه وأوجب إليه من حفظهم لحروف السواد، يلقى ذلك إليهم كلمة كلمة، وينبههم عليها وقتاً وقتاً، وإذا حضر مخالفة مع مولاه من بكاء ونحوه فلا يستره عنهم، وليأخذ معهم في بعض أوقاته من العشيات فيما أمكنه من الدعاء، وفيما يحضره من حكايات العباد، والزهاد والصالحين والعلماء تحبباً منه للسلف الصالح عندهم وإحياء لما درس من ذكرهم وآثارهم وتذكرة لنفسه».

والتعليم في نظر بعضهم[17] صناعة تحتاج إلى معرفة، ودربة، ولطف فهي كالرياضة للمهر الصعب الذي يحتاج إلى سياسة ولطف، وتأنيس حتى يرتاض، ويقبل التعليم، لأن حفظ القرآن شيء والتعليم شيء آخر. لا يحكمه إلا عالم به، إذ إن المرحلة الأولى من التعليم تستلزم الصبر والدربة، فكثير منهم لا يرغب في التعليم «وإذ الصبيان لا يبذلون جهداً، ولا يفقهون رشداً»[18].

وكان لانتشار الكتاتيب في المدن والقرى أن أقبل الصغار عليها لتلقي العلم، وكان يتعذر أن يوجد فلاح أندلسي لا يعرف القراءة والكتابة في حين كان ملوك أوروبا لا يقدرون أن يكتبوا أسماءهم في توقيعاتهم[19].

(15) ابن خلدون: م. س. ص 1362، 1363.
(16) ابن العريف: طريق السعادة (و 58).
(17) ابن عبدون: م. س. ص 25.
(18) ابن عباد الرندي: م. س. الرسالة الخامسة، ص 226، ابن العريف: م. س (و 58).
(19) د. سامي العاني: دراسات في الأدب ص 96.

والمؤدب أو المعلم الذي يعلم في الحضار أو المسيد يتفق معه على عقد ينص فيه على مرتبه وما يشترط عليه، وكانت هذه المرتبات في الغالب قليلة لا تكفي المؤدب، لذلك لا يخلو الأمر من بعض الهدايا التي تقدم إليهم في المناسبات وتسمى الفتوح، أو عندما يتم الصبي حفظ القرآن ويحذقه وتسمى بالحذقة[20].

يتفاوت الأجر من مؤدب إلى آخر، ويرى البعض[21] أن الأجر رمزي وأن الغاية من الجلوس هو تعليم القرآن فابن العريف[22] يؤكد على ذلك بقوله: «وإني وإن كنت آخذ منهم الأجرة، فإني لم أجلس لهم من أجلها، وإنما جلست لتعليمهم كتاب الله» وقوله عليه السلام: «خير من تعلم القرآن وعلمه» وفي موضع آخر يقول: «فإن أجرتهم وإن كانت لفاقتي مسداً ولحاجتي مرداً، فما من أجلها قعدت، فليس في مجيئها أو فقدها مسرة، ولا مبرة بل هي في بعض النظر حجاب ومضرة، والمرجو منهم الذي قعدت من أجله هو التعليم».

أما في المرحلة المتوسطة والعالية فكان التعليم يستلزم نفقات كبيرة خاصة أنه كان يوجد بعض الأساتذة الذين يطلبون أجراً كبيراً، مما يشكل عبئاً كبيراً على كثير من الطلبة الذين يكونون قطاعاً كبيراً من أبناء الطبقة الوسطى وأصحاب الحرف الذين كانوا يرون في التعليم وسيلة إلى فتح الأبواب أمامهم[23] فالعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة، ، يشار إليه ويحال عليه، وينبه قدره وذكره عند الناس، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة، وما أشبه ذلك[24].

وذكر أن أبا بكر الخدب (ت 580 هـ/1184 م) رئيس النحويين في زمانه دون مدافعة يشتـط على طلبة العلم فيما يشترطه عليهم جعلاً على إقرائه إياهم، ولا يتساهل في تحصيله منهم، شديد المشاحة فيه، مع أنه لم يكن محتاجاً إذا كان يعمل بالتجارة والخياطة[25].

(20) الزجالي: م. س. ص 232. الونشريسي: المعيار جـ 7، ص 7، 17، 18، 86.

(21) ابن العريف: م. س. (و 33).

ابن عباد الرندي: م. س الرسالة الرابعة ص 217.

(22) ن. م.

(23) الزجالي: م. س. ص 232.

(24) المقري: م. س. جـ 1، ص 220.

(25) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة سفر 5، قسم 2، ترجمة 1235.

بينما كان هناك أساتذة بارون بالطلبة يشفقون عليهم مقدرين لظروفهم، فعرف عن أبي عبدالله بن الفخار (511: 590 هـ، 1117: 1193 م) الذي عدّ من «أحفظ أهل زمانه للحديث والفقه واللغات والآداب والتاريخ، أنه كان باراً بطلاب العلم، مبالغاً في إكرامهم، متناهياً في التخفي بهم»[26].

وكان أبو الحسن بن هذيل متى توجه إلى ضيعته لمليلة من جزء الرصافة بغربي بلنسية صحبة طلبة العلم إليها للقراءة عليه والسماع منه، فيحمل ذلك منهم طلق الوجه منشرح الصدر، جميل الصبر، وينتابونه ليلاً ونهاراً، فلا يسأم من ذلك ولا يضجر، برغم كبر سنه حسبما كان عليه أمره معهم من قبل، وأقرأ ببلنسية أكثر من ستين عاماً[27].

وذكر أيضاً عن الفقيه أبي عمر أحمد بن سعيد أن الطلبة كانوا يقصدونه في داره وهم أكثر من أربعين طالباً في أشهر الشتاء فيحتفي بهم ويقدم لهم الطعام كل يوم بعد الفراغ من الدرس، وكان الطعام وافراً حتى أن هؤلاء الطلبة يبقون على هذه الوجبة إلى اليوم التالي طيلة الثلاثة شهور[28].

وإذا سمع طلبة العلم بأستاذ مبرز في علم من العلوم، رحلوا إليه ليسمعوا منه ويكتبوا عنه، أو ليعطيهم إجازة، وتشعبت هذه الرحلات داخل البلاد وخارجها، وكان الإقبال شديداً من أبناء العدوة في الرحلة إلى الأندلس لينهلوا من التقدم الفكري والحضاري الذي سبقتهم فيه الأندلس، وتصور كتب الطبقات هذه العلاقات التي نشأت بعد التوحيد بين المغرب والأندلس، فتتحدث بإسهاب عن أهل المغرب الذين وفدوا على الأندلس والتحقوا بمدارسها، وجلسوا إلى فقهائها وعلمائها وأدبائها، وشعرائها وعادوا إلى بلادهم بذخيرة علمية عظيمة ينفعون بها الناس، كما أن كثيراً من كتاب وفقهاء وعلماء الأندلس شدوا الرحال إلى الحاضرة مراكش يعرضون مواهبهم وخدماتهم، وتجولوا بمدنه يحيط بهم الطلاب، يروون عنهم، ويأخذون منهم ويتعلمون على أيديهم، يمهد لهم الأمراء السبيل، ويحيطونهم بالرعاية والتكريم.

---

(26) ن. م سفر 6، ترجمة 218.

(27) ن. م سفر 5 قسم 1، ترجمة 638.

(28) ابن بشكوال: الصلة، جـ1، ترجمة 71.

وكان ملوك وأمراء المرابطين والموحدين من بعدهم يستقدمون أعلام الفقهاء والعلماء لتأديب بنيهم وحضور مجالس مشورتهم، وتعليم أهل المغرب وتأديبهم[29].

فرحل الناس إلى أبي عبدالله بن غلام الفرس (501:567 هـ/ 1107:1171 م) في مرسية من شرق وغرب الأندلس ومن العدوة يتدارسون الفقه، ويتذكرون بين يديه، ويسمعون الحديث عليه، ويتلقون كتاب الله بالقراءات السبع[30].

وكان لاشتهار أبي عبدالله بن ذي النون الحجري (505: 591 هـ/1111: 1194 م) لعلو إسناده ومتانة حفظه، أن تسابق الناس في الرحلة إليه للسماع منه، والأخذ عنه، واستدعى إلى حضرة السلطان بالمغرب ليسمع عليه هناك، فتوجه إلى مراكش وأقام بها حيناً، فحدث عنه عالم من الجلة الأعلام في الأندلس والعدوة[31].

بينما تنافس الطلبة في الأخذ عن أبي بكر بن صاف كبير المقرئين بإشبيلية فكان لا يقرىء مع القرآن شيئاً من النحو والأدب إلا يوماً أو يومين في الجمعة[32].

وصار دكان أبي بكر بن علي بن خلف مألوفاً للجلة من طلبة العلم بإشبيلية وكان أكابر شيوخه يقصدونه بموضعه، ويغتنمون مجالسته والمذاكرة معه، والاستفادة منه لتبريزه في حفظ القرآن، واستبحاره في الذكر لمسائله وشدة عنايته بالحديث وروايته[33].

وهذا أبو الحسين سراج بن سراج يجتمع إليه للسماع الأربعين والخمسين من رؤساء الملثمين ومهرة الكتاب كأبي عبد الله بن أبي الخصال، قال عنه ابن الآبار[34] «خاتمة أولي البيان وصدر أعيانها العلماء» وكان من أكمل أهل عصره مروة وصيانة، وأوسعهم مالاً وجاهاً وأكثرهم مهابة».

ومن الملاحظ أن جل الاهتمام في التعليم كان منصباً على قراءة القرآن

---

(29) د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص 430.

(30) ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، ترجمة 995، ابن الآبار: التكملة، جـ 2، رقم 1394.

(31) ابن الآبار: ن. م ترجمة 2080.

(32) ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، ترجمة 535.

(33) ن. م ترجمة 1194.

ابن الآبار: م. س. جـ 1 رقم 1053.

(34) ابن الآبار: المعجم رقم 295.

بالسبع، ورواية الحديث فللفقه رونق ووجاهة، وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى أن الملثمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه، وكان لقب الفقيه يطلق على أي عالم في فرع من فروع العلم[35].

وساعد على نمو الحركة العلمية النشاط في حركة اقتناء الكتب وتأسيس المكتبات، وانتشرت المكتبات ليس في المدن الكبرى، بل في القرى الصغيرة أيضاً[36]، وتنافس الأغنياء في جميع الكتب الجديدة، وضمها إلى مكتباتهم(*)، ولم يكن تأسيس المكتبات مقصوراً على الأثرياء وحدهم، بل إننا نجد هذه الرغبة أيضاً عند الطبقات الفقيرة[37].

وكان لبعض أمراء المرابطين اهتمام بالعلم وتنافسوا في اقتناء الكتب فيحدثنا ابن الأبار[38] عن الأمير المنصور بن محمد بن الحاج اللمتوني بقوله: «كان ملوكي الأدوات سامي الهمة، نزيه النفس، راغباً في العلم، منافساً في الدواوين العتيقة والأصول النفيسة جمع من ذلك ما عجز أهل زمانه».

ولم يقتصر أمر جمع الكتب على الرجال وحدهم، بل شاركتهم النساء في ذلك، ولم تكن المرأة في هذا العصر كما تخيلها كثيرون جالسة مسترخية على الوسائد الوتيرة، تستنشق عبير البخور المتصاعدة من المواقد، قابعة داخل الحريم[39].

واشتهرت بعض النساء اللائي تتلمذ عليهن طلبة العلم مثل الحرة تاج النساء

---

(35) المقري: م. س. جـ1 ص 221.

(36) د. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، ص 49.

(*) وصف الحجاري: أبا إسحق إبراهيم بن عبيد الله المعروف بالنواله. وصفه الحجاري بأنه بحر أدب ليس له ساحل، وأفق رئاسة قد زينه الله بنجوم المكارم والفضائل وأنه كان ممن يؤخذ من ماله وأدبه وأنه استعان بخزائن كتبه العظيمة على ما صنفه في كتاب المسهب، وبلغ في دولة الملثمين من الجاه والمال والذكر بقرطبة ما لم يبلغه أحد.
ابن سعيد: المغرب جـ 1 رقم 15 ص 71.

(37) المقري: م. س. جـ 1 ص 462. خوليان ريبيرا: المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا ترجمة د. جمال محرز، مجلة معهد المخطوطات العربية مجلد 4 سنة 1958 ص 92.

(38) ابن الأبار: المعجم رقم 173، ص 193.

(39) خوليان ريبيرا: م. س. ص 92.

بنت رستم التي قرأ عليها عدد من الطلبة، منهم الفقيه العالم عمر بن عبد المجيد بن خلف[40]، وروى قراءة وسماعاً عن أم الفتح فاطمة بنت أبي القاسم الشراط، ابنها القاسم بـن محمد بن سليمان الأنصاري الأوسي[41].

وأخذ عن أم العفاف نزهة بنت أبي الحسين سليمان اللخمي القراءات، وتلا عليها حفيدها محمد بن أحمد بن يحيى بن أبي القاسم سيد الناس، فتلا عليها بالتسع، السبع المشهورة، وقراءتي يعقوب وابن محيص[42].

وتلت فاطمة بنت أبي القاسم عبد الرحمن على أبيها القرآن بحرف نافع، ثم استظهرت عليه تنبيه مكى وشهاب القضاعي، ومختصر الطليطلي، وقابلت معه صحيح مسلم، والسير وتهذيب ابن هشام وكامل المبرد، وأمالي القالي قرأته على أبو محمد عبد الله الأندرشي الزاهد وابن المفضل الكفيف، وحدث عنها ابنها أبو القاسم بن الطيلسان، وتلا عليها القرآن بقراءة ورسم، وقرأ عليها ما عرضت على أبيها من الكتب، وسمع عنها الكثير، وأجازت له بخطها[43].

وكان في إمكان المرأة أن تتعلم الخط والنحو والشعر، ولم يقتصر هذا الأمر على نساء الطبقة العليا أو الدنيا، واحترفت مئات من النساء نسخ المصاحف وكتب العبادات التي يكثر الإقبال عليها، وكنّ يبعْنها فيما بعد إلى الوارقين لما يمتزن به في عملهن من إتقان كبير، ومهارة في الكتابة، هذا فضلاً على أنهن أرخص أجراً[44].

والقرآن الكريم كان أكثر انتساخاً، إذ يقرأه التلاميذ في المدارس ويتلوه المصلون في صلواتهم، ويقرأ ويرتل في المساجد إلى غير ذلك، وكانت نسخ المصاحف أحسن الكتب من حيث الشكل، وتجويد الخط، وفخامة التغليف وهناك دائماً نساخون متفرغون بصفة خاصة لنسخ المصاحف سواء أكان ذلك لعظم الربح الذي يدره عليهم كتابتها، أو تبركاً بها[45].

(40) ابن عبد الملك: م. س سفر 5، قسم 2، ترجمة 780، ص 450: 454.
(41) ن. م ترجمة 1090، ص 557.
(42) ابن عبد الملك: م. س. ترجمة 1245 ص 653: 662.
(43) ن. م سفر 8، قسم 2، رقم 267، ص 489.
(44) خوليان ريبيرا: م. س. ص 94.
(45) ن. م.

وأقبل الأمراء والنبلاء على الثقافة والعلم، كما أقبل عليها عامة الملثمين، وتحدثنا كتب التراجم، التي سجلت أعمالهم عن بعضهم مثل المنصور بن الحاج داود بن عمر الصنهاجي اللمتوني الذي سمع بقرطبة من أبي محمد بن عتاب، وأبي بحر الأسدي، وبمرسية من أبي علي الصدفي، ومع أنهن رؤساء لمتونة وأمرائها، فقد برع في معرفة الأخبار والسنن والآثار، وصحب العلماء للسماع، بل نافس في الدواوين والأصول العتيقة وجمع من ذلك ما لم يجمعه أحد من أهل زمانه، وهو فخر صنهاجة، ليس مثله[46].

وتتلمذ الأمير عمر بن إمام بن معتز الصنهاجي أمير المرية على الشيخ أبي علي الصدفي، وبلغ من علمه أن سمي بالفقيه القائد[47]، وأخذ الأمير أبو إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، على نفس العالم أبي علي الصدفي، أثناء إمارته على مرسية[48]، وأخذ الأمير ميمون ابن يس الصنهاجي اللمتوني عن شيوخ المرية، ورحل إلى مكة، وحدث الناس بالأندلس وسمع منه الناس بإشبيلية[49].

بينما نجد أمير المسلمين علي بن يوسف استجاز له عبدالله الخولاني جميع رواياته لعلو إسناده، وبرع الأمير أبو بكر الصنهاجي في العلم وتبحر فيه، فلما توفي كتب على شاهد قبره، هذا قبر الشيخ الفقيه الخطيب الحاج أبو بكر الصنهاجي[50].

وذاع صيت طائفة من هؤلاء الملثمين في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس مما يدل بوضوح، أن الملثمين لم يكونوا أعداء للعلم أو الثقافة، فاشتهر منهم زاوي بن مناد بن عطية الله بن المنصور الصنهاجي المعروف بابن تقسوط، الذي كان من أعلام مدرسة دانية وجلة شيوخها[51]، وخلوف بن خلف الله الصنهاجي الذي سمع بقرطبة وولي قضاء غرناطة[52] وغيرهم كثير.

(46) ابن الأبار: التكملة، جـ 1، ص 163 ط. مدريد.

(47) ن. م. ص 269.

(48) ابن الأبار: المعجم رقم 40، ص 55.

(49) ابن الأبار: التكملة جـ 2، رقم 1823 ص 718.

(50) د. حسن محمود: م. س ص 439.

Lévi - Provencal, Inscription Arabes d'Espagne, P. 123.

(51) ابن الأبار: المعجم رقم 75، ص 89.

(52) ابن القاضي: جذوة الاقتباس ص 84.

واستمر هذا النشاط في التعليم، وأبقى الموحدون على هذه المدارس، بعد أن ورثوا حكم المرابطين غير أنهم أدخلوا لمناهج التعليم تعاليم المهدي بن تومرت وتصانيفه في العلم مثل كتاب أعز ما يطلب والمرشدة، وعقائد في أصول الدين، وموطأ المهدي[53].

وكان عبد المؤمن مؤثراً لأهل العلم، محباً لهم، محسناً إليهم، يستدعيهم من البلاد إلى القدوم عنده والجوار بحضرته، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم[54]. واتبع مع الحفاظ طريقة خاصة في تربيتهم وأشرف بنفسه على تعاليمهم واختارهم من مدن مختلفة من نجباء الصبيان الأذكياء في سن صغيرة متقاربة بلغ عددهم حوالي ثلاثة آلاف. فعهد إليهم بحفظ كتاب الموطأ وكتاب أعز ما يطلب وغير ذلك من تواليف المهدي، وكان يدخلهم كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر، فيجتمع الحفاظ فيه، فيأخذهم يوماً بتعليم ركوب الخيل، ويوماً بالرمي بالقوس، ويوماً بالسباحة في بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة، طول تربيعها نحو ثلاث مائة باع، ويوماً يأخذهم بأن يجدفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة، فتأدبوا بهذه الآداب، تارة بالعطاء، وتارة بالأدب، وكانت نفقتهم وسائر مؤونتهم من عنده وخيلهم وعدتهم كذلك[55].

---

(53) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 188.
الحلل الموشية ص 150.
(54) م. ص. 200.
(55) الحلل الموشية: ص 150.

ثانياً: مراكز الثقافة

من العسير في هذا البحث التحدث بالتفصيل عن مراكز الثقافة في الأندلس في أواخر المرابطين وبداية الموحدين، فقد كانت كل مدن الأندلس كبراها وصغراها مراكز ثقافية[56]، وفترة الطوائف الأولى كانت عاملاً مشجعاً لظهور هذه المراكز بسبب المنافسة بين أمراء هذه الدويلات. إذ كان همهم الأول هو أن يتباهوا بالقول «بأن العالم الفلاني عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني[57]».

وقد نهضت مدارس الأندلس في عهد المرابطين بعد أن اطمأن العلماء وهدأوا واستقرت أحوالهم، ومن أهم هذه المدارس قرطبة، وإشبيلية ومرسية وبلنسية وألمرية ودانية وطرطوشة وشاطبة، وسرقسطة، وغرناطة، وبطليوس وشلب وغيرها. وأقام الموحدون صرح مدارسهم وثقافتهم على الأسس التي بثها المرابطون فأفادوا من العوامل التي شجعوها وشدوا من أزرها.

وتتزعم هذه المراكز قرطبة بوصفها قاعدة الأندلس، ومركز الحكم يرتحل إليها طلاب العلم من الأندلس والمغرب، وبتوسطها للأندلس، وسهولة الطرق الموصلة لها وشهرة علمائها وأدبائها جعلتها المحج لطلاب العلم والشهرة، يقول الحجاري[58]: «أنها قبة الإسلام ومجتمع أعلام الأنام فإليها كانت الرحلة في الرواية، إذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء وهي من الأندلس منزلة الرأس من الجسد».

(56) انظر، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب جـ1، جـ2.
ابن بسام: الذخيرة.
المقري: نفح الطيب.

(57) من رسالة الشقندي يفخر بالأندلس. المقري: نفح الطيب جـ3 ص 190.

(58) المقري: م. س. جـ 1، ص 153، 558.

(59) كان فقهاء قرطبة هم الذين أفتوا بحرق كتاب الإحياء للغزالي.

ولا شك أن للمكانة التي تمتع بها فقهاء المالكية في قرطبة سواء في عهد الخلافة الأموية أو من عهد المرابطين جعل لهؤلاء الرأي الأول في كثير من النوازل والمشاكل التي يعايشها الناس، بل ظهر تأثيرهم القوي والفعال حتى في الكتب التي تتداول للقراءة[59]، حتى أنهم يقولون في الأحكام في بلاد المغرب هذا ما جرى به عمل قرطبة[60].

وظلت التخصصات التقليدية الفقهية على الخصوص هي المهيمنة على تسيير الحركة الفكرية والعلمية فيها، ولم تعرف الحيوية الموجودة، في شرق الأندلس فهي منغلقة على نفسها تستقبل طلاب العلم فقط[61]، ومن يطمح في أن يجد له مكاناً بين خاصة الفقهاء.

وعلاوة على كونها مركزاً مهماً للعلوم الفقهية فقد تكونت فيها مدرسة صوفية ملتزمة بالمذهب السني السلفي وكان على رأسها أبو الحسن بن غالب، ولم يكن من قرطبة، ولكنه من أهل شلب رحل إليها واستقر بها، وصفه ابن الزبير[62] بشيخ الصوفية في وقته.

واشتهرت قرطبة بأنها أكثر مدن الأندلس اهتماماً باقتناء الكتب وقراءاتها وامتلاك المكتبات التي ينفق فيها المال الكثير. قال ابن سعيد عنها[63] «وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة، حتى أن الرئيس منهم الذي لا يكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به[64].

---

(60) المقري: م. س. جـ 1 ص 556.

(61) Urvoy, Dominique, op cit P. 253.

(62) ابن الزبير: م. س. رقم 201، ص 99، 100.

(63) المقري: م. س جـ 1، ص 462.

(64) قال الحضرمي «أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أرتقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء إلى أن وقع وهو بخط جيد وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إلى المنادي بالزيادة علي، إلى أن بلغ فوق حده فقلت له: يا هذا، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي، قال: فأراني شخصاً عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت له: أعزّ الله سيدنا الفقيه، =

ومع كل هذه الشهرة التي نالتها قرطبة كمركز للدراسات الفقهية، والأدبية، وما ناله فقهاؤها من احترام، ظلت محافظة على هذا النمط لا تقبل أي تيار فكري خارج عن عقيدة السلف والمذهب المالكي[65].

أما إشبيلية فقد ارتفع ذكرها كمركز من مراكز الأدب والفن والموسيقى والطرب[66].

هاجرت إليها أسر علمية عريقة مثل أسرة بني زهر التي نبغ منها عدد كبير من الأطباء والشعراء، ويكفيها فخراً أن القاضي الفقيه أبي بكر بن العربي أحد أبنائها.

وشهرة إشبيلية ارتبطت بالمعتمد بن عباد منذ كانت حاضرة ملكه، فازدهر فيها الأدب والشعر بصفة خاصة، واستمرت هذه النهضة الأدبية التي أتيحت للمدينة في عهد المرابطين عندما اتخذوها مركزاً لإقامتهم ثم ازدادت شهرة المدينة في عهد الموحدين عندما جعلوها قاعدة الحكم في الأندلس، إذ كانت أولى الحواضر التي استولوا عليها، وساعد على ازدهارها تواجد العنصر العربي بكثرة فيها[67].

وقد يسر قرب المسافة بين قرطبة وإشبيلية تنقل العلماء وطلاب العلم بين المدينتين وشجع على الاستقرار بإشبيلية وجود فرص للعمل لم تكن متوفرة في غيرها من المدن، فأتت إليها الشخصيات المرموقة والمشهورة في الميادين الثقافية والقضائية والسياسية، وصاحب قدوم هذا العدد الكبير إلى إشبيلية انتقال الإشبيليين إلى مناطق أخرى من الأندلس[68].

= إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده، قال: فقال لي: لست بفقيه، ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط وجيد التجليد استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير، قال الحضرمي، فأحرجني، وحملني أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك، يعطي الجوز من لا عنده أسنان وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه..
المقري جـ 1، ص 463.

(65) Urvoy, Dominique, op cit P. 235.

(66) انظر الرسالة الفصل الخاص بالحياة الاجتماعية.

(67) Urvoy, Dominique op cit p. 251.

(68) د. محمد بن عبود: التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية ص 150.

إن بروز إشبيلية كمركز ثقافي هام يرجع إلى الخط المتميز الذي سارت عليه. فلم تكن محافظة أو تقليدية مثل قرطبة، وكان لها موقفها من كتب الغزالي وهو مخالف لقرطبة، فقد استمر تدريسه وقراءته على شيوخها وعلى رأسهم أبو بكر بن العربي الذي أخذه عليه أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي (575 هـ/ 1179 م) وروى عنه تآليف الغزالي كلها ورواها أيضاً عن أبي الحسن عباد بن سرحان المعافري[69].

واحتلت إشبيلية المركز الدائم للحركة الصوفية الذي تنطلق منه تعاليمه إلى جماعة المريدين التي انتشرت مراكزها في جهات الأندلس، فكان بها إمام الحركة ورئيسها أبي الحكم بن برجان، وشيخ مشيخة الصوفية أبو عبدالله بن المجاهد[70].

فكانت إشبيلية تجمع بين المتناقضات بين التدين والتمسك بالعقيدة والزهد إلى درجة التصوف وبين اللهو والعربدة التي تبلغ أقصاها في واديها وقال صاحب مناهج الفكر[71] عند ذكر إشبيلية، وهذه المدينة من أحسن مدن الدنيا، وبأهلها يضرب المثل في الخلاعة، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة، ويعينهم على ذلك واديها الفرج وناديها البهج.

أما غرناطة فكانت مركزاً من مراكز العلم التي اجتمع فيها العلوم الفقهية والفلسفية والصوفية وكثر بها التأليف في كتب الفقه، وكان من أئمة علمائها الذين يشدون الرحال إليه العالم الفقيه علي بن محمد بن عبد الرحمن بن الضحاك ويعرف بابن البقري (ت: 552 أو 557 هـ/ 1161 م) وقال عنه ابن الزبير[72] كان فقيهاً محدثاً متكلماً له تواليف كثيرة منها كتابه «السداد في شرح الإرشاد» وكتاب «مدارك الحقائق، في أصول الفقه» في خمسة عشر جزءاً وله رسالتان في التصوف.

واشتهرت دانية بالقراءات منذ عهد مجاهد العامري واستمرت في المحافظة على مركزها في هذا العلم في عهد المرابطين، فكان يحج إليها الطلاب من جميع

---

(69) ابن خير الإشبيلي: فهرست ما رواه عن شيوخه ص 446.

(70) انظر، الفصل الثاني من الباب الأول.

Urvoy, Dominique, op cit p. 256.

(71) المقري: م. س حـ 1 ص 159.

(72) ابن الزبير: صلة الصلة رقم 29 ص 20.

أنحاء الأندلس للأخذ على قرائها المشهورين[73].

ولم تكن ألمرية مدينة صناعة النسيج الأولى في الأندلس فحسب، بل كانت مركز الصوفية والعلوم الفقهية، وقد لعبت دوراً مهماً في تطور العلوم الدينية، ولمعت بعدد كبير من أسماء علمائها ومفسريها ومتصوفتها، وتميزت بتواجد التيارات الفقهية التقليدية والحركات الجديدة جنباً إلى جنب.

وزاد من شهرة ألمرية شيخها أبو العباس بن العريف، الذي قصده العباد وأهل الزهد من جميع أنحاء الأندلس والعدوة يأخذون عنه ويتتلمذون عليه، وتفوقت ألمرية على مدن الأندلس بصوفية ابن العريف حتى أنها كانت تعد أعظم المراكز الروحية في الغرب الإسلامي، ومنها خرج عدد كبير من الصوفية[74].

وكان لفقهائها موقفهم المستقل والمعارض لفقهاء قرطبة بخصوص كتب الغزالي وتزعم هذا الرأي أبو الحسن البرجي وأبو بكر عمر بن الفصيح وأبو القاسم بن ورد[75].

ولأهمية ألمرية كميناء رئيسي للأندلس جعلها ملتقى للمسافرين إلى المشرق سواء للحج أو للتجارة أو طلب العلم وأيضاً للعائدين منه حاملين معهم أفكاراً وتياراتٍ جديدة، مما أثر على الاتجاه الفكري في ألمرية وجعلها متميزة عن غيرها من حواضر الأندلس.

وفي واقع الأمر نجد أن معظم مدن الشرق مثل مرسية وبلنسية ودانية وشاطبة وشقر وجزر ميورقة ومينورقة كانت لها نفس اتجاهات ألمرية تقريباً في الناحية الفكرية، ولعبت هذه المدن دوراً رئيسياً في ازدهار العلوم الإسلامية، ومن خلال كتب التراجم نتعرف على عدد كبير من أسماء الفقهاء والعلماء، ومن الملاحظ أيضاً أنه بعد سقوط سرقسطة انتقل عدد كبير أو جل علمائها إلى نواحي الأندلس خصوصاً مدن الشرق، وكانت سرقسطة من المراكز المهمة التي ازدهرت فيها علوم الفلك والطب والفلسفة في عهد أميرها أبي بكر بن تيفلويت لتشجيعه الفيلسوف العالم ابن باجة.

(73) ابن بسام: الذخيرة القسم الثالث ـ المجلد الأول ص 23.

(74) ابن بشكوال: الصلة رقم 176 ص 83.

(75) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة ـ سفر 5 رقم 1، 604 ـ ص 308.

وكان لهجرة هؤلاء العلماء إلى مدن الشرق تأثير كبير في اتجاهها الفكري، فأخذت اتجاهاً مخالفاً لما كانت عليه قرطبة، فتواجدت التيارات الدينية التقليدية والحركات الجديدة كالصوفية، والظاهرية بالنسبة للفقه[76].

وارتبطت مدينة شلب في منطقة الجوف (الشمال) بالحركة الصوفية في ألمرية وإشبيلية، وتأثرت هذه الحركة بأفكار الباطنية وفلسفة الغزالي. فكان هناك محوراً يربط بين هذه المراكز الثقافية...

---

(76) Unvoy Dominique, op cit pp. 255 end 256.

الفصل الثالث

العلوم النقلية

الفقه: ابن رشيد الجد - أبو الوليد الباجي - ابن جامع الجياني - ابن خلف السكوني - ابن القابلة - ابن سعيد - ابن العربي - ابن مروج.

القراءات: ابن غلام الفرس - ابن الباذش - ابن ذي النون الحجري - ابن الحاج الرقاق - ابن هذيل - ابن عظيمة - ابن النعمة - ابن يحيى المعافري.

التفسير: ابن ورد - ابن غالب المحاربي - ابن عز الناس - عبد الجليل القصري.

الحديث: القاضي عياض - ابن بيبش - ابن الأمين - ابن عبد الملك بن إبراهيم الأنصاري - ابن الصيقل - الرشاطي - ابن الخراط - الأمير علي بن يوسف - الخليفة عبد المؤمن.

علم الكلام: ابن العربي - القاضي عياض - ابن موسى الألبيري - ابن باق - ابن عبد الرحمن السرقسطي - أبو بكر بن المتحل - أحمد بن مضاء - أبي العباس الجروي - ابن عزّ الناس.

كان المرابطون على المذهب المالكي، فانتصروا لفقهاء المذهب، الذين استعادوا نفوذهم في عهدهم، فنشط التأليف في الفقه والرواية والحديث وظهر عدد من أئمة هذا الفقه لم يتكرر أمثالهم، يقول المراكشي عن الأمير علي بن يوسف، «ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من عَلِم عِلْم الفروع أعني فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب»[1].

ومع أنه من المتعذر علينا أن نذكر جميع الأندلسيين الذين ألفوا في الفقه على مذهب مالك، ووضعوا عليه الشروح والتعليقات في هذه الفترة، لأن ذلك الإحصاء يطول، ولهذا فنكتفي ببعض الأمثلة، كما أنه لا يمكن دراسة مؤلفاتهم فهذا ليس مجالنا وإنما أكتفي بذكر بعض هذه المؤلفات للدلالة على ازدهار الحركة العلمية.

أولاً: الفقه:

فعلى قمة فقهاء المالكية أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد[2] (450 : 520 هـ) (1058 :1126 م) فقيه الأندلس وعالم العدوتين، ومقدماً على جميع أهل عصره. ومع أن ابن رشد لم يكن في الفترة التي أتعرض لها إلا أنه قريب عهد بها، ترك خلفه مدرسة لها أهميتها وثقلها في حركة التأليف في الفقه المالكي. فقد أخذ

---

(1) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 172.

(2) انظر ترجمته في القاضي عياض: الغنية، تحقيق ماهر زهير جرار، ص 54، 57.
ابن خيرالإشبيلي: فهرسته بإشراف زهير فتح الله ص 243.
ابن بشكوال: الصلة، جـ 2، رقم 1270، ص 576، 577.
الضبي: بغية الملتمس، رقم 24، ص 40 وغيرهم.

عنه عدد لا يحصى من طلبة الأندلس والمغرب، ومن أشهرهم قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن إصبغ الأزدي[3] (ت 536 هـ/ 1141 م)، والفقيه أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الوراق[4] (ت 543 هـ/ 1148 م)، والقاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي[5] (ت 544 هـ/ 1149 م)، والمحدث الفقيه أبو مروان عبد الملك بن مسرة اليحصبي[6]، (ت 552 هـ/ 1157 م)، والمحدث محمد بن يوسف بن سعادة صاحب كتاب شجرة الوهم[7] والحافظ المفسر أبو الحسن علي بن عبد الله الأنصاري المعروف بابن النعمة (ت 567 هـ/ 1171 م)[8] والمؤرخ خلف بن عبد الملك بن بشكوال صاحب الصلة والمؤلفات العديدة (ت 578 هـ/ 1182 م)[9].

وكان أبو الوليد بن رشد بإجماع من ترجموا له ناسكاً عفيفاً، سهل الحجاب، وأستاذاً بطبعه يحب التدريس، ويحسن طرق التبليغ، تسعفه مادة غزيرة، وتفكير منظم، وحرص على نفع الطلبة، ولم ينل ابن رشد تقدير الأوساط العلمية بالأندلس فقط، بل أجله الناس في العدوتين، وكانت له منزلته عند أمير المسلمين علي بن يوسف، ولم يقتصر نشاطه على العلم فقط بل كانت له مواقفه السياسية المعروفة[10]. ومن أشهر مؤلفاته «البيان والتحصيل»، «المقدمات لأوائل كتب المدونة»، «واختصار

(3) ابن بشكوال: م. س. جـ 2، رقم 1388، ص 554، 555.

(4) ن. م. رقم 1298، ص 591.

(5) المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض.
محمد بن القاضي عياض: التعريف بالقاضي عياض ـ تحقيق د. محمد بنشريفة.

(6) ابن بشكوال: م. س. جـ 1، رقم 778، ص 348.

(7) ابن الأبار: التكملة جـ 1، رقم 756، ص 223، 226. (ط. مجريط).

(8) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، سفر 5، قسم 2، ترجمة 455.
ابن فرحون: الديباج ص 185.

(9) ابن الأبـار: المعجم رقم 70، ص 2.
ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ 2، ص 240.

(10) انظر موقفه في ثورة قرطبة (514 هـ/1120 م) ورحيله إلى مراكش 520 هـ وإقناعه الأمير عليّ بن يوسف بتغريب المعاهدين عن الأندلس بسبب تعاونهم ومساعدتهم ألفونسو المحارب على غزو الأندلس كما طلب من الأمير عليّ بن يوسف أن يعزل أخاه الأمير أبي الطاهر تميم عن الأندلس، ونصحه ببناء سور مراكش.
الحلل الموشية: ص 86، 90، 91.
ابن عذارى: جـ 3، ص 6.
ابن القطان: نظم الجمان، ص 107.

المبسوطة» ليحيى بن إسحق بـن يحيى الليثي (ت 303 هـ/ 915 م) «وتهذيب مشكل الآثار» لأحمد الطحاوي الحنفي (ت 321 هـ/ 933 م) «ونوازل ابن رشد» في مجلد ضخم جمعها تلميذه أبو الحسن بن الوزان وتسمى أيضاً الفتاوى والأجوبة.

ويعتبر البيان والتحصيل من أمهات كتب المذهب، فقد استوعب مسائل مستخرجة الأندلسيين، ومدونة القرويين اللتين كان فقهاء الغرب الإسلامي في القرون الأولى يحفظونها عن ظهر قلب، ويقطعون أعمرهم في تدارس ما كتب حولها أو حول المدونة بالخصوص من شروح وتعليقات وتنبيهات وزيادات وتفريعات واختصارات فتمكن ابن رشد بما أوتي من عبقرية نادرة أن يطلع على كل ما كتب قبله وينقده نقد الفقيه المجتهد في نطاق المذهب المالكي، ويحرره بأسلوب واضح يستوي في إدراكه المبتدىء والشادي ثم أضاف إلى ذلك المقدمات الممهدات، «وهي مبنية على مقدمات من الاعتقادات في أصول الديانات، وأصول الفقه في الأحكام الشرعيات لا يسع جهلها ولا يستقيم الفقه في حكم من أحكام الشرع قبلها. فإذا جمعه الطالب إلى هذا الكتاب حصل على معرفة ما لا يسع جهله من أصول الديانات وأصول الفقه، واستغنى لمعرفة ذلك كله عن الشيوخ في المشكلات وحصل في درجة من يجب تقليده في النوازل المعضلات»[11].

فهذا الكتاب يغني الدارسين في الفقه عن قراءة الكتب المشتبكة المتراكمة، بل ويمكنهم الاستغناء بهذا الكتاب والمقدمات عن الشيوخ أيضاً ما دام الفقه قد أصبح مصفى جلياً موطأ الأكناف، وعمروا أوقاتهم بدراسة ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم بدلاً من التكرار، وتراكم المختصرات والشروح والحواشي، بما أفسد الفقه وجمده، وكان من أسباب التأخر الفكري عند المسلمين.

ومن أئمة فقهاء الفقه المالكي والذي تأثر به عدد كبير من علماء الأندلس أبو الوليد سليمان بن خلف بن وارث التجيبي الباجي، (402 :473 هـ) (1012 :1081 م) ومؤلفاته تكاد تكون كلها في علوم الفقه والقرآن وخاصة في أصول الأحكام، وشرح الموطأ وانتفع بمؤلفاته العدد الكبير من طلاب العلم والمعرفة ومن أهمها كتاب التسديد إلى معرفة التوحيد، وكتاب سنن المنهاج وترتيب الحجاج، وأحكام الفصول

(11) مقدمة البيان والتحصيل، ص 32.

في أحكام الأصول، والتعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الصحيح، وشرح الموطأ وهو أحسن ما ألف في مذهب مالك لأنه شرح فيه أحاديث الموطأ وفرع عليها تفريعاً حسناً وله كتاب الإشارة في أصول الفقه، وكتاب الإيماء في الفقه وغيره.

غير أن كتبه لم تشهره قدر اشتهاره بمساجلاته ومجادلاته مع ابن حزم ولم يكن أحد في الأندلس يستطيع مجادلته قبله، فناظره وأفحمه، وشهر باطله وله معه مجالس كثيرة[12].

وكثر التصنيف في أصول الفقه، فصنف محمد بن أحمد بن إبراهيم بن جامع الأنصاري الجياني (ت 546 هـ/ 1151 م) في مسائل الخلاف تعليقه المشهور في سبعة أسفار، ومن مصنفاته كتاب أسرار الإيمان في سفر واحد، وقد نزل بعد رجوعه من المشرق بجامع القرويين يدرس الفقه، وأقام بها مدة، ثم تحول إلى بلده جيان، فجلس فيها بمسجده المنسوب إليه للوعظ والقصص وإيراد حكايات الصالحين، ونحا منحى الزهد، وكانت العامة تنتاب مجلسه، واستمر على ذلك إلى عام 539 هـ/ أو 540 هـ (1144 أو 1145 م) فخرج من بلده للفتنة الدهماء التي اجتاحته، وقصد مدينة فاس، وقام بها يدرس الفقه وأصوله ومسائل الخلاف إلى وفاته[13].

وظهر في هذه الفترة عبد الغفور بن إسماعيل بن خلف السكوني من أهل لبلة الذي روى عن أبيه وعن أبي الحكم بن برجان وعن أبي العباس بن العريف، وكان من الفقهاء المشاورين، رحل إلى المشرق في صدر عام 540 هـ (1145 م) عند ابتداء فتنة المريدين والفقهاء بالأندلس[14].

ومنهم أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن عثمان (ت 565 هـ/ 1169 م) ويعرف بابن القابلة، أخو أبو بكر محمد بن القابلة داعية ابن قسي، وكان عالماً متفنناً، وفقيهاً متمكناً. وكاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً، عنده حظ وافر من علم الأصول

(12) المقري: نفح الطيب جـ 2، ص 62، 84.
ابن بشكوال: م. س. جـ 1، رقم 453، ص 197.
ذكرت أبا الوليد الباجي لأن عدداً من المريدين أخذ العلم عنه من بينهم أبي العباس ابن العريف جـ 1.
(13) ابن عبد الملك: م. س، سفر 5، قسم 2، ترجمة 1151، ص 582، 584.
(14) ابن الزبير: ترجمة رقم 52، ص 37.

وعلم الكلام والطب انتقل من قرطبة عندما بدأت الفتنة إلى بلده شلطيش ثم رحل إلى مراكش[15].

وانتقل الفقيه عبد الحق بن عبد الرحمن بن سعيد الأزدي (ت 582 هـ/ 1186 م) من إشبيلية بلده أثناء الفتن إلى لبلة، ثم رحل إلى بجاية وألف كتاب الأحكام الكبرى والصغرى وكتاب «الرقائق، والعاقبة، والتهجد، والتلقين»، و«المجمع بين الصحيحين»، و«اختصار كتاب أبي محمد الرشاطي»[16].

وتربع على قمة علماء الفقه في عهد المرابطين وبداية الموحدين القاضي أبو بكر بن العربي، والذي وصفه تلميذه ابن بشكوال[17] «بالإمام العالم الحافظ المستبحر، ختام علماء الأندلس آخر أئمتها وحفاظها»، ولابن العربي مؤلفاته العديدة وتلاميذه الذين انتشروا في أنحاء الأندلس والمغرب، وتنوعت هذه المؤلفات سواء في الفقه أو الحديث أو الأدب. منها العواصم من القواصم، وقانون التأويل، وكتاب «القبس في شرح موطأ مالك» وأحكام القرآن. وله في الرحلات كتاب ترتيب الرحلة، وله في مدح الرسول «أنوار الفجر»، كما ألف في النحو كتابه «التلخيص في النحو»، وبلغت مؤلفاته حوالى أربعين كتاباً. ولما اضطربت أمور المرابطين بالأندلس وغلب الموحدون على إشبيلية، عبر إلى المغرب على رأس وفد كبير من علمائها وأعيانها ولقي الخليفة عبد المؤمن بمراكش أوائل سنة 542 هـ (1147 م) عقب افتتاحها وقدم إليه بيعة أهل إشبيلية، وتوفي في نفس العام أثناء عودته، ومن الملاحظ أن ابن العربي برغم تحوله إلى الموحدين إلا أنه لا يضن بمديحه للمرابطين وعهدهم[18].

وألف عبد الله بن أيوب ويعرف بابن حروج (ت 562 هـ/ 1166 م) كتاباً مفيداً في الفقه أسماه المنوطة على مذهب مالك في ثمانية أسفار، وكان فقيهاً حافظاً لمذهب مالك وله اجتهاداته ومدرسته التي أخذ عنها الكثير من طلبة المالكية[19].

---

(15) ن. م. رقم 200، ص 98.

(16) ن. م، رقم 9، ص 5، ابن فرحون: الديباج، ص 182.

(17) لأبي بكر بن العربي ترجمة مفصلة في الدراسة التي نشرها الدكتور عمار طالبي في مقدمة كتاب ابن العربي العواصم من القواصم ونشره تحت عنوان آراء ابن العربي الكلامية.

(18) المقري: م. س. جـ 3، ص 180، 183.

(19) ابن فرحون: م. س. ص 141.

ومن الملاحظ أن جل هؤلاء الفقهاء لم تقتصر تآليفهم على الفقه فنجد أنهم يؤلفون في الفقه وفي الحديث وفي التفسير وفي اللغة وغير ذلك من فنون العلم.

ثانياً: القراءات:

عني المسلمون بدراسة القواعد المحكمة بقراءة القرآن الكريم، وما ينبغي لها من مد وغَنٍّ ووقف وما إلى ذلك، واهتموا بتأليف الكتب في تلك الفروع، لأن مراعاة الأصول المقررة في قراءة الكتاب تؤدي إلى تقويم النطق بالآيات الكريمة على صورة ثابتة، وتوحيد التلاوة، وبلغ عدد الأساليب الرئيسية لتلاوة القرآن سبعة، هي المعروفة بالقراءات السبع، وكان إتقانها يتطلب درساً طويلاً، ولا بدّ لقراءة القرآن في المساجد من التمكن من ذلك الفن[20].

وكان أهل الأندلس يتبعون القراءات المشرقية إلى أن ملك مجاهد العامري بمشرق الأندلس في منطقة دانية قال عنه ابن حيان[21] «كان مجاهد فتى أمراء دهره وأديب ملوك عصره لمشاركته في علم اللسان، ونفوذه في علم القرآن، عني بذلك من صباه وابتداء حاله إلى حين اكتهاله، حتى صار في المعرفة نسيج وحده، وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمة». فنفقت بدانية سوق القراءة، لما كان هو من أئمتها، فظهر لعهده أبو عمرو الداني (ت 544 هـ/ 1053 م) الذي قيل عنه: «إليه المنتهى في علم القراءات وإتقان القرآن، والقراء خاضعون لتصانيفه، واثقون بنقله في القراءات والرسم والتجويد والوقف والابتداء وغير ذلك»[22] وله مائة وعشرون مصنفاً، من بينها كتاب التيسير الذي تناوله الناس[23].

واستمرت هذه المدرسة في الازدهار في عهد المرابطين فظهر أبو عبد الله محمد بن الحسن ابن سعيد المقرىء (473 هـ/ 547 هـ) (1080 :1152 م) ويعرف بابن غلام الفرس، ويعتبر أمهر مجودي القرآن، ومتقني أدائه، ومن جلة المحدثين، وأهل الضبط، مشاركاً في علوم جمة، يتحقق منها بعلم القرآن والأدب، كتب جامع الترمذي، في مجلد واحد. وكان الناس يرحلون إليه للسماع والقراءة عليه لروايته،

---

(20) ابن خلدون: المقدمة، ص 994.

(21) ابن بسام: الذخيرة القسم الثالث ـ المجلد الأول ص 23.

(22) المقري: م. س. جـ 2، ص 136.

(23) ن. م. جـ 3، ص 180.

يقول عنه ابن الأبار[24]: «آخر المقرئين المحدثين بشرق الأندلس، انتهت إليه الرياسة في معرفة القراءات، وعليها، مع الحظ الوافر من الحديث وحفظ أسماء رجاله».

ومن الكتب المهمة في القراءات كتاب «الإقناع» وهو من أجل كتب القراءات، وكتاب «الطرق المتداولة» وقد ألفهم أشهر أئمة القراءات أحمد بن علي بن أحمد بن خلف المعروف بابن الباذش، (ت 540 هـ/ 1145 م)[25].

وكان أهل ألمرية وما يجاورها يزدحمون في شهر رمضان من كل سنة لسماع أبي عبد الله محمد بن علي بن علي بن ذي النون الحجري (505 :591 هـ/ 1111: 1194 م) الذي بعد صيته، وعلا ذكره في القراءات، واستدعي إلى حضرة السلطان بمراكش ليسمع عليه هناك، فتوجه وأقام حيناً، وحدث عنه عالم من الجلة الأعلام بالأندلس والعدوة[26].

أما أبو محمد بن الحاج الرقاق (قاسم بن الحاج محمد بن مبارك الأموي) (ت 559 هـ/ 1163 م) فكان مقرئاً مجوّداً، متقدماً في صنعة التجويد، ومتحققاً بالنحو ماهراً فيه، لقي مشايخ جلة، وقيد كثيراً وعني بالعلم عناية تامة، وصنف في السبع البديع الذي فضله كثير من الشيوخ على معظم ما صنف في فنه[27].

وتلا أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن هذيل (479 :564 هـ/ 1078: 1168 م) بالقراءات السبع وغيرها، فكان صدر المقرئين وإمام المجودين، عمر فانتهت إليه رياسة الإقراء بشرق الأندلس في عصره[28].

وصنف أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن بن الطفيل العبدي المعروف بابن عظيمة (ت 543 هـ/ 1148 م) في القراءات، وما يتعلق بها كتباً نافعة منها «جالب

---

(24) ابن الأبار: التكملة، جـ 2، رقم 1312، ص 475.
ابن عبد الملك المراكشي: م. س. سفر 6، ص 163، 166، رقم 440.
غاية النهاية: جـ 2، ص 121.

(25) ابن فرحون: م. س. ص 42.
ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 1 ص 194.

(26) ابن الأبار: التكملة، جـ 2، رقم 208، ص 865.

(27) ابن عبد الملك: م. س. سفر 5، قسم 2، ترجمة 1104، ص 570.

(28) ن. م. سفر 5، قسم 1، رقم 638.

الإفادة في مخارج الحروف» وله أرجوزة في القراءات السبع «وشرح قصيدة الشقراطيسي»، وله أيضاً كتاب «الفريضة الحمصية في شرح القصيدة الحضرية». وعلاوة على ذلك كان صدراً في أهل التجويد للقرآن الكريم، وإليه وإلى بنيه كانت الرياسة في الإقراء[29].

أما خاتمة علماء القراءات بشرق الأندلس، في عصره أبو الحسن بن النعمة (490 :567 هـ/ 1096 :1171 م) فعلاوة على أنه كان مقرئاً مجوّداً، فقد كان مفسراً محدثاً راوية حافظاً، وفقيهاً مشاوراً، بارعاً في علوم اللسان، وله مصنفات جامعة منها «ري الظمآن في تفسير القرآن» ومنها «الإمعان في شرح مصنف أبي عبد الرحمن» بلغ فيه الغاية من الاحتفال وحشد الأقوال[30].

وكان أبو داود سليمان بن يحيى المعافري (ت بعد 540 هـ/ 1145 م) مقرئاً محققاً مجوّداً ماهراً حتى أنه عرف بأبي داود الصغير، اقرأ القرآن بقرطبة زمناً طويلاً، وقصده الناس للأخذ عنه، وانفرد في وقته براويته عن الحصري[31].

ثالثاً: التفسير:

زاد الاهتمام في هذه الفترة بتفسير القرآن، وفهم معانيه، وشرح كلمة من الناحية اللفظية واللغوية، ومن ناحية المعاني والأفكار، وكان معظم اعتمادهم في التفسير على الحديث النبوي قولاً وعملاً، وهدفهم التوفيق بينه وبين آي الذكر الحكيم، وتجنبوا طريق العقل والتأويل الذي التزمه المعتزلة والشيعة، واتخذوه وسيلة لنشر مبادئهم.

فاشتهر أبو القاسم أحمد بن عمر بن يوسف المعروف بابن ورد (ت 540/ 1146 م) والذي انتهت إليه الرياسة في مذهب مالك وإلى القاضي أبي بكر بن العربي في وقتهما، ولم يتقدمهما بالأندلس أحد بعد وفاة القاضي أبي الوليد بن رشد، فكان

---

(29) ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، رقم 952، ص 359، 361.
ابن الأبار: التكملة، جـ 2، رقم 1281.

(30) ابن عبد الملك: م. س. سفر 5، قسم 1، ترجمة 455.
ابن فرحون: م. س. ص 185.

(31) ن. م. السفر: 4، رقم 206، ص 96، 97.

من جلة الفقهاء المفسرين المحدثين في علم الأصول والتفسير، وبجانب ذلك برز في الأدب والنحو والتاريخ[32].

وكان عبد الحق بن غالب المحاربي أحد رجالات الأندلس الجامعين إلى الفقه والحديث والتفسير والأدب، وبيته عريق في العلم، ولي القضاء للملثمين في آخر عهدهم، وتأليفه في التفسير جليل الفائدة، كتبه الناس، وسمعوا منه، وأدرك شهرة عظيمة بتفسيره الذي اختصر فيه كل ما كتب قبله من التفاسير، وراج رواجاً كبيراً في المغرب والأندلس[33].

وألف علي بن صالح بن أبي الليث الأسعد بن الفرج ويعرف بأبي الحسن بن عز الناس (ت 566 هـ/ 1170 م) عدة مصنفات في الفقه والتفسير ومن مؤلفاته كتاب «العزلة» وشرح معاني التحية، وأصله من طرطوشة، ونشأ بميورقة وتجول في بلاد الأندلس يدرس أينما حل، ويتلقى العلم عن أقطاب عصره وكان من أساتذته أبو بكر ابن العربي، وأبو الوليد بن رشد، وأبو القاسم بن ورد، وكان في نفس الوقت أديباً شاعراً، خدم الأمير أبي زكريا بن غانية ولزمه حتى توفي[34].

وللصوفي الكبير أبو محمد عبد الجليل المعروف بالقصري تفسير الكتاب العزيز وشروح الأسماء الحسنى، كما فسر شكل الكتاب والسنّة[35].

وبجانب هؤلاء العلماء المفسرين وكتبهم، كان أهل الأندلس يعتمدون على كتب التفسير التي ألفت سواء في المشرق أو في الأندلس من قبل خصوصاً كتاب «تفسير إعراب القرآن» للإمام العالم أبي محمد مكي بن أبي طالب القرطبي (ت 437/ 1143 م) وكان يشيد به ابن غالب المحاربي ويشجع طلبته على قراءته بجانب تأليفه[36].

---

(32) ابن فرحون: م. س. ص 41.
ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 1، ص 169.
(33) ابن الأبار: المعجم، رقم 340، ص 259.
ابن فرحون: م. س. ص 45، 46.
ابن الزبير: صلة الصلة رقم 5، ص 3.
(34) ابن الزبير: م. س. رقم 196، ص 96.
(35) ن. م. رقم 44، ص 30.
(36) المقري: م. س. جـ 3، ص 179.

وبرغم اعتناق الموحدين فكرة المهدوية فإنهم التزموا بتفاسير أهل السنّة ولم يظهر في عهدهم تفسيراً ينحى المذهب التأويلي الشيعي[37].

رابعاً: الحديث:

أما الحديث الشريف فنال درجة كبيرة من الاهتمام بعد القرآن الكريم، وإن كان الأندلسيون قد اهتموا منذ زمن مبكر بعلم الحديث ودراسته، وتحفل كتب التراجم والطبقات بعدد لا يحصى من الأسماء لعلماء الحديث.

كان على رأس هؤلاء القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي، ومع أنه تكثر نسبته إلى المغرب، إلا أنه يعد من أعمدة الحياة الفكرية الأندلسية، لكثرة مشاركته فيها، ودراسته على شيوخها، فقد أخذ عن ابن عتاب، وأبي عبد الله بن حمدين، وابن رشد وأبي علي الصدفي وغيرهم، ويعد من أكابر الحفاظ، ومن أعظم أئمة عصره في الحديث، وفي فهم غريبه ومشكله ومختلفة، بارعاً في علم الأصول والكلام، حافظاً للمختصر والمدونة، متمكناً من الشروط والأحكام وكان أبرع أهل زمانه في الفتيا، متقناً للنحو واللغة أديباً كبيراً، وشاعراً مجيداً، حسن التصرف في النظم.

وللقاضي عياض ثبت حافل من المؤلفات الجليلة منها كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، وهو أشهر كتبه، «ومشارق الأنوار في تفسير غريب الحديث»، وكتاب «التنبيهات»، «وترتيب المدارك وتقريب المسالك»، «والإكمال»، «والعيون الستة في أخبار سبتة»، وغيرها من كتب الدين واللغة والأنساب والتاريخ، وقد خص مؤرخ الأندلس الكبير شهاب الدين المقري بكتابه «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض»، وكان متولياً قضاء سبتة في آخر عهد المرابطين، وبعد سقوطهم دخل في طاعة الموحدين ثم نقض بيعتهم فلما اشتد الموحدون على أهل سبتة عاد فسعى إلى الاعتذار لهم وتوفي في مراكش (544 هـ/ 1149 م)[38].

---

(37) د. عبدالله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن ص 297.

(38) ابن بشكوال: الصلة، رقم 975، ص 429.

ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ 1 ص 469.

وانظر، له ترجمة مفصلة وضعها له ابنه أبو عبدالله في كتاب التعريف بالقاضي عياض تحقيق د. محمد بنشريفة.

وعرف عن أبي بكر بيبش بن محمد بن علي بن بيبش العبيدي (ت 582 هـ/ 1186 م) حافظاً للحديث قلما يغيب عنه فيه شيء من صحيح البخاري لحفظه إياه، متصرفاً مع ذلك في الفقه والنحو والتفسير، معدوداً في أهل الفتيا والشورى قبل ولايته القضاء وألف على صحيح البخاري تأليفين أحدهما نحا فيه منحى المهلب بن أبي صفرة في اختصار الصحيح الذي سماه بالتصحيح، والثاني في جمع الأحاديث التي زاد مسلم في تخريجها على البخاري(39).

وكان أبو إسحق بن الأمين (إبراهيم بن يحيى بن إبراهيم بن سعيد) (ت 544 هـ/ 1149 م) من أهل الضبط والإتقان والتقدم في صناعة الحديث وحفظ اللغة وله استدراج على أبي عمر بن عبد البر في الصحابة سماه «الإعلام بالخيرة الأعلام من أصحاب النبي» وامتحن في الفتنة القائمة بقرطبة عندما دخلها الموحدون بعد ثورة ابن حمدين، وانتقل إلى لبلة بعدها إلى أن توفي(40).

ومن أهل إشبيلية اشتهر أبو مروان أحمد بن عبد الملك بن إبراهيم الأنصاري (ت 549 هـ/ 1154 م) بإتقانه علم الحديث وحفظه وكان فقيهاً ظاهري المذهب على طريقة ابن حزم القرطبي وألف في الحديث مؤلفاً عنوانه «المنتخب المنتقى» جمع فيه ما افترق في أمهات المسندات من نوازل الشرع، وتوفي قتيلاً عندما دخل الموحدون لبلة(41).

ولقب ابن الصيقل (محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعد) (ت 550 هـ/ 1155 م) بأبي هريرة لتتبعه الآثار وروايته إياها وعنايته بها، وكان ذا عناية بالعلم وروايته وكتب الكثير، وصنف في أنواع من علم الحديث، منها كتاب «الأربعين حديثاً على مذاهب أهل التصوف، وطرائق ذوي العبادات»(42).

أما الإمام الرشاطي (أبو محمد عبد الله بن علي بن أحمد الرشاطي) (ت 542 هـ/ 1147 م) فذاع صيته لعنايته الكبيرة بالحديث والرجال والرواة والتاريخ، وهو

(39) ابن الأبار: التكملة، جـ 1، رقم 610، ص 228، 229.
(40) ن. م. رقم 49، ص 63، 64.
(41) ن. م. رقم 162، ص 58.
(42) ابن عبد الملك: م. س. سفر 5، قسم 2، رقم 1267، ص 671، 672.
اين الأبار: م. س. جـ 2، رقم 1340، ص 485.

صاحب كتاب اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار أخذه الناس عنه لإجادته في تصنيفه وجمع مادته. وتوفي شهيداً عند دخول النصارى ألمرية[43].

وصنف ابن الخراط (عبد الحق بن عبد الرحمن بن سعيد الإشبيلي) (510: 581 هـ/ 1116 :1185 م) في الأحكام نسختين كبرى وصغرى، وله «الجمع بين الصحيحين» وكتاب في «الجمع بين المصنفات الستة»، وكتاب في «المعتل من الحديث»، وكتاب في الرقائق، وله في اللغة كتاب حافل، ضاهى به كتاب الغريبين للهروي أبي عبيد وكان ابن الخراط ممن أخذ عن ابن برجان[44].

وليس أدل على الاهتمام بعلم الحديث وروايته من اهتمام عدد كبير من الأمراء سواء من المرابطين أو الموحدين من حفظه وروايته فذكر أن أمير المسلمين علي بن يوسف استجاز له عبد الله الخولاني جميع روايته لعلو إسناده[45].

وكان الخليفة عبد المؤمن من المتبحرين في الحديث وإن كان يعاب عليه التمسك بالأحاديث المنتحلة التي نسجها خيال غلاة الشيعة ليبرروا مبادىء الإمامة والمهدوية.

خامساً: علم الكلام:

اتهم المرابطون بأنهم حاربوا علم الكلام، وطاردوا المشتغلين به، ولم يسمحوا بدراسته أو تدريسه، ولكن من خلال التراجم المبعثرة في كتب الطبقات نجد عدداً وافراً من الذين اهتموا بهذا العلم وبرعوا فيه، بل يبدو أن هذا العلم شغل الكثيرين في عهد الأمير علي بن يوسف، مما دعاه لسؤال القاضي أبا الوليد بن رشد بشأن علم الكلام والمشتغلين فيه، فأجابه بأن هذا لا يتعارض مع المذهب، ويترك لمن أراد التفقه فيه والاشتغال به الحرية في تدريسه وتعليمه[46].

---

(43) المقري: م. س. جـ 4، ص 461.

(44) ابن فرحون: م. س. ص 176.

(45) ابن الأبار: المعجم رقم 40، ص 56.

(46) انظر، الفصل الأول من الباب الرابع، ص 286.

وانظر، الفتوى كاملة ص (85) من فتاوى ابن رشد.

وقد كثر التأليف في علم الكلام، بل وظهرت تآليف مبسطة ليحفظها طلبة العلم فألف الإمام أبو الحجاج يوسف بن موسى الضرير(47) (ت 520 هـ/ 1126 م) أرجوزة طويلة في علم الكلام تجاوزت ألف وثلاث مائة بيت. كانت تلقى في مجالس الإقراء(48).

وكما سبق أن ذكرنا أن القاضي أبي بكر بن العربي، والقاضي عياض كانا في مقدمة من أجاد علم الكلام وبرع فيه، ومن الملاحظ أن معظم الذين اهتموا بعلم الكلام كانوا من المشتغلين بالعلوم العقلية كالفلسفة والطب والرياضيات وإن كان هناك عدد كبير منهم تولى القضاء والشورى.

يقول ابن عبد الملك عن عبد الله محمد بن خلف بن موسى الألبيري (ت 537 هـ/ 1142 م) «إنه كان متكلماً، واقفاً على مذاهب المتكلمين، متحققاً برأي أبي الحسن الأشعري ذاكراً لكتب الأصول والاعتقادات، مشاركاً في الأدب متقدماً في الطب»، ومن مؤلفاته «النكت والأمالي في الرد على الغزالي، والبيان في الكلام على

---

(47) التادلي: التشوف، رقم 11، ص 105.

(48) توجد هذه الأرجوزة ضمن شرح لها بخزانة القرويين بفاس تحت عنوان «في العقائد» شرح أرجوزة، الإمام أبي الحجاج يوسف بن موسى الضرير المتوفى سنة 520 هـ، والشرح لأبي عليّ عمر بن الشيخ ابن الحسن بن خليل بن إسماعيل السكوني اللبلي من القرن السابع الهجري. وهي جزء متوسط بخط تونسي كثير التصحيف والتحريف في كاغد خرق السوس أطرافه.

ومن أبيات الأرجوزة بعد ذكر أسماء الله الحسنى:

هـذا كتـاب محكم وجيـز	مـذهـب قيـده التـرجيـز
مضمن علم أصـول الـدين	بـأقـرب الـطرق لـلـتبيين
نـظمتـه للحفظ والتـفهـم	رجاء رضـوان الإلاه الأكـرم
أحكمتـه بقـدر الاستقـلال	لا بـادعـاء رتبـة الكمـال
فكـل مـا أجمله الكـلام	بـنـظمـه فـصـله الإمـام
إذ لا غنى في كتب العلوم	عن قـائم بالشـرح والتفهيم
أبيـاتـه ألـف وثُـلْث ألـف	منـزه عن الكـلام الخلـف
وسبعـة مكـملـة لـلعـد	وخمسـة منظومـة كـالعقـد
أبـوابـه كـعـدد الأسـمـاء	لـلملك الـعلى ذي الآلاء
وهي وتـر من طـريق العـد	والله وتـر في العـلا والمجـد
والصدر لا يدخل في الحساب	لأنـه لـيس مـن الأبـواب
والله يهـدي للسبـل الأقـوم	كمـا يجاز الثـواب الأعـظم

القرآن، والأصول إلى معرفة الله ورسوله، ورسالة الانتصار على مذاهب الأخيار، ورسالة البيان عن حقيقة الإيمان، والرد على أبي الوليد بن رشد في مسألة الاستواء الواقعة له في الجزء الأول من مقدماته وشرح مشكل ما وقع في الموطأ وصحيح البخاري، وله كتاب في الطب»[49].

وصنف أبو جعفر بن باق (ت 538 هـ/ 1143 م) في علم الكلام وأصول الفقه وله في الجدل مصنفين كبيرين وآخر صغيراً[50]، واشتهر أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن السرقسطي[51] (ت 569 هـ/ 1173 م) بأنه كان متقدماً في علم الكلام عالماً بالفقه، محدثاً كبيراً كتب من دواوين العلم ودفاتره ما لا يحصى وأخذ عنه الكبير والصغير والنظير وله تصانيف تدل على إدراكه وجودة تحصيله منها شرح الشهاب، وكلفه الخليفة عبد المؤمن بخدمة الخزانة العالية وهي من الخطط الجليلة التي لا يعين لها إلا علية أهل العلم وأكابرهم[52].

ومن الذين برعوا في علم الكلام أبو بكر بن المنخل[53]، وأحمد بن مضاء[54]،

---

(49) ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، رقم 546، ص 193، 194.
ابن الأبار: التكملة: رقم 1258، ص 439.

(50) ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، رقم 480، ص 177.

(51) قال عنه ابن فرحون: «لم تكن همته معروفة إلاّ إلى العلم وأسبابه، فاقتنى الكتب جملة وافرة سوى ما نسخ بخطه الرائق، وامتحن فيها مرات بضروب من الحوائج كالغرق والنهب بغرناطة في الفتنة الكائنة، وكذلك نهبت كتبه في مراكش، حين دخلها عبد المؤمن وكان عند توجهه إلى مراكش خمسة أحمال كتب»، وتولى للمرابطين قضاء غرناطة وخطة الأحكام بمراكش وفي رحلته إلى مراكش لقيه عامل دكالة اللمتوني فرغب منه أن ينقطع إلى صحبته ويخرج معه إلى عمالة ذلك العام، وضمن له أن يعطيه ألف دينار ذهباً مرابطية، فامتنع من ذلك وقال والله لو أعطيتني ملء الأرض على أن أخرج عن طريقتي وأفارق ديني من خدمة العلم ومداخلة الفقهاء والانخراط في سلكهم ما رضيت، فعجب اللمتوني من علو همته، ورغب في صحبته على ما أراده.
ابن فرحون: م. س. ص 48، 49.

(52) بعد سقوط المرابطين، طلبه الخليفة عبد المؤمن ونظمه بين طلبة العلم، وأضفى عليه رعايته، ثم ولاه قضاء غرناطة، ثم إشبيلية وهناك توثقت صلته بجاره وصديقة العلامة أبي بكر بن طفيل، ثم عين ناظراً للخزانة العالية بمراكش.
ابن فرحون: م. س. ص 49.

(53) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 151.
ابن فرحون: م. س. ص 48، 49.

(54) السيوطي: بغية الوعاة، جـ 1 رقم 613، ص 323.

(513 : 592 هـ/ 1119 : 1195 م)، وأحمد بن محمد بن سعيد المعروف بأبي العباس الجروي الوادي آشي[55] (ت 562 هـ/ 1166 م)، وابن عز الناس[56] (ت 566 هـ/ 1170 م) وأبي عبد الله بن الحاج (القنيقل)[57] (ت 540 هـ/ 1145 م)، وأبو العباس أحمد بن بشير الغرناطي[58]، وأبو عبد الله بن أبي زيد[59] (ت بعد 540 هـ/ 1145 م) وأبو عبد الله محمد بن يوسف بـن سعادة البلنسي[60] (ت 566 هـ/ 1170 م).

وأخذ علم الكلام حظه الكامل من الانتشار في عهد الموحدين، إذ كان المهدي بن تومرت يلزم أصحابه بدراسته إلزاماً[61].

---

(55) ابن فرحون: م. س. ص 57.

(56) ابن الزبير: م. س. رقم 196، ص 296.

ابن فرحون: م. س. ص 48، 49.

(57) ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، رقم 286، ص 108.

(58) ابن فرحون: م. س. ص 45.

(59) ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، رقم 897، ص 339.

(60) ابن الأبار: المعجم رقم 158، ص 176.

(61) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 177.

الفصل الرابع

العلوم العقلية

تشجيع العلوم العقلية. الفلسفة: ابن السيِّد البطليوسي - كتاب الحدائق - مالك ابن وهيب - ابن باجة - أبو الحسن بن الإمام الغرناطي - ابن طفيل - ابن رشد الحفيد.

الطب: أبو مروان بن زهر - ابن أسدون (المصدوم) - أبو بكر محمد بن زهر - أم عمرو بنت أبي مروان بن زهر - أبو عامر بن ينق - أبو الحسن بن هانىء - محمد بن طفيل أبو عبد الله بن الألبيري.

الأدوية: أبو جعفر بن السيد الغافقي.

علوم الرياضيات والهندسة: ابن باجة - أبو عبد الله بن الأمين - الفضل بن إسحق أبو جعفر الوقشي - عبد الله بن عائشة - الحاج يعيش - ابن باسة.

علوم الفلاحة: الطغنري - ابن ملحان - يوسف بن فتوح.

الموسيقى: ابن باجة - إسحق بن شمعون اليهودي.

العمارة في عهد المرابطين: استحداث المدن وبناء الأسوار والحصون - المساجد في عهد الموحدين - مظاهر العمارة - استخدام الحيل الميكانيكية - القصور.

أولاً: الفلسفة:

حظيت العلوم العقلية بالتشجيع[1]، ووصلت إلى درجة كبيرة من التخصص، والتجويد، فنجد أنفسنا أمام عدد كبير من العلماء انقطعوا انقطاعاً تاماً إلى الفلسفة والطب وغيرها من العلوم، ووصلوا بها نتيجة هذا الانقطاع إلى ذروتها العليا، فألفت المصنفات في الفلسفة والمنطق وكانت هذه الكتب معروفة ومتداولة فقط عند طبقة الخاصة من المثقفين، لأن العامة وأنصاف المتعلمين لهم موقفهم من هذا العلم.

وكانت الدراسات الفلسفية قد أصيبت بنكسة كبيرة بعد إحراق الكتب الفلسفية وعلوم اليونان في مكتبة المستنصر الأموي والتي أمر بها المنصور بن عامر تحبباً إلى الفقهاء، غير أن سقوط الخلافة وقيام ممالك الطوائف في كل ناحية أتاح الفرصة لهذا العلم أن يبدأ من جديد، ويعزو صاعد الطليطلي[2] في كتابه «طبقات الأمم» تلك الحياة التي تجددت في الدراسات الفلسفية إلى أسباب ترجع كلها إلى الحالة السياسية التي سادت الأندلس أيام الطوائف فيقول: «لم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها» «الحكمة وعلوم الأوائل» ويظهرون ما تجوز لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك، إلى أن انقرضت دولة بني أمية من الأندلس، وافترق الملك بين المنتزين عليهم في صدر المائة الخامسة من الهجرة،

---

(1) كان مالك بن وهيب الفيلسوف مستشار ووزير الأمير عليّ بن يوسف وجليسه الذي يأنس إليه ويستمع إلى آرائه، وكان ابن باجة فيلسوف الأندلس من ندماء الأمير أبي بكر بن تيفلويت أمير سرقسطة ابن عم الأمير عليّ بن يوسف واتخذه وزيره بالرغم مما كان ينسب إليه من الآراء الإلحادية.

(2) صاعد الطليطلي: طبقات الأمم، ص 76.

وصاروا طوائف واقتعد كل ملك قاعدة من أمهات البلاد، فاشتغل بهم ملوك الحاضرة العظمى قرطبة عن امتحان الناس والتعقب عليهم، واضطرتهم الفتنة إلى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب وسائر المتاع، فبيع بأوكس ثمن وأتفه قيمة، وانتشرت تلك الكتب بأقطار الأندلس ووجد في خلالها أعلاق من العلوم القديمة، كانت أفلتت من أيدي الممتحنين بحركة الحكم أيام المنصور بن أبي عامر، وأظهر أيضاً كل من كان عنده من الرعية شيء مما كان لديه منها، فلم تزل الرغبة ترتفع من حين في طلب العلم القديم شيئاً فشيئاً، وقواعد الطوائف تتمصر قليلاً قليلاً إلى وقتنا هذا، فالحال بحمد الله أفضل مما كانت بالأندلس في إباحة تلك العلوم والإعراض عن تحجير طلبها، إلى أن زهد الملوك في هذه العلوم وغيرها، لكن اشتغال الخواطر بما دهم الثغور من تغلب المشركين عاماً فعاماً، وانتقاصهم أطرافها، وضعف أهلها عن مدافعتهم عنها، قلل طلاب العلم وصيرهم أفراداً بالأندلس».

وتمتعت نواحي الأندلس في عصر المرابطين بتسامح عظيم، فتكلم أصحاب كل الآراء بما أرادوا من دون أن يخشوا شيئاً، وظهرت الاتجاهات كلها من الفقهاء المتشددين خصوم كل تأمل، إلى الفلاسفة العقليين الذين قالوا بدين واحد للبشر جميعاً، فانتشرت رسائل إخوان الصفاء، ودخلت أفلاطونية حديثة بالإضافة إلى ما تكلم به ابن مسرة منها[3]، فظهرت نتيجة لذلك مدرسة جديدة بدأت بأبي الصلت أمية ابن عبدالعزيز الداني[4] (459:528 هـ ـ 1067/1134 م)، وابن السيد البطليوس (444: 521 هـ) (1052: 1127 م) ومالك بن وهيب وابن باجة وانتهت بمحيي الدين بن عربي (560: 638 هـ) (638: 1240 م)[5].

وترجع أهمية كتاب «الحدائق» الذي ألفه ابن السيد البطليوسي ليس لأنه كتاب سهل الاستعمال يعين جمهور غير المتخصصين في الفلسفة على معرفة المبادىء الفلسفية، بفضل طابعه السهل، بل لأنه يعرض علينا صورة صادقة إلى حد كبير للحالة التي كانت عليها المعارف الفلسفية خلال الفترة التي ألف فيها، فقد كتب في نفس الوقت الذي كان ابن باجة يؤلف فيها كتبه، وقبل أن يفكر ابن طفيل وابن رشد

(3) آنخل جنثالث: تاريخ تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس، ص 333.

(4) ألف كتاباً في المنطق يوجز آراء أرسطو بعنوان «تقويم الذهن» نشرة جنثالث بالنثيا 1915.

(5) آنخل جنثالث: م. س. ص 333.

في شرح مؤلفات أرسطو، ومما يزيد في أهمية الكتاب ما يثيره من مشاكل متعددة تتعلق بالمراجع الخاصة بدراسة أفلاطون وهي مشاكل جديرة بأن يناقشها المتخصصون في الفلسفة، وعلاوة على ذلك فهو أول محاولة للتوفيق بين الشريعة الإسلامية والفكر اليوناني[6].

ومالك بن وهيب جليس ووزير أمير المسلمين علي بن يوسف يعد من أعمدة هذه المدرسة يقول عنه الحجاري صاحب المسهب[7]: «وهو فيلسوف المغرب» بينما ذكره عبد الواحد المراكشي[8] بأن له تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة، وأنه رأى بخطه كتاب الثمرة لبطليموس وكتاب المجسطي في علم الهيئة، وأخذ مالك من كل علم وفن، وبرع في علوم اللغة وتفوق فيها وألف كتاباً سماه «قراضة الذهب في ذكر أيام العرب في الجاهلية والإسلام، وللأسف لم يقيد مالك ما كتبه، أو ربما كان يكتب ويخفي ما كتب لما يعرفه من موقف العامة من هذا العلم»، يقول ابن أبي أصيبعة[9]: «غير أن مالك لم يقيد عنه إلا قليل نزر في أول الصناعة الذهنية، وأضرب الرجل عن النظر ظاهراً في هذه العلوم، وعن التكلم فيها، لما لحقه من المطالبات في دمه لسببها»[10]، خصوصاً وأن مالك كان صديقاً لابن باجة فيلسوف العصر أيضاً[11].

أما الفيلسوف ابن باجة (أبو بكر محمد بن يحيى الصائغ) (532 هـ/ 1138 م)

---

(6) ن. م.

المقري: أزهار الرياض، جـ 3، ص 121.

(7) المقري: نفح الطيب، جـ 3، ص 479.

(8) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 184.

(9) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، جـ 3، ص 101.

(10) قالوا فيه:

دولة لابن تاشفين علي ... ظهرت بالكمال من كل عيب

غير أن الشيطان دس إليها ... من خباياه مالك بن وهيب

المقري: م. س. جـ 3، ص 479.

(11) كان بين ابن باجة والطبيب المشهور أبي العلاء بن زهر عداوة شبهها المقري بأنها تشبه ما يكون بين النار والماء والأرض والسماء، فقال في ابن باجة يهاجمه هو وصاحبه الذي يعضده مالك بن وهيب:

لا بد للزنديق أن يصلبا ... شاء الذي يعضده أو أبى

قد مهد الجذع له نفسه ... وسدد الرمح إليه الشبا

المقري: جـ 3، ص 434.

فقد ذاع صيته في الأندلس وأوروبا العصور الوسطى حيث عرفه الناس باسم Aven pace وهو صاحب مدرسة الشك، تأثر بالمدرسة اليونانية، وأشاع هذا المذهب بين شعراء ذلك العصر، الذين فشا في شعر بعضهم لون من ألوان التحرر من قيود الدين، كما نبغ في الرياضة والفلك والطبيعة والموسيقى[12] قال عنه صاحب الخريدة[13]: «لم يبلغ درجته أحد من أهل عصرنا في الحكمة وله تصانيف في الرياضيات والمنطق والهندسة فاق فيها المتقدمين، ووصف بالتفرد بعلم الهيئة والهندسة العملية والنظرية، وسائر العلوم الحكمية والأدبية»[14]، فكان هو ومالك بـن وهيب فرس الحلبة دون منازل إلا أنه كما سبق أن بينا أن عيب مالك عدم تقييد ما يكتب، بينما كان ابن باجة يسجل ويقيد كل ما يعن له من فروع المعرفة[15]، وله أكثر من خمس وعشرين كتاباً.

وتتلمذ على ابن باجة عدد من الفلاسفة والأطباء والمهندسين الذين برزوا في آخر عهد المرابطين وبداية عهد الموحدين، منهم أبو الحسن علي بن الإمام الغرناطي[16]، وابن طفيل الطبيب الفيلسوف صاحب رسالة «حي بن يقظان»[17]،

(12) د. إحسان عباس: أخبار الغناء والمغنين في الأندلس، مجلة الأبحاث الجامعة الأمريكية، بيروت، العدد 16، 1963، ص 14.

(13) العماد الأصفهاني: الخريدة، رقم 94.

(14) له من الكتب «شرح كتاب «السمع الطبيعي لأرسطو طاليس»، قول على بعض كتاب الآثار العلوية لأرسطو طاليس، و «قول على بعض كتاب الكون والفساد لأرسطو طاليس» «قول على بعض المقالات الأخيرة من كتاب الحيوان لأرسطو طاليس»، كلام على بعض كتاب النبات لأرسطو طاليس، قول ذكر فيه التشوق الطبيعي وماهيته، وابتدأ أن يعطي أسباب البرهان حقيقته، «رسالة الوداع»، «قول يتلو رسالة الوداع»، كتاب اتصال العقل بالإنسان «قول على القوة النزعية»، فصول تتضمن القول على اتصال العقل بالإنسان، كتاب «تدبير المتوحد» كتاب «النفس»، «تعاليق على كتاب أبي نصر في الصناعة الذهنية، فصول قليلة في السياسة المدنية وكيفية المدن وحال المتوحد فيها، نبذ يسيرة على الهندسة والهيئة، رسالة كتب بها إلى صديقه أبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسداي بعد قدومه إلى مصر، تعاليق حكيمة وجدت متفرقة، جوابه لما سئل عن هندسة ابن سيد المهندس وطرقه، كلام على شيء من كتاب الأدوية المفردة لجالينوس، كتاب التجربتين على أدوية ابن وافد، واشترك في تأليف هذا الكتاب معه أبو الحسن سفيان، وكتاب اختصار الحادي للرازي، وكلام في الغاية الإنسانية، وكلام في البرهان، وكلام في الأسطقسات، وكلام في الفحص عن النفس النزوعية، وكيف هي، ولم تنزع وبماذا تنزع، وكلام في المزاج بما هو طبي، ابن أبي أصيبعة: م. س. جـ 3، ص 102، 103.

(15) ن. م.

(16) ابن أبي أصيبعة: م. س. ص 102.

(17) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 240.

الذي يبدو فيها تأثير ابن باجة ومن جملة تلاميذه أبو الوليد بن رشد صاحب المصنفات العديدة في الطب والفلسفة والفقه، وكان من أقوال ابن باجة «الأشياء التي ينفع تعلمها بعد زمان طويل لا يضيع تذكرها»[18].

والفكرة الأساسية التي أضافها ابن باجة إلى التراث الفلسفي هي التي تتعلق باتحاد العقل الفعّال بالإنسان، وقد كانت هذه هي الفكرة الأساسية التي بنى عليها ابن طفيل رأيه الصوفي في وحدة الوجود، وتناولها ابن رشد وسار بها إلى الأمام[19].

ثانياً: الطب:

بجانب هؤلاء العلماء الفلاسفة برز عدد كبير من الأطباء كان على رأسهم أبو مروان بن زهر، عبدالملك بن أبي العلاء بن زهر (ت 557 هـ/ 1161 م)، وقد اشتهرت أسرة بنو زهر بنبوغ أفرادها في الفقه والعلم والأدب والسياسة، فكان منهم الفقهاء والأطباء والشعراء والوزراء، وتميز من هذه الأسرة ستة أطباء وطبيبة تعاقبوا في التربع على عرش الطب العربي في الغرب الإسلامي من أوائل القرن الحادي عشر الميلادي حتى أواخر القرن الثالث عشر (5 :7 هـ) وإن الباحث ليذهله ما اتصفت به أسرة بني زهر من شدة التعلق بمهنة الطب ويتعذر الاهتداء إلى أية أسرة عربية أخرى نبغ فيها هذا العدد المتلاحق من مشاهير الأطباء[20].

وكان أبو مروان بن عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر (487 :557 هـ) من أعظم

---

(18) ابن أصيبعة: م. س. ص 102.

(19) آنخل جنثالث: م. س. ص 347.

(20) هؤلاء الأطباء هم:

1 - أبو مروان عبد الملك بن أبي بكر بن زهر.
2 - أبو العلاء زهر بن أبي مروان.
3 - أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء.
4 - أبو بكر محمد بن أبي مروان بن زهر الحفيد.
5 - أم عمرو بنت أبي مروان وأخت أبي بكر.
6 - أبو محمد عبدالله بن الحفيد أبي بكر.
7 - العلاء محمد بن أبي محمد بن زهر.

انظر كتاب أبو مروان بن زهر: التيسير في المداواة، تحقيق د. ميشيل خوري، ص ح.

أطباء عصره، واعتبره ابن رشد[21] أعظم طبيب بعد جالينوس يقول عنه ابن أصيبعة[22] «كان بعيد الاستقصاء في الأدوية المفردة والمركبة، حسن المعالجة قد ذاع ذكره في الأندلس وفي غيرها من البلاد، واشتغل الأطباء بمصنفاته، ولم يكن في زمانه من يماثله في مزاولة أعمال صناعة الطب، وله حكايات كثيرة في تأتيه لمعرفة الأمراض ومداواتها، مما لم يسبقه أحد من الأطباء إلى مثل ذلك»، وأوجز سارتون[23] في كتابه المدخل إلى تاريخ العلم كل ما قيل في ابن زهر فقال: «إنه كان أعظم طبيب في العالمين الإسلامي والمسيحي».

وخدم أبو مروان وأبوه أبو العلاء الملثمين ونالا من جهتهم من النعم والأموال شيئاً كثيراً إلى أن نكبا[24]، إذ أمر الأمير علي بن يوسف أبا العلاء بسكنى فاس ثم بعد

(21) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، سفر 5، قسم 1، ترجمة 31.

(22) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص 107.

(23) أبو مروان بن زهر: م. س. ص ط.

(24) فصل ابن عذاري هذه النكبة فيقول: «وفي سنة 511 هـ فسد ما بين الزهري وأبي العلاء بن زهر من الصداقة والصهر، ورمي كل واحد بقاصمة الظهر، وبادر أبو العلاء ابن زهر بمخاطبة علي بن يوسف فبادر إليه الزهري أثر ذلك بنفسه، فتكلم في أبي العلاء ملء فيه، فأمر الزهري بسكنى مراكش، وأمر أبي العلاء بسكنى فاس، ولم يسمح له بالوصول إليه، وكان قبل ذلك في غاية الجاه والعزة والتمكين من الدولة، يولي من قبله حاكم يحكم في حاشيته، وصاحب المدينة من توليته، وشهود البلد بحكمه، وأمر المستخلص وأملاك السلطان جارية على نهيه وأمره بمدينة إشبيلية، والزهري في كل ذلك تلوه ومقتد به، فما راعوا حق الحرمة، ولا أدوا شكر النعمة، ثم أن علي بن يوسف صرف ابنه أبا زكريا يحيى بن علي عن إشبيلية، وقدم أخاه أبا حفص والياً عليها، فلما وصل الأمير أبو حفص إلى إشبيلية برز إليه أهلها، كما خرج لاستقباله أبو مروان بن أبي العلاء بن زهر فلما رآه أصغره وقصر به، وترجل صاحب المدينة خالصة بن زهر، فأخذ بيده مسلماً عليه، فلما أعلم به، أمر عليه فألقيت عمامته في عنقه وجر إلى السجن، وفي عشية ذلك اليوم جلس الأمير أبو حفص في رحبة القصر، فاستحضر من حاشية ابن زهر رجلين متلبسين بأمره، فأمر بضرب أعناقهما، وطيف برمحه على أسواق المدينة، وأقبل الأمير أبو حفص على تتبع الحاشية، وجعل غرضه الانتقام فيهم والتشريد لهم.

ابن عذارى: البيان المغرب، جـ 4، ص 65، 66.

وقد أصيب في هذه الأحداث أبو مروان في صدره إذ يقول في كتابه التيسير «فنالني تنكيد شديد بامتحان «علي» لنا بقولة حقدها على الشيخ أبي رحمه الله، فأمر فينا بكل وجه من وجوه الانتقام وكانت الإصابة بليغة أصابه من جرائها نزيف في الصدر وحمى». كتاب التيسير، ص 233، 234.

ويبدو أن متابعة بني زهر انتهت بوفاة أبي العلاء سنة 517 هـ لفترة من الوقت إذ نجد أبا مروان يعالج أمراء إشبيلية المرابطين، فيستدعى لعلاج أبي الطاهر تميم عندما ولّي إشبيلية (516: 517 هـ) من حالة تسمم =

ذلك غضب على أبي مروان وسجنه بمراكش: يقول ابن عبد الملك[25]: «وأدركته مطالبة عند أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين كانت سبب اعتقاله بسجن مراكش مدة».

ومن تلاميذ أبي مروان عبد الملك بن زهر والآخذين عند أبو الحسين بن أسدون المعروف بالمصدوم، وأبو بكر بن الفقيه القاضي أبي الحسن قاضي إشبيلية وأبو محمد الشذوني، والفقيه الزاهد أبي عمران بن أبي عمران[26].

وكانت لأبي مروان عدة تصانيف[27] اشتغل بها الأطباء منها كتاب «التيسير في المداواة والتدبير» ألفه للقاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد (الحفيد) لجعله تفصيلاً لكتاب الكليات في الطب وهو الكتاب الذي ألفه ابن رشد ووصف فيه بصورة عامة ما كان معروفاً عن الأمراض في زمانه، وبما أنه لم يتطرق في كتابه إلى التفاصيل في المعالجة كطبيب سريري ممتهن، فإنه طلب إلى صديقه ابن زهر أن يجعل كتابه

= كانت تدبرها له زوجته حواء وبعض خدمها، وعندما ولي الأمير أبو زكريا يحيى بن مفوز إشبيلية كلفه بالسفر لعلاج مريض يهمه (523: 524 هـ) التيسير ص 97، 135.

(25) يقول ابن عبد الملك أن سبب سجن أبو مروان مقالة قالها في حق علي بن يوسف وكانت في سنة 535 هـ حيث لقي أبو الحكم بن غلندة في آخر صفر ثم سرح وعاد إلى بلده.
ابن عبد الملك: م. س سفره رقم 1، رقم 31، ص 18، 19.
ونجد في كتاب التيسير معلومات مهمة فالأمير أبي الطاهر تميم الذي عزله أخوه الأمير علي بن يوسف بناء على نصيحة القاضي أبي الوليد بن رشد سنة 520 هـ، تولى فاس سنة 523 (البيان المخرب جـ 4 ص 83) لكن ابن زهر يذكر أنه قابل الأمير تميم في سنة 524 هـ في مراكش خاملاً لا يتولى أي عمل بعد عزله من ولاية فاس.
واستدعى أبو مروان من إشبيلية عند مرض أمير المسلمين علي بن يوسف الأخير قبل وفاته سنة 537 هـ بداء الكبد التيسير، ص 399.

(26) ابن أبي أصيبجه: م. س جـ 3، ص 109.

(27) المؤلف الثاني كتاب (الاقتصاد في صلاح الأجساد) صنفه للأمير أبي إسحق بن أمير المسلمين علي بن يوسف وفرغ منه سنة 515 هـ.
وكتاب الأغذية الذي ألفه لأبي محمد عبد المؤمن بن علي الموحدي وهذه هي الكتب الثلاثة التي وصلت إلينا، وألف كتاب «الزينة» وتذكرة إلى ولده أبي بكر في أمـــر الدواء المسهل وكيفية أخذه وذلك في صغر سنه، وأول سفرة سافرها فناب عن أبيه فيها. وله مقالة في «علل الكلى» ورسالة في علتي البرص والبهق، كتب بها إلى بعض الأطباء بإشبيلية، وتذكرة، وألف لعبد المؤمن الترياق السبعيني انظر ابن أبي أصيبعة. ص 107.

مشتملاً على اختباراته ومشاهداته في علمي الأمراض والمداواة ولم يكد ينتهي من تأليفه حتى تناقلته أيدي النساخ والمترجمين، فوضعت له على الفور ترجمتان عبريتان، ولكنهما مغفلتان، وانتقلت هاتان الترجمتان إلى إيطاليا، فترجمت إحداها إلى اللاتينية ولا شك أن كتاب التيسير بترجماته العبرية واللاتينية قد أحدثتا أعمق الأثر في تطور الطب خلال القرون الوسطى، التي كان فيها الطب الأوروبي ما يزال عاجزاً عن التحليق بجناحيه.

ويذكر ابن زهر في مقدمة كتاب التيسير أنه أجبر على إلحاق كتابه الجامع به نزولاً عند رغبة أحد الأمراء وهو الأمير المرابطي صاحب إشبيلية ولم يذكر اسمه ويبدو أنه الأمير أبو الطاهر تميم أو الأمير يحيى بن مفوز. وقد أراد الأمير الذي ألف له الكتاب أن يكون لديه كتاب يشتمل على صيغ الأدوية المركبة التي كان يستعملها ابن زهر في العلاج وأشار إلى ذلك ابن زهر بقوله: «ولقد دخل في خلال وضعي له من كان كالموكل علي فيه، فلم يرضى مني ذلك، وقال: إن الانتفاع به لم يحذق شيئاً من أعمال الطب بعيد، وأنه ليس على ما أمر به، ولا على غرض مما يريد، فذيلته حينئذٍ بجزء منحط الرتبة سميته بالجامع، ألفته مضطراً، وخرجت فيه عن الطريقة المثلى كارهاً، ووضعته بحيث لا يخفى على المريض ولا على من حول المريض».

وأخذ صناعة الطب عنه ابنه أبو بكر محمد بن أبي مروان (507 :595 هـ/ 1113: 1198 م) وباشر أعمالها قال عنه ابن عبد الملك[28] كان أحد رؤساء الأندلس ومن انتهى إليه السؤدد منهم، أديباً بارعاً، حافظاً للحديث والفقه والآداب واللغة إماماً فيها، ماهراً في الطب، حاذقاً بالعلاج موفقاً فيه، لم يكن في أطباء زمانه من يتقدمه، وكان يطبب الناس حسبة ويعطيهم من قبله الأدوية العزيزة الوجود تبرعاً طيب النفس بها. وخدم الدولتين المرابطية والموحدية[29].

واشتهرت أخته أم عمرو بنت أبي مروان بن زهر بمهارتها في الطب، وكانت متقدمة فيه، ماهرة في التدبير والعلاج، وحظيت بمكانة ممتازة عند أمراء الموحدين فكانت تلج قصورهم وتنظر في علاج مرضى نسائهم وأطفالهم وإمائهم، وقد تستفتي

---

(28) ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، رقم 1076، ص 398، 399.

(29) ابن أبي أصيبعة: م. س جـ3، ص 110.

في الطب لرجالهم، فتزيد بذلك مكانة إلى مكانتها التي يقتضيها مجدها المؤثل وشرفها الموصل[30].

ولمع في هذه الفترة عدد كبير من الأطباء منهم أبو عامر محمد بن يحيى بن ينق[31] من أهل شاطبة (ت 547 هـ/ 1152 م)، لازم أبا العلاء بن زهر بإشبيلية وأخذ عنه، ومنهم أبو الحسن بن هاني[32] (498 :576 هـ/ 1104 :1180 م)، محمد بن عبد الملك ابن طفيل[33] ومحمد بن عبد الرحمن العقيلي[34]، وأبو الحسن بن القابلة[35] وأبو عبد الله بن الألبيري[36] الذي ألف في طب العيون كتاب «النافع في مداواة العين».

وفي العقاقير والأعشاب برز أبو جعفر أحمد بن محمد بن السيد الغافقي[37] (ت 559 هـ/ 1163 م) وألف كتاب «الأدوية المفردة» الذي نقل عنه ابن البيطار (السابع الهجري، الثالث عشر ميلادي)، وقد ضاع أصل كتاب الأدوية المفردة، ولم يبق إلا مختصراً له عمله أبو الفرج بن العبري (بار هيبرا يوس المتوفى 684 هـ/ 1286 م) ونشر هذا المختصر ماكسي مايرهوف وجورج صبحي في القاهرة 1933 م.

ثالثاً: علوم الرياضيات والهندسة:

وعرفت هذه الفترة ازدهاراً في العلوم الرياضية والهندسية، فنجد عدة أسماء مشهورة على رأسها الفيلسوف الطبيب الموسيقي ابن باجة الذي سبق ذكره، وأبو عبد الله بن الأمين[38] (محمد بن إبراهيم بن يحيى بن سعيد) (ت 539 هـ/ 1144 م)

---

(30) ابن عبد الملك: م. س سفر 8، قسم 2، رقم 245 ص 483.

(31) ابن الآبار: المعجم، رقم 145، ص 162.

ابن سعيد: المغرب جـ 2 رقم 593 ص 388.

(32) ابن عبد الملك: م. س سفر 6، رقم 914، 343.

(33) ن. م. سفر 6، رقم 1089، 407.

ابن سعيد: م. س جـ 2، رقم 403، 85.

(34) ابن عبد الملك: م. س رقم 986، ص 368.

(35) ابن الزبير: صلة الصلة، رقم 200، ص 98.

(36) ابن عبد الملك: م. س سفر 6، رقم 546، ص 193.

(37) آنخل جنثالث بالنثيا: م. س. ص 472.

(38) ابن عبد الملك: م. س، سفر 6، رقم 279، ص 107.

وكان بارعاً في علم العدد والمساحة وفرائض المواريث. والفضل بن محمد بن إسحق[39] (ت: 564 هـ/ 1168 م)، وأبو العباس بن بشير[40] الذي صنف كتاباً مفيداً في الحساب والقراض استحسنه الناس، وبرع أحمد بن مضاء في الطب والحساب والهندسة[41] وكان الوقشي وزير بن همشك متحققاً بعلم الحساب والهندسة مشرفاً على آراء الحكماء حسن النقد للمذاهب[42].

واستدعى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين العالم الكبير أبا عبد الله بن عائشة ووكل إليه حسابات جميع المغرب، ووضع في يديه مقاليد الأعمال، يقول عنه صاحب الذخيرة[43]: «أكثر ما عول على علم الحساب، فهو اليوم فيه آية لا يقاس عليها، وغاية لا يضاف إليها، وله من الأدب حظ وافر، وفي أهله اسم طائر».

ويعد الحاج يعيش المالقي من ألمع وأشهر المهندسين الذين تألق نجمهم في أواخر المرابطين وبداية الموحدين، واعتمد عليه الموحدون في المشاريع الهامة بعد سقوط المرابطين، فاشترك في بناء مدينة جبل طارق (جبل الفتح) وصنع بأعلى الجبل رحى تطحن الأقوات، وصنع بأمر من عبد المؤمن مقصورة المسجد الجامع بمراكش التي حير وصفها سائر المهتمين بالآثار الموحدية، خاصة منهم الذين يعنون بالنهضة الميكانيكية على ذلك العهد، فلقد وضعت على حركات هندسية ترفع بها عند خروج الخليفة، وتخفض لدخوله، وهو الذي قام بإشبيلية بعمل تسريب الماء لسقي البحيرة الملكية وتوصيله إلى داخل إشبيلية من قلعة جابر، وقام ببناء خزان للماء داخل المدينة ومنه يتوزع الماء على مختلف أحيائها[44].

كما اعتبر العريف أحمد بن باسة من أبرز المهندسين في المشاريع المعمارية الكبرى، واستفاد الموحدون بخبرته بمدينة جبل طارق، وكان شيخ العرفاء، وهو

---

(39) ن. م سفر 5، رقم 1060، ص 540.

(40) ابن فرحون: م. س. ص 45.

(41) السيوطي: بغية الوعاة جـ 1، رقم 613، ص 323.

(42) ابن الأبار: الحلة، جـ 2، ص 257، 267.

(43) ابن بسام: الذخيرة، قسم 3، مجلد 2، ص 887.

(44) الحلل الموشية: ص 155، ابن صاحب الصلاة، ص 139، 468، 469.

الذي قام بتشييد جامع إشبيلية الأعظم (الخيرالدا)[45].

رابعاً: علـوم الفلاحـة

وفي ميدان العلوم الفلاحية ظهر العلامة أبو عبد الله محمد بن مالك التَغْنَري من قربة تَغْنَر من أعمال قرطبة، سكن إشبيلية ودرس العلوم الزراعية على ابن بصال الطليطلي وبرع فيها، وكتب عنها كتابه المسمى «زهر البستان ونزهة الأذهان، ويسمى أحياناً باسم الحاج الغرناطي، وابن حمدون الإشبيلي»[46].

وكان أحمد بن ملحان الثائر بوادي آش آخر عهد المرابطين، ذا خبرة واسعة بفن تنسيق البساتين، فاهتم بالزراعة أثناء إمارته بوادي آش، وعندما التحق بالموحدين استفاد منه الخليفة عبد المؤمن في إنشاء البستان العظيم بمراكش والذي يسميه البيدق شنطولية»[47] فزوده بالغروس من أنواع الفاكهة من بلاد الأندلس، مما لم يكن معروفاً بالمغرب حينئذٍ، فكان أول بستان فريد في نوعه، ولم يمض غير قليل من الزمن حتى أصبح هذا البستان مصدراً من مصادر الاقتصاد بالمغرب إذ كانت مساحته نحو ثلاثة أميال في مثلها، وقد بيعت ثماره بعد ثلاث سنوات من إنشائه، بنحو ثلاثين ألف دينار مؤمني على الرغم من رخص الفاكهة في هذا العصر[48].

وألحق بهذا البستان بحيرة كبيرة، كانت تستعمل في تدريب الطلبة ومتنزهاً عاماً يتمتع به الشعب في أيام الجمع والأعياد والمواسم[49].

وعرف عن أبي الحجاج يوسف بن فتوح (ت 561 هـ/ 1165 م) من أهل ألمرية ومشاوريها بمهارته في علم النبات والأعشاب، وقصده طلبة العلم من جميع الجهات، فلم يمتنع عنهم[50].

---

(45) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 139، 140، 206، 467، 474، 476، 482.

(46) خوسيه مارية مياس بييكروسا: مقدمة كتاب الفلاحة لابن بصال، ص 16.

لم أجد له ترجمة.

(47) البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، ص 79، 88.

(48) الحلل الموشية: ص 145، 146.

(49) ن. م ص 150.

(50) ابن الزبير: م. س رقم 410، ص 211.

خامساً: الموسيقى:

برع أهل الأندلس في الموسيقى، ولم يتوقف ولعهم بها، واستخدموا آلات عديدة مثل العود والرباب والقانون والمزامير والبوق وغيرها في موسيقاهم[51] وألفت فيها الكتب وكان كتاب أبي بكر بن باجة يعتمد عليه في الألحان والغناء والذي وصفه ابن سعيد[52] بأنه بمنزلة كتاب أبي نصر الفارابي بالمشرق، وإليه تنسب الألحان المطربة بالأندلس التي عليها الاعتماد»، وكان ابن باجة ينظم الشعر والموشحات ويقوم بتلحينها[53] واختصه الأمير أبي بكر بن تيفلويت واستوزة، فلما مات أكثر ابن باجة من رثائه، وغنى بها في ألحان مبكية[54].

وأخذ عن ابن باجة إسحق بن شمعون اليهودي القرطبي الذي وصفه ابن سعيد[55] بأنه «أحد عجائب الزمان في الاقتدار على الألحان، وقد لازم ابن باجة وأحسن الغناء بلسانه ويده، وأخذ طرائق كثيرة عن كلب النار». وكان كلب النار وزيراً للزبير بن عمر اللمتوني أمير قرطبة[56].

سادساً العمارة:

ازدهرت الناحية المعمارية في عصري المرابطين والموحدين وتجلت خصوصاً في استحداث المدن[57]، . . . .

---

(51) المقري: نفح الطيب، جـ 3، ص 213.

(52) ن. م.

(53) د. إحسان عباس: أخبار الغنا، والمغنين في الأندلس، مجلة الأبحاث ـ الجامعة الأمريكية ببيروت سنة 1963 ص 14.

(54) من قوله:

سـلام وإلـمـام وَرَوْحٌ ورحـمـة ... على الجسد النائي الذي لا أزورُه

أحقـا أبا بكـر تقضّى فما يُـرى ... تُـرَدُّ جمـاهيـر الـوفـودِ ستُـوره

لئن أنِسَتْ تلك القبـور بقبـره ... لقـد أوحشـت أمصـاره وقصـوره

ابن سعيد: المغرب جـ 2، رقم 435.

(5) ن. م. جـ 1 رقم 60، ص 127.

(56) المقري: م. س جـ 3، ص 489.

(57) في عهد المرابطين أسست مدينة مراكش العاصمة، ومدينة تمبكت في السودان الغربي، ومدينة تاقررت (بقرب تلمسان) بالمغرب الأوسط، ومدينة تاودا لمراقبة قبائل غمارة، ومدينة القصر. =

. . . . وتوسيع المدن القديمة[58] وتشييد الأسوار[59]، وبناء الحصون[60]، والمساجد[61]، والحمامات، والقصور، وإقامة الجسور. واستمرار هذا النهج في عهد الموحدين ما هو إلا تطوير لما بدأه المرابطون.

وعرف المرابطون والموحدون البناء بالطين والحجر معاً وإن كانت مباني الموحدين تميزت بالضخامة، ولعل ذلك يرجع إلى أنه في العصر الموحدي عرف البناء بالطابية، وأحكمت صنعة البناء، فابن صاحب الصلاة يذكر أن ابن باسة عندما أراد بناء صومعة إشبيلية حفر الأساس حتى وصل إلى موضع الماء فردم البئر المكتشف بالأحجار والجيار وبلط فوق الماء حتى أمن قعود الأساس[62].

واتسمت قصور المرابطين بالبساطة وعدم الضخامة بها حدائق في وسطها برك المياه، ومحاطة بأعمدة ممشوقة، وكان القصر يتكون من بـهو له ممران متعامدان تخرج من جانبه الشمالي بركة صغيرة مطلية باللون الأحمر تتفرع منها أنابيب صغيرة لري البساتين التي تحيط بالقصر، أما سقف هذه القصور فتتكون من رقائق خشبية مدهونة بألوان متعددة براقة[63].

ولم يبق من قصور المرابطين بالأندلس سوى أطلال لقصر صغير في أدنى قلعة منتيقوط Monteagudo التي تطل على بساتين مرسية، وأهمية هذه الأطلال أنها تعطي فكرة عن مقر ريفي من أبنية علية القوم، ويتألف من حديقة من أربع مسافات مستطيلة

= أما في عهد الموحدين فأسست مدينة الفتح بجبل طارق، ومدينة رباط الفتح وعن هذه المدن انظر الحلل الموشية، الاستبصار، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ابن عذاري: البيان المغرب جـ4، ياقوت: معجم البلدان، الإدريسي: نزهة المشتاق، ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، المـراكشي: المعجب، د. عصمت دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا.

(58) مثل مدن فاس، ومكناسة، وسلا. انظر المصادر السابقة.

(59) ابن عذارى: م. س.

(60) البيدق: أخبار المهدي، وقد حول الموحدون معظم الحصون إلى مدن.

(61) كان الأمير يوسف بن تاشفين يأمر سكان كل زقاق ببناء مسجد فيه، وأي زقاق لا يجد فيه مسجداً عاقب أهله وأجبرهم على بناء مسجد فيه.
ابن أبي زرع: م. س. ص 141.

(62) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 482.

(63) ليوبولد تـوريـس بالباس: الفن المرابطي والموحدي، ترجمة د. سعيد غازي ص 280.

تفصلها وتحيط بها ممرات تتفاوت في الارتفاع حسبما تقتضيه الضرورة، وتتمة لذلك تشمل نافورات وبركاً وجواسق وتطل عليها أروقة الغرف الجانبية ويمتد بينها بهو متسع مداخله تنفتح في وسط الواجهات الكبرى، وهذه القاعات الكثيرة وأروقتها احتفظت بقسم كبير من اللون الأحمر مع زخارف من تشبيكات سداسية أو ثمانية وتوريقات بارزة تشبه تمام الشبه الموجودة في مسجد تلمسان[64].

وتميزت مساجد المرابطين[65] بأنها فسيحة ضخمة البناء ذات رحبات متسعة مكشوفة تحيط بها أروقة ذات عقود مستديرة بسيطة الاتساع، كل رواق منها بلاطة واحدة، وتمتاز كذلك بصحون فسيحة ومآذنها منفصلة عنها تقوم إلى جانبها أشبه ما تكون بالمنائر العالية، وكان من أثر ضخامتها واستحالة الحصول على أعمدة كبيرة أن اختيرت دعائم قاعدتها مطولة أو مصلبة ليس لها من الرشاقة حظ كبير ثم عقود حدوة الفرس دون أوتار تربطها، وسقوفها مسنمة الشكل، وتكاد تختفي شرفات الأبنية التي تعرقل انصباب المياه من الأسطح المسنمة المتخذة من الخشب.

وكانت السقوف الخشبية تغشى بالقصدير والأصباغ الملونة، والمنابر والمقصورات تزخرف بأشكال هندسية ونباتية وتطعم حشوات المنابر بالعاج والأبنوس والصندل، وأنواع الأخشاب[66]، وقد أباح المرابطون في عهد الأمير علي بن يوسف الزخرفة في مساجدهم، فعند توسعة مسجد القزويين في عام (538 هـ/ 1143 م) وأخذ في عمل القبة التي بأعلى المحراب وما يحاذيها من وسط البلاطين المتصلين بها، وعمل ذلك بالجبص المقربس الفاخر الصنعة، ونقش على المحراب ودائر القبلة التي عليه، ورقش ذلك كله بورقة الذهب واللازورد، وأصناف الأصبغة، وركب في الشمسيات التي بجوانب القبة أشكال متقنة من أنواع الزجاج وألوانه، ثم أخذ في تغشية بعض أبواب الجامع بصفائح النحاس الأصفر بالعمل المحكم، والشكل المتقن[67].

(64) عن هذا القصر بالتفصيل انظر مانويل جوميث مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا ـ ترجمة د. لطفي عبد البديع، د. عبد العزيز مسالم، ص 333: 336.

(65) انظر المصدر السابق عما كتب عن مسجد القرويين بفاس، والمسجد الجامع بتلمسان والكتبية في مراكش ص 338، 347.

(66) الجزنائي: زهرة الآس، ص 55.

(67) ن. م. ص 68.

وابتكر في عصر المرابطين المقربصات التي شاعت تسميتها بلفظ استلاكتيتاس Estalactitas وهي تكوين هندسي على أحجام متأثرة بنماذج وردت من المشرق وبلغ أوجه في نهاية حكم المرابطين، وبرعوا في فن التلاعب بالمقربصات وتصميماتها الهندسية[68].

وبلغ من شهرة هذا الفن المعماري أن استدعى الملك روجر الثاني الذي كان شديد الولع بكل ما هو عربي العمال والفنانين من الأندلس إلى عاصمته بلرم لتجميل قصوره، فصنعوا له المقربصات المصنوعة من الخشب والتي تغطي المقصورة الملكية، والسقوف الخشبية والشرفات وحلوها بالتشبيكات المثمنة والتوريقات في قصر العزيزة، وقصر القبة، وبرج بيزانا، وحصن ميناني[69].

ومال الموحدون في بداية حكمهم إلى التقشف والبساطة في النقش والزخرفة، وانتقدوا مظاهر الترف في الزخرفة والنقش في مساجد المرابطين وقصورهم، وهدموا العديد منها، مما جعل أهل المدن يحرصون على تغطية النقوش والزخرفة في المساجد خوفاً من بطش عبد المؤمن[70].

غير أنه بعد أن استتب الأمر للخليفة عبد المؤمن أخذ بأسباب الترف في زخرفة ونقش المساجد والقصور واتبعه أبناؤه في هذا النهج.

واستفاد الموحدون من المعارف الميكانيكية فكان منبر جامع عبد المؤمن بمراكش يفتح من تلقائه إذا صعد عليه الخطيب، ويخرج المنبر في دفعة واحدة بحركة واحدة لا يسمع له حس ولا يرى تدبيرها، وكانت مقصورة جامعة تسع ألف شخص وتتحرك بواسطة عجلات ثبتت في أسفلها، ولها ستة أضلاع وهذه المقصورة ترفع بها لخروج الخليفة وتخفض لدخوله، وكان دخول عبد المؤمن وخروجه منها، فإذا قرب

---

(68) مانويل جوميث، م. س. ص 347.

(69) ن. م. ص 349.

(70) يقول ابن أبي زرع أنه عندما علم فقهاء وأشياخ فاس بأن عبد المؤمن سيدخل عليهم المدينة من الغد أتى الحمامون جامع القرويين ليلاً فنصبوا على النقش والتذهيب الذي فوق المحراب وحوله بالكاغد، ثم لبسوا عليه بالجص وغسل عليه بالبياض ودلك، فنقضت تلك النقوش وصارت بياضاً. روض القرطاس، ص 62.

وقت الرواح إلى الجامع يوم الجمعة دارت الحركات بعد رفع البسط من فوق المقصورة فتطلع الأضلاع في زمان واحد لا يفوت بعضها بعضاً بدقيقة صنعها الحاج يعيش من أهل مالقة[71].

وكان مصحف عثمان في تابوت له باب بدفتين يفتحان بمفتاح، ومتى فتح خرج كرسي وتركب المصحف عليه تلقائياً ويظل الكرسي بما حمل يتحرك جيئة وذهاباً، وإذا رجع إلى موضعه ينغلق الباب تلقائياً[72].

واتسمت قصور الموحدين بالفخامة والاتساع حتى أن كل قصر من قصورها مستقلاً ذاتياً به كل ما يحتاج إليه قاطنوه من الدور والبساتين والاسطبلات والمياه والكتاب[73].

---

(71) الحلل الموشية، ص 120.

(72) المقري: م. س. جـ 1، ص 613.

(73) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 5، ص 161.

الفصل الخامس

الآداب والعلوم الإنسانية

الأدب: ابن أبي الخصال - ابن المواعيني - ابن عبد الغفور الكلاعي - أبو عبد الرحمن بن طاهر - أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز - أبو جعفر بن عطية ابن أحمر الأزدي - أبو بكر بن ميمون، أبو عمر بن الإمام.

علم النحو: أبو بكر الخدب - ابن خلف التدميري.

الشعر: تطور أغراض الشعر - ابن خفاجة - ابن الزقاق - الأبيض - اليكي حفصة الركونية - نزهون الكلاعية - مهجة بنت عبد الرزاق - حمدة وزينب أم الهناء بنت القاضي - الشاعرات المرابطيات - تميمة بنت يوسف بن تاشفين حواء، زينب ابنتا الأمير إبراهيم بن تيفلويت - حواء بنت أخي الأمير يوسف بن تاشفين الموشحات - الزجل - التاريخ - الجغرافيا.

الآداب:

يطلق العرب لفظ أدب على المعارف التي من شأنها أن ترقى وترفع من مستوى الثقافة الذهنية، وبالتالي تؤدي إلى تحسين سلوك الناس في اجتماعهم بعض إلى بعض، ويجعلون لفقه اللغة العربية والشعر وشروحه وتاريخ العرب وأيامهم المكان الأول ثم تلي ذلك العلوم الدنيوية وهي التي تقابل العلوم الدينية ويدخلون في بعض الأحيان لطائف الذهن والألعاب وفنون التسلية، وينظمون في سلكه في أحيان أخرى المعارف التجريبية تمشياً مع تصنيف أرسطاطاليس للعلوم، ثم تطور مفهوم الأدب، فصار يطلق على الكتب التي تجمع المتفرقات والأشتات وتعرض من المعارف أطرافاً من كل فن وتكثر فيها الحكايات التاريخية والقصص والنوادر[1].

ويعتبر أبو عبد الله بن أبي الخصال (ت 540 هـ/ 1145 م) شيخ كتّاب الأندلس برع في الحديث وعلوم اللغة والسير، وتفوق في الكتابة والنظم، تولى الوزارة والكتابة للأمير علي بن يوسف وحظي لديه حتى عد من أنبه كتابه وأعلاهم مكانة وآثرهم لديه، وكان يعاونه في ديوان الكتابة أخوه أبو مروان عبد الملك، وصدرت بقلمه رسائل كثيرة عن علي بن يوسف في مختلف الأغراض، وهي تدل على روعة أسلوبه وفيض بلاغته، واستمر على مكانته إلى أن كتب الرسالة المشهورة إلى جند المرابطين ببلنسية التي «أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة»، وهذه الرسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها[2].

(1) آنخل جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 169.

(2) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 176.

ولابن أبي الخصال عدة مؤلفات قيمة منها كتاب «سراح الأدب» الذي صنفه على طريقة كتاب النوادر لأبي علي القالي، وزهر الأدب للحصري، وله آثار شعرية كثيرة في مدح الأمير تاشفين بن علي بن يوسف وله كتاب «ظل العمامة وطوق الحمامة»، وهو في مناقب الصحابة وغيره من المؤلفات[3].

ومن الكتب الجديرة بالذكر في هذا النوع من الأدب كتاب «ريحان الآداب وريعان الشباب» لأبي القاسم محمد بن إبراهيم بن خيره (ابن المواعيني) (ت 564 هـ/ 1168 م) وهو مؤلف يجمع بين جميع المعارف والأحداث التاريخية وله مؤلفات أخرى مثل: «الوشاح المفصل»، وكتاب في الأمثال السائرة، وآخر في الآداب نحا فيه منحى أبي عمر بن عبد البر في «بهجة المجالس»[4].

وفي هذا المجال صنف محمد بن عبد الغفور بن محمد بن عبد الغفور الكلاعي (ت 580 هـ/ 1184 م) رسالة «أحكام علم الكلام»، ورسالة المسجوع، ورسالة الانتصار لأبي الطيب المتنبي[5].

واعتمد أمراء الطوائف الثانية على عدد من الكتاب[6]، الذين برزوا في عهد

(3) ابن بشكوال: الصلة رقم 1294، ص 557، ابن الأبار المعجم رقم 125 ص 144، 145.

(4) ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، رقم 221، ص 221، ص 91، ابن الأبار: التكملة، جـ 2، رقم 1407، ص 515.

(5) ن. م. رقم 1059، ص 394، ابن الأبار: ن. رقم 1456، ص 234.

(6) كتب أبو الحسن عبد الملك بن عياش (ت 568 هـ/ 1172 م) للقاضي ابن حمدين ثم كتب للخليفة عبد المؤمن بن عبد الملك: م. س. سفر 5، رقم 1، رقم 64، ص 26، 27، وكتب أبو علي الحسين بن أم الحور لأبي جعفر الوقشي وزير ابن همشك، ابن سعيد: المغرب، جـ 2، رقم 528، ص 257.
واتخذ ابن قسي عدداً كبيراً من الكتاب منهم ابن القابلة (محمد بن يحيى الشلطشي، وعمر بن عبد الله ابن حربون الذي انتقل إلى كتابة السيد أبي حفص الموحدي، ابن الأبار: الحلة، جـ 2، ص 198، ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 245 :25، التكملة: كوديرا، رقم 1427.
واستكتب ابن همشك بالإضافة للوقشي أبو العباس أحمد بن السعود، وأبو الحجاج يوسف بن العم. ابن سعيد: م. س. جـ 2، رقم 365، ص 52، رقم 366، ص 52.
وكان لابن مردنيش عدداً كبيراً من الكتاب والشعراء منهم أبي يعقوب يوسف بن الجذع، والشاعر الكاتب أبي علي بن حسان، وأبي جعفر أحمد السلمى الذي كتب له ولصهره ابن همشك، ابن سعيد: م. س، رقم 521، ص 254، رقم 524، ص 255.
واستخدم ابن ملحان الطائي في بلاطه الصغير عدة من مشاهير العلم والأدب في ذلك العصر منهم أبي =

المرابطين ومنهم من انتقل إلى خدمة الموحدين، ومن الملاحظ أن بعض أمراء الفتنة كانوا من الكتاب المجيدين والشعراء المحسنين، وكان على رأس هؤلاء الكتاب أبو جعفر الوقشي (ت 574 هـ/ 1178 م) وزير وكاتب ابن همشك، وعرف بتفوقه في النحو واللغة ومعاني الأشعار، وعلم العروض، وصناعة البلاغة، وكان شاعراً متقدماً حافظاً للسنن[7].

ومن أعلام الأدباء الكتاب من الأمراء المنتزين أميران من أمراء الشرق هما أبو عبد الرحمن بن طاهر[8]، وأبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز[9]، وكان ابن طاهر عالماً أديباً يملك سحر البيان وروعته، وكان إلى جانب ذلك شاعراً مطبوعاً، ومن آثاره النثرية رسالة يخاطب بها الخليفة عبد المؤمن، ويحاول فيها أن يثبت أمر الإمام المهدي بالأدلة التاريخية والمنطقية، وقد وضعها في شكل محاورة تعتمد على الدليل والبرهان بين النفس المطمئنة الراضية، والنفس النزوعية الثائرة، وتحمل النفس المطمئنة خلال حديثها على عهد المرابطين، وتصفه بعهد الضلال والفسوق، وتحاول أن تؤيد صدق دعوة المهدي وشرعية إمامته وصحة نسبته إلى آل البيت، واقتنعت النفس النزوعية الأمارة بالسوء في النهاية بصدق تدليل خصيمتها النفس المطمئنة، ويختم ابن طاهر رسالته وهي المسماة «الكافية في براهين الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه عقلاً ونقلاً»، ويختم الرسالة بمدح الخليفة عبد المؤمن والدعاء له والإشادة بمآثره، وقد أورد الرسالة كاملة ابن القطان[10].

أما الوزيرالكاتب الناشر الشاعر أبو جعفر بن عطية (ت 553 هـ/ 1158 م) فكان كاتباً للأمير علي بن يوسف بن تاشفين ثم لابنه تاشفين وبعد سقوط المرابطين استكتبه

= بكر بن طفيل الفيلسوف الطبيب، والشاعر الحكم بن هرودس.

ابن سعيد: م. س، رقم 496، ص 210، ابن الخطيب: الأعلام، ص 264.

(7) ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ2، ص 257، 267.

(8) ابن الأبار: الحلة، ص 216: 222.

(9) ن. م. ص 218: 226.

وكان هناك أبو القاسم أخيل الرندى أحد الكتّاب البلغاء والشعراء، كتب في فتوته للملثمين ثم في أول الفتنة للقاضي ابن حمدين، ثم تحرك إلى بلده رندة وتأمر بها. ابن صاحب الصلاة، م. س. ص 224، 225.

(10) ابن القطان: نظم الجمان، ص 50: 73.

واستوزه الخليفة عبد المؤمن بن علي، وبلغ مكانة مرموقة إلى أن نكب على يده هو وأخوه أبو عقيل[11].

وظهر في هذه الفترة مؤلفات في الأدب على نهج مقامات الحريري (446: 515 هـ) (1054 :1122 م) التي كانت من أوسع كتب الأدب العربي انتشاراً في العالم الإسلامي فكانت «لأبي جعفر عبد الرحمن بن أحمد الأزدي (ت 1180/575 م)[12] مقامات، ولأبي بكر بن ميمون (ت 567 هـ/ 1171 م) مقامات الحريري»[13].

وصنف عثمان بن علي بن عثمان المعروف بأبي عمرو بن الإمام (ت 550 هـ/ 1155 م) كتاباً في كتاب أهل عصره وشعرائهم على منحى المطمح وقلائد العقيان، وسماه «سمط الجمان وسقط الأذهان» وكتابه من المصادر الهامة التي ينقل عنها ابن سعيد في المغرب[14].

وكان النحو من العلوم المهمة التي انكب عليها علماء اللغة والنحو على دراسته والتأليف فيه يقول ابن سعيد[15]: «والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة، حتى أنهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلا حدة وهم كثيروا البحث فيه، وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو ـ بحيث لا تخفى عليه الدقائق ـ فليس عندهم بمستحق للتمييز، ولا سالم من الازدراء مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية، والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب، وأخذ يجري على قوانين النحو، استثقلوه، واستبردوه، ولكن ذلك مراعى عندهم في القراءات، والمخاطبات بالرسائل وعلم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنثر والنظم ومستظرفات الحكايات أنبل علم عندهم، وبه يتقرب من مجالس ملوكهم،

(11) ابن الأبار: أعتاب الكتاب، ص 225: 229، الحلة السيراء جـ 2، ص 238، ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 160، ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 1، ص 271، ابن عذارى: البيان المغرب، جـ 4، ص 16.

(12) آنْخل جنثالث: الفكر الأندلسي، ص 181.

(13) ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، رقم 836، ص 319.
ابن الأبار: التكملة، جـ 2، رقم 1395، ص 135.

(14) ابن عبد الملك، م. س، سفر 5، قسم 1، رقم 272، ص 135.

(15) المقري: نفح الطيب، جـ 1، ص 221، 222.

وأعلامهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل».

ونظراً لتشجيع المرابطين أيضاً لهذا العلم وانكبابهم على تعلم اللغة والنحو[16] وجدنا بين كتب التراجم حشداً هائلاً من علماء هذا الفن ومصنفاتهم وعاصر هؤلاء العلماء آخر عهد المرابطين وفترة الطوائف الثانية وأوائل عهد الموحدين.

فكان محمد بن أحمد بن طاهر الأنصاري المعروف بأبي بكر الخدب رئيس النحويين في زمانه بلا مدافعة، وأفهمهم لأغراض سيبويه وأحسنهم قياماً على كتابه، وله عليه تنبيهات مفيدة، وله تعليق على كتاب سيبويه سماه بالطرر لم يسبق إلى مثله[17].

ويعتبر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام بن خلف (ت 577 هـ/ 1181 م) من أشهر النحويين لهذه المرحلة لتعدد تصانيفه المفيدة منها «تقويم اللسان»، ونحى فيه منحى الزبيدي في لحن العامة، وصدره بالتعقيب على الزبيدي في أشياء نسب العامة فيها إلى اللحن، وهم فيها على الصواب، ومنها شرح مقصورة ابن دريد، وكتاب الفصول والجمل في شرح أبيات الجمل، وشرح قصيدة الهاشمي في ترحيل النيرين، وشرح قصيد الحريري في الظاء، وشرح الفصيح لثعلب إلى غير ذلك من المقالات[18].

ومن أعلام اللغويين أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله ويعرف بالتدميري (ت 555 هـ/ 1160 م) له عدة مؤلفات مهمة منها كتاب التوطئة في العربية، وشرح على كتاب الفصيح لثعلب، وشرح لأبيات جمل الزجاجي، وكتاب الفوائد والفرائد وغيرها من المصنفات المهمة[19].

---

(16) مما يدل على تفهم أمراء المرابطين للغة العربية تلك الرسالة التي كتبها أبو عبدالله ابن أبي الخصال بجند المرابطين ببلنسية بعد هزيمتهم من الفونسو المحارب، أن الأمير علي بن يوسف فطن للغمز واللمز الذي كتبه ابن أبي الخصال في الرسالة وفهم تورياته التي ظن أنها تخفى على أمير المسلمين.

(17) السيوطي: بغية الوعاة، جـ1، ص 12، ابن الآبار: التكملة جـ2، رقم 1447، ص 532.

(18) ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، رقم 162، ص 70، 71.

ابن الآبار: التكملة، جـ2، رقم 179، ص 675، السيوطي: م. س. رقم 80.

(19) ابن الآبار: م. س. جـ1، رقم 175، ص 65.

انظر ترجمة أبو بكر بن ميمون في التكملة رقم 1395، ص 511، وترجمة ابن سعد البطليوسي في =

ومن الملاحظ في الاهتمام بهذا العلم أنه ألفت كتب عديدة في شرح كتاب الفصيح لثعلب وأبيات جمل الزجاجي، وسيبويه.

والشعر عندهم له حظ عظيم، والمجيدون منهم ينشدونه في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم، وإذا كان الشخص نحوياً أو شاعراً، فإنه يعظم في نفسه لا محالة، ويسخف، ويظهر العجب، عادة جبلوا عليها»[20].

وأقبل عصر المرابطين بجديته وجهاده، مثيراً في الناس الحماسة، رافعاً لمعنوياتهم التي انهارت قبل دخول المرابطين، فانعكس ذلك على الأدب الذي واكب العصر بأحداثه وظروفه، وبدأ يكيف نفسه بما يلائم الظروف الجديدة التي أحاطت به[21]، فقل شعر التكسب من أجل المدح، ومر بأزمة حرجة جعلت بعض المعاصرين يتخذونها دليلاً على جهل المرابطين من جهة، ومن جهة أخرى على اضمحلال الأدب[22]، يقول جارسيا جومس[23]، وبدأ وكأن الشعر يلفظ آخر أنفاسه، كأنه كيان ناءٍ بثقل النازلة، وانطوى على نفسه إلى حين، ولكن هذه الأزمة لا تعني اضمحلال الأدب أو جهل المرابطين به كما يرى أولئك الدارسون، إذ أن الأدب قد بلغ مكانة سامية في هذا العصر تمثلت في وصول النثر الفني إلى قمة تطوره[24]، أما الذي تأثر أو اضمحل فهو شاعر البلاط، أو الشاعر الذي يحصل على منصب كبير في الدولة تقديراً لشعره، أما سائر الشعراء فلم يتغير بهم الحال كثيراً[25].

ثم يقوم المهدي بن تومرت بثورته ضد المرابطين الذين يأخذ عليهم أتباعهم لنهج السلف اتباعاً جامداً، ويصفهم بالمجسمين لأنهم لم يتعرضوا لما عليه علماء

= المقري: أزهار الرياض، جـ 3، ص 121، وعمر بن أحمد بن عديس في ابن عبد الملك الذيل، سفر 5، قسم 2، رقم 796، ص 457.

(20) المقري: نفح الطيب، جـ 1، ص 222.

(21) جارسيا جومس: الشعر الأندلسي، ص 57.

(22) دوزي، وأشباخ، د. مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، مصطفى عوض عبد الكريم، الأدب الأندلسي في عهد المرابطين.

(23) جارسيا جومس: م. س. ص 56.

(24) عبد الحميد الهرامة: الأعمى التطيلي، ص 165.

(25) د. إحسان عباس: عصر الطوائف والمرابطين، ص 80.

الكلام من تأويل لبعض آيات القرآن الكريم التي تجسد الذات الإلهية في الظاهر ويستغل لثامهم في الدعاية ضدهم، فيزعم أن اللثام للرجال تشبه بالنساء، وكشف نسائهم لوجوههن تشبه بالرجال محرم، والمتشبهون ملعونون[26].

بمثل تلك الدعاوى اتخذ الموحدون شعارات ثورتهم الفكرية، ثم العسكرية ضد المرابطين، يساعدهم على نشر دعواهم المضللة مجتمع أمي متخلف يمكن التأثير فيه، والتغرير به باسم الدين.

والواقع أن شعر المدح خاصة قد تأثر لبعض الوقت في عهد يوسف بن تاشفين أما في عهد خلفائه فقد كثرت القصائد في مدح علي بن يوسف وابنه تاشفين، وأبي إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، وإن كان هذا النوع من الشعر لم يكن بالكثرة التي وجدت في عهد طوائف ما قبل المرابطين، أو عهد الموحدين، أما فترة الطوائف بين المرابطين والموحدين، فلا يمكن القول فيها برأي قاطع تجاهها، إذ كانت فترة مضطربة لا تتعدى بضع سنوات وإن كان هذا لا يخلو من شعراء مدحوا ابن حمدين وابن مردنيش كما أنه من الملاحظ أن معظم المنتزين في هذه المرحلة كان يقول الشعر ويجيده.

كانت الفترة التي عاشتها دولة المرابطين قصيرة، قضت معظمها في الجهاد، إما في المغرب جنوب الصحراء في السودان وإما داخل المغرب أو في الأندلس، وبعدها مع الموحدين، فكان تخصيص وقت لمجالس الشعر ترفاً، يعتبره أمراء المرابطين لا تسمع به الظروف، وكان شعراء المدح يجدون صعوبة في انتقالهم إلى حضرة أمير المسلمين لما تتكلفه الرحلة من الجهد والمال، أو ربما كان عطاء أمراء المرابطين لا يكافىء مشاق الرحلة وتكاليفها، وهذا يفسر لجوء بعض الشعراء إلى إرسال شعرهم إلى بلاط المرابطين، بدلاً من رحيلهم إليهم، كما فعل الأعمى التطيلي عندما أرسل قصائده إلى مالك بن وهيب لإيصالها للأمير علي بن يوسف[27].

---

(26) ابن القطان: م. س. ص 85.

(27) يقول فيها الأعمى التطيلي:

لعلك قد أشجتك أخرى شكاية ... قضيت بأولادها نحيبي أو نحبي

رفعت بها صوتاً إذا شئت أحرقت ... بلابله ما انهل من دمعي السكب =

لذلك كـان جواز أمير المسلمين إلى الأندلس فرصة ذهبية لهؤلاء الشعراء، وغيثا أغناهم عن الارتحال ومشاقه[28]، ويذكر ابن عذاري[29] أن الشعراء مدحوا يوسف بن تاشفين عند جوازه للأندلس في حله وترحاله فأجزل لهم العطاء، وكذلك فعل الشعراء والأدباء عند جواز ابنه علي في كل مرة «فأجزل لهم العطاء، وقضى لمن كان ذا أرب أربه، وسنى لكل ذي مطلب مطلبه»[30]، ومدحه الشاعر محمد ابن عبد الرحمن العقبلي بقصيدة طويلة، فأجازه عليها بتنويه كريم وكتب صك بتحرير أملاكه[31].

سبب آخر في أزمة شعراء المديح هو أن دولة المرابطين قامت على أساس ديني، مالكية المذهب، فكان للفقهاء مكانتهم في تسيير أمور الدولة، ومنافسة الشعراء، أو سد الباب أمام تواجدهم في بلاط أمير المسلمين، وإن كان هذا الوضع حول بعض الشعراء لمدح بعض القضاة وبعض البيوتات التي نالت مكانة في هذا المجتمع مثل بني حمدين وبني زهر وبني عشرة وغيرهم.

ولكننا برغم ذلك نجد عدداً كبيراً من الأسماء اللامعة في هذه المرحلة، وتطورت الأغراض الأخرى للشعر غير المدح، فوصلت إلى قمتها، مثل شعر الطبيعة

= وبين أمير المؤمنين وبينه ... مضايقة الحجاب أو هيبة الحجب
وأنت قديماً كنت أول رائش ... لذكرى حتى طار في الشرق والغرب

عبد الحميد الهرامة: م. س. ص 169.

(28) يقول الأعمى التطيلي في قصيدة مدح بها علي بن يوسف بن تاشفين عند جوازه الأندلس.

أنا ممن أهدى إليك القوافي ... غير وحشية ولا إهمال
كنجوم السماء يطلعن في الكتب ... ويغربن في صدور الرجال
جادها في بلادها رائد الويل ... فأغنى عن نجعة وارتحال

ديوان الأعمى التطيلي ص 105، عبد الحميد الهرامة، م. س. ص 171.

(29) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ 4، ص 47.

(30) ن. م. ص 48، 64.

(31) ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، رقم 986، ص 368 يقول فيها:

أيا ملكاً يسمو بسعد مساعد ... وقدر على علو الكواكب صاعد
نظمت قصيداً في علاك مضمناً ... ثلاث قواف في ثلاث قصائد
إذا فصلت أغنى عن البعض بعضها ... وإن وصلت كانت ككف وساعد
فدونكما حسناء عذراء ناهدا ... تميس اختيالا في ملاء المحامد
وطولك في تشريفها بقبولها ... تكون بجيد المجد إحدى القلائد

الذي وصل إلى ذروته على لسان ابن خفاجة[32]، وابن أخته ابن الزقاق[33]، وأصبحا شاعرا الطبيعة في الأندلس دون منازع، بل في العالم الإسلامي، فصار صيت ابن خفاجة في وصف الجنان والحدائق والرياض حتى لقب بالجنان، وظل أثر ابن خفاجة أو الطريقة الخفاجية كما يسميها جارسيا جومس[34] قدوة ومثلاً يحتذى به حتى أواخر مملكة غرناطة، فروضياته تفيض عذوبة وجمالاً، ويصورها في فن مصقول حافل بالمعاني فتبدو وكأنها مشاهد من عالم الخيال، أو مجالس أنس تدور فيها الكؤوس[35]، كما برع أيضاً في المدح، فمدح عدداً من أمراء المرابطين، بل لقد ذكر ابن خفاجة أن سبب خروجه من عزلته ومعاودته الشعر، هو الأمير أبا إسحق إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين[36].

ويبلغ شعر النقد والهجاء مكانة مرموقة على لسان عدد من الشعراء، مما يدل على حرية الكلمة والفكر، وكان أكثر هجائهم للمرابطين أو للفقهاء والقضاة أو بعضاً من الأثرياء الذين كانوا يضنون بالهبات السخية عندما يمدحهم الشعراء[37].

---

(32) انظر ترجمة ابن خفاجة في مقدمة الديوان الذي حققه د. السيد مصطفى غازي والمصادر التي تعرض لها.

(33) ترجمة ابن الزقاق في الذيل والتكملة سفر 5، قسم 1، رقم 526، ص 265، ابن سعيد، المغرب، جـ 2، رقم 567، ص 323، ويقول في الوصف:

وأغيد طاف بالكؤوس ضحى ... وحثها والصباح قد وضحا
والروض أهدى لنا شقائقه ... وآسه العنبري قد نفخا
قلنا، وأين الأقاح؟ قال لنا ... أودعته ثغر من سقى القدحا
فظل ساقي المدام يجحد ما ... قال فلما تبسم افتضحا

المقري: نفح الطيب، جـ 3، ص 199، 200.

(34) جارسيا جومسي: م. س. ص 59.

(35) من قول ابن خفاجة في عشية أنس:

وعشي أنس أضجعتني نشوة ... فيه تمهد مضجعي وتدمث
خلعت علي به الأراكة ظلها ... والغصن يصغي والحمام يحدث
والشمس تجنح للغروب مريضة ... والرعد يرقى والغمامة تنفث

ابن خلكان: م. س. جـ 1، رقم 17، ص 56.

(36) انظر ديوان ابن خفاجة.

(37) كقول الأعمى التطيلي معرضاً بهؤلاء:

وما يهبون المال من ضجر به ... وإلا فَلِمَ قالوا به وتقولوا

وقد ولع الشاعر المعروف بالأبيض أبي بكر بن أحمد الأنصاري (توفي بعد 522 هـ/ 1128 م) بهجاء المرابطين خصوصاً الأمير الزبير بن عمر الملثم أمير قرطبة[38] كما هجا القاضي ابن حمدين قاضي الجماعة بها[39].

ومدح الشاعر أبو بكر يحيى بن سهل المعروف باليكي (ت 560 هـ/ 1164 م) المرابطين فبلغ النهاية في المدح، ثم نقله إلى الهجاء فبلغ به النهاية في الذم[40] قال عنه الحجاري في المسهب[41]: «هذا الرجل هو ابن الرومي في عصرنا، وحطيئة دهرنا، لا تجيد قريحته إلا في الهجاء، ولا تنشط في غير ذلك من الأنحاء»، وهجا الفقهاء[42] ولم يسلم أحد من لسانه.

= ولكنهم رامـوا من الفضـل غـايـة ... فلم يبلّغـوهـا دون أن يتفضـلوا

ديوان الأعمى التطيلي، ص 127.

(38) من قول الأبيض في هجاء الزبير بن عمر:

عكف الزبير على الضلالة جاهدا ... ووزيــره المشهــور كلب الـنــار

ما زال يأخـذ سجدة في سجـدة ... بين الـكؤوس ونـغـمـة الأوتـار

فـإذا اعتـراه السهـو سبـح خلفـه ... صــوت القيـان ورنـة المـزمـار

ابن سعيد: م. س. جـ2، رقم 442، ص 127، صفوان، زاد المسافر، ص 66.

(39) ن. م. ص 128.

(40) لقي الأمير عمر بن ينتـان المـلثم اليـكي فقال له: يا فقيه، مدحتنا فبلغت غاية رضانا بقولك:

قـوم لهم شرف العـلا في حمير ... وإذا انتمــوا صنهـاجـة فهم هم

لمـا حَـوَوْا إحـراز، كـل فضيلة ... غلب الحيــاء عليـهم فـتلثـمـوا

ثم بلغنا أنك هجوتنا بقولك:

في كــل من ربط اللثام دنــاءة ... ولــو أنــه يـعـلو عـلى كـيــوان

ما الفخر عندهم سوى أن ينقلوا ... من بـطن زانية لـظهـر حصــان

الـمنتمـون لـحميـر لـكـنـهـم ... وضعـوا القرون مـواضع التيجـان

لا تـطلبـن مـرابـطاً ذا عـفـة ... واطلب شعـاع النار في الغـدران

وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً، فقال له: إني لم أقل ذلك ولكني قلت:

إن المــرابط لا يكـون مـرابطاً ... حـتـى تـراه إذ تـراه جـبـانـا

تجلو الـرعيـة من مخـافـة جـوره ... لـجـلالـه إذ يلتـقـي الأقـرانـا

إن تـظلمـونـا نـتصف لنفـوسنـا ... يجني الـرجـال فنـأخـذ النسـوانـا

ابن سعيد: م. س. جـ2 رقم 536، ص 268، صفوان: م. س. ص 77، ابن دحية: المطرب ص 125.

(42) هجا الفقهاء بقوله:

=

ومن شعراء هذه الفترة أيضاً الهجائين أبو بكر المخزومي الأعمى قال عنه ابن الخطيب[43]، إنه كان أعمى شديد الشر، معروفاً بالهجاء، مسلطاً على الأعراض سريع الجواب، ذكي الذهن فطناً للمعاريض، سابقاً في ميدان الهجاء، فـإذا مدح ضعف شعره.

وفي المدح وغيره من أغراض الشعر ظهر عدد كبير من الشعراء الذين امتد بهم العمر إلى دولة الموحدين فمدحوا أمراء الطوائف الثانية ولكنهم أجادوا في عهد الموحدين لتشجيعهم للشعراء وسيلة الدعاية لهم، ولدعوتهم[44].

كما ظهرت في هذه المرحلة عدد من النساء الشاعرات، ومع أن كتب الطبقات لم تذكر إلا عدداً قليلاً لا يكاد يعد على أصابع اليد، إلا أن هذا لا يعني أنه لا يوجد غيرهن فطبيعة الحياة الاجتماعية خاصة في الطبقة الوسطى والدنيا كانت لا تسمح بظهورهن، إذ الملاحظ أن جل هاته الشاعرات اللاتي أرخ لهن كن من طبقة الخاصة كما أنه من الملاحظ أيضاً أن هاته الشاعرات كن يحضرن مجالس الشعراء والأدباء من الرجال، فكانوا يتناقلون شعرهن، ثم يذاع في مجالس أخرى أو مناسبات، وبذلك يشتهرن ويذاع أمرهن، أما الطبقات الأخرى فتكون متمسكة أكثر بالتقاليد، مما يمنع من ظهور بعض الأسماء الموهوبة.

= ثمـان خصال في الفقيـه وعرسـه — وثنتـان والتحقيق بـالمـرء أليق
ويكـذب أحيانـاً ويحلف حـانثا — ويكفـر تقليـداً ويـرشي ويـسـرق
وعـاشـرة والـذنـب فيهـا لأمـه — إذا ذكـرت لم يبق للشتم منطق

ن. م.

(43) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 1، ص 424: 427، وله قطع شعرية كثيرة في المقري في نفح الطيب.

(44) منهم أبو بكر بن المنخل الشلبي مدح ابن المنذر أمير شلب ثم انتقل للموحدين فمدح عبد المؤمن بعدة قصائد، أبو عمر بن حربون الذي كان من جملة كتاب ابن قسي وانتقل إلى خدمة الموحدين فكان من كتاب السيد أبي حفص، أخيل الرندي، وأبو عبدالله بن محمد الحسن المعروف بابن الفخار، حاتم بن سعيد، وأبي القاسم بن البراق، والشاعر المعروف ابن سيد الإشبيلي المعروف باللص، والشاعر القرشي القرطبي المعروف بالطليق، وكثير من هؤلاء الأمراء المتنزين قالوا الشعر مثل أبو مروان بن عبد العزيز وابن طاهر وابن قسي، انظر ابن الأبار، الحلة السيراء جـ 2، ابن صاحب الصلاة، المقري: م. س. جـ 3، جـ 4، ابن عبد الملك: الذيل والتكملة جـ 6، ابن سعيد المغرب، جـ 1، والعماد الأصفهاني، الخريدة.

كانت على رأس شاعرات هذه المرحلة حفصة بنت الحاج الركونية[45] «فريدة الزمان في الحسن والظرف والأدب واللوذعية» والتي عمرت طويلاً إلى سنة (580 هـ/ 1184 م)، ونزهون الغرناطية أو الكلاعية[46]، ومهجة بنت بن عبد الرازق[47] قشترية من عمل غرناطة، وحمدة وأختها زينب[48] بنتا زياد.بن بقي العوفي المؤدب، وأم الهنا بنت القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية[49]، والشلبية[50]، وزينب ألمرية[51] وغيرهن.

كما ظهرت في الأسرة الحاكمة المرابطية عدة شاعرات منهن تميمة بنت يوسف بن تاشفين[52]، وحواء وزينب[53] بنتا الأمير إبراهيم بن تيفلويت، وحواء[54] بنت أخي الأمير يوسف بن تاشفين أمير المسلمين لأمه وزوجة الأمير سير بن أبي بكر أمير

---

(45) المقري: م. س. جـ 4، ص 171، ابن الخطيب، الإحاطة جـ 1، ص 491.
ابن سعيد: المغرب، جـ 2، رقم 446، ص 138.

(46) اشتهرت بخفة الروح ولها فكاهات ودعابات مع الشاعر أبي بكر المخزومي الأعمى، وأبي بكر بن قزمان الزجال، ابن عبد الملك، م. س. سفر 8، قسم 2، رقم 279، ص 493، المغرب، جـ 2، رقم 438، ص 121، ابن الخطيب: م. س. جـ 1، ص 424: 426، المقري: م. س. جـ 4، ص 290.

(47) ابن عبد الملك: م. س. سفر 8، قسم 2، رقم 278، ص 492.

(48) قال ابن سعيد عن حمدة شاعرة جميع الأندلس، خنساء المغرب.
ابن سعيد، م. س. جـ 2، رقم 451، ص 145، ابن الخطيب: م. س. جـ 1، ص 489، 490، المقري: م. س. جـ 4، ص 287، ابن عبد الملك: م. س. سفر 8، قسم 2، رقم 451، وفي ترجمة ابن البراق في الذيل سفر 6 رقم 1241.

(49) المقري: م. س. جـ 4، ص 292.

(50) ن. م. ص 294، ابن عبد الملك، سفر 8، قسم 2، رقم 286، ص 395.

(51) المقري: م. س. ص 286، ابن عبد الملك: م. س. رقم 259، ص 287.

(52) قال عنها ابن القاضي: كانت تطلب العلم وتحفظ الشعر، وتتخذ الموكلين والكتاب وتبرز إليهم في غير ما حياء أو خجل وتحاسبهم دون أن تجد في ذلك غرابة، وقد روى أن الكاتب الذي لقيته ابنة أمير المسلمين بهت، فلما نظرت إليه ظنت أنه بهت من حسنها وجمالها فأنشدته:

هي الشمس مسكنها في السماء ... فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ... ولن تستطيع إليك النزولا

ابن القاضي: جذوة الاقتباس، جـ 1، رقم 130، ص 173.

(53) ابن عبد الملك: م. س. سفر 8، قسم 2، رقم 288، ص 489.

(54) ابن عذاري م. س. جـ 4، ص 57.

إشبيلية، وورقاء بنت ينتان[55] وغيرهن.

وازدهر على هذا العهد لون من ألوان النظم المسمى بالموشحات وهو يختلف عن الشعر في طريقة النظم، بالتزامه نظاماً خاصاً في القافية، وبخروجه على بحور الخليل في أغلب الأحيان، وخلوه من الوزن في أحيان أخرى[56]، وعرفه صاحب التاج[57] بأنه اسم لنوع من الشعر استحدثه الأندلسيون، وهو فن عجيب له أسماط وأغصان وأعاريض مختلفة، وهو أول ثورة حققها الشعر العربي في إيثار الإيقاع الخفيف الذي يقرب الشقة بين الشعر والنثر[58]، وهي أوزان أكثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل، والنسيب، «تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب»[59].

ويلغ فن الموشحات أوجه في عصر المرابطين يقول ابن خلدون[60]: «ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة الملثمين، فظهرت لهم البدائع، وسابق فرسان حلبتها الأعمى التطيلي، ثم يحيى بن بقي»، وكان في عصرهما من الوشحين المشهورين أبو بكر بن الأبيض، وأبو بكر بن باجة[61] صاحب التلاحين المشهورة.

واشتهر بعد ذلك في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف،

---

(55) ابن القاضي: م. س. رقم 614، ابن عبد الملك: م. س. رقم 281، ص 493.

(56) د. سامي العانى: دراسات في الأدب الأندلسي، ص 167.

(57) الزبيدي: مادة وشح، ابن خلدون: المقدمة، جـ 4، ص 1447.

(58) د. إحسان عباس: تاريخ الأندلس عصر الطوائف والمرابطين، ص 244.

(59) ابن بسام: الذخيرة، قسم 1، مجلد 1، ص 469.

(60) ابن خلدون: م. س. ص 1449.

(61) من الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه الأمير أبي بكر بن تيفلويت أمير سرقسطة فألقى على بعض قيناته موشحته:

جـرر الـذيـل أيـمـا جـر   وصـل الشكـر منـك بـالشكـر

فطرب الممدوح لذلك فلما ختمها بقوله:

عـقـد الله رايـة الـنـصـر   لأمـيـر الـعـلا أبـي بـكـر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح وأطرباه وشق ثيابه وقال: ما أحسنت ما بدأت وما ختمت، وحلف بالإيمان المتغلظة لا يمشي ابن باجة إلى داره إلا على الذهب، فخاف الحكيم سوء العاقبة، فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه.

ابن خلدون: م. س. ص 1450.

وابن هرودس، وأبي بكر بن زهر الطبيب الشاعر، وأبو إسحق الدويني والمهر بن الفرس وغيرهم[62].

وكان للحياة الاجتماعية في الأندلس أثر كبير في ظهور هذا اللون من النظم، فشيوع مجالس اللهو والأنس والطرب والغناء، مع تفشي اللغة الوسطى بين العامية والفصحى والأعجمية، مع حب الابتكار لديهم، وميلهم إلى الجمال والرفاهية حتى في أوزان الشعر، فكان الموشح ثمرة من ثمرات الغناء الشعبي الذي انتشر في أنحاء الأندلس، وبقيت الموشحات غذاء الأندلسيين، يجدون فيها ذلك اللحن والموسيقى، وتلك النشوة المتصلة التي لا تعرف اليقظة[63].

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه، وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً، واستحدثوه، فأسموه بالزجل والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة[64]، أما جارسيا جومس[65] فيرى أنها «أشعار مفحشة عابثة مجردة من الحياء، فياضة بالمجون والتصغيرات، مرسلة في غير تحفظ في عبارات متقطعة غير متصلة المعاني أو السياحة».

وبلغت الأزجال قمتها على لسان أبي بكر بن قزمان يقول ابن خلدون[66]: «وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان، وإن كانت قيلت قبله

---

(62) ن. م. ص 1450، 1455.

(63) عن فن التوشيح انظر الصفدي: توشيح التوشيح، تحقيق ألبير حسب مطلق.
ابن سناء الملك: دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق د. جودت الركابي.
ابن الخطيب: جيش التوشيح، تحقيق هلال ناجي.
د. مصطفى عوض الكريم: فن التوشيح.
د. محمد مهدي البصير: الموشح في الأندلس.
د. عبد العزيز الأهواني: الزجل في الأندلس.
د. سامي العاني: دراسات في الأدب الأندلس.

(64) ابن خلدون: م. س. ص 1460.

(65) جارسيا جومس: م. س. ص 63.

(66) ابن خلدون: م. س. ص 1460.

بالأندلس، لكن لم يظهر حلاها، ولا انسكبت معانيها، واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه، وكان لعهد الملثمين، وهو إمام الزجالين على الإطلاق».

وذاعت أزجال ابن قزمان واشتهرت ليس في الأندلس والمغرب فقط، وإنما كانت بالمشرق أكثر شهرة[67].

ولكننا لا نعرف أية معلومات عن زجالين آخرين في هذه الفترة سوى تلك الأسماء التي ذكرها ابن قزمان لبعض الزجالين المعاصرين له، إذ اتفق أن اجتمع في يوم جماعة من أعلام هذا الفن، وقد ركبوا زورقاً للصيد في نهر إشبيلية وهم عيسى البليدي الإشبيلي، وأبو عمر بن الزاهد، وأبو العباس المقري الداني وأبو بكر بن مرتين[68] وذكر ابن خلدون[69] أن زجال شرق الأندلس كان مخلف الأسود، ويبدو أن عدد الزجالين الذين ظهروا في هذه المرحلة كان كبيراً، لأن ابن قزمان يشير إلى ذلك في ديوانه، ولكن إشارته كلها انتقاص منهم، واستهانة بهم، فيقول في مقدمة ديوانه: «وأما في زماننا هذا فلم ألق فيه إلا دعياً، أو قال عياً، وصلالة من خمس أبيات إلى ستة إذا قصد الاسترسال نحت حجر، وإذا التمس الإنجاز نجر»[70]، ويعرض بهم في أزجاله[71].

---

(67) ابن سعيد: م. س. جـ 1، رقم 34، ص 100.

يقول الحجاري أنه كان في أول أمره مشتغلاً، بالنظم المغرب، فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم، فصار أهل الزَجل المنظوم بكلام عامة الأندلس.

ابن سعيد: ن. م.

بينما يذكر ابن قزمان سبب انتحاله الزجل في مقدمة ديوانه بقوله: «ولقد كنت أرى الناس يلهون بالمتقدمين، ويعظمون أولئك المقدمين، ويجعلونهم في السماك الأعزل، ويرون لهم المرتبة العليا والمقدار الأجزل، وهم لا يعرفون الطريق، ويذرون القبلة، ويمشون في التغريب والتشريق يأتون بمعان باردة، وأغراض شاردة، وألفاظ شياطينها غير ماردة، والأعراب وهو أقبح ما يكون في الزجل، وأثقل من إقبال الأجل»، مقدمة ديوانه، ص 2.

(68) د. عبد العزيز الأهواني: م. س. ص 64.

(69) ابن خلدون: م. س. ص 1462.

(70) ديوان ابن قزمان، ص 4.

(71) يقول في زجل (9):

كـل من جا يقـول أنـا زجـال أنا مطبـوع سَـرَف وَلَسْ لي مثال =

ثم جاء بعد هؤلاء مدغليس الذي أراد أن يحتل في العصر الموحدي المكانة التي كانت لابن قزمان الذي توفي (554 هـ/ 1159 م)، ولكنه لم يظفر بموهبته، ولم يجد أولئك الشبان من طبقة الخاصة الذين أبعدوا عن الحياة السياسية فانصرفوا إلى مجالس اللهو أو وجدهم، ولكنه لم يكن في نفس ظرف ابن قزمان وخفة روحه، ومزاجه المرح[72].

التاريخ:

تذكر لنا كتب التراجم عدداً لا بأس به من الكتب التي اعتنت بالتاريخ خصوصاً فترة الفتنة التي قضت على دولة المرابطين، غير أن كل هذه الكتب تعد في حكم المفقودة. فكتاب ابن صاحب الصلاة «ثورة المريدين»[73] «وتاريخ المن بالإمامة»، وهو يعتبر أفضل ما ألف عن عصر المرابطين والموحدين فقدا ولا يوجد من تاريخ المن بالإمامة سوى القسم الثاني الذي يبدأ بأحداث عام (554 هـ).

وتحدثنا المصادر أيضاً عن كتاب لابن الصيرفي (أبي بكر يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي (ت 557 هـ/ 1174 م) يسمى الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية «وذكر ابن عبد الملك[74] عند ترجمته لمحمد بن أحمد بن عامر السالمي (ت 559 هـ 1163 م) أن من ضمن مؤلفاته[75] كتاب في «الفتنة الكائنة على

= ثم إلّا مثقال على مثقال … أي رمادي، ترى البشر يلتهم
ثم تعجب وهو مكان العجب … جمعوا الجهل ثم سوء الأدب
أن نجري أنا خيول العرب … قاموا ماعى يَدّ حمير الظلم

الرماد عندهم: المصيبة، الالتهام: التذكر، حمير الظلم ضربوا بها المثل في الكسل.

(72) عن مدغليس انظر المقري، م. س. جـ 3، ص 385.
د. عبد العزيز الأهواني: م. س. ص 106، وما بعدها.

(73) ذكره ابن صاحب الصلاة في كتابه المن بالإمامة كلما تعرض لبعض الثوار ويحيل عليه. كما أن ابن الخطيب في كتابه أعمال الأعلام.
وابن الأبار: في حلته قد استعانا به كثيراً في ثورة المريدين.

(74) ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، ص 9.

(75) ألف السالمي في الحديث والآداب واللغة والتاريخ من هذه المؤلفات: «ورد القلائد وغرر الفوائد في أخبار الأندلس، وأمرائها وطبقات علمائها وشعرائها»، «وسراج الإسلام» «ومنهاج الإسلام من مجرد كلام النبي عليه السلام»، «حلية الكاتب، وبغية الطالب في الأمثال السائرة والأشعار النادرة» «حلية اللسان وبغية الإنسان في الإعلام في الأوصاف والتشبيهات والأشعار السائرات»، «طبقات الشعراء الأعلام في =

اللمتونين بالأندلس سنة أربعين وما يليها وما بعدها، ثم كتب مختصراً له سماه «عبرة العبر وعجائب القدر، في ذكر الفتن الأندلسية والعدوية، بعد فساد الدولة المرابطية» وقد بدأ فيهما بأحداث 539 هـ وانتهى إلى 547 هـ (1153 م).

وألف في هذه الفترة أيضاً أبو عمر بن عفيون[76] (ت 563 هـ/ 1167 م) عدة كتب كان مصيرها مثل السابقة، وأبو عمر بن عبد الله بن سفيان بن سيدالة التجيبي (ت 558 هـ/ 1162 م) كان له كتاب في علماء الأندلس وصل به صلة ابن بشكوال[77]. وأبو عمر بن الإمام صاحب كتاب «سمط الجمان وسقط المرجان»[78].

وكثرت عناية الناس في هذه الفترة خصوصاً بتصنيف معاجم الأعلام، وفهارس الكتب، واشتهرت بينهم، فألفت معاجم لأعلام الفقهاء، أو للقضاة إلى غير ذلك، ثم كانت هناك معاجم تراجم عامة جامعة مثل تصانيف الحجاري[79] الذي يسميه صاحب المغرب بجاحظ المغرب (ت 550 هـ/ 1155 م) وكتابه المسهب من الكتب القيمة المفقودة، ولكن مما يخفف من خسارته أن عدداً كبيراً ممن أتوا بعده نقلوا منه مثل المقري في نفح الطيب، وابن سعيد في المغرب.

ومن مؤلفي معاجم الأعلام في هذه الفترة العلامة أبو القاسم خلف بن بشكوال

= الجاهلية والإسلام، إلى هذا التاريخ، وكتاب «بستان الأنفس في نظم أعيان الأندلس»، إلى هذا التاريخ، «منهاج الكتاب»، «بهجة وفرحة، على مثال كليلة ودمنة»، «المنتخب من لغات العرب»، «الاعتذار في القصص والأخبار، على نهاية التقريب والاختصار»، «وتذكرة الأزمان وتبصرة الأذهان»، «العبارة»، «الأزهار في اختلاف الليل والنهار»، «الأسرار في التجارب والاخبار»، «الشفاء في طب الأدواء» وهذه الكتب في حكم المفقود للأسف.

انظر، ترجمته في ابن عبد الملك: سفر 6، رقم 7، ص 9.

السيوطي: بغية الدعاة جـ 1، رقم 60، ص 37.

(76) له كتاب «عجائب البحر»، وكتاب «أخبار الزهاد والعباد» وآخر في التاريخ والآداب سماه «نتائج الأفكار وغرائب الأخبار».

ابن الأبار: التكملة، رقم 831، ص 304.

ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، رقم 353، ص 140.

(77) ن. م. رقم 1362، ص 493.

ابن عبد الملك: ن. م. رقم 739، ص 281.

(78) المقري: نفح الطيب، جـ 3، ص 183، ابن عبد الملك ذكر الكتاب باسم سمط الجمان وسقط الأذهان، السفر الخامس، قسم 1، رقم 272، ص 135.

(79) ن. م. ابن سعيد: م. س. جـ 2 رقم 354، ص 35.

(ت: 578 هـ/ 1182 م) وكتابه الصلة الـذي جعله تتمة لكتـاب ابن الفرضي (1013/403 م) في تاريخ العلماء والرواة بالأندلس وهو يضم أكثر من ألف وخمس مائة ترجمة لعلماء الأندلس ورواتها. ولا سيما علماء قرطبة، ويعتبر كتاب الصلة من أنفس وأوثق مصادر التاريخ الأندلسي وكتب ابن بشكوال أكثر من خمسين مؤلفاً[80].

ولمع في هذه الفترة عدد من الأدباء والمؤرخين، وأعلام الرواية المحققين الذين ما زالت آثارهم من أقيم مصادرنا في تاريخ الأندلس، وعلى رأسهم قطبهم وعميدهم أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت 542 هـ/ 1147 م) مؤلف كتاب «الذخيرة السنيّة في محاسن الجزيرة»، ويعتبر أشهر وأحسن كتب الأدب والتاريخ، ويوضح ابن بسام في مقدمته الدافع النفسي الذي دفعه إلى تصنيف كتاب الذخيرة، أنه رأى انصراف أهل بلده إلى المشرق، للتزود من حضارته، والارتواء من علومه والإعجاب به وإهمال آداب بلدهم فأراد بوضع الذخيرة أن يجمع بها من رائق الشعر والمنظوم ما يبصر أهل الأندلس بتفوق أدبـائهم، وروعة إنتاجهم، وأن من حقهم أن يزهوا بأدبهم، وأن يتذوقوه، ويبين أن الأندلسيين ليسوا بأقل تفوقاً من المشارقة، ولحسن الحظ تم العثور على الذخيرة كاملاً وطبعت عدة مرات[81].

ويمتاز ابن بسام بأسلوبه السلس المشرق الذي يغلب عليه السجع دون إسراف وبملاحظاته النقدية القوية التاريخية والاجتماعية.

الجغرافيا:

وظهر في هذه المرحلة عدد من الرحالة والجغرافيين الذين نهجوا منهجاً مختلفاً عما سبقهم من أصحاب المسالك والممالك.

فكان أبو القاسم بن بشكوال من هؤلاء الجغرافيين بجانب كونه فقيهاً، ومحدثاً

---

(80) من مؤلفات ابن بشكوال: كتاب «الغوامض والمبهمات» في اثني عشر جزءاً، كتاب «الفوائد المنتحبة والحكايات المستغربة، وكتاب «المحاسن والفضائل»، وكتاب «المستغيثين بالله تعالى عن المهمات والحاجات».

انظر، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 2 رقم 217، ص 240.

ابن فرحون: م. س. ص 114.

ابن الأبار: التكملة، رقم 831، ص 304. المعجم رقم 70 ص 82.

(81) ابن بسام: الذخيرة، قسم 1، مجلد 1، ص 12.

ومؤرخا كما سبق أن ذكرنا، واستدل الدكتور حسين مؤنس على ذلك مما كتبه ونقله عن المقري في نفح الطيب في الحديث عن قرطبة وأبوابها والطرق المؤدية إليها، وحتى الطرق الرومانية القديمة، وعن أرباضها المتعددة ومتنزهاتها والتي تحدث عنها حديث العارف بها بكثير من التفصيل[82]، يقول الدكتور مؤنس[83]: «وهذه النقول تدل في مجموعها على أنها أخذت من كتب في الجغرافيا والتاريخ أي كتاب يتكون من مقدمة جغرافية طويلة ثم موجز تاريخي.

ويشتمل كتاب المسهب للحجاري على تفصيلات جغرافية كثيرة أضافت الكثير من المعلومات الجغرافية إلى ما عثر عليه عند سابقيه من الجغرافيين، وإضافاته نتيجة مشاهداته وملاحظاته، فقد جاب معظم أنحاء الأندلس، والغالب أنه جعل كتابه قسمين: قسماً للجغرافية، وآخر للتاريخ، وتحت التاريخ أدرج أخبار الأدب والأدباء والعلم والعلماء، والجزء الجغرافي يحتوي على كلام عام عن صفة الأندلس وفضائله، وهذا هو القسم الأكبر من الجزء المفقود من كتاب المغرب لابن سعيد، وفي هذا القسم يتحدث الحجاري عن كور الأندلس، ومدائن كل منها وقراها، وحصونها[84]. يقول المقري[85] عن كتاب المسهب للحجاري، وخرج عن قصد الكتابين (أي الذخيرة والقلائد) إلى ذكر البلاد وخواصها فيما يختص بعلم الجغرافيا، وخلطه بالتاريخ وتفنن الأدب، ولم يصنف في الأندلس مثل كتابه».

ومعلومات الحجاري على جانب كبير من الأهمية لأنها تعطينا صورة عن أحوال هذه البلاد وأوضاعها الجغرافية في الوقت الذي كتب فيه كتابه وهو سنة (530 هـ/ 1035 م)، ولم يضع الحجاري التقسيم الجغرافي على أساس الأوضاع الجغرافية السياسية الخاصة بأيامه بل وضعه على أساس أقسام الأندلس الكبيرة بحدوده أيام الخلافة، أما التقسيم الجغرافي في مرحلة ما بعد الخلافة فهو تقسيم الأندلس إلى موسطة وشرق وغرب، ويبدو أن المرابطين اتخذوه أساساً في التعيينات في الوظائف

---

(82) المقري: م. س. جـ 1، ص 450، 627.

(83) د. حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ص 293، 294.

(84) ن. م. ص 158.

(85) المقري: م. س. جـ 3، ص 183.

الكبرى، فمن الثابت أنه كان لهم قائد لجيوشهم في شرق الأندلس وقاضي قضاة خاص بهذا القسم[86].

وظهر في هذه المرحلة نمط جديد من الأدب الجغرافي هو وصف الرحلات التي كثيراً ما تحمل عنواناً بسيطاً هو «الرحلة»، ولم تدون هذه الرحلات على هيئة كتب المسالك المعروفة، بل دونت على هيئة مذكرات يومية مع تفاوت في الدقة فيما يتعلق بتدوينها من يوم لآخر، وكثيراً ما ارتبطت هذه الرحلات بالحج أو بسنوات التجوال للعلماء الشبان الذين كان هدفهم قبل كل شيء التعريف بالعلماء وبشيوخهم، الذين التقوا بهم، متجاهلين تسجيل جوانب الحياة الأخرى، وكثيراً ما تبلغ مستوى عالياً من الفن والصياغة الأدبية[87].

وأول من وضع الأساس لهذا الفن من أدب الرحلات القاضي أبو بكر بن العربي كتب وصفاً مفصلاً لرحلاته سماه «ترتيب الرحلة للترغيب في الملّة»[88] وهو وصف لرحلته إلى المشرق، وما درس فيه، وما استفاده من الدراسة ومن لقيهم من العلماء والأعيان، وللأسف فإن هذا الكتاب مفقود ولم يصل إلينا منها إلا فقرات.

والكتاب الثاني لابن العربي هو «قانون التأويل» ومع أنه كتاب في التفسير إلا أن ابن العربي جعل مقدمته وسيلة ليقص أطرافاً من رحلته وليذكر بعض من لقي من الشيوخ وما سمع منهم تدليلاً على سعة علمه وأصالة مصادره[89].

وهناك كتاب «المغرب (أو المعرب) في محاسن المغرب» كتبه الرحالة اليسع ابن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع الغافقي الجياني[90] (ت بعد 575 هـ/ 1179 م) وكان اليسع قد ولد في مطلع القرن السادس وخرج من الأندلس سنة 544 هـ

---

(86) د. حسين مؤنس: م. س. ص 163.

(87) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، ص 297، 298.

(88) انظر، دراسة عن رسائل ابن العربي للباحثة في مجلة المناهل، عدد 9، 1977 م.

(89) لصاحبة الرسالة دراسة عن هذه الرحلة ضمن رسالة الماجستير عن دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا.

وللدكتور إحسان عباس ـ دراسة ممتازة عن رحلة ابن العربي، إلى المشرق. كما يصورها قانون التأويل ـ بمجلة الأبحاث 1968 م.

(90) ابن الأبار: المعجم رقم 315.

(1149 م) في السنوات التي عمت الفوضى والثورات فيها الأندلس فذهب إلى مصر ودخل في خدمة صلاح الدين الأيوبي، ومع أن الكتاب به كثير من الأخطاء والمبالغات إلا أن فائدة المعلومات التي ذكرت به كبيرة، وهذا الكتاب أيضاً في حكم المفقود إلا أن معظم المؤرخين اعتمدوا عليه ونقلوا منه الكثير خصوصاً المقري[91].

ونمط آخر من الجغرافية لهذا العصر هي الخلط بين الواقع والأسطورة وما يدخل في نطاق علم العوام، والقصص الشعبي أو ما يسمى «كوزموغرافية» أي تصوير عجائب الكون. ويمثله أبو حامد أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازني الغرناطي الإقليشي (ولد سنة 473 هـ/ 1080 م) بغرناطة، وقام بأولى رحلاته خارج الأندلس سنة (508 هـ/ 1114 م) وألف كتابين: الأول المعرب في عجائب المغرب ألفه بعد وصوله بغداد سنة (556 هـ/ 1661 م) والكتاب صغير الحجم ولكنه حافل بالمادة الطيبة، أما الكتاب الثاني كتبه بعد المغرب بأقل من سنتين إذ فرغ من تأليفه سنة (557 هـ/ 1162 م) اسمه «تحفة الألباب ونخبة الأعجاب» وهو من نوع الكوزموغرافية[92].

وفي الحقيقة أنه لا يمكننا أن نقول إلا أن الفكر الأندلسي عاش حقبة متميزة بخصائصها في هذه المرحلة، ففي خلالها وصل التأليف في شتى ضروب العلم والمعرفة في الأندلس إلى قمة تطوره، وعند دراسة الأعمال التي ظهرت قبل هذه الفترة يتبين أنها مرحلة تمهيد لفترة النضوج هذه، وما ظهر فيما بعد على عهد الموحدين.

فقد تميزت هذه الفترة بالجودة والتجويد والإحكام في التأليف ووفرة الإنتاج المنسوب إلى كل علم من الأعلام، كما تميزت بالتخصص في علوم لم يكن يتخصص فيها، إذ كان التخصص المألوف في علوم الفقه والحديث واللغة وعلوم القرآن، فأصبح هناك تخصص في علوم مثل الجغرافيا والفلسفة والطب والنبات والعقاقير وما إلى ذلك حتى العلوم الفقهية التي عرفت التخصص من قبل نجد التخصص فيها يصل إلى ذروته، ونقرأ عن أعلام مثل القاضي ابن العربي والقاضي

---

(91) د. حسين مؤنس: م. س. ص 301، 302.

(92) كراتشكوفسكي: م. س. ص 297.

د. حسين مؤنس: م. س. ص 339.

عياض، وأبي الوليد الباجي، وأبي عمرو الداني وأبي الوليد ابن زهر، وغيرهم.

فبعد الفتن التي تعرضت لها الأندلس في خلال عصر الطوائف الأولى جرفت العواصف أهل العلم والأدب فانزوى البعض منهم في أول الأمر وانصرف إلى درسه، واجتهد آخرون في تلافي الكارثة، ثم أدركهم اليأس فاعتكفوا هم الآخرون، وجاء عصر المرابطين فساد الأمن والنظام والعدالة، فنشطت النفوس وانصرف الراغبون في العلم إلى الدرس والتحصيل واستقرت أصول العلم ومراكز الدراسة، وانتشرت حلقات الشيوخ وكثرت الكتب في أيدي الناس، وأصبح انصراف أهل العلم إلى علمهم وابتعادهم عن السياسة وأهلها هو القاعدة التي اتبعها الأغلبية، وعلى آثارهم سار من خلفهم من تلاميذهم.

معنى هذا أن العلم أصبح يدرس للعلم نفسه، فيما عدا ما تدعو إليه مطالب العيش من قبول وظائف القضاء والكتابة دون أن يكون ذلك عائقاً عن الدرس والتأليف، وما دام العلم يطلب من أجل العلم، فقد انصرف كل عالم إلى ما أحب، وأعان على ذلك انشغال أصحاب السلطان بالحروب والأخطار المتلاحقة، فأقبل أهل العلم على ما تهوى إليه نفوسهم دون حرج، ومن هنا ظهر التجويد والتخصص.

الخاتمـــة

من خلال العرض السابق اتضحت أمور كثيرة ظلم فيها المرابطون، إذ نجح المهدي بن تومرت في أن يستغل ذكاءه في تقويض هذه الدولة المجاهدة بادعاء أكاذيب رسخها في أذهان العامة على أنها حقائق. واستغل دوزي كلام عبد الواحد المراكشي صاحب المعجب على أنه أمر مفروغ منه لا مجال لمناقشته وانساق وراء آرائه العديد من الباحثين فشوهوا هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي، واتضح من خلال المصادر المختلفة التي اعتمدت عليها والتي كتب معظمها في عصر الموحدين أو بعدهم أن معظم الآراء التي ذكرت ضد المرابطين ثبت زيفها.

ويمكن حصر أسباب ضعف المرابطين في هذه الأمور: ـ

١ ـ اضطراب الأحوال في الأندلس، خاصة بعد استدعاء الأمير تاشفين بن علي إلى المغرب، وسحب عدد كبير من قوات المرابطين معه للمعاونة في مجابهة الموحدين.

٢ ـ التسامح الشديد بل قل التهاون في الضرب بالشدة على أيدي مثيري الشغب والإخلال بأمن الدولة.

٣ ـ إذكاء ابن تومرت العداوة القديمة بين قبائل مصمودة وقبائل المرابطين الصنهاجية.

٤ ـ استغلال ابن تومرت إحراق كتاب الإحياء للغزالي أحسن استغلال ضد المرابطين وفقهائهم.

٥ ـ فساد عدد من عمال المرابطين وتعديهم على ما ليس لهم فتح مجالاً للرشوة والاغتناء السريع، وشجع صغار الموظفين على الاقتداء بهؤلاء العمال.

٦ ـ تسبب بعض القضاة خربي الذمة في فساد الأمور باختيارهم حكاما على شاكلتهم اتصفوا بالجشع وانعدام الضمير فتشكى الناس من ظلمهم.
٧ ـ عجز فقهاء المرابطين عن تطوير المذهب المالكي لكي يسايروا الأحداث وأوضاع الدولة الجديدة، وتعصبهم الأعمى لآرائهم.
٨ ـ سلبية الكثير من الفقهاء الذين كانوا سبباً في إيجاد نوع من الشغور والفراغ عند العامة لمعرفة دينهم، ومحاربة البدع والشعوذة ومدعي الإمامة والمهدوية.
٩ ـ ما ظهر على المرابطين في آخر أيام علي بن يوسف من عجز عن القيام والنهوض بعبء الدفاع عن الأندلس.
١٠ ـ الخلاف الذي اشتد بين قبائل المرابطين فأثر على وحدتها.
١١ ـ الضرائب التي اضطر المرابطون إلى فرضها لمواجهة الأعباء المالية لتجهيز الجيوش لمحاربة الموحدين في المغرب والنصارى في الأندلس.
١٢ ـ انعكاس اضطراب الأمن على أوجه الاقتصاد المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة، مما أثر تأثيراً كبيراً على ميزانية الدولة.
١٣ ـ اضطراب الإدارة بوفاة الأمير علي بن يوسف وتوليه ابنه تاشفين، ففي فترة الانتقال القصيرة لم تكن هناك قيادة موحدة تعمل على تنسيق العمل، وإصدار الأوامر التي توجه للجند خاصة والرعية عامة مما تسبب في عدم احترام هذه الأوامر.
١٤ ـ تغير الأوضاع في الممالك النصرانية وتوحد قيادتها وثبات جبهتها حوالي تسعة وعشرين عاماً متتالية في يد ألفونسو الأول (المحارب) ملك أرغون وقشتالة وليون.

وكما ظلم المرابطون، ظلم الصوفي الكبير أبو العباس بن العريف، فلم يكن إلا صوفياً ملتزماً بالكتاب والسنّة، يكره الخلط بين آراء المريدين في الدين والتصوف وبين الحكم، وكانت كل أقواله تنصح هؤلاء المريدين بالتفرغ للعبادة، وعدم التدخل فيما لا يعنيهم خاصة ما يخص الحكام حتى لا تكون فتنة تضر بالمسلمين.

أما ابن قسي الذي خلا له الجو باختفاء زعماء المريدين وإمامهم ابن برجان وابن العريف والميورقي بوفاتهم، فاستغل طائفة المريدين المتطرفة ليركب الموجة، وتبين من خلال رسائل ابن العريف أنه لم تكن هناك صلة بين آراء ابن قسي وابن

العريف وطريقته، فكل تصرفات ابن قسي لا تدل على نزوع ديني أو ميل صوفي فهو كما قال ابن الأبار: «ادعى الهداية مخرقة وتمويهاً على العامة»، فلم يكن إلا مشعوذاً عريض الدعوة حاول أن يتخذ من مهدي الموحدين وطريقته بعد نجاحها. منهجاً له يسير على خطاه لكي يصل إلى ما وصل إليه الموحدون من استيلاء على السلطة والحكم، وعندما انفض من حوله زملاءه وانقلبوا عليه، بادر بالذهاب إلى الموحدين، وتخلى عن ادعاء المهدوية بضاعة القوم، ثم نبذهم وارتمى في أحضان النصارى، فكانت نهايته.

أما أتباع ابن قسي، فلم يكونوا أحسن منه حالاً، فهم طائفة من الطامعين في الأموال والغنائم، ولم يذكر عنهم أنهم قاموا بأي عمل ديني في أي بلد دخلوه بل هو السلب والنهب، ولم تكن الصوفية إلا ستاراً استخفى وراءه هؤلاء المارقين.

لقد تبين أهمية الدور المرابطي في الجهاد ورد النصارى في الأندلس، الذين لم يحسوا برعب قدر رعبهم من المرابطين، ففي الوقت الذي ازدادت فيه هجمات الموحدين في المغرب، كانت هناك عدة انتصارات للمرابطين على قشتالة وأرجون، وأعاد انتصار إفراغة 528 هـ (1134 م) إلى الأذهان انتصار الزلاقة 479 هـ (1085 م) وإقليش 501 هـ (1308 م) وحتى بعد سحب عدد كبير من فرق المرابطين مع الأمير تاشفين بن علي نجد أن الفرق القليلة الباقية لم تستكن وإنما استمرت في جهاد في ظروف جد صعبة، وفي الوقت الذي كان الأندلسيون لا يحسون فيه بخطورة ما يجابههم، لو تخلى المرابطون عنهم.

ولا نعفي الفقهاء والقضاة من اتهامهم بدورهم السلبي في مقاومة البدع والشعوذة، والأخذ بيد العامة إلى الطريق القويم، بعد أن انعدم الضمير، فكان كل همهم جمع الثروة بأي طريق، أو البحث عن المناصب التي يستفيدون منها دون مراعاة لذمة، فلما أحسوا بانتهاء دورهم وتقلص نفوذهم، والخوف من المجهول، أسرعوا هم الآخرون بالانتزاء، كل في البلد التي مكن لنفسه فيها من خلال نفوذه السابق كقاضٍ للجماعة، أو مشاور بها.

ولم يكن للثوار على المرابطين برنامج واضح محدد، أو تخطيط منظم، ولم تذكر أسباب واضحة للقيام على السلطة، أو أعلنوا عداءهم للمرابطين أو اتهموهم

بالخروج عن الدين أو أنهم تقاعسوا عن الجهاد، أو رموهم بفساد الحكم، مما يجعل الباحث في حيرة من أمرهم خصوصاً أنهم لم يحظوا بتأييد العامة أو ينجحوا في كسبهم إلى صفوفهم، بل أن العامة وجدوا فيهم صورة كريهة لجباة الضرائب والتي أثقلوهم بها لدفع مرتبات المرتزقة أو إتاوات النصارى فأسقطوهم بعد أيام أو شهور قليلة من تولى السلطة.

وقد أسرف الثوار في الثقة بالنصارى والاعتماد عليهم لتدعيم حكمهم ولم يأخذوا العظة ويعوا الدروس من عهد الطوائف السابق، ففتحوا الباب أمامهم للاستيلاء على المدن الهامة والحصون الكثيرة التي سهلت لهم فيما بعد الانتصارات المتتالية على الموحدين.

وكان لعدم إجماع أهل البلاد على هؤلاء الثوار، ومعارضة بعض القضاة والفقهاء لهم أن ازداد ارتماؤهم في أحضان النصارى أو أسرعوا في استدعاء الموحدين فخلق ذلك صراعاً على السلطة بين الأطراف المتنازعة، عانى من جرائه أهل البلاد.

ومن الملاحظات المهمة أن العامة التفوا حول رجال التصوف تعبيراً عن تذمرهم وسخطهم لاهتمام هؤلاء بما يكابده الفقراء والمساكين من مشاق في سبيل لقمة العيش فتصدقوا عليهم بالمال، وحثوا الأغنياء على التصدق والبر بالفقراء والإحسان إليهم، وقد ساعد على انتشار التصوف في هذه المرحلة التباين الاجتماعي والاقتصادي. وكانت ألمرية في الأندلس، وأغمات في المغرب من أهم مراكز التصوف في الغرب الإسلامي في عهد المرابطين، وباضمحلالهما الاقتصادي بعد سقوط المرابطين، خاصة بعد سقوط ألمرية في يد النصارى، نلاحظ انحسار موجة التصوف فيهما في النصف الثاني من القرن السادس الهجري، بينما ازدهرت وتزايدت موجة التصوف في مراكش، وفاس، وأزمور[1].

كما انتشرت حركة التصوف كنتيجة لمحاولات مدّعي التصوف الطامعين في السلطة، وانتحال التصوف أسلوباً لحياتهم، وادعاء الهداية تمويهاً وقناعاً لعملهم

(1) في أغمات نقص العدد من 19 إلى 3 بينما زاد في مراكش من 8: 48، وفاس من 5 إلى 17، وأزمور من 7 إلى 12 (هذا بالنسبة للزعماء).

انظر التادلي: التشوف، د. عز الدين موسى: م. س. ص 348.

السياسي، ولا شك أن حرق كتاب الإحياء للغزالي كان له صلة بموقف الفقهاء تجاه المريدين الذين وجدوا في نشاطهم وتزايدهم خطراً على نفوذهم، فحرضوا أمراء المرابطين على حربه، وشجعوا الحملة على كتب الغزالي خصوصاً الإحياء الذي اتخذه المتصوفة مرشداً ومنهاجاً سواء في عهد المرابطين أو الموحدين.

ونجح ابن تومرت في استثمار هذا التيار الصوفي الذي استقطب واحتوى العامة، فربط حركته بالغزالي ومزج بين الفكر الصوفي والمهدوية وآمال العامة، فجاءت مهدويته أول مهدوية سنّية في الغرب الإسلامي، وقد حاول ابن قسي نهج طريق ابن تومرت، ولكنه فشل في حركته لأن ابن تومرت لجأ إلى قبائل مصمودة القوية الكثيرة العدد الناقمة على حكم المرابطين، كما لم ينازعه ثوار آخرون ولم يتعرض لخطر خارجي (النصارى) مثل الذي واجه ابن قسي.

وإذا كان الموحدون قد نجحوا في القضاء على المرابطين فقد فشلوا في تحقيق آمال العامة، إذ استمر التباين الاجتماعي والاقتصادي، بل ازداد في عهدهم، ولهذا تعاظم نفوذ الصوفية، وحاول الطامحون إلى الحكم استثمار الموجة الصوفية خاصة في خلافة أبي يعقوب المنصور، وابنه الناصر فادعوا الهداية، وهاجموا التباين الاجتماعي والاقتصادي وانحراف الدولة عن تعاليم ابن تومرت، وعلى رأس هؤلاء الجزيري وابن الفرس[2] وغيرهم.

ومع أن الموحدين استولوا على الأندلس إلا أنهم لم ينجحوا في إعادة الوحدة إليها إلا في عام 567 هـ (1172 م) بعد وفاة ابن مردنيش أمير الشرق وبعد الاستيلاء على طبيرة في الغرب، كما لم يستطيعوا استعادة المدن الأندلسية والحصون الكثيرة التي استولى عليها النصارى أثناء الفتنة وبداية دخولهم، بل أنهم لم يهنأوا في المغرب بالاستقرار بسبب كثرة الثوار، ومهاجمة بنو غانية لسواحل المغرب طوال عهد الخلفاء الأول والثاني، وعدم نجاحهم في فرض مذهبهم الموحدي على أهل الغرب الإسلامي.

لقد وصم المرابطون بالقسوة، وأنهم أجلاف بدو، غزو الأندلس طمعاً في خيراتها فحكموها بالحديد والنار، ولكن من خلال المصادر يتبين أن الحكم المرابطي

(2) ابن سعيد: م. س. جـ 1، رقم 231، ص 323، جـ 2، رقم 421 ص 111.
ابن خلدون: م. س. جـ 6، ص 250.

كان نموذجاً متقدماً للحكم الديموقراطي الذي تفتقره الكثير من الدول المعاصرة في العصر الحديث، ولم تذكر المصادر التي بين أيدينا أن المرابطين وقفوا في وجه مفكر أو ألقوا به في غياهب السجن، أو اغتالوا قلماً حراً صريحاً، وأبلغ دليل على حرية التعبير والفكر ما كان من مواقف ابن تومرت مع أمير المسلمين علي بن يوسف، ولو عومل ابن تومرت بما عامل به أصحابه لما حدث ما حدث، وثبت من خلال النوازل والفتاوى احترام المرابطين للحريات العامة، وعدم إلقاء شخص في السجن مدة تتعدى الشهرين دون محاكمة وصدور حكم القضاء بالإدانة.

ومن خلال البحث وضح دور المرابطين الاقتصادي والاجتماعي في الأندلس فقد نعمت البلاد في عهدهم بازدهار الزراعة والصناعة والتجارة حتى أن الموحدين بعد استيلائهم على الأندلس لم يستطيعوا الوصول إلى نفس هذه الدرجة من الرقي والازدهار الاقتصادي.

لقد توسعوا في الزراعة واعتنوا ببعض المحاصيل فزرعوها في شكل مستغلات مثل الزعفران لتصديرها، كما اهتموا بأشجار التوت لتربية دودة القز لصناعة المنسوجات الحريرية التي بلغت ذروة رقيها في عهدهم وأمكن استغلال المعادن الكثيرة في الصناعات العديدة ومهر الأندلسيون في هذه المرحلة في صناعة الأدوية ومواد التجميل.

وكان لاستتباب الأمن والاهتمام بإنشاء الطرق التجارية وما يلزمها من مرافق أن نشطت التجارة فراجت الأحوال الاقتصادية للدولة التي بلغت فيها النظم المالية درجة كبيرة من التطور والرقي.

وكان للرخاء الذي عم وصحب هذه الفترة أثره وانعكاسه على الحياة الاجتماعية والفكرية فلم يكن المرابطون جامدون كما وصفوا بل كانوا قبائل تبني وتشيد، وظهرت ثمرة ذلك بصورة واضحة في بداية عصر الموحدين الذين ورثوا جهد وتعب هذه الفئة المجاهدة.

ورغم هذه الفوضى التي افتعلها المهدي بن تومرت الذي قام في وقت كان العالم الإسلامي في الجناح الغربي في أمس الحاجة إلى سواعد ومجهود المرابطون، ظلت العملة المرابطية محتفظة بقيمتها وكانت العملة الوحيدة المتداولة والتي يُتعامل بها مع الممالك النصرانية.

ومع أن المرابطين تقيدوا في بداية حكمهم بأخذ الزكاة والعشر من المسلمين، والجزية من أهل الذمة، واكتفوا بالغنائم إلا أن تبدل الأحوال خصوصاً في عهد الأمير علي بن يوسف اضطرهم إلى فرض ضرائب جديدة غير شرعية من معونة وقبالات وخراج ويبدو أن عبء الضرائب خصوصاً الخراج كان السبب الرئيسي في سرعة انضمام قبائل مصمودة إلى حركة المهدي وثورتهم لأنهم كانوا أهل زراعة وديارهم كانت منطقة الاستقرار في ذلك الوقت فتأثروا بالضرائب الجديدة أكثر من غيرهم.

كما لا يستبعد أن تكون هذه الضرائب ولا سيما الخراج من أسباب ثورة المنتزين بالأندلس خاصة وأن زعماء هذه الثورات كانوا من الفقهاء وهم كبار الملاك حتى أن ابن قسي الذي عمل مشرفاً في أعمال الجباية للمرابطين في منطقة شلب استغل معرفته السابقة بالوضع الضرائبي وسوء وضع الملاك والزراع في منطقة الغرب، فتقرب من العامة بأن خرج من ماله وتصدق به وادعى التزهد فثورة الفقهاء في الأندلس ما كانت إلا ثورة الملاك الفقهاء الذين تضرروا من الضرائب وخشوا من ضياع أملاكهم.

ولم تكن الضرائب وحدها سبباً في هذه الثورات إذ كانت الوسائل المجحفة والقاسية التي اتبعت في جمعها قد ساعدت في تذمر الناس ومع أن الأمير علي بن يوسف حاول أن يجد من نقمة الناس بمحاسبة عماله في بعض الأحيان وحثهم على العدل في أحيان أخرى إلا أن إجراءاته جاءت متأخرة.

وسعى الثوار إلى التعاون مع ملوك النصارى لقاء مال التزم به الثائر المسلم، فكان يضيق على الرعية ويتبع معها أنواع المظالم ليفي بالتزامه لملوكه النصارى.

وركز الخليفة عبدالمؤمن على التقيد بالضرائب الشرعية وعلى أن من في طاعة الموحدين «لا يطلبون إلا بما توجبه السنة وتطلبه، ولا يلزمون ـ ومعاذ الله ـ مكسباً ولا مغرماً ولا قبالة ولا سيما مما تسميه الظلمة بأسمائها وتلقبه»[3].

ومما لا شك فيه أن التدهور الاقتصادي ينعكس أثره على المجتمع من جميع النواحي، خصوصاً إذا كان مجتمعاً متفسخاً من أساسه يميل إلى الفوضى وعدم الانضباط لا يهمه إلا كأس يشربه، وقينة يسمعها، فكانت اللامبالاة هذه سبباً في فتح

(3) انظر الجزء الخامس بالضرائب من «النظم المالية».

الباب على مصراعيه أمام العدو لسلب كل ما يستطيع في غياب الجيش المرابطي، ولم يستطع الموحدون استعادة ما أخذه النصارى.

وقد تعزز العنصر البربري بدخول المرابطين ومن بعدهم الموحدين، وظل هذا العنصر بعيداً عن العناصر الأخرى المكونة للمجتمع الأندلسي من عرب ومولدين، ومستعربين، وهذه العناصر زاد تمازجها واختلاطها أكثر وازداد انصهارها بحيث كان يصعب التمييز بينها في هذه الفترة، وكونت عنصراً واحداً هو العنصر الأندلسي الذي جمع بين كل هذه العناصر وأصبحت تشبه النسيج الواحد المتعدد الألوان.

وظهر التفاوت الكبير بين طبقات المجتمع المختلفة فبينما عاشت طبقة الخاصة عيشة الترف والإسراف في كل شيء عانت الطبقات الدنيا في سبيل الحصول على لقمة العيش.

وكان للمجتمع الأندلسي عاداته وتقاليده الخاصة به واحتفالاته المتعددة التي يختلقها لإظهار السرور والانغماس في اللهو. ولم يكن هناك كبير اختلاف بين مجتمع المدينة والقرية. وصورة المجتمع الأندلسي في آخر عهد المرابطين لا تختلف كثيراً عن مجتمعاتنا المعاصرة، بل نجدها مطابقة في كثير من مظاهرها لما يحدث اليوم.

واستمر هذا النهج والازدهار الثقافي في عهد الموحدين وأن حاولوا فرض رأيهم بالقوة مما ترك أسوأ الأثر في نفوس فقهاء وأهل الغرب الإسلامي، وجعلهم يزدادون نفوراً من منهج الموحدين الذين تعرضوا بسببه للوعيد وفقدوا كتباً ألفوها ونالت عندهم الحظوة البالغة، كما جعلهم يزدادون تشبثاً بمنهجهم ومألوف مسلكهم الفقهي المالكي وعدُّوا الحفاظ على ذلك من ضروب الجهاد والبطولة.

ومع كل ما قمت به في هذا البحث فما زالت الكثير من الأشياء غامضة وغير واضحة وتحتاج إلى دراسة معمقة من جانب الباحثين في الأدب والاجتماع وعلم الكلام خصوصاً وأن هناك مخطوطة واحدة نادرة لأرجوزة الإمام الفقيه أبي الحجاج يوسف الضرير والتي تشمل أكثر من سبعمائة وألف بيت. كما أن ديوان الزجال ابن قزمان المعاصر لنهاية المرابطين وبداية الموحدين لجدير بالدراسة المتأنية والمتخصصة للكشف عن مزيد من نواحي الحياة المختلفة.



الملاحــق

بعض رسائل لابن العريف
من مخطوط
مفتاح السعادة وتحقيق طريق الإرادة

رسالة إلى الإمام أبي الحكم بن برجان:

(و 29) الله ولي الفقيه الإمام أبي الحكم شيخي وكبيري، ورحمة الله وبركاته، عليه من المقتبس منه، والمتطلع إلى ما لديه عبيد الله الضعيف أحمد من محمد.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلوات الله وسلامه على محمد رسوله، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. اللهم صل حقيقة وجود الشيخ إمامي وكبيري، بوجود حقيقة المعرفة بك، والتعرف منك، واجعله لمعالم طهارات النفس زماماً ولأعلام الهدايات إماماً، وبارك به وعليه بالبركة التي بدايتها من محمد صلوات الله عليه، ونهايتها إليه.

كان من همي أن يصل كتاب (ط و 2) الشيخ واحدي نظراً، ومتقدمي تسليماً ومعتبراً، بما يتحرك له حامل براهين السمع مني حركة تحول بين النفس وهواها وتورثها الحياء من مولاها، فوصل من ذلك دعاؤه وكتابه وخطه وإعلامه بالمحبة والمودة لي، كل ذلك من آثار ما سألته جل اسمه فيه ـ ولم يكن عينه، فإني كنت آمل إشارة من إشاراته علمية أو عملية، ولقد أشكل علي إشكالاً باباً من قبول البيان تفصيلاً وإجمالاً. كيف يداوى السكران؟ أو يداوي وسكره غالبه ـ وقد غفل صديقه، واستيقظ مطالبه؟.

اللهم إنها الحيرة من ضعيف لا عذر فيه، وجود لا قدرة عليه بالحكم إلا لضعيف مغرور، اللهم استرك لطافح السكر من حب الدنيا. ميت الحقيقة عن رؤية مشاهد الأخرى ليس له سواك رب يتولاه، ولا يجد من الجوارح إلا ما ملاه وغلبه هواه. فإذا أزعجه إليك ما عندك من الجود، أزعجه عنك ما عنده من قبيح الوجود، فارحم وتجاوز عما تعلم، وافتح قلوباً قاسية بمفاتيح العناية فتحاً ننظر به إليك ونستحي به منك، وأنت يا إمامي بحرمة الشيب، اذكرني إذا رقدت عند من له رقدت أحبك الذي أحببتني له.

والسلام معاد مكرر عليك ورحمة الله وبركاته.

رسالة إلى أبي الحسن بن غالب:

(و 41) بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلم. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مرحباً أيها الصادق النظر الرائق العين والأثر بكتابك فلقد كشف الله به غماً ورفع به نابية وهماً، فإن النفوس سجاياها عند ورود الإيمان مخبولة وعلى غير ثبوت العلم والتعليم محمولة، والنفس أمارة بالسوء إلا ما سبق في الأزل من صلاح المضمون، أفهمنا الله به عنه، وأوصلنا به إليه. وثبتنا بعد الوصول فإنه غاية الخصوص والمأمول، وأما مرور الخواطر في تلك الآيات البينات على نظام واحد، وأمن قاصد ببرهان الإقبال على مواضع الآمال. هناك الله وزادك وجعل اليقين إلى مقعد الصدق الصدق عنده زادك بقدرته وأما أخوك وما يتشوف إليه من معرفة ما لديه فما ازدحمت عليه الفتن قط أكثر من ازدحامها عليه في وقته هذا، ومن ذكر مشهور وسر بخلاف المشهود معمور وقد (ط 41) وجب واجب السكوت ولزم لزوم البيوت، ولا مفر إلا الإنكار لو كان المحل صالحاً لأعمال الأبرار.

اللهم إنها الحيرة العظمى إدباراً عن الحق في غرره وإقباله في محاره وكلاهما ذهب لا يغفر وإن كان يغفر وعمل في إسقاط الحياء وهو أدهى وأكبر، ولئن كان المنتسبون إلى الخير والصلاح قبلنا مثلنا ومعاذ الله، وحاشى لله، لقد ماتت الطريقة موتاً وفات التوفيق فوتاً وعند الله تعالى تحتسب هذا المصاب. وإلى الله سبحانه نشكو هذه الأوصاب.

اللهم! نسألك رفيقاً - فاجعل طريق الحق لنا قبل العطب طريقاً بلطفك، وفيِّ إلى التطلع إلى من ذكرته جمرة محرقة، فما أمكنك الإعلام بما تجرد فافعل مأجوراً والسلام..

من رسالة إلى أبي الحسن بن غالب:

(و 57) اللهم حسن أخلاقنا ووسع أرزاقنا وأمن بالإيمان والإسلام إلى يوم الدين بلادنا. وأخانا أبو موسى نزيل جيان كان معي في رمضان ومضى هذا المنسلخ عنا وعنده فوائد وأعلام قدرة وفارقني على السفر إليكم. وتكلف لي رغبة إلى الله سبحانه في حاجة [.....] بالسنة الصالحين فإن وصل إليكم يجتمع رأيكم. ووكدوا عليه.

أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن محفوظة أكرمه الله كتب إليَّ عازماً على استيطان إشبيلية حرسها الله وذكر الآن أنه في كنف رعاية الشيخ أبي الحكم أدام الله توفيقه. وذكر شراً دار هناك وأموراً نحو هذا أو خطر بالبال، أنه يريد سفراً إلى ناحية المشرق وأن رأيه في الأمن بخلاف ما كان وهو الذي منعني من مخاطبته في الوصول إليكم ومن الناس مغلوب عليه في

آرائه (ط 57) وأحق الناس بالرحمة من لا فراسة له، وأخبر إسماعيل هداه الله بأنه سافر إلى بلاد المغرب، وورد كتابه من مراكش، ولا يحقق له حال، فادع الله أن يفتح له في نفسه بهداية وكفاية وأن يمت الجميع ميتة إخلاص وخلاص.

ومن رسالة إلى محمد بن الكبش:

(ط 82) ورد كتاب العالم الصادق أبي فلان قدس الله روحه بوصاياه الصادقة، وهداياه الفائقة. فيا له من أخ في الله عم بأصناف تلاوين العلوم فهو طاووس علمائهم وخص بأنواع غوامض محاسن الفهوم، فهو قاموس فهمائهم صلوات الله وسلامه على كل من أباح لنا الكتاب والسنّة أن يتقرب إليه، فصلوات الله عليه وسلامه.

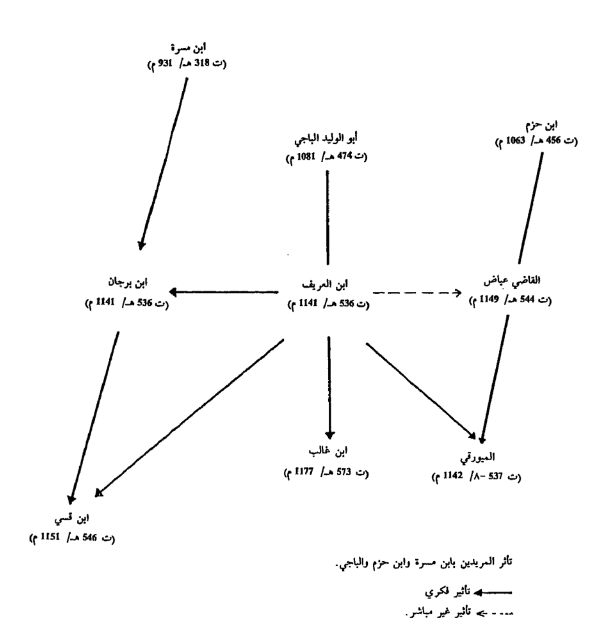
سبقت (و 83) وصية الله بالتقوى كل تذكير بوصية فقال تعالى: ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾، ثم ورد حاجة أخي أن يكون شعاري ودثاري لا إله إلا الله محمد رسول الله فإنها كلمة شرف العابدين إلى آخر الباقيات الصالحات وأعجب ما عندي من العجب وأجدره بحال الرغب والرهب عبداً وجد قلباً واتخذ غير الله مع الله رباً.

ويا عالمي وكبيري أن من دعوته بلسان الرفق والشفقة أخاك حجب على قلبه بكل حجاب وطرد عن ربه.

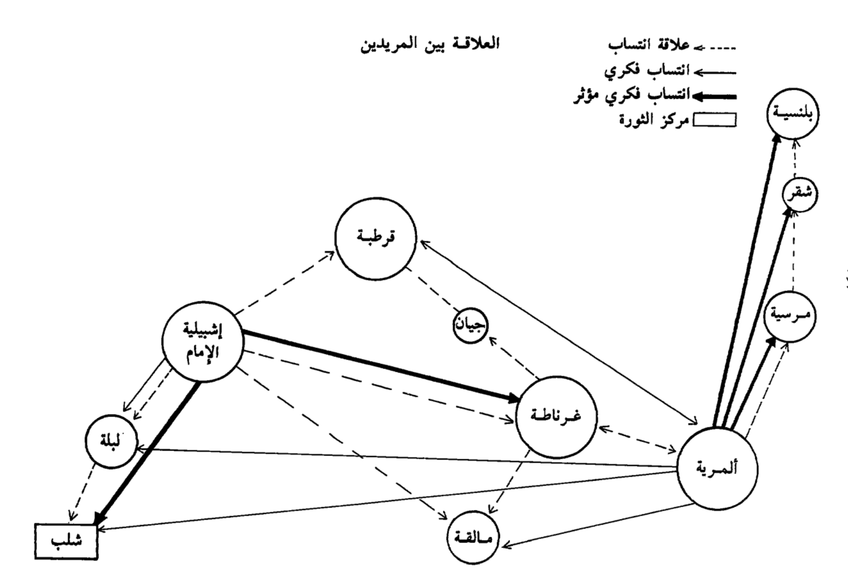
ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا حجة إلا لله.

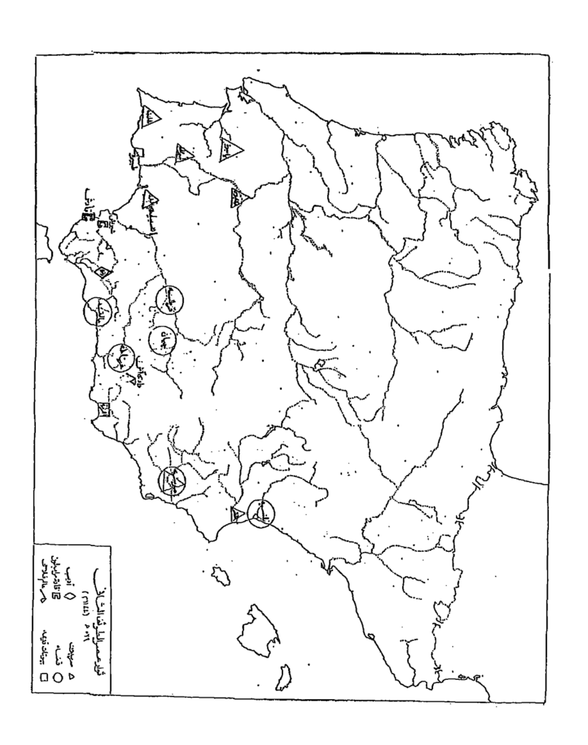
الرسـوم والخرائـط

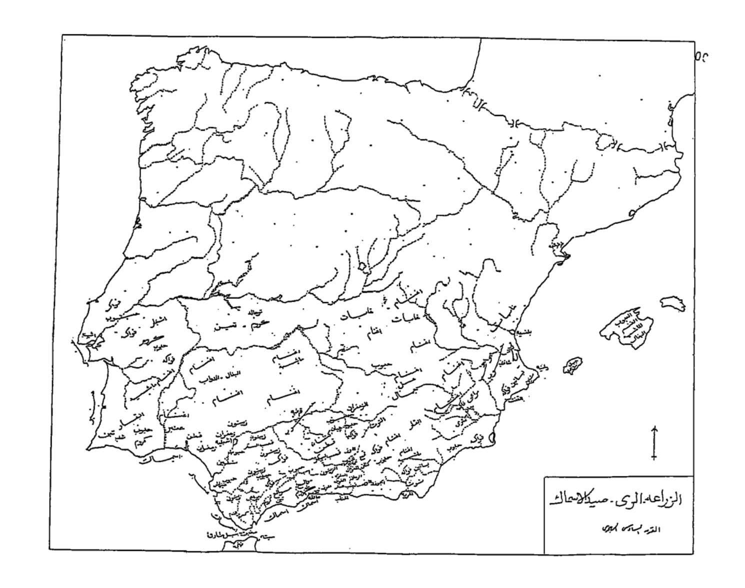


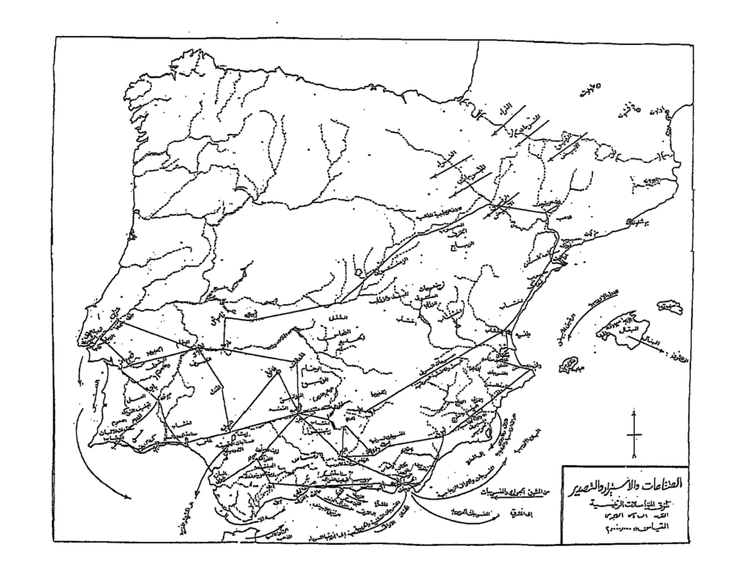


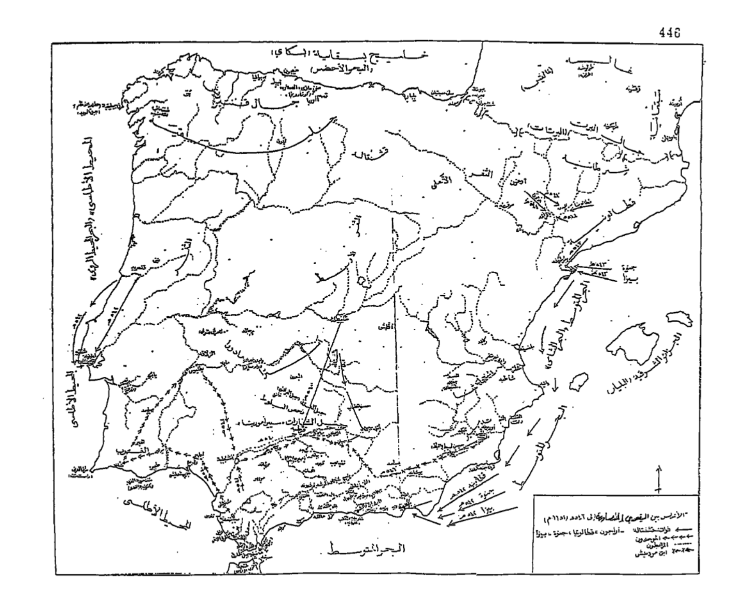
تأثر المريدين بابن مسرة وابن حزم والباجي.


العلاقة بين المريدين
علاقة انتساب
انتساب فكري
انتساب فكري مؤثر
مركز الثورة
بلنسية
شقر
مرسية
قرطبة
جيان
إشبيلية
الإمام
غرناطة
ألمرية
لبلة
شلب
مالقة




الزراعة الري - صيد الاسماك
القرن السادس الهجري


الصناعات والاستيراد والتصدير
طرق المواصلات الرئيسية



خليج بسقاية (بسكاي)
(البحر الأخضر)
المحيط الأطلسي (البحر المحيط الرومي)
قشتالة
الثغر الأعلى
قطالونية
البحر المتوسط (البحر الشامي)
الجزائر الشرقية (البليار)
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
قوات قشتالة ـ أراجون ، قطالونيا ، جنوة ، بيزا
الموحدون
المرابطون
ابن مردنيش
446

المصــــادر
والمراجـع العربيـة والأجنبيـة

أولاً: المخطوطة:

1 ـ **البرزلي**: أبو القاسم بن أحمد البلوي البرزلي (ت أول القرن السابع الهجري) جامع مسائل الأحكام مما نزل بالمفتين والحكام.
الخزانة الحسنية (الملكية) بالرباط رقم 4884.

2 ـ **التغنري**: أبو محمد عبد الله بن مالك الطغنري (ت القرن السادس الهجري) زهر البستان ونزهة الأذهان.
الخزانة العامة ـ الرباط رقم 1260.

3 ـ **ابن رشد**: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد (ت 520 هـ/ 1126 م) مجموعة فتاوى ابن رشد، جمعها عنه أحد تلاميذته المعروف بابن الوزان المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم 1072.

4 ـ **ابن سهل**: القاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل الجياني (ت 486 هـ/ 1093 م) الأحكام الكبرى، رقم 838 الخزانة العامة بالرباط.

5 ـ **ابن العربي**: القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الإشبيلي (ت 542 هـ/ 1147 هـ).
سراح المريدين في سبيل المهتدين، دار الكتب المصرية رقم 20348 ب.

6 ـ **ابن العريف**: أبو العباس أحمد بن محمد بن العريف الصنهاجي (ت 536 هـ/ 1141 م).
مفتاح السعادة، وتحقيق طريق الإرادة ـ الخزانة الحسنية (الملكية) الرباط رقم 1562.

7 ـ **ابن موسى الضرير**: الإمام أبي الحجاج يوسف بن موسى الضرير (ت 520 هـ/

1126 م) أرجوزة في علم الكلام، مخطوطة في خزانة القرويين.

ثانياً: المصادر المطبوعة:

ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت 658 هـ/ 1159 م).

8 ـ ـــــــ: أعتاب الكتاب، تحقيق. صالح الأشتر، دمشق 1961 م.

9 ـ ـــــــ: التكملة لكتاب الصلة، نشر عزت العطّار الحسيني، القاهرة، 1956 م.

10 ـ ـــــــ: التكملة لكتاب الصلة، طبعة مدريد 1886.

11 ـ ـــــــ: الحلة السيراء، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة 1963.

12 ـ ـــــــ: معجم الصدفي، نشر فرانتيسكو كوديرا، مجريط 1885.

13 ـ **ابن الأثير:** عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الجزري (ت 630 هـ/ 1232 م).
الكامل في التاريخ، بيروت 1967 م.

14 ـ **الإدريسي:** أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني (ت 560 هـ/ 1164 م).
نزهة المشتاق، معهد الدراسات الشرقية، نابلسي، 1972 م.

15 ـ **ابن أبي أصيبعة:** موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس (ت 688 هـ/ 1289 م).
عيون الأبناء في طبقات الأطباء، جـ 3، بيروت 1956 م.

16 ـ **ابن الأزرق:** أبو عبد الله محمد بن علي بن قاسم بن مسعود الأصبحي الغرناطي الوادي آشي (ت 896 هـ/ 1490 م).
بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق د. علي سامي النشّار العراق، 1977 م.

17 ـ **ابن بسام:** أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت 542 هـ/ 1147 م) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1978 م.

18 ـ **ابن بشكوال:** أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 587 هـ/ 1191 م).
الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم، الدار المصرية للنشر 1966 م.

19 ـ **بدر الدين القرافي:** محمد بن يحيى بن عمر بن أحمد بن يونس بن عبد الرحمن (ت 867 هـ/ 1462 م).
توشيح الديباج وحلية الابتهاج، تحقيق أحمد الشتيوي بيروت 1983 م.

20 ـ **ابن بصال**: عبد الله محمد بن إبراهيم بن بصال الطليطلي، نهاية السادس وبداية السابع الهجري.
كتاب الفلاحة، تحقيق خوسيه مارية مياس بييكروسا، تطوان 1955 م.
21 ـ **البيذق**: أبو بكر بن علي الصنهاجي، آخر القرن السادس الهجري أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1971 م.
22 ـ **أبو بحر صفوان**: أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي، زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، نشر عبد القادر محداد بيروت، 1939 م.
23 ـ **التيجاني**: أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني (ت 706 هـ/ 1306 م).
الرحلة التيجانية، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، تونس 1958 م.
24 ـ **ابن جبير**: محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي.
(ت 614 هـ/ 1217 م) رحلة ابن جبير ـ تحقيق د. حسين نصار ـ القاهرة ـ 1955 م.
25 ـ **الجرسيفي**: أبو عبد الله الجرسيفي ـ القرن السادس الهجري.
رسالة في الحسبة، نشر برونتسال، القاهرة 1955 م.
26 ـ **ابن حزم**: أبو محمد علي بن أحمد (ت 456 هـ/ 1063 م).
الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة 1317 هـ.
27 ـ الرسائل جـ 3 تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1981 م.
28 ـ **الحسن بن عبد الله العباسي**: الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر بن عبد الكريم العباسي، النصف الأول من القرن الثامن الهجري.
آثار الأول في ترتيب الدول، بولاق ـ مصر 1295 هـ.
29 ـ **الحميدي**: أبو عبد الله بن فتوح بن عبد الله الحميدي، (448 هـ/ 1056 م).
جذوة الاقتباس في ذكر ولاة الأندلس، نشر محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة 1952 م.
30 ـ **الحميري**: محمد بن عبد المنعم الحميري، القرن التاسع الهجري.
الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1975 م.
31 ـ **ابن حوقل**: أبو القاسم بن حوقل النصيبي القرن الرابع الهجري.
صورة الأرض، ط ثانية، ليدن 1967 م.
32 ـ **ابن حيان**: أبو مروان بن خلف بن حسين بن حيان، (ت 469 هـ/ 1076 م).
المقتبس، جـ 2 تحقيق د. محمود مكي بيروت 1973.

33 ـ **ابن خاقان**: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القبسي الإشبيلي، (ت 528 هـ/ 1138 م).

قلائد العقيان، تقديم محمد العناني، تونس 1966 م.

34 ـ ـــــــ: مطمح الأنفس، قسنطينة (الجزائر) 1302 هـ.

35 ـ **ابن الخطيب**: لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد السليماني ابن الخطيب (ت 776 هـ/ 1374 م).

أعمال الأعلام ـ القسم الثاني، نشر ليفي بروفنسال، بعنوان تاريخ إسبانيا الإسلامية، بيروت ـ 1956 م.

36 ـ ـــــــ: الإحاطة في أخبار غرناطة ـ تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة :1977 1974 م.

37 ـ ـــــــ: رقم الحلل في نظم الدول.

38 ـ ـــــــ: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، جامعة الإسكندرية، 1958 م.

39 ـ ـــــــ: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق: د. محمد كمال شبانة، المغرب 1976 م.

40 ـ **ابن خفاجة**: أبو إسحق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي (ت 533 هـ/ 1138 م).

ديوان ابن خفاجة، تحقيق د. السيد مصطفى غازي ـ الإسكندرية ـ 1960 م.

41 ـ **ابن خلدون**: عبد الرحمن بن خلدون المغربي ت 808 هـ.

المقدمة، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي ـ القاهرة 1968 م.

42 ـ ـــــــ: العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت 1959 م.

43 ـ **ابن خلكان**: أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر بن خلكان. (ت 681 هـ/ 1282 م).

وفيات الأعيان، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1968 م.

44 ـ **الدلائي**: أحمد بن عمر بن أنس العذري، (ت 478 هـ/ 1085 م).

ترصيع الأخبار، وتنويع الأثار، تحقيق د. عبد العزيز الأهواني، مدريد 1965 م.

45 ـ **ابن رشد**: أبو الوليد بن رشد (الجد) (ت 520 هـ/ 1126 م).

البيان والتحصيل، تحقيق د. محمد صبحي، بيروت 1984 م.

46 ـ **ابن سبعين**: أبو محمد عبد الحق بن سبعين المرسي الأندلسي (ت 669 هـ/ 1270 م).

رسائل ابن سبعين، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي، القاهرة 1956 م.
47 ـ ابن سعيد المغربي: علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد اليحصبي. (ت 685 هـ/ 1286 م).
المغرب في حلى المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف ط 3، القاهرة 1978 م.
48 ـ السقطي: أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي الأندلسي، القرن السادس الهجري. آداب الحسبة.
49 ـ السلفي: أبو طاهر أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفة، ولقبه صدر الدين (ت 576 هـ/ 1180 م).
المعجم، نشر بعنوان «أخبار وتراجم أندلسية، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1963 م).
50 ـ ابن سناء الملك المصري: دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق د. جودت الركابي دمشق، 1949 م.
51 ـ السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، (ت 911 هـ/ 1505 م).
بغية الوعاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1964 م.
52 ـ ــــــ: تاريخ الخلفاء، القاهرة 1305 هـ.
53 ـ الشاطبي: أبو إسحق إبراهيم بن موسى بن محمداللخمي الشاطبي (ت 790 هـ/ 1388 م).
كتاب الاعتصام، مصر 1913 م.
54 ـ ابن شاكر الكتبي: محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي (ت 764 هـ/ 1362 م).
فوات الوفيات، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1951 م.
55 ـ الشعراني: عبد الوهاب الشعراني: الطبقات الكبرى، المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار القاهرة.
56 ـ صاعد الطليطلي: القاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي (ت 463 هـ/ 1070 م).
طبقات الأمم، مصر بدون تاريخ.
57 ـ ابن صاحب الصلاة: أبو مروان عبد الملك بن محمد بن يحيى بن إبراهيم الباجي (ت 594 هـ/ 1197 م).
تاريخ المن بالإمامة، تحقيق د. عبد الهادي النازي، بيروت 1965 م.
58 ـ الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبيك الصفدي (ت 764 هـ/ 1362 م).

توشيح التوشيح، تحقيق ألبير حسب مطلق، بيروت 1966 م.

59 ـ **الضبي**: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي (ت 599 هـ/ 1202 م).
بغية الملتمس، مجريط 1884 م.

60 ـ **الطرطوشي**: أبو بكر محمد بن الوليد الفهري (ت 520 هـ/ 1126 م).
سراج الملوك ـ القاهرة 1289 هـ.
كتاب الحوادث والبدع تحقيق محمد الطالبي، تونس 1959 م.

61 ـ **ابن الزبير**: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبيبي (ت 708 هـ/ 1308 م).
صلة الصلة، تحقيق ليفي بروفنسال، الرباط 1937 م.

60 ـ **الزجالي**: أبو يحيى الزجالي (ت 694 هـ/ 1294 م).
أمثال العوام في الأندلس، تحقيق د. محمد بنشريفة، فاس 1975 م.

63 ـ **ابن أبي زرع**: أبو الحسن علي بن عبد الله (ت 626 هـ/ 1325 م).
الأنيس المطرب بروض القرطاس، فاس، 1973 م.

64 ـ **ابن الزقاق البلنسي**: أبو الحسن بن عطية (ت 519 هـ/ 1125 م).
ديوان ابن الزقاق، تحقيق عفيفة محمود ديراني، بيروت 1964 م.

65 ـ **ابن زهر**: أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر (ت 557 هـ/ 1161 م).
التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق د. ميشيل خوري، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ دمشق، 1983 م.

66 ـ **ابن الزيّات التادلي**: أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيّات (ت 617 هـ/ 1220 م).
التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات جامعة محمد الخامس، الرباط، 1984 م.

67 ـ **ابن عباد الرندي**: أبو عبد الله محمد بن عباد النفزي الرندي (ت 792 هـ/ 1389 م).
الرسائل الصغرى، تحقيق ونشر الأب بولس نويا اليسوعي بيروت 1973 م.

68 ـ **ابن عبد الملك المراكشي**: أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي، (ت 703 هـ/ 1303 م).
الذيل والتكملة، السفر الأول، والثاني. تحقيق د. محمد بنشريفة، بيروت.

69 ـ ـــــــ: الذيل والتكملة، بقية السفر الرابع تحقيق د. إحسان عباس بيروت 1964 م.

70 ـ ـــــــ: الذيل والتكملة، السفر الخامس قسم 1، 2 تحقيق د. إحسان عباس بيروت 1965 م.

71 ـ ـــــــ: الذيل والتكملة، السفر السادس تحقيق د. إحسان عباس بيروت 1973 .
72 ـ ـــــــ: الذيل والتكملة، السفر الثامن تحقيق د. محمد بنشريفة، الرباط 1984 م.
73 ـ **الأمير عبد الله بن بلكين**: عبد الله بن بلكين بن زيري الصنهاجي أمير غرناطة آخر القرن الخامس.
كتاب التبيان، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة 1955 م.
74 ـ **ابن عبد الرؤوف**: أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف القرن السادس الهجري في آداب الحسبة والمحتسب، نشر ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة 1955 م.
75 ـ **ابن عبدون**: محمد بن أحمد التجيبي القرن السادس الهجري.
رسالة في الحسبة، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة 1955 م.
76 ـ **عبد الواحد المراكشي**: محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التجيبجي (ت 669 هـ/ 1270 م).
المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان القاهرة 1949 م.
77 ـ **ابن عذاري المراكشي**: أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري (ت النصف الأول من القرن السابع الهجري).
البيان المغرب، جـ 3 تحقيق هويس ميراندا، تطوان، 1960 م.
78 ـ ـــــــ: البيان المغرب جـ 4، د. إحسان عباس، بيروت 1967 م.
79 ـ ـــــــ: البيان المغرب جـ 3 نشر د. محمد جحى وآخرون، الرباط 1986 م.
80 ـ **ابن العريف**: أبو العباس أحمد بن محمد بن العريف الصنهاجي (ت 536 هـ/ 1141 م).
محاسن المجالس، تحقيق آسين بلاثيوس، باريس 1933 م.
81 ـ **ابن العربي**: أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الإشبيلي (ت 542 هـ/ 1147 م).
أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة 1967 م.
82 ـ ـــــــ: شرح صحيح الترمذي.
83 ـ ـــــــ: العواصم من القواصم، تحقيق د. عمار طالبي، نشره بعنوان آراء أبي بكر بن العربي الكلامية ـ الجزائر، 1974 م.
84 ـ **ابن العماد الأصفهاني**: أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الملقب بأبي الوزير (ت 597 هـ/ 1200 م).

خريدة القصر، تحقيق عمر الدسوقي، القاهرة 1964 م.
85 ـ **ابن العماد الحنبلي**: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت 1089 هـ/ 1678 م).
شذرات الذهب، بيروت. بدون تاريخ.
86 ـ **أبو عمران الإسرائيلي**: أبو عمران موسى بن عبد الله الإسرائيلي.
شرح أسماء العقار، تحقيق د. ماكسي مايرهوف، بغداد 1940 م.
87 ـ **القاضي عياض**: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت 544 هـ/ 1149 م).
الغنية، فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زير جرار، بيروت، 1982 م.
88 ـ ـــــــ: أبو عبد الله محمد بن القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت 575 هـ/ 1179 م).
التعريف بالقاضي عياض، تحقيق د. محمد بنشريفة، الرباط 1973 م.
89 ـ **الغبريني**: أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني (ت 714 هـ/ 1314 م).
عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، الجزائر، 1910 م.
90 ـ **الغزالي**: أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي. (ت 505 هـ/ 1111 م).
إحياء علوم الدين، بيروت، بدون تاريخ.
91 ـ ـــــــ: المنقذ من الضلال، القاهرة 1309 هـ.
92 ـ **ابن فرحون**: برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد (ت 799 هـ/ 1396 م).
الديباج المذهب، القاهرة 1239 هـ.
93 ـ **القرافي**: بدر الدين محمد بن يحيى بن أحمد بن يونس بن عبد الواحد (ت 867 هـ/ 1462 م).
توشيح الديباج، وحلية الابتهاج. تحقيق أحمد الشتيوي، بيروت، 1983 م.
94 ـ **ابن قزمان**: أبو بكر بن عبد الملك بن قزمان (ت 554 هـ/ 1159 م).
ديوان ابن قزمان نشر، د. ف كورينطي، المعهد الإسباني العربي، مدريد 1980 م.
95 ـ **القلصادي**: أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، (ت 891 هـ/ 1486 م).
رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، تونس 1978 م.
96 ـ **ابن القاضي المكناس**: أحمد بن محمد بن أبي العافية، (ت 1025 هـ/ 1616 م).
جذوة الاقتباس في ذكر من حل بمدينة فاس، الرباط 1973 م.

97 ـ **ابن القطان**: أبو علي حسن بن محمـد بن عبد الملك بن يحيى الكتـامي، (ت 628 هـ/ 1230 م).
نظم الجمان، تحقيق د. محمود مكي نطوان.
98 ـ **ابن الكردبوس**: أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري، القرن السادس الهجري.
تاريخ الأندلس، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، المعهد المصري للدراسات الأمية بمدريد 1971 م.
99 ـ **مجهـول**: كتاب الاستبصـار في عجـائب الأمصـار، تحقيق د. سعـد زغلول عبد الحميد، جامعة الإسكندرية، 1958 م.
100 ـ **الحلل الموشية**: تحقيق د. سهيل زكار، وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء 1978 م.
101 ـ بلغة الأمنية ومقصد اللبيب، فيمَن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب. تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1984 م.
102 ـ ذكر بلاد الأندلس، تحقيق لويس مولينا، مدريد 1983 م.
103 ـ مفاخر البربر، نشر ليفي بروفنسال ـ الرباط 1934 م.
104 ـ ذكر بعض مشاهر أعيان فاس، نشر بعنوان بيوتات فاس الكبرى، الرباط، 1972 م.
105 ـ **المجليدي**: أحمد سعيد المجليدي التيسير في أحكام التسعير، تحقيق موسى لقبال، الجزائر 1970 م.
106 ـ **المرادي**: أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي (ت 489 هـ/ 1095 م).
كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق د. سامي النشار، الدار البيضاء، 1981 م.
107 ـ **المقري**: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت 1041 هـ/ 1631 م).
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1968 م.
108 ـ ـــــــ: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقا القاهرة ـ 1940 م.
109 ـ **المقدسي**: شمس الدين أبي عبد الله بن أبي بكر الشامي المقدسي (ت 539 هـ/ 999 م).
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن 1877 م.
110 ـ **النباهي**: أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي (ت 776 هـ/ 1374 م).
المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، نشر ليفي بروفنسال 1948 م.

111 ـ **الناصري**: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت 1315 هـ/ 1897 م).
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء 1954 م.
122 ـ **ياقوت الحموي**: أبو عبد الله ياقوت الحموي (ت 626 هـ/ 1228 م).
معجم البلدان، قدم له عبد الإله النبهان، دمشق 1983 م.
113 ـ **ابن يوسف الحكيم**: أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم، بداية القرن الثامن الهجري الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق د. حسين مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ـ مدريد مجلد 6، 1958 م.

ثالثاً: المراجع العربية:

114 ـ د. **أبو العلا العفيفي**: أبو القاسم بن قسي وكتابه خلع النعلين، مجلة كلية آداب الإسكندرية، مجلد 11، 1957 م.
115 ـ د. **إبراهيم حركات**: المغرب عبر التاريخ. ط 1. الدار البيضاء 1965 م.
116 ـ د. **أحمد مختار العبادي**: الأعياد في مملكة غرناطة، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، مجلد 15، 1970 م.
177 ـ ــــــــ: الصقالبة في إسبانيا، مدريد، 1953 م.
118 ـ ــــــــ: في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت 1978 م.
119 ـ **آدم ميتز**: الحضارة الإسلامية، ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة ط 3 ـ القاهرة، 1957 م.
120 ـ **أرشبالد لويس**: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد عيسى، القاهرة، 1960 م.
121 ـ **آنخل جنثالث بالنثيا**: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس، القاهرة 1955 م.
122 ـ **أمبروسيو هويس ميراندا**: علي بن يوسف وأعماله في الأندلس، مجلة تطوان أعداد 3، 4، 58، سنة 1959 م.
123 ـ **بولس نويا اليسوعي**: رسائل ابن العريف إلى أصحاب ثورة المريدين في الأندلس مجلة الأبحاث، جامعة بيروت الأمريكية العدد 27، سنة 1978، 1979 م.
124 ـ **جارسيا جومس**: الشعر الأندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس، القاهرة 1956 م.
125 ـ د. **جودت الركابي**: في الأدب الأندلسي، مصر 1960 م.

126 ـ د. حازم عبد الله خضر: النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، العراق 1981 م.
127 ـ د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، القاهرة 1957 م.
128 ـ د. حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب: عصر المرابطين والموحدين، القاهرة 1980 م.
129 ـ د. حسين مؤنس: نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين مجلة المعهد المصري بمدريد العدد 3 سنة 1955 م.
130 ـ ــــــ: عقد بيعة بولاية العهد، مجلة كلية آداب القاهرة، مجلد 12 جـ 3، 1950 م.
131 ـ ــــــ: الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، منشورات المعهد المصري بمدريد، 1967 م.
132 ـ ــــــ: معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة 1980 م.
133 ـ ــــــ: شيوخ العصر، المكتبة الثقافية، مصر 1965 م.
134 ـ د. حكمت الأوسي: الأدب الأندلسي في عهد الموحدين، القاهرة، 1976 م.
135 ـ خواكيسي فالفي بيرميخو: سوكوت البرغواطي ملك سبتة، ترجمة عبد اللطيف الخطيب مجلة تطوان، 1970 م، 1971 م.
136 ـ خوليان ريبيرا: المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا، ترجمة د. جمال محرز مجلة معهد المخطوطات العربية مجلد 4 جـ 1، 2، 1958 م.
137 ـ د. سامي مكي العاني: دراسات في الأدب الأندلسي، بغداد 1978 م.
138 ـ د. صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس، بيروت 1965 م.
139 ـ د. عبد العزيز الأهواني: الزجل في الأندلس، القاهرة 1957 م.
140 ـ د. عبد العزيز الأهواني: ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي «في لحن العامة»، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد 3 جـ 2 سنة 1957 م.
141 ـ د. عبد العزيز سالم: تاريخ ألمرية الإسلامية، بيروت 1969 م.
142 ـ د. عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي، دمشق، 1976 م.
143 ـ ــــــ: الحضارة الإسلامية في الأندلس، بيروت 1969 م.
144 ـ د. عبد الله علي علام: الدعوة الموحدية بالمغرب، القاهرة 1968 م.
145 ـ ــــــ: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن، القاهرة 1971 م.
146 ـ عبد الله كنون: النبوغ المغربي. الرباط.
147 ـ عبد الحميد عبد الله الهرامة: الأعمى التطيلي، طرابلس، 1983 م.

148 ـ د. **عبد المجيد النجار**: المهدي بن تومرت، بيروت 1983 م.
149 ـ د. **عصمت عبداللطيف دندش**: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، 1974 م.
150 ـ ــــــ: دراسة حول رسائل أبي بكر بن العربي، مجلد المناهل عدد 9، سنة 1977 م.
151 ـ د. **عز الدين موسى**: التنظيمات الحزبية عند الموحدين في المغرب، مجلة الأبحاث جامعة بيروت الأمريكية، عدد 23 سنة 1971 م.
152 ـ ــــــ: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ـ دار الشروق ـ القاهرة 1983 م.
153 ـ **ليفي بروفنسال**: رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، الرباط، 1941 م.
154 ـ ــــــ: محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها، ترجمة د. عبد الهادي شعيرة، د. عبد الحميد العبادي، القاهرة 1951 م.
155 ـ **مارمول كرفجال**: إفريقيا، ترجمة ونشر د. محمد جحى وآخرون، الرباط 1983 م.
156 ـ **مانويل جوميث مورينو**: الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة د. لطفي عبد البديع د. عبد العزيز سالم، مصر، 1968 م.
157 ـ د. **محمد بنشريفة**: الأندلسيون من خلال أدبهم، المعهد الجامعي للطبع الرباط، 1972 م.
158 ـ ــــــ: الفقهاء في الأدب الأندلسي، وزارة الثقافة المغربية 1985 م.
159 ـ ــــــ: البسطي آخر شعراء الأندلس، بيروت 1985 م.
160 ـ د. **محمد مجيد السعيد**: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، العراق، 1980 م.
161 ـ د. **محمد عبد الوهاب خلاف**: قرطبة الإسلامية، تونس 1984 م.
162 ـ د. **محمد زنيبر**: الخلفية الاجتماعية والثقافية لحركة المهدي بن تومرت مجلة المناهل، عدد 24 سنة 1982 م.
163 ـ **محمد عبد الله عنان**: اكتشاف السفر الخامس من المقتبس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، مجلد 13 سنة 1965 م.
164 ـ ــــــ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، القاهرة 1964 م.
165 ـ ــــــ: دول الطوائف. القاهرة 1960 م.
166 ـ د. **محمد مهدي البصير**: الموشح في الأندلس والمشرق، بغداد، 1948 م.

167 ـ د. **محمد بحر عبد الحميد**: اليهود في إسبانيا، الهيئة المصرية للتأليف والنشر 1970 م.

168 ـ د. **محمود علي مكي**: وثائق تاريخية جديدة من عصر المرابطين، المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، 1959، 1960 م.

169 ـ ـــــــ: التشيع في الأندلس، من عصر المرابطين، المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، 1954 م.

170 ـ د. **مصطفى الشكعة**: الأدب الأندلسي، بيروت 1972 م.

171 ـ د. **مصطفى عوض الكريم**: فن التوشيح، بيروت، 1959 م.

172 ـ **موريس لومبار**: الإسلام في عظمته الأولى، ترجمة بسمة الحافظ، بيروت 1977 م.

173 ـ **كراتشكوفسكي (أغناطيوس يوليانوفتش)**: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان قسم 1، منشورات جامعة الدول العربية، 1963 م.

174 ـ **كلود كاهن**: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة د. بدر الدين القاسم، بيروت 1972 م.

175 ـ **يوسف أشباخ**: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة 1958 م.

رابعاً: الدوريات العربية:

1 ـ صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد.
1954، 1955، 1959، 1960، 1965، 1970، 1980 م.

2 ـ مجلة الأبحاث ـ الجامعة الأمريكية، بيروت.
1970، 1978، 1979 م.

3 ـ مجلة تطوان، المملكة المغربية.
58، 1959، 70، 1971 م.

4 ـ مجلة المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، المملكة المغربية.
1977، 1982 م.

5 ـ مجلة معهد المخطوطات العربية 1957، 1958 م.

6 ـ مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية 1957 م.

7 ـ مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، 1950 م.

خامساً: المعاجم:

1 ـ المصحف المفهرس وضعه محمد فؤاد عبد الباقي 1378 هـ.
2 ـ معجم الحرف والمهن نشر المكتب الدائم لتنسيق التعريب، جامعة الدول العربية الرباط، 1970 م.
3 ـ معجم النبات، المكتب الدائم لتنسيق التعريف، جامعة الدول العربية 1971 م.
4 ـ معجم الملابس لدوزي.

سادساً: المراجع الأجنبية:

1 - **Abd Elaziz Salem:** «Algunos Aspectos del Florecimiento Economico de Almeria Islamica Durante el Periodo de los Taifas y de los Almoravides», Revista del Instituto Egipelo de Estudios Islamicos en Madrid, Vol XX, 1979 - 1980.
2 - **Aguado Bleye, Pedro:** «Manual de la Historia de Espana», 2 Tomos, Madrid, 1944, 1954.
3 - **Altamira, R.:** «Historia de Espana y de la civlization Espanala» Vol I., Barcelona 1900.
4 - **Alferd Bel:** «Les Banu S. Hanya», Paris, 1903.
5 - **Ambrosio Huici Miranda:** «Historia Plitica de Imperio Almohade», Pirmera parte, ed, Tetwan, 1956.
Asin Palacios, Miguel,
6 - **«Ibn Al-Arif:** Mahasin Al Magalis», Paris, 1933.
7 - «Abnasarra y su Esculla» , Madrid, Moestre 1914.
8 - «Aben Hazm de CaRdoba y sus Historia de las Ideas religiosas, Al Andalus, ano 1934.
9 - **Ballesteros, Antouio:** «Historia de Espana y su Influencia en la Historial Universal, Barcelona; 1980.
10 - **Bernard, Richard:** «I'Islam et les Musulmans chez les Chnoniqueurs Castillanan.
11 - **Burckhardc, T.:** «Moorish Culture in Spain, London, 1972.
12 - **Codera, Francisco, D.:** «Decadencia y Desaparicion de los Almporavides en Espana» Zaragosa, 1899.
13 - **Chejne Anwar, S.:** «Muslim Spain, its History and culture», Minnesota. 1974.
14 - **De Ros Masia, Angle:** «Diccionario de Historia de Espana» 2 Toms, Modrid, 1950.

15 - **Dozy R.:** «Nomes Des vetements chez les Arabes» Beirut, 1957.
16 - «Spanish Islam», London 1913.
17 - «Scriptorum arabum loci de Abbadidis» Leyde, 1924.
18 - **Dufourcq, C.E. and Gautier Dalché J.:** «Histoire de L'Espagne au Moyenage», Publications des années 1948 - 1969.
19 - **Garcia de Cortazar, José Angle.:** «Nueva Histonia de Espana», Santiago de Compostila 1975.
20 - **Gaspar Remiro, M.:** «Historia de Murcia Musulmana» Zaragoza, 1905.
21 - **Goldziher, I.:** «Le livre de Mohamed Ibn Toumert», Alger, 1903.
22 - **Guillen Roblu, D.F.:** «Historia de Malaga» Malaga, 1893.
23 - **Ibars, A.P.:** «Valencia Arabe» Valencia, 1901.
24 - **Iagraére, V.:** «La Tariqa et la Révola des Muridun en 539 H. 1144: en Andalus», Revue de L'Occident Musulman et de la Miditerrannee 1933. I.
25 - **Las Cagigas Isidora,:** «Andalucia Musulmana» Madrid, 1950.
26 - **Iafuente, M.:** «Historia Genral de Espana», Tom III Barcelona, 1899.
27 - **Iavois, H.:** «Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliothéque Nationales de Paris, DCCCICI.
28 - **Léve Provencal.:** «Histoire de L'Espagne Musulmiane, Paris 1970.
29 - «Inscription Arabes d'Espagne» Leyde, 1931.
30 - «Nore d'Histoire Almohades», Hesperis, Tomes 1930.
31 - **Sanchez Alboroz.:** «Historia de Espagna Musulmana» Modrid, 1978.
32 - **Simonet, Fransisco.:** «Historia de los Mozarabes» Madrid, 1903.
33 - **Watt Montgomry.:** «Ahistory of Islamic spain» Edinburgh, 1965.
34 - **Urvoy, Dominique.:** «Une etude sociologique des Mouvements religieux dans l'Espagne Musulmane de la chute de Califat au milieu de XIII» siecle, Tome VIII Paris, 1972.

سابعاً: دوريات أجنبية:

- Al Andalus, Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada, 1954.
- Hesperis, Tome X, Rabat, 1930.
- Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, 35, 1983 - I.

فهرس الكتب الواردة في الحياة الثقافية ولم ترد في قائمة المصادر

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

— ظ —

— ع —

— غ —

— ف —

— ق —

ـ ل ـ

ـ م ـ

- ي -

فهـــرس الأعـــلام

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

- خ -

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

فهـرس الأمـاكن

ـ أ ـ

ـ ب ـ

- ت -

- ج -

- ح -

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

فهــرس الموضوعــات



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم 1988/3/2000/121

التنضيد: كومبيوتايب الصف الطباعي الالكتروني

الطباعة:  مؤسسة جواد للطباعة والتصوير - بيروت - لبنان



